روبن مورغان

عاشق الشيطان

ترجمة: خالد حداد

اسم المؤلف : روبن مورغان
عنوان الكتاب : عاشق الشيطان
ترجمة : خالد حداد
الناشر : المدى
الطبعة الانكليزية : سنة ١٩٩٠
الطبعة العربية : سنة ٢٠٠٣
الحقوق محفوظة

Author : Robin Morgan
Title : The Demon Lover
Translator : Khaled Haddad
Al- Mada P.C.
First Published as a Norton Paperback 1990
Arabic Edition :year 2003
Copyright © Al- Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

روبن مورغان

عاشق الشيطان

ترجمة :خالد حداد

روبن مورغان

د. بثينة شعبان

شاعرة حاصلة على جوائز، روائية ومنظرة سياسية، وناشطة في حقوق المرأة وصحفية ومحررة. نشرت روبن مورغان ١٧ كتاباً بما فيها ستة كتب شعر وروايتان والأنثولوجيا الكلاسيكية الأخوة النسائية القوية (راندوم هاوس ١٩٧٠) والتي بقيت متداولة لمدة ثلاثين عاماً ويعاد نشرها طيلة هذه الفترة. و«الأخوة النسائية الدولية» (دوبل دي أنكور ١٩٨٤). وروبن مورغان هي مؤسسة وقائدة للحركة النسائية في أمريكا، كما أنها ناشطة جداً كمنظرة وقائدة في الحركة النسائية الدولية لمدة خمسة وعشرين عاماً.

تعلمت سياستها وتقنياتها التنظيمية كسياسية راديكالية في الستينيات وكناشطة ضد حرب فيتنام، وفي حركة الحقوق المدنية في الولايات المتحدة، وقد قامت بتسجيل الأصوات للأفارقة الأمريكان في الولايات العنصرية في جنوب الولايات المتحدة. لقد رتبت المظاهرة التي كانت سبباً في ولادة الحركة النسوية المعاصرة، مظاهرة عام ١٩٨٦ ضد ملكة جمال أمريكا وقد سجنت بتهمة العصيان ضد الدولة وناضلت بنجاح في المحكمة للحصول على ملفات المراقبة لها والتي كانت لدى

(الإف بي آي، والسي آي أي) خلال الستينات والسبعينات. وقد تحدثت في كل الجامعات الكبرى وعدد من الجامعات الصغرى في أمريكا الشمالية من يل الى هارفارد مروراً بالكليات المحلية وسافرت كمنظمة ومحاضرة وصحفية في كل أوروبا واستراليا والبرازيل والكاريبي وأمريكا الوسطى والصين وأندونيسيا واليابان ونيوزيلاندا ونيبال والفيلبين وجنوب إفريقيا. لقد ذهبت مرتين عام ١٩٨٦ و١٩٨٩ لمدة أشهر الى مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في الأردن ومصر والضفة الغربية وغزة ولبنان (في عزّ الحرب) لتكتب عن حالة النساء وبعد هذه الزيارات استمرت في عمل شبكات وجمع أموال لقضايا النساء العربيات بشكل عام وقضايا النساء الفلسطينيات بشكل خاص.

تشمل كتبها على رواية «جفف ابتسامتك» (دوبل دي ١٩٨٧) والكتاب النثري الذي نال جائزة «عاشق الشيطان» (نورتون ١٩٨٩). «في العلية في الحديقة» قصائد مختارة (نورتون ١٩٩٠). «كلمة المرأة» مقالات نسائية (نورتون ١٩٩٢). «أصل الحرية» الحركة النسوية بأبعاد أربعة (نورتون ١٩٩٤). آخر كتاب أشعار لها هو «كانون الثاني الحار» قصائد ١٩٩٦ - ١٩٩٩. وآخر كتاب نثري لها هو «ابن السبت» ذكريات سوف يصدر عن نورتون تشرين الثاني ٢٠٠٠. ترجمت كتاباتها الى لغات عدة بما فيها العربية والصينية والفرنسية والألمانية والإيطالية واليابانية والكورية والفارسية والروسية والإسبانية والسانسيكريتي.

روبن مورغان هي التي أسست منظمة الأخوة النسائية، وهي أول منظمة دولية تجمع المفكرات النساء. كما أسست وشاركت في منظمات

تحررية نسائية في الولايات المتحدة وخارجها. في عام ١٩٨٩ وكرئيسة تحرير لمجلة مز، أطلقت المجلة كمجلة نصف شهرية خالية من الإعلانات، ونالت المجلة جوائز تحت ريادتها وتحريرها. وكانت مزّ المجلة الوحيدة في العالم التي غطت حرب الخليج من وجهة نظر النساء في المنطقة وقدمت التقارير الصحفية من قبل النساء العربيات في الدول المنخرطة بما فيها الكويت والسعودية والضفة الغربية والعراق. في عام ١٩٩٣ استقالت من رئاسة التحرير لتصبح محررة مستشارة وليكون لديها وقت أكبر لكتابتها. تلقت جائزة الفنون والآداب عن شعرها، كما تلقت جائزة الصفحة الأولى لصحيفة متميزة. وأصبحت امرأة العام المدافعة عن تحرر النساء عام ١٩٩٠ ونالت جائزة لذلك. بالإضافة الى جوائز أخرى.

تعيش الآن في مدينة نيويورك، وهي مطلقة وأم لولد يعمل كموسيقي ممتهن، وهي الآن تجهز مجموعة من المقالات كما أنها تكتب رواية.

المقدمة

إن التحذير الودي لا بأس به: فهذا الكتاب لا يؤدي عملاً جديراً بالثناء ولو بشكل مناف للعقل في تقديم «إجابات». وهو لن «يثبت» شيئاً، ولن «يحل» شيئاً، ولن يعيد الطمأنينة لأحد. فهذا ليس هدفه. لكن غايته، بالأحرى، هي تأدية الوظيفة الأكثر تواضعاً، وإن تكن مزعجة في طرح الأسئلة، وإدراك الروابط، واقتراح وجهات النظر. وقد يؤيد هذا القليل من القراء، ويتحدى آخرين، ويُقلق البعض.

لقد كانت فكرة عاشق الشيطان تتطور تدريجياً منذ منتصف الستينيات. وكان من الممكن بدون شك أن تتطور لفترة أطول، لكن أزمات التاريخ تفرض حدودها النهائية على الكاتبة التي تعتبر عملها ملتزماً سياسياً. وعلى الرغم من نهضة الآداب، والنظرية، والثقافة النسائية التي استمرت عقدين، لم يكن ثمة تحليل نسائي للظاهرة التي يُطلق عليها اسم «الإرهاب». ويبدو ذلك ثغرة خطرة وحاجة واضحة على حد سواء يحاول هذا الكتاب تناوله.

وما من كتاب على الإطلاق جدير بموضوعه تماماً. وبالنسبة إلى الكاتبة التي نعمت بالوعي النسائي وحملت عبئه، لا يوجد موضوع منفرد على الإطلاق يمكن أن ينفصل تماماً عن البقية: فكل عمل في

الواقع يبحث في كل شيء ـ العالم كما اختبرناه والعالم كما نتصوره. وفي هذه الحالة، من الضروري أن نضع الإرهاب في سياقات متعددة ـ وطنية، وعالمية، وثقافية، وتاريخية، وفلسفية، ودينية، وجمالية، ونفسية، واقتصادية، الخ... ـ وأن نضعه في موازاة نطاق كامل من العنف البطريركي، الذي أسمّيه سياسة الموت.

فمن جهة، يوسّع عاشق الشيطان نظرية الحركة النسائية التحررية الميتافيزيقية التي بدأت العمل بها أولاً في تجاوز الحدود (١٩٧٧) وتابعت تطويرها عن طريق استعارة فيزياء المقدار الأصغر في تشريح الحرية (١٩٨٢). ومن جهة أخرى، إن هذا الكتاب تحول راديكالي. لأن العالم يتغير، ولأنني في تحولي الذاتي، أُعتبر امرأة مختلفة أيضاً، ولديّ الآن حاجة أقل للمراقبة، أو الهرب، أو التقليل من شأن عناصر جوهرية معينة من تلك النظرية المتطورة، التي نجحت سابقاً في معالجتها بشكل سطحي أو تجنبها تماماً. وخلال تأكيدي لتلك المحاولات السابقة، أشعر مع ذلك بالإثارة والامتنان تجاه هذه المدارك الحسية الجديدة. وعلى أي حال، لا يمكنني تفادي ملاحظة تناغم ساخر في الشكل غير المتساوق، حيث، مع نهاية كل كتاب، تناضل الكلمات بصورة متزايدة للتحرر من الصفحة التي هي أداة نقلها، وكأن الأفكار التي تنقلها تتوق لمزيد من الاتصال المباشر والمُلحّ مع القارئ. ولأنني، وأعترف بذلك، أكثر انجذاباً للمقدمات من النتائج، فإن بنية هذا الكتاب تعكس أيضاً تقدماً من الشكل الخطي إلى الشكل الإشعاعي ـ فالأسئلة والاحتمالات تدور بسرعة خارج محور ما هو في الوقت نفسه مقدمة فكرية، وبديهية تفوق التفكير، وحقيقة مجربة للأنثى التي تمثل أكثر من نصف البشرية.

لذلك، فإننا نبدأ بمراجعة الأدب والمصطلحات الفنية الثقافية للإرهاب. وأنا واثقة من أن هذا سيؤكد للبعض بأنني قمت بواجبي، وآمل أنه سوف يُمتع الآخرين: إن قلة الأفكار في هذا المجال تُظهر بالتأكيد الحاجة لبعض القدرة النسائية الجريئة والصحية. وبما أن استمرار العنف داخلي مثلما هو خارجي، فإننا إذاً نقتفي أثر تجسيد الرعب في الخرافة والأسطورة، عبر العالم وعبر الزمان. ويبحث الفصل الثالث ما يُطلق عليه بشكل عام اسم «الثقافة» ـ الدين، والفلسفة، وعلم الجمال ـ باعتبارها الوسيلة التي تكيفنا على أساسها لرؤية الوجود نفسه بصورة سلبية مضاعفة: في أسوأ الأحوال حالة من الخوف، وفي أفضل الأحوال فقدان ذلك.

ولو تمَّ تأليف هذا الكتاب في السبعينات، لما كان من الضروري بحث إرهاب الدولة إلى الدرجة التي يحاولها الفصل الرابع. لكن قوة الدولة قد نمت منذ ذلك الوقت بصورة تنذر بالخطر، ويبدو أن يقظتنا حول ذلك قد تضاءلت. وفي الولايات المتحدة، مع نشوء حركة مغالية في محافظتها وفترتين من الإدارة اليمينية، لا يمكنني الافتراض بأن القارئ العادي يلاحظ بالضرورة أو يهتم بأن الدولة، أيضاً، يمكن أن تكون إرهابية. وفي مكان آخر، تقوم حكومات ثيوقراطية مركزية ـ سواء أكانت حكومات دينية متشددة أم حكومات علمانية شيوعية ـ بتعزيز قوة الدولة وإرهابها أيضاً. وليس من الممكن بحث التمرد ما لم يفهم المرء تولي المنصب، والعكس بالعكس.

ومن جهة أخرى، لو تمَّ تأليف هذا في منتصف السبعينات، لما كان من الممكن أيضاً كشف الإرهاب «الثوري» إلى المدى الذي جازف به

الفصل الخامس. وحتى اليوم، يمكن للكثير مما كُتب هناك أن يُساء فهمه. ويميل أولئك الذين هم أصغر من أن يكونوا قد تورطوا في الاضطراب السياسي خلال الستينات أو تأثروا به إلى إضفاء صورة رومانسية على تلك الفترة. ويميل رجال من تلك الفترة إلى إضفاء طابع السحر عليها في حنين إلى الماضي، مربك إلى حد ما، مثل حنين المحاربين القدماء الذين تغشى عيونهم الدموع وهم مستغرقون في ذكريات أيامهم في «الجبهة». وأعتقد أحياناً أننا نحن النساء الباقيات على قيد الحياة من تلك الفترة «الوحيدات الناجيات لرواية ذلك».

وهنالك نساء لم ينجون لرواية ذلك، طبعاً - وهو موضوع الفصل السادس، حول «الإرهابيين الرمزيين». ولأن بعض النساء كن، ولا يزلن، وسيبقين متورطات في أعمال إرهابية، فإنه من الحيوي فهم كيف ولماذا. والفصل التالي يستعيد ذلك كله ضمن شهادة شخصية - لأنني كنت ذات مرة امرأة من هذا النوع.

وكان من الممكن بسهولة أن يصبح الفصل الثامن كتاباً كاملاً بحد ذاته - حكايات عن نساء داخل معسكرات اللاجئين في الشرق الأوسط، حيث أمضيت شهرين تقريباً عام ١٩٨٦. وتلك الحكايات تتضمن الرد الواقعي على النساء اللواتي يعتبرن الإرهاب طريقاً لحرية المرأة - أو لأي شخص.

والفصل قبل الأخير من الكتاب يستعيد ذلك كله من جديد - وفي هذه المرة ضمن سياق اجتماعي مثلما هو شخصي: مواجهة تطبيع الإرهاب الذي يتخلل تفاصيل حياتنا اليومية؛ نساء بصورة خاصة يعشن في هذه الحالة على أنها أمر عادي مألوف. والفصل الختامي هو

تأمل، وقفزة مجازية وراء جنسنا لإنعاش تفكيرنا. وهو يستنتج بالحدس سياسة إيروس من خلال خيارات يمكن أن تحولنا مثلما نحول المجتمع، وتستكشف طرقاً يمكننا بوساطتها أن نخلق في داخلنا ضراوة ملتزمة أكثر ذكاء وبراغماتية من أن ترضى بوسيلة العنف.

إنني لست «خبيرة» بالإرهاب. إنني شاعرة، وكاتبة، ومخلوقة سياسية، ومؤمنة بمساواة الجنسين. وخبرتي تجريبية. ولأنني شاركت ذات مرة في ما يدعوه بعض الناس بالنشاطات الإرهابية، وحررت نفسي في الوقت المناسب كي أتجنب مصير عدد من زميلاتي ـ اللجوء، أو السجن، أو الموت ـ فإنني بشكل خاص أريد أن أفهم الظاهرة، أن أفهم لماذا أصبحت متورطة ولماذا قطعت هذا التورط حين فعلت ذلك. والأكثر أهمية، إن خبرتي متأصلة في تجربتي كامرأة ـ مما يعني أنني أشارك في إضفاء الطابع الديمقراطي على الخوف مع كل امرأة أخرى في العالم. إنني أريد أن أفهم المزيد عن ذلك الخوف، وكيف أتحرر منه.

هذا كل ما أعرفه: إذا لم تقم أكثرية الجنس البشري، التي تشكلها النساء ـ الأكثرية التي عاشت كل نهار وكل ليلة تحت إرهاب قديم وكلي الوجود إلى درجة إطلاق تسمية الحضارة عليه ـ إذا لم تقم تلك المجموعة الضخمة من الخبراء التجريبيين العاديين بالانكباب على هذه القضية والانشغال بها، فإنها لا يمكن أن تُفهم أبداً، وأقل بكثير أن تُحل.

وتتراوح هذه المهمة من التفكير المعقد إلى الإحساس البسيط إلى درجة التهور، من الشخصي إلى السياسي ـ والذي أدركه المؤمنون بمساواة الجنسين طوال عقود وأطلقوا عليه الاسم نفسه.

وهكذا فإن هذا الكتاب لا يتضمن أي اتهامات بارعة أو دفاعات

عن الإرهاب، ولا أي استراتيجيات لمقاومته، ولا مخططات لوقفه. وإلى حد ما، هذا عمل أدبي غير خيالي: إنه يكشف الوقائع المدفونة تحت حقيقة مجردة، ويصور الحقائق السجينة تحت واقع مفروض. وقد تكون هذه الأعمال الأدبية هي المستودعات الموثوقة الوحيدة للحقيقة التي بقيت لنا في عالم حيث يُعتبر «الموت الجماعي» فكرة يمكن تصورها، وحيث يجري التلاعب بجمال اللغة ودقة الرياضيات لجعل ذلك المفهوم ملائماً كحقيقة.

إنني أقدم هذا الكتاب، إذاً، لأي فائدة يمكن للقارئ أن يحصل عليها، والتي لا يعود لي أمر فرضها أو منعها. والقارئ سوف يستخدم عملي بطرق خيالية واستدلالية أكثر مما يمكنني أن أستحضر في ذهنَي؛ وهو قد فعل ذلك دائماً، حتى الآن. وأنا أثق به. ومهما تكن أخطائي، ففي هذا لم أكن مخطئة مطلقاً.

روبن مورغان

آب ١٩٨٨

مدينة نيويورك

الفصل الأول

سياسة الإنسان العادي:
إضفاء الطابع الديمقراطي على العنف

الإرهاب، الإله بشكل بشري

وليم بليك

انظروا إليها عن قرب.

إنها تعبر شارعاً في المدينة، وهي تتلاعب بحقيبة أوراقها وكيس تسوقها. أو تهبط طريقاً قذراً، وهي توازن سلة على رأسها. أو تسرع نحو سيارتها المقفلة، وهي تسحب طفلاً صغيراً إلى جانبها. أو تعود مجهدة إلى البيت من الحقل، ورضيعها مشدود بحزام إلى ظهرها.

وفجأة تسمع وقع خطوات خلفها. ثقيلة، سريعة. وقع خطوات رجل. وتدرك هذا على الفور، كما تدرك أن عليها ألا تتلفت حولها. وتتسارع خطواتها على وقع تسارع دقات قلبها. إنها خائفة. قد يكون مغتصباً. وقد يكون جندياً، متحرشاً، لصاً، قاتلاً. وقد لا يكون أياً من هؤلاء. قد يكون رجلاً مسرعاً. وقد يكون رجلاً يمشي بخطواته العادية فقط. لكنها تخاف منه. إنها تخاف منه لأنه رجل. ولديها مبرر للخوف.

وهي لا تشعر بالطريقة نفسها - في أحد شوارع المدينة أو على طريق قذر، في مكان لوقوف السيارات أو في حقل ـ لو أنها سمعت وقع خطوات امرأة خلفها.

إن وقع خطوات الرجل هو ما تخاف منه. وهي تتشاطر في هذه اللحظة مع كل مخلوق بشري أنثوي.

وهذا هو إضفاء الطابع الديمقراطي على العنف.

* * *

إن أكثر الإرهابيين ـ والذين يتمردون ضدهم ـ هم من الرجال. وأكثر النساء، العالقات في الوسط، لا يرغبن في المزيد من هذا الشكل المكثف حديثاً للصراع القديم حتى الموت بين الآباء والأبناء. والأمهات، والبنات، والأخوات، والزوجات هن دائماً، كما يقول مثل فيتنامي قديم، «العشب الذي يُداس عليه عندما تتصارع الفيلة». إننا دائماً نتفجع، ونحزن، ونزود بشكل طوعي صفوف طعام الطوارئ والمراكز الطبية. ونحن دائماً نتوسل إلى المتمردين كي يأخذوا حذرهم، ونتوسل إلى الموظفين الرسميين كي يكونوا رؤوفين. وحتى عندما نتعاون ـ ونحن نفعل ذلك، سواء بأدوار تقليدية أو بالدعم أو كمقاتلات رمزيات بالغات الصلابة ـ فإننا نفعل هذا بدافع من الإنكار، والمعرفة المعطلة، والرغبة في القبول، والحب المعذب الذي نشعره نحو الرجال الذين أنجبناهم وساندناهم. ولكن سواء تعاونا أو توسلنا، دعمنا أو عارضنا، يظل الأمر دائماً قضية **ابحثي عن الرجل**.

والانفجارات التي تجري اليوم في العالم كله كان مبعثها فتيل جنسي وعاطفي طويل يحترق منذ زمن دون لهب. وكان الإرهابي هو الوثن الخفي في الإرث الثقافي الذكري منذ عصر ما قبل الكتاب المقدس وحتى الآن. وسره الغامض هو آخر صيغة لعاشق الشيطان. وكان يستدعي الشفقة لأنه يعيش في الموت. وكان يطلق طاقة جنسية لأنه يمثل الزوال. وكان يثير برعشة الخوف. وهو التحدي الأساس للحنان. وهو في وقت واحد بطل المجازفة ونقيض البطل في الموت.

إنه ينظر بحدة من منصات الاستعراض، حيث يحييه الجنود العابرون. إنه يمشي بخطى واسعة عبر المسرح مرتدياً ثياباً ضيقة جداً من الجلد الأسود، ثم يلهب غيتاره. إنه يطوق جسده بمئة رطل من الأسلحة، وهو أكبر من الكائن الحي على شاشة الفيلم. إنه يحدق من ملصقات ضخمة لقائد متألق، ويتداول مع نفسه في لقاء قمة. إنه يقود أسرع السيارات ويرتدي أعتم نظارات شمسية. ويندفع داخل حلبة الملاكمة للفوز على صوت الهتافات. وأي شيء يرتديه يصبح بدلة رسمية. إنه سلاح حي. وكل ما يفعله يُقرف أولاً، ثم يصبح بدعة. وقيل لنا إن شهوة النساء تتضمنه. وقيل لنا إن النساء يشتهينه، وقيل لنا إن الرجال يشتهون أن يكونوه.

لقد استحضرناه، جميعنا، طوال قرون. والآن أصبح إنساناً عادياً. وهذا هو إضفاء **الطابع الديمقراطي على العنف**.

* * *

يكتب س. رايت ميلز في **نخبة السلطة**: «إن السياسة كلها صراع من أجل السلطة. والنوع الأساسي للسلطة هو العنف».

وتكتب هانا أرندت في **حول العنف**، وكأنها ترد عليه: «إن السلطة والعنف نقيضان. فالعنف يظهر حيث تكون السلطة في خطر، ولكن عندما يُترك في مجراه الخاص فإنه ينتهي باختفاء السلطة... والسبب الرئيس لاستمرار الحرب لدينا ليس رغبة سرية في موت الجنس البشري، ولا غريزة عدوانية يتعذر كبتها، ولا... الأخطار الاقتصادية والاجتماعية الجدية الملازمة لنزع السلاح، وإنما الحقيقة البسيطة في أن ما من بديل لهذا الحكم النهائي في العلاقات الدولية قد ظهر بعد على المسرح السياسي».

وقد ظهر البديل الآن. وكما يحدث في كل تبدل كبير في التاريخ البشري، فإنه يظهر نفسه بسذاجة، من اتجاه غير متوقع ومثير للسخرية. وما أن يُظهر مثل هذا التبدل قدرته كموجة تحويلية حتى يبدو جلياً ضمن استعادة للأحداث الماضية ويتعذر اجتنابه.

وذلك البديل ـ تلك الموجة التحويلية في هذه المرحلة من القصة البطولية للجنس البشري ـ هو **النساء كقوة سياسية عالمية**.

والأكثرية العظمى من النساء، في الثقافات المختلفة وعبر التاريخ، عانين من تعريف س. رايت ميلز للعنف على أنه «النوع الأساسي للسلطة» وبدا أنهن يعارضنه. فإنه لحقيقة ومأساة في آن واحد أن الأكثرية العظمى من الرجال في الثقافات المختلفة وعبر التاريخ، قد عانوا منه أيضاً ولكن بدوا وكأنهم يتفقون معه.

هذه ليست الموجة الأولى، أو حتى الثانية للحركة النسائية التحررية العالمية؛ بل تبدو وكأنها الموجة العشرة آلاف. وإدراك ذلك لا يتطلب الكثير: حس بالفضول، قدرة على الرؤية التاريخية، رغبة في التنقيب وراء جدار التاريخ الذكري، وانفتاح لفهم التعددية المتأصلة في سياسة الحركة النسائية التحررية. والدليل موجود:

ثورات الحريم في القرن الثاني عشر ومفهوم العرب القدماء عن النشوز، وهي كلمة تعني بشكل دقيق «تمرد النساء»، وثورة العمامة الصفراء (٢٠٠ بعد الميلاد) في نهاية سلالة هان الحاكمة؛ وثورة اللوتس البيضاء، الداعية لحقوق النساء (في سبعينات القرن الثامن عشر)؛ والأربعون جيشاً المؤلف كل منها من ٢٥٠٠ امرأة في مسيرة للحصول على حرية النساء خلال ثورة تايبنغ عام ١٨٥١؛ وجمعيات عاملات

الحرير ضد الزواج في القرن التاسع عشر. و«هوس» العرافة الذي طال أربعمئة سنة في أوروبة. وتأسيس الحزب النسائي الأرجنتيني عام ١٩١٨. وحركات الإصلاح ـ حول الصحة، وعمل الأطفال، وأحوال السجون، وإلغاء الرق، وحق الاقتراع. وآلاف حركات السلام ـ الوطنية، والإقليمية، والعالمية ـ التي تم تأسيسها، وتزويدها بالموظفين، وتجسيدها بوساطة النساء. والنساء العنيدات في مجلس العموم بغرينهام. والسبعة عشر ألف امرأة اللواتي اجتمعن عام ١٩٨٥ في مؤتمر الأمم المتحدة العالمي الثالث عن النساء في نيروبي، كينيا ـ واللواتي توعدن بأن السلام والتطور والحرية أمور متلازمة لا تنفصل؛ وكانت سبعة آلاف قد حضرن المؤتمر الأول قبل عشر سنوات في مدينة مكسيكو، وأحد عشر ألفاً في الثاني عام ١٩٨٠ في كوبنهاغن؛ في منحنى شاقولي.

إن الدليل موجود. وتقدم الدليل النساء اللواتي في هذه اللحظة، في مدن الغرب الأوسط الصغيرة من الولايات المتحدة، وفي قرى أفريقية، وفي جزر المحيط الهادئ، وفي مدن أوروبة، وفي أحياء الفقراء بأمريكة اللاتينية، وفي المزارع الآسيوية، ومعسكرات اللاجئين في الشرق الأوسط، يرفضن «النوع المطلق للسلطة» ـ ويزددن في العدد والاعتبار، كما لم يحصل من قبل، للمطالبة بالسلامة والعدالة والسعادة وانتهاء العنف.

النساء اللواتي تجرأن على قول لا.

وهؤلاء لسن أقلية مضطهدة تقوم بالتنظيم على أساس مظالم محدودة، مهما يكن ذلك صحيحاً. **إنها أكثرية الجنس البشري، التي تصر على أن كل القضايا هي قضايا النساء.** إنها الحركة النسائية التحررية.

لقد كان مذهب الجبرية البيولوجية طوال سنوات يصدمني باعتباره فشلاً للجرأة الفكرية. لذلك فإنني لا أقصد مقاومة النظريات الجنسية الممتدة على طول تلك الخطوط برؤية تعكس الصورة النسائية. فنحن لا نملك حتى الآن علماً حر الإرادة بشكل حقيقي، غير متأثر بالتحامل الذكوري المتطرف (بين نزعات متحيزة أخرى). ونتيجة لذلك ـ على الرغم من أنني في أيام كئيبة معينة كنت أتعرض لإغراء مؤلم كي أوافق على ما اصطلحنا نحن دعاة الحركة النسائية التحررية أن نسميه بنظرية «التسمم النهائي الحاد بالتستوستيرون» في تاريخ النظام البطريركي ـ إنني لا أناقش أن النساء هن **بشكل متأصل** أكثر مسالمة، أو تربية، أو غيرية من الرجال. (لسبب واحد، أن هذا يسمح للرجال بأكسل أنواع التبرير لسلوكهم الخاص). ومع ذلك لا يمكن إنكار أن التاريخ هو سجل لأكثر النساء اللواتي **يتصرفن بشكل مسالم**، ولأكثر الرجال الذين **يتصرفون بشكل عدواني** ـ إلى درجة تُعتبر معها القدرة على القتال مقوماً أساسياً في الرجولة ويُعتقد إلى حد كبير أن النزعة نحو الاسترضاء خاصية للنساء.

ومثل هذا الاستخدام الملائم للنساء كمخازن للمثل العليا المسالمة (مع إبقاء النساء طوال الوقت عاجزات عن تحقيق هذه المثل العليا في المجتمع) قد أتاح للرجال البقاء في حالة من الهمجية السياسية التي كان يتم إنكارها أو تأكيدها بشكل متناوب، والنظر إليها بجبن أو اعتزاز، وغالباً ما تبقى بلا اسم أو تُدعى باسم مغلوط. وبيننا وبين أنفسنا، نعرف نحن النساء تماماً أننا غير قادرات على القتال، على الرغم من أن هذه المعرفة بالنسبة للعديدات منا، وربما أغلبيتنا، مرعبة

جداً إلى درجة أننا نشعر بالقلق حتى في التعبير عن الغضب. ومع ذلك، في النهاية يجب توجيه الأسئلة: إذا كان العنف دليلاً على اليأس والضعف، إذاً لماذا يشعر الرجال الأقوياء بمثل هذه البهجة فيه؟ والأكثر مدعاة للعجب، لماذا كانت النساء، اللواتي عانين أكثر من الضعف ولديهن مبرر لليأس أكبر من أضعف الرجال، قد تجنبن اللجوء إليه بالنيابة عنا؟ لماذا يكون رعبنا منه على هذه الدرجة من الشدة؟ لماذا تكون النساء الآن هن من يقمن بتسمية الهمجية السياسية - وإعادة تسمية القوة بمصطلحات مختلفة كلياً؟

ربما يكون السبب أننا لا نوجد خارج ذلك المجتمع، إلا بشكل ضحايا أو رموز. أو ربما نتيجة للغضب المفرط الذي يشعر به الكثيرون وهم يشاهدون تدمير العالم بكامله على يد القلة. ومهما يكن السبب، فهو هذه الحالة الهمجية من العنف المنظم - المتفشي الآن إلى درجة أنه أصبح غير مرئي عملياً - والذي يجب أن يواجهه النساء والرجال، إذا كان على الحياة الحساسة على هذا الكوكب أن تستمر.

إننا مخلوقات بشرية، لذلك فنحن نستخدم اللغة. وهي ليست اللغة الغامضة المحببة للحيتان والدلافين الكبيرة، والغناء المعقد الذي يمكن أن يتردد عبر أعماق المحيط متجاوزاً أصوات أغلبية التقنيات الصوتية الدقيقة. إنها مجرد كلمات. الكلمات التي يمكنها أن تخلق، وتوصل، وتوضح، وتربك بشكل مؤثر مثل الصمت.

وثمة كلمة جديدة نسبياً دخلت استعمالنا بتكرار مقلق، وهي «الإرهابي». إنها الأخيرة في سلسلة من الكلمات التي تعني الشيء نفسه إلى حد كبير: المقاتل، الشجاع، الفارس الإسباني، المحارب

اليـاباني، الفـارس، المناضـل، الجندي، الشـريـر، البطل. وتعـتـمـد التـعـريفـات، مثـل أي شيء آخر، عـلى الرؤية: عين المشـاهد ـ والجـدليـة الأيديولوجية لمن يقوم بالتعريف.

ما هو الإرهاب؟

لقد أُطلق عليه اسم «سياسة الملاذ الأخير». وقد وضع هذا الوصف، طبعاً، الرجال أنفسهم الذين قدموا لنا «الحل النهائـي»، و«حرب إنهـاء جـمـيع الحـروب» (الحـرب العـالميـة الأولى)، و«نهـاية الامـبـراطورية»، و«السلاح الحاسم»، و«الرادع المطلق». لذلك ليس علينا الاستغراب لأن سيـاسة الملاذ الأخيـر قد أصبحت أمراً مـألوفاً على امتداد العـالم. فـفي أوروبا، وآسيـا، وأفـريقـيـا، والمحيط الهـادئ، وأمـريكا اللاتينيـة، وحتى في أمريكا الشـمـاليـة المعـزولـة، لا يزال تكتـيك الإرهاب يتـصاعـد (كمـا قيـل لنا).

ويعلن البـاحثـون النظريون السـيـاسيـون بألم أن تلك الأفعـال المتطرفـة نشـأت نتـيجـة اليـأس بعـد فشـل جمـيع وسـائل التـمرد التـقـليـدية. ويـتـبنى الزعـمـاء السـيـاسيـون علناً مـواقف عـدم تفـاوض ثابتـة حول الإرهاب ـ ثم يتـفاوضـون على صـفـقـات خـاصـة سـراً. ويحـاول المحللون السـيـاسـيـون تصنيف الأفـراد، والمجـمـوعـات، والزعـمـاء، والتـحـالفـات، والممـولين، والموردين الإرهابيين ـ لكنهم يواجـهـون مـجـمـوعـة من أصـحـاب الولاء المتـغيـر، والمثـاليين، والمرتزقـة، والمتـعـصبين، والمغـامرين، والمحتـرفين، والانتـهـازيين، والمترددين. ويجري تأليف الكتب عن الخلايا الإرهـابيـة، والشبكات، والتسلسل الهرمي، والأسلحة وصفقات الذخائر. ويتم عـقد الجلسـات الرسـمـيـة، وتشكيل حلقـات البـحث، ودعـوة المؤتمرات، وتمرير

القرارات والتصريحات. ويتم ابتكار إجراءات جديدة مضادة للإرهاب، ومكافأة عقود البحث والتطوير، واختراع تجهيزات أمن عصرية جداً - أدوات مراقبة، وأجهزة عرض وتتبع، وأسلحة - واختبارها، وتسجيل براءات اختراعها، وتصنيعها، وبيعها. ويتم إحداث وظائف جديدة: موظفون للمراقبة في المطار، قوات مهمات خاصة في أقسام الشرطة، مدربون للحيوانات لتدريب الكلاب على شم المتفجرات. ويجري تأسيس مجلات علمية حول الموضوع، ودراسة لمحات نفسية موجزة، ومنح العضويات، وعمل الاستطلاعات، ونشر الأوراق، وتعزيز مهن أكاديمية. ويتم الإعلان عن الخبراء. وما أطلق عليه نعوم تشومسكي ذات مرة مصطلح «واجهة صلابة التفكير والعلم المزيف» والذي يُقنِّع الغباء الفكري، قد انحدر الآن إلى موضوع جديد، يبتكر صناعة تنمو بنشاط، وهي دراسة الإرهاب.

وفي الوقت نفسه، ثمة أنواع أخرى من المحترفين - الجنرالات والأميرالات، وكالة المخابرات المركزية الأمريكية «CIA»، لجنة أمن الدولة السوفيتية «KGB»، الموساد، الخدمة السرية البريطانية، وأعضاء الشرطة الدولية «الإنتربول» - المستغرقين في «المخابرات»، ذلك الاستعمال السيئ المروع للكلمة. وفي الوقت نفسه، أيضاً، يقوم المتسللون، والوكلاء، و«فتية الميدان» بتثبيت نظرتهم المحتقرة على ثورة النشاط الأكاديمي والدبلوماسي. وهم ليسوا بحاجة إلى دراسة القضية: إنهم رجال فعل؛ ويعرفون ما يجب أن يُعمل ومستعدون لعمله.

وعندما تُعرض الحلول أمامنا من قبل الأشخاص الذين تسببوا لنا بالمشكلة أصلاً، يكون من الأفضل أن نكون مرتابين.

وينتشر الفقر الوبائي في الولايات المتحدة؛ ويلوح الإفلاس في العالم الصناعي؛ وتترسخ المجاعة كحالة من الظروف الطبيعية في العالم الثالث. ويستمر الخبراء الأكاديميون في تفحص أسباب الإرهاب، واقتراح الردود. وتصبح المياه، والأرض، والهواء، وحتى طبقة الستراتوسفير ملوثة ومستنزفة. ويعتبر بعض الأشخاص بشكل جدي أن الحرب العالمية «حل انتقائي» استجابة لمثل هذه الأزمات. ويستمر الخبراء العسكريون في السخرية من الإرهاب، واقتراح الاستراتيجيات.

وهكذا يبدو أن الإرهاب يزداد في تواتره وتعقيده وتأثيره القاتل، وحتى في عفويته. ويتوسع ميدان المعركة إلى المتجر الكبير، والمطار، وصالة السينما المحلية ونادي الديسكو. وتتصعد حملات «التضليل» من موظفي الحكومة، الذين يبالغون أو يقللون من شأن الإحصائيات وفق ما يلائم أغراض سياستهم. وتنتشر الإشاعات، وتُصدَّق، ويُقلَّل من شأنها، ثم تنتشر مجدداً. ولا أحد بعيد عنها أو عن خطرها. ولا أحد يُعتبر مدنياً بعد. ويومياً، كما يُقال لنا، يموت المزيد والمزيد من الناس العاديين في الهجمات الإرهابية.

ويعيش المزيد والمزيد من الناس العاديين في الخوف.

والآن لنتأمل رد الفعل العام. ففي الاقتراع الوطني عام ١٩٨٦، صنف المواطنون في الولايات المتحدة «الإرهاب» على أنه القضية الأولى التي تثير قلقهم - ويتقدم على الاقتصاد، والبطالة، والأزمة الزراعية، والفاقة والتشرد، والمخدرات، والفساد الحكومي، وتلوث البيئة، والهجوم الخارجي على الوطن. وهذا على الرغم من حقيقة أنه في الثمانينات كان عدد الضحايا المدنيين الأمريكيين بسبب الإرهاب أكثر من ثلاثين -

أقل بكثير من عدد القتلة المبلَّغ عنهم سنوياً في أي واحدة من المدن العشرين الأكبر في الولايات المتحدة ـ وعلى الرغم من الحقيقة الإضافية في أنه عام ١٩٨٥، مات ما مجموعه ثلاثة وعشرون مواطناً مدنياً أمريكياً في حوادث إرهابية على امتداد العالم، كان هناك مئة قد قتلهم البرق.

ولنتأمل اعتيادنا المتزايد على أسماء الأهداف، والأماكن، والمجموعات، والأشخاص، والأسباب التي كانت حتى وقت قريب تعني القليل بالنسبة لمعظم الناس. أكيلي لاورو، وعينتابة، وصبرا وشاتيلا، ومحارب قوس قزح، ومجموعة بادر ماينهوف، والعمل المباشر، والألوية الحمراء، والجهاد، وحزب الله، وأيلول الأسود، والشعب الآري، والطريق المشرق، والأخوة الصامتة، وبانديرا روجا، وجيش الله، والكونتراس، وكفاح الباسك للحكم الذاتي العرقي ـ وكذلك الأكراد، والإريتريون، والمولوكازيون، والكاناك، والبوليساريو، والكروات، والأرمن، والوالونيون، والتاميل، والميسكيتو، وأبو نضال، و«كارلوس»، والموقر إيان بيسلي والحاخام مئير كاهان، والإرهاب الأوروبي، وإرهاب المخدرات، والإرهاب الديني المتزمت، والإرهاب البيئي. وقد تجمدت بعض القضايا المعبأة حول عداوات قديمة، مثل المعاناة الإيرلندية التي امتدت ثمانمئة سنة: الجيش الجمهوري الأيرلندي المؤقت وجمعية الدفاع عن أولستر. والآخرون، الأحدث، الذين احتلوا عناوين الأمس: «FALN» (القوى البحرية للتحرير الوطني) في بورتو ريكو، والتوباماروس في أورغواي، وجبهة تحرير كويبك، ورجال الأرصاد الجوية، وجيش التحرير السيمبيوني، وجيش التحرير الأسود، ومنظمة ١٩ أيار ـ جميعها ولدت في الولايات المتحدة .

إن الاختلافات الداخلية والنزاعات بين الزمر المتعددة يجب أن تجعلنا حذرين من نظرية «المؤامرة العالمية» المبالغ في تجاهلها ـ الحذر من أولئك الذين يدعون أن هذا كله من عمل الاتحاد السوفيتي، أو من صنع يدي فيديل كاسترو، أو من مكائد العقيد معمر القذافي. وبعض الدول بالتأكيد تدعم وتستغل مثل هذه المجموعات من أجل أهدافها الاقتصادية، والسياسية، والسياسية الخارجية الخاصة، ولكن إلى درجة أقل مما يعتقد اليمينيون، وإلى مدى أكبر مما يعترف به اليساريون. ومع ذلك، إذا كان اللوم سيوضع على أبواب مراكز التدريب الإرهابية في أوربة الشرقية، أو كوبا، أو كوريا الشمالية، أو ليبيا، فإن الاهتمام نفسه يجب أن يوجه إلى مدرسة فرانك كامبر لفدائيي الاستطلاع قرب مدينة برمنغهام، في ولاية ألاباما. وهذه المؤسسة هي واحدة من نحو دزينة في الولايات المتحدة، تقدم مناهج موجهة على طريقة رامبو وتتضمن فصولاً حول كيفية صنع القنابل الموقوتة وتنفيذ القتل الصامت، وقطع الحنجرة، وإزالة الأذن بشكل ملائم؛ وكيفية عمل الكمين، والدورية، والهبوط بالحبل، والتمويه، ونصب الشراك المفخخة؛ وكذلك -في حلقات خاصة قبل الفجر- كيفية القيام بالتعذيب. ويتمخض الخريجون عن «رجال مرتزقة»، مستعدين للقتال ضد حكومة الساندينيستا في نيكاراغوا أو كمرتزقة عاديين في أي حرب قديمة أخرى يمكن أن يعثروا عليها. وقد تم إحداث هذه المدرسة أيضاً من أجل تدريب مجموعة السيخ المتهمة بمحاولة اغتيال راجيف غاندي، ويُعتقد أيضاً أنها خططت لانفجار مطار طوكيو عام ١٩٨٥، ويُشتبه أيضاً بأنها قامت بعمل تخريبي في الطائرة النفاثة الهندية التي غاصت في المحيط

الأطلسي عام ١٩٨٥، وعلى متنها ٣٢٩ شخصاً. وفرضية المؤامرة الدولية الوحيدة المصدر لا تنفع كتفسير للإرهاب.

ولكن، ما هي هذه الظاهرة إذاً؟ هل هي في الحقيقة تطور تاريخي جديد، أم قديم، وقد أعيدت تسميته مؤخراً؟ لماذا تتصدر العناوين الرئيسة كثيراً الآن؟ لماذا لا ينفر منها المواطن العادي فحسب، بل إنه مسحور بها أيضاً بصورة مروعة؟

إن العنف السياسي قديم بقدم التاريخ البطريركي المدون. وقد عرَّف ميكافيلي الحرب بأنها قوة اجتماعية ضرورية، وأعلن كلاوزفتس أنها «استمرار للسياسة بوسائل أخرى». أما التمرد القتالي ضد الدولة، فقد كان شيشرو، وتوما الأكويني، ولوك، وميلتون، وجيفرسون مجرد عدد قليل من بين العديدين الذين أيدوا الإسقاط العنيف للحكومة المستبدة. وعلى أي حال، فيما يتعلق بالإرهاب بحد ذاته كنوع من العنف، يمكننا التجرؤ على علم الأنساب، على الأقل منذ القرن التاسع عشر.

ويعتبر أكثر العلماء السياسيين أن الإرهاب سليل أحد فروع التقليد الفوضوي. والفوضوية -وهي نفسها فلسفة سياسية أعطيت تفسيرات مختلفة- يمكن أن ترجع إلى زينون التيسيوني، أبو الفلسفة الرواقية. وكل الذين كانوا ينادون برفض تعميد الأطفال في القرن السادس عشر والمطالبين بالمساواة في القرن السابع عشر في إنكلترة يمكن القول إنهم فوضويون دينيون ـ سياسيون. (وفيما يتعلق بذلك الموضوع، يمكن ضم صوفيي القرون الوسطى، ومن بينهم القديسة تريسا المولودة في أفيلا والقديس فرنسيس المولود في أسيسي). وكانت الفوضوية السياسية «الحديثة» قد جرى تلخيصها في أواخر القرن

الثامن عشر من قبل وليم غودوين، وفي نفس الوقت تقريباً كانت زوجته، ماري وولستونكرافت، تكتب **الدفاع عن حقوق المرأة**. وقد آمن هذان الزوجان الرائعان بأن كل الأشكال الخارجية والضيقة للمجتمع - مؤسسات الزواج والعائلة، وبُنى الدولة والكنيسة - يجب إلغاؤها في النهاية. لكن بيير جوزيف برودون هو الذي وسع الفلسفة في منتصف القرن التاسع عشر لتتضمن إلغاء الملكية الخاصة، والذي يُنسب إليه ابتكار كلمة «الفوضوية». وطور العدميون (أحدث الكلمة تورجينيف في روايته **آباء وأبناء**) فلسفة متحالفة وكان لديهم برنامج بناء، لكنهم أكدوا ضرورة تدمير الوضع الراهن أولاً (ما كان بعضنا في الستينات يعني به شعار «قم بتسوية كل شيء - **ثم** سنتحدث بالسياسة»). وبحلول عام ١٨٦٨، كان ميخائيل باكيونين يدافع -ولكن بشكل قتالي- «عن الفوضوية، والجماعية، والإلحاد» في المؤتمر الدولي الأول. وحاول كروبوتكين وتروتسكي أن يؤكدا سياسة باكيونين بينما رفضا أسلوبه، ثم هُزم أخيراً من قبل ماركس، لكن فلسفته السياسية - ودعوته لتحقيقها عن طريق العنف - تم تبنيها من قبل المجموعات المجزأة الصغيرة. وبعد الثورة الروسية، شُجبت الفوضوية على أنها عنف وقُمعت بكل أشكالها من قبل البولشفيين (بعنف إلى حد ما). ومع ذلك استمرت استراتيجية «الدعاية بالعمل» التي اكتملت بأسلوب باكيونين. وقد تبناها النقابيون، مثلاً، وبخاصة في إسبانيا. وأصبح اعتبار جميع نماذج الفوضويين عنفاً هو السائد اليوم. وبعد شغب هيماركت في شيكاغو عام ١٨٨٦ واغتيال الرئيس ماكنلي عام ١٩٠١. وبعد ذلك، في عام ١٩٢٧، كان التعصب ضد الفوضويين هو الذي أجج إعدام ساكو

وفانزيتي. وهذا الإدراك للفوضوي كقاتل مزعج يتسلل مع قنبلة مخبأة تحت معطفه الأسود الطويل هو الذي يلون حتى اليوم مواقفنا نحو الإرهاب.

لكن الإرهابي موجود فعلاً، كما تقول. والأجسام المكسورة، واللحم الممزق والنازف، والرهائن ذوو العيون الغائرة، والتوابيت، والاغتيالات وعمليات الاختطاف والغارات، كلها موجودة. والإرهابي بالتأكيد ليس تلفيقاً من خيالنا.

نعم، القتل موجود. والخوف موجود. والأسى موجود. ولكن نعم، إن الإرهابي هو تلفيق من خيالنا ـ وأكثر من ذلك، هو تلفيق من نقص خيالنا.

إن الإرهابي هو التجسيد المنطقي للسياسة البطريركية في عالم تقني.

إن الإرهابي هو الابن الذي يمارس ما مارسه الأب، ويدعي أنه وجد هويته في عمله هذا. وكالعادة، بمزيج أبوي من الكبرياء والإنذار بالخطر، يقر الأب أو يتبرأ من الابن وفقاً لحسن متابعة الابن لخطواته عن كثب أو ابتعاده عنها. استمع إلى الآباء وهم يعظون ويمارسون:

بالنسبة إلى إدارة ريغان في الولايات المتحدة، كان الكونتراس في نيكاراغوا «مقاتلين من أجل الحرية» وفرق الإخفاء التابعة للجنرال بينوشيت في تشيلي «منفذين للقانون»، بينما كان مقاتلو جنوب إفريقية السود والمجموعات الفلسطينية شبه العسكرية «إرهابيين». وبالنسبة إلى الاتحاد السوفيتي، من جهة أخرى، كان الجيش الشعبي في السلفادور «قوة ثورية» بينما كانت المقاومة الشعبية في أفغانستان «ظاهرة إرهابية».

كيف ننقذ ـ أو نخترع ـ أي حقائق من مثل مستنقع النفاق هذا؟ أين هي **المصطلحات** التي لا تشوبها شائبة؟ هل نناقش أمر التحررين الوطنيين أم الثوريين الذين تخطوا الحدود القومية؟ الراديكاليين أم الرجعيين؟ هل ندرس الإرهابي على أنه مقاتل مثالي أو شخص يائس متهور، كمصلح يميني أو يساري متفانٍ، كمحترف أو متعصب، كمغامر أو شهيد، كمرتزق أو كشخص معاد للمجتمع؟

لذلك، هل نفرق بين أعمال العنف، على سبيل المثال، العنف ضد الملكية بالمقارنة مع العنف ضد الأشخاص؟ هل نفرق أيضاً بين أعمال العنف ضد الأشخاص على أساس سلطتهم: اغتيال رئيس دولة أو دبلوماسي أو قائد شرطة أو صناعي بالمقارنة مع قتل سائحين في عطلة، أو ربات بيوت يتسوقن في المتاجر الكبيرة، أو مرضى نائمين في مستشفى معسكر اللاجئين، أو سكرتيرات يفتحن رسائل ملغومة؟

ما من محاولة جدية لإيجاد تعريف يمكن أن يحدث في الفراغ، في غياب سياق اجتماعي، أو سياسي، أو وطني، أو ثقافي. كما لا يمكن أن يحدث في غياب سياق تاريخي. هل كان المتطرفون العبريون الأصليون مجرد متطرفين في أفعالهم الإرهابية ضد الامبراطورية الرومانية؟ وماذا كانت محكمة التفتيش؟ ومذبحة يوم القديس بارثولوميو عام ١٥٧٢؟ لقد أنتجت الثورة الفرنسية عصراً عُرف حرفياً باسم عهد الإرهاب، ولكن هل كان إرهاباً ـ وإن لم يكن كذلك، فهل كانت تشارلوت كوردي إذاً ثورية تقوم بقتل قاتل أو مغتال؟ كيف نصنف إرادة الشعب في تمرده ضد القيصر؟ ماذا كانت حفلة شاي بوسطن؟ هل كانت أنيتا وجوسيبي غاريبالدي في قتالهما من أجل

توحيد إيطاليا موضع إعجاب فقط حتى المرحلة التي أخذا فيها، بتأثير من جوسيبي ماتسيني، بالدعوة إلى العنف؟ وكيف نميز المافيا، التي أوجدت، برغم كل شيء، على أنها حركة وطنية في صقلية خلال القرن الثامن عشر من أجل مقاومة الحكم الملكي في نابولي؟ ولكن ماذا إذاً عن سرايا الفاشيين في العشرينات؟ وأين نضع المقاومة الفرنسية لنظام بيتان أو الرد السري الهولندي على الاحتلال النازي؟ هل نضمن تنظيم حركة نقابات العمل - من مخربي القرن التاسع عشر في «الووبليز» (العمال الصناعيين في العالم) إلى الهجمات في القرن العشرين على رافضي الانضمام إلى النقابات العمالية ومفسدي الإضرابات؟ وكيف يمكن أن نهمل منظمة كو كلاكس كلان: التهديدات، وإحراق البيوت، والاختطاف، والضرب، والإعدام بدون محاكمة قانونية؟ وأين نضع تفجيرات متشددي الجناح اليميني لعيادات الإجهاض؟

ولكن انتظروا. فماذا نفعل نحن بالنسبة للإرهاب الذي تمارسه الدولة؟ إن ندوب الرعب المعترف به رسمياً تشوه كل فترات التاريخ: إنكار حقوق الإنسان والحريات المدنية، والحجز الوقائي، والغارات، والتعذيب، والعقاب الجسدي وحكم الإعدام، والإبادة الجماعية، والاستعمار، والعبودية عبر عبودية الأرض والاستغلال الطبقي، يضاف إلى ذلك، في زمننا الحاضر، معسكرات الاعتقال، والأشغال الشاقة، والتفرقة العنصرية، و«الاختفاء»، وسباق التسلح، والحرب الكيميائية والجرثومية والذرية، والتجارب النووية؟ وإذا استثنينا نشاطات الدول القومية الرسمية من تعريفنا للإرهاب (كما يفعل أكثر الخبراء)، أفلا نكون بذلك قد ركنا بشكل غير مريح إلى الاحترام الآلي للذين يملكون

القوة، برغم ادعائنا بأننا نفعل ذلك كي نحدد تركيزنا في التحليل على الأجزاء السهلة الانقياد؟ حتى ولو أمكننا أن نبرر تحديد تركيزنا الكريه أخلاقياً والضعيف فكرياً هذا (كما يفعل أكثر الخبراء)، أفلا يكون علينا بعد الاعتراف بأن ثلاث دول مسيطرة على الأقل في القرن العشرين قد أتت إلى الوجود إلى حد ما عن طريق حملات إرهابية: جمهورية يوغسلافية الاتحادية، جمهورية إيرلندة، ودولة إسرائيل؟ (وهذا لا يأخذ في الحسبان عشرات الأمم المحررة في العالم الثالث، والتي قاتلت جميعها عملياً للتحرر - من إنكلترا، وفرنسا، وإسبانيا، والبرتغال، وبلجيكا، وهولندا، ومن قوى استعمارية أخرى - باستخدام إجراءات «إرهابية» في ذلك الوقت).

أين، إذاً، **علينا** أن نضع الإرهاب في هذا النطاق من العنف؟

لقد ركزت وثائق المجتمع الدولي على منع أفعال محددة، استناداً إلى حدوث التخريب ومستواه: الاغتيال، وحجز الرهائن، والاختطاف. وصاغت عصبة الأمم وتبنت اتفاقية لمنع الإرهاب ومعاقبته في وقت مبكر يعود إلى عام ١٩٣٧ إثر اغتيال الملك ألكسندر ملك يوغسلافيا. لكن الاتفاقية لم تدخل حيز التنفيذ رسمياً، وتم التصديق عليها من قبل دولة واحدة فقط (الهند) لأن أكثر دول العصبة كانت مشغولة آنذاك بالعنف المعترف به قانونياً والذي كاد أن يصبح الحرب العالمية الثانية. ومنذ ذلك الحين لم تصل محاولات الأمم المتحدة المتكررة لتنظيم مؤتمر دولي حول هذه القضية إلى شيء، وجرت عرقلة الخطط من قبل دولة عضو أو أخرى لأسباب سياسية أنانية.

وخلافاً للأمم المتحدة، لا تقصر وزارة الخارجية الأمريكية تعريفها

على أفعال محددة: «إن الإرهاب هو عنف متعمد، ذو دافع سياسي، يُرتكب ضد أهداف غير قتالية من قبل مجموعات شبه رسمية أو من قبل وكلاء الدولة السريين». وقد يجد بعضنا هذا وصفاً عملياً ملائماً للاغتصاب، والاعتداء، وسوء معاملة الأطفال، وكراهية الشاذين جنسياً، والمضايقة الجنسية، والاستغلال الاقتصادي، والتمييز التعليمي، والتلاعب الديني. ولا بد أن نشعر بالقلق. لكن «المجموعات شبه الرسمية» تذكر بأخوة Fortune 500 المتحدة. ويمكن تمييز «وكلاء الدولة السريين» فوراً من قبل الأم التي تنتظر ضمن صف في أي مكتب للخدمة الاجتماعية، ومن قبل مُدان على طريق الموت، ومن قبل عالم يعرف أن مهمة البحث التام يمكن متابعتها فقط بحسب شروط تمويل وزارة الدفاع. وبالنسبة إلى الأفارقة الأمريكيين، والأمريكيين الأصليين، والأمريكيين اللاتينيين والآسيويين، والشعوب الملونة الأخرى ليس في أمريكا الشمالية فقط ولكن على نطاق عالمي، يجب أن يشعر «الهدف غير القتالي» الآن طويلاً بأنه على ما يرام إلى حد كبير، وعلى «المجموعات شبه الرسمية» أن تبدو متشابهة بشكل مقلق، تآمرية، وبيضاء. وما لم يعتبر المرء رئيس الولايات المتحدة «مقاتلاً» (وهو استخدام لفظي ممتع، إذا أخذنا تاريخ ذلك المنصب بعين الاعتبار)، فإن التعريف المذكور آنفاً يمكن أن يبعث ارتياباً شعبياً حول «وكلاء الدولة السريين» والذي **كان** لي هارفي أوزوالد يعمل من أجلهم فقط حين أطلق النار على جون ف. كندي. ويمكنني أن أستمر، لكن الصعوبة واضحة. فلدينا هنا، كما يقول المثل، فشل في الاتصال.

وتُعتبر جين ج. كيركباتريك، سفيرة الولايات المتحدة السابقة إلى

الأمم المتحدة من نوعية المرأة التي تساعد في المحافظة على صدق الحركة النسائية التحررية. ومع وجودها في الصورة يمكننا أن نجرؤ على عدم السقوط في الشرك البلاغي بأن جميع الرجال شريرون وجميع النساء رائعات. وقدمت لنا الآنسة كيركباتريك بنية للإرهاب أكثر تداعياً من أن تخفيها واجهته الأنيقة: «... لا يمكن أن يكون الرعب الذي تطبقه حركة ثورية على السكان المدنيين تحريراً، بينما يكون العنف الذي ترتكبه حكومة رداً على تهديد حرب عصابات قمعاً». (لاحظوا تجميع الرعب، والحركة الثورية، وتهديد حرب العصابات معاً). ويمكن لاثنين أن يلعبا هذه اللعبة: **لا يمكن أن يكون الرعب الذي تطبقه حكومة على السكان المدنيين قانوناً، بينما يكون العنف الذي ترتكبه حركة ثورية رداً على القمع إرهاباً**. وللتعبير عن هذا بشكل آخر، إنك لا يمكن أن تحصل على واحد دون الآخر: لا حاجة لتطبيق مقياس مزدوج. وأكثر النساء، وبعض الرجال، قد يفضلون الاستغناء عن الاثنين.

أما بالنسبة للخبراء، فهم يختلفون بشدة حول كيف ينبغي تعريف الإرهاب. وهم يعترضون حتى على منهج الوصول إلى تعريف. وبعضهم يعرض عمليات فكرية تُعتبر محاكاة مربكة ساخرة للاستنتاج المنطقي.

وعلى سبيل المثال، يقوم الدكتور رتشارد كلوتيربوك، اللواء السابق في الجيش ومؤلف **الحياة مع الإرهاب**، بتعريف الإرهاب على أنه ظاهرة يسارية، و«مرض» سببه «التلقين الماركسي» في الجامعات؛ وهذا «الاختلال العقلي» يصيب بشكل خاص الأشخاص «المرفوضين، أو عديمي الجذور» و«الذين يعانون من نقائص شخصية أو اجتماعية»، بالإضافة إلى «الهامش الإجرامي» في المجتمع. وهو يشعر بالقلق لأنه

من المحتمل أن يكون مثل هؤلاء المتمردين «أقوياء جداً إلى درجة أنهم يمكن أن يسقطوا المجتمع المتمدن جملة واحدة». ويبدو أن الدكتور كلوتيربوك لا يعرف التأكيد الوطني غير الماركسي لمجموعات مثل الباسك أو الانفصاليين الكرواتيين، ويجهل المناسبات التي استخدم فيها «المجتمع المتحضر» وسائل إرهابية (منظمة الجيش السري الفرنسي في الجزائر، مثلاً). وهو يبدو غافلاً عن الشجب «الماركسي» المتعدد للإرهاب: مقالة تروتسكي «إفلاس الإرهاب» وغيرها. وأخيراً، يبدو غير مطلع على اكتشافات الأبحاث الوفيرة حول الاختلال العقلي لدى الأشخاص المرفوضين أو عديمي الجذور ـ في الجيش.

لكنه ليس الوحيد في تحليله. ويعلن أنتوني بورتون (ضابط سابق آخر)، في كتابه الإرهاب الحضري بشكل متكرر، أن الإرهابي «يهدف إلى قتل البريء» لغاية واحدة: «كي يُرهب». ثم يتابع كي يُضمِّن الاغتيال السياسي في تعريفه، غير متأثر بمسائل مثل براءة القيصر، وغير متشوق لمعرفة حوافز محتملة لجريمة قتل الملك أو قتل المستبد غير إرهاب المواطنين. ويحلل بورتون، مثل كلوتيربوك، الإرهابي بأنه «معاق عاطفياً».

أما البروفيسور إرنست هالبيرين، الذي يربط بين كيركباتريك وكلوتيربوك في رؤية عدم وجود فارق بين المشارك في حرب العصابات والإرهابي، فإنه يعاني بوضوح من ضبابية مشابهة بخصوص سلامة العقل والجنون. وفي **الإرهاب في أمريكا اللاتينية**، يخبرنا بأن الفكرة السخيفة القائلة إن أمريكا اللاتينية فقيرة لأن الولايات المتحدة غنية «تسبب حالة ذهنية يمكن وصفها فقط بأنها اختلال عقلي جماعي،

وعقدة مصاص الدماء» لدى من هم جنوب الحدود. (هذه الحالة تنتج أيضاً بشكل مريح المعادن، والمواشي، والحنطة، والمحصول، واليد العاملة الرخيصة لمن هم شمال الحدود).

وهناك تداخل مثير للاهتمام بين تصريحات الخبراء العسكريين وتحليلات العلماء المزيفين المختصرة. ومفهوم «علم النفس الإرهابي» هو طريق ملائم لتجنب التعقيدات، بما فيها السياسية. وقد أعلن بعض المدافعين عنه بشكل وقور أن الإرهابيين أوجدهم «عدم كفاية الأمومة أو غيابها» والذي أدى إلى الحزن، والوسواس المرضي، والقلق، والولع بالتدمير. وعندما تشعر بالشك، ضع اللائمة على الأمهات.

ويُظهر العلماء السياسيون وعلماء الاجتماع - «الرجال المحترمون» - تعقيداً أكبر في عنونة المشكلة.

أما بول ويلكنسون، أستاذ العلاقات الدولية في جامعة أبيردين، اسكتلندة، ومؤلف العديد من الكتب حول الموضوع، فإنه يكتب بشكل منطقي أغلب الوقت. ولكن حتى هو، في **الإرهاب السياسي**، يخضع للدولة في اعتبار الإرهاب متميزاً عن الحرب، لأنه «غير مُعلَن» مثله مثل «العمل البوليسي» الأمريكي في كوريا، و«الغزوة الوقائية» الأمريكية في كمبوديا، و«التدخل» الأمريكي في غرينادا، و«الضربة الوقائية» الأمريكية ضد ليبيا؟)، وكذلك لأن القصف الحربي المشبع ليس «إرهاباً» أيضاً إذا ثبت أن القتلى المدنيين نجموا فقط «على سبيل المصادفة» خلال تحقيق أهداف عسكرية فحسب..«. وهكذا فإن مواطني لندن خلال الحرب العالمية الثانية ومواطني هانوي وهايفونغ خلال حرب فيتنام (غير المُعلَنة) ليس لديهم مبرر للإحساس بأنهم تعرضوا للإرهاب.

ومن جهة أخرى، يقدم إرفنغ لويس هورويتس، أستاذ علم الاجتماع والعلوم السياسة في جامعة روتجرز، وصفاً للإرهاب على أنه مزيج من ثلاثة عناصر: «الحرب غير التقليدية» التي تستهدف عادة أهدافاً مدنية، وتستخدم التهديد أو العنف لتغيير القانون والسلطة عبر «شكل مرفوض فكرياً». وأخشى أن البروفيسور هورويتس لا يقصد السخرية المتأصلة: هل يعني بالمقارنة مع الحرب التقليدية التي تستهدف أهدافاً مدنية؟ والمرفوضة فكرياً من قبل الذين يملكون القدرة على تسمية أفعالهم «بالضربات الوقائية الدفاعية» وتنجو بفعلتها؟ لكن هورويتس يعترف بأن «الإرهاب قد نشأ إلى حد ما بشكل يتعلق **بانخفاض المشاركة** [السياسية] **الجماعية**» (التأكيد لي).

وهذا أمر هام.

وفي العديد من الكتب والمقالات حول الموضوع، بنى لويجي بونانيت من جامعة تورين تحليله حول تلك الأهمية، مفترضاً أن المجتمعات المبتلية بالإرهاب «معاقة» ـ غير قادرة على التحلل لكنها عاجزة عن التقدم. ويفترض شكلين من «الإرهاب الداخلي»: إرهاب الدولة والإرهاب الثوري؛ وشكلين من «الإرهاب الدولي»: الاستعماري والمضاد للاستعمار. وبالإضافة إلى ذلك، يفرق بين «الإرهاب المفيد»، وهو وسيلة إلى هدف محدد، و«الإرهاب النضالي» وهو مقوم ضروري لكنه ليس كافياً في الكفاح.

ومع عدم استخدام المرحوم إدوارد هيامز لنفس المصطلحات، فقد أعطى مثالاً عن «الإرهاب النضالي»، مشيراً إلى أن الإرهابيين نادراً ما يستفيدون مباشرة من أفعالهم:

لقد كان المعتدلون القوميون الأيرلنديون هم الذين ورثوا النظام الجديد في أيرلندة التي انتزعها المتطرفون من الحكومة البريطانية. كما دفعت أرغون زفاي ليومي وما يدعى بعصابة شتيرن الحكومة البريطانية لتخفيف قبضتها على فلسطين، وذلك ليس من أجلهما ولكن من أجل الوكالة اليهودية والهاغانا، اللتين أنكرتا أساليبهما الإرهابية.

أو كما عبر عن ذلك وليم أوبرين الوطني الإيرلندي في القرن التاسع عشر، أحياناً يكون «العنف هو الطريقة الوحيدة لضمان سماع الاعتدال». وكان استنتاج هيامز حول الإرهاب هو أنه بالنسبة للجسد السياسي المريض مثلما هي الحمى بالنسبة للجسد المريض؛ وهو يميز بشكل معقول السبب والتأثير. وقد أشار إلى أن الإرهاب «هو إعلان لحرب اجتماعية».

ويقدم كونور كروز أوبرين، رئيس تحرير The Observer السابق (لندن)، بعض القرائن أيضاً. ويسمي إرهاب الدولة عادة بالعامل **الاستهلالي**، الذي يليه رد الفعل القتالي من قبل الأقل قوة أو الضعفاء تماماً. وبالنسبة للإرهاب في الدول الديموقراطية:

إذا حُرمت أقلية من كل مشاركة في العملية الديموقراطية غير حق الاقتراع وهزيمتها الآلية في الانتخاب، وإذا حُرمت من فائدة حرية التعبير وحكم القانون، وحُرمت بذلك من أي وسيلة مسالمة لتحسين وضعها... فسيكون من غير الملائم إطلاق صفة الإرهابيين على أولئك الذين يستخدمون العنف السياسي لصالح مثل هذه الأقلية. وهم في موقع يمكن مقارنته إلى حد كبير بالخاضعين إلى القوة الاعتباطية [ولكن] إذا كانت أقلية، بالإضافة إلى كونها مخصصة بنسبتها

المستحقة من المقاعد في البرلمان، تتمتع بفوائد حرية التعبير وحكم القانون، فإنني لن أتردد في إطلاق صفة الإرهابيين على أي أشخاص قد يلجؤون إلى العنف السياسي لصالح مثل هذه الأقلية.

وبالنسبة إلى أوبرين إن **الموافقة والمشاركة** أمران حاسمان ـ ليس موافقة المحكومين فقط، ولكن مشاركتهم الكاملة في عملية الموافقة والحكم.

وفي مجال أكاديمي حيث نادراً ما يُسمع صوت نسائي، تدعو أفكار مارثا كرنشو الثاقبة إلى الانتعاش. وهي تكتب بوضوح أن «الإرهابيين يمكن أن يكونوا ثوريين... [أو] وطنيين يقاتلون ضد محتلين أجانب... [أو] أقلية انفصالية... [أو] مصلحين (قصف مواقع الإنشاء النووية يهدف إلى وقف القوة النووية، وليس إلى إسقاط الحكومات)* .... [أو] الفوضويين أو الألفيين** [أو] الرجعيين الذين يقومون بمنع التغيير من القمة». كما تشير إلى وجود «الإرهاب الفئوي»، الذي أصاب، مثلاً، الحركة الفلسطينية. وهي ترفض بفتور واضعي نظرية أن «الإرهابيين مشوشون»: «إن المعلومات المحدودة التي لدينا عن الإرهابيين الأفراد... توحي بأن **الخاصية العامة البارزة للإرهابيين هي حالتهم الطبيعية**» (التأكيد لي). كما أن كرنشو، أستاذة العلوم السياسية في الجامعة المنهجية ومؤلفة **الإرهاب الثوري: جبهة التحرير الوطنية في الجزائر، ١٩٥٤ ـ ١٩٦٢**، قد أعدت أيضاً مقتطفات

* مع الأخذ بعين الاعتبار كيف يقوم المُجمَّع العسكري ـ الصناعي بالانتشار تماماً في المجتمع، وأنا أفضل الاعتراض على هذا التفسير الخاص.

** تطلق اسم الألفيين على حركة الفوضويين الأصلية في القرن التاسع عشر وعلى مجموعات معاصرة مشابهة مثل الألوية الحمراء الإيطالية.

الإرهاب والشرعية والقوة: نتائج العنف السياسي. وفي كل من مقدمة الكتاب وخاتمته، تقوم باستكشاف معاني الإرهاب واستخداماته، وتأثيراته ـ باعتباره أداة للسياسة الخارجية، ورداً أو تصعيداً لتآكل حقوق الإنسان والحريات المدنية، وباعتباره يدور حول مسألة **الشرعية** البالغة الأهمية. وهي تستطلع فرضيات الشرعية المعصومة للدولة، وتشير إلى أنه ـ حتى حين لا يمكن الموافقة على طلبات محددة وأن الانتباه هو كل ما يبدو أن الإرهابيين يستطيعون نيله ـ فإن الشرعية (التي تتطلب اعتراف العدالة بقضيتهم بواسطة جزء هام من الشعب) هي الهدف الحقيقي.

الشرعية ـ لأولئك الموجودين في السلطة أو لأولئك الذين يمكن أن يكونوا في السلطة. وهي طريقة -كما سنرى- لاكتشاف المرء.

ومع ذلك، لماذا حين تكون الأفعال ذات الطبيعة الإرهابية قد ارتُكبت مع كل عذر ممكن طوال قرون، لماذا هذا التصعيد المفاجئ للإرهاب الآن؟ هل يمكن للكتابات التي أثرت كثيراً على الجيل الذي بلغ سن الرشد في الستينيات ـ ماو تسي تونغ، هو تشي مينه، الجنرال جياب، فرانز فانون، ألبرت ميمي، ريجي ديبري، وإرنستو «تشي» غيفارا، بالإضافة إلى آخرين ـ أن يكون لها تأثير أكبر اليوم؟ ومع ذلك فالكلمة المطبوعة لها تأثير أقل مما كان لها قبل عقد؛ ووسائل الإعلام الإلكترونية لها تأثير أكبر بكثير. وفي الحقيقة، إن التقدم التقني يساهم كثيراً فيما دعته كرنشو «التكيف المسبق» تمييزاً له عن «الاندفاعات المتهورة» الأكثر مباشرة للنشاط الإرهابي. وهي تلاحظ:

إن الشبكات المتطورة من النقل والاتصال تقدم قابلية للحركة ووسيلة للشهرة

... والإرهابيون في نارودنايا فوليا كان من الممكن أن يكونوا عاجزين عن العمل بدون نظام الخطوط الحديدية الروسية المؤسس حديثاً، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين لم تكن لتتمكن من الاسترسال في الاختطاف بدون وجود الطائرة النفاثة. وفي الجزائر، تبنت جبهة التحرير الوطنية استراتيجية قصف المدن بالقنابل فقط عندما أصبح باستطاعتها الحصول على متفجرات بلاستيكية... واليوم، نحن نخاف من أولئك الإرهابيين الذين سوف يستغلون إمكانية القوة النووية، ولكن في عام ١٨٦٧ كان اختراع نوبل للديناميت قد جعل القصف بالقنابل تكتيكاً إرهابياً ملائماً.

والتمدن عامل آخر، يؤمن «تعدد الأهداف، وقابلية الحركة، والاتصالات، والسرية، والجماهير [بالإضافة إلى] أرضية للتجنيد بين السكان المُسَيَّسين والمتقلبين».

ويضع الكثير من المحللين نسبة كبيرة من اللوم على الصحافة. واستمر العديد من المنتديات والمؤتمرات على هذه القضية وحدها. وكانت المناقشات المتوقعة تتناوب ذهاباً وإياباً. نعم، من الواضح أن الإرهابيين يطلبون ويحتاجون إلى تغطية أفعالهم؛ وفي العديد من الحالات، كان مثل هذا الاهتمام يبدو وكأنه غاية تكتيكاتهم. والصحافة ليست بريئة: فالعنف يبيع الصحف. (ونبقى مع سؤال حول من يشتري تلك الصحف، ولماذا يريد الناس شراء العنف؟) أحياناً تكون هذه القضية علاقة تكافلية تقريباً، وهي ما يطلق عليها بعض الأشخاص تعبير «إرهاب وسائل الإعلام». ولكن، نعم، إن الصحافة الحرة بالتأكيد لا يمكن أن تتحمل الرقابة الحكومية - أو التكميم الذاتي - في الأمل الأحمق بأن التعتيم الإخباري سيقوم بدور رادع للأخبار. (وهو لم يقم بذلك.

والشاهد هو الهجوم المتكرر على الصحافة المحلية والأجنبية معاً من قبل حكومة جنوب إفريقية، استراتيجية تخبئة رأس النعامة في الرمل التي تفترض أنه إذا لم يكن أحد في الخارج يعرف كم هي الأمور سيئة، فالبلد سيبدو جيداً، وإذا لم يعرف أحد في الوطن ـ إلا إذا طاف بنظره ـ فإن ذلك كله سيختفي حينئذ بشكل سحري).

أما براين جنكنز، وهو ضابط أمريكي سابق في القوات الخاصة خدم في فيتنام وفي جمهورية الدومنيكان، ويترأس الآن برنامج شركة راند حول العنف السياسي، فإنه يتخذ رأياً متعباً أكثر: «إن تأثير الإرهابيين... قد هبط فيما يتعلق بالشهرة التي يمكنهم أن يحرزوها. وتغطية وسائل الإعلام المستمرة تتصرف مثل التضخم؛ فهي تخفض قيمة العملة. والتكرار ينقص جدة أخبار الحوادث الإرهابية وقيمتها. والاختطاف الأول كان خبر الصفحة الأولى. وبعد ٨٧ اختطافاً، أصبح الناس يميلون إلى تجاهلها». ومع ذلك فإن بعض الأشخاص يقولون إن هذا يزيد في المخاطرات، ويحرض الإرهابي كي يحلم بعمل أكثر إثارة يمكن أن يحتل الصفحة الأولى. والأكثر أهمية أيضاً، إن تصريح جنكنز يتيح الفرصة لموضوع تطبيع الرعب. وهو لا يتابع ذلك. لكننا سنفعل ـ وبعمق.

وبالنسبة للآن، على أي حال، إن النظرة العامة السابقة لأدب علم الاجتماع حول الإرهاب يجب أن تكفي، على الرغم من أن الخبراء يتركوننا دون القيام بالارتباط الأساسي. فلا يكفي أن ندرس السياق الاجتماعي، والسياسي، والتاريخي. فماذا عن السياق الثقافي؟ وماذا عن السياق الأخلاقي ـ مهما بدا غير عصري؟

في السابق، كانت محاولات الاغتيال تركز على أصحاب السلطة؛ وقد أرجأ الشعبيون الروس في القرن التاسع عشر محاولتهم الأولى لقتل الدوق الكبير سيرجي عن طريق رمي قنبلة داخل عربته عندما رأوا أن زوجته وطفلين صغيرين، ابني أخيه، كانوا يركبون معه. وفي السابق، كانت الهجمات تهدف بعناية إلى أسباب استراتيجية في مواقع خاصة (ثكنات، قلعة، مركز للشرطة). وفي السابق، كان الرهائن يؤخذون من أجل فدية محددة بوضوح أو لغايات تفاوضية. والآن، لم يعد من النادر أن تنفجر قنبلة في مخزن هارودز بلندن، أو تُرمى قنبلة في مقهى سياحي في فيا فينيتو، أو تُحجز رهينة من قبل مجموعة فرعية منشقة عن مجموعة فرعية في لبنان بدون تحديد شروط للمساومة. (في عام ١٩٨٧ قُتل ما مجموعه سبعة مواطنين أمريكيين بواسطة الإرهاب ـ ثلاثة منهم بشكل عرضي، وبدقة أكثر، لا أحد منهم كان دبلوماسياً).

ما هو إذاً سبب ذلك التغيير؟

إنه أمر واحد، فالذين بيدهم السلطة تأكدوا من أنهم تحت حراسة أفضل.

ولكن ثمة أسباب أعمق.

إنني أنتمي إلى جيل نشأ تحت غيمة الفطر، في عصر العنف الذي يمكن تنفيذه بشكل تقني والأكثر شيوعاً وتعقيداً من أي عنف في التاريخ السابق لكوكبنا. وأعتقد أنه ليس من قبيل المصادفة أن القتل العشوائي للمواطنين العاديين، بمن فيهم الذين لهم صلة ما بالسلطة، قد ظهر كاستراتيجية للكفاح المتمرد **بعدما** أصبح القتل العشوائي للمواطنين العاديين تكتيكاً عسكرياً «شرعياً» في الحرب التقليدية.

مثل الهجوم الخاطف على لندن. وقصف كولون ودرسدن. وهيروشيما. وناغاساكي. وبشكل طبيعي كانت مصائب المواطن دائماً أحد عناصر الحرب، لكن مستوى جديداً من تحجر العاطفة تجاه الموت المدني على نطاق واسع كان قد تحرك في القرن العشرين، وليس مما يدعو للدهشة أن الذين خدرهم الضعف يجب أن يتحركوا معه.

ويُضاف إلى هذا الإحساس بالضعف المدني إحساس بالجبرية، وانتشار اليأس الذي لاحظه جورج وولد حين كتب، «إن ما نواجهه هو جيل واثق بكل تأكيد من أن ثمة مستقبلاً أمامه». إننا نعيش كل ساعة تحت تهديد الإبادة النووية الفورية، إما عمداً أو من قبيل المصادفة. والعديد منا يشعرون بعدم القدرة على وقف هذه القوة الهائلة، وعدم القدرة حتى على تأخير تقدمها. وعلاوة على ذلك، إننا نعيش يومياً تحت أنظمة تتمركز أكثر، وتخفف من تنوعها وفرديتها إلى صفر عديم الشكل وقابل أكثر للمناورة. ويبدو منسقو أخبار التلفزيون في جميع أنحاء العالم متشابهين الآن، ويلبسون بطريقة متشابهة، ويستخدمون نفس مقامات الصوت المهدئة في إلقائهم للأخبار، مهما تكن لغتهم. والأنظمة المتحدة المتعددة القوميات وتقنيات الإعلان تقترب أكثر فأكثر لأن تشبه بعضها بعضاً في سباقها لخلق سوق استهلاكية متجانسة واحدة. والنخبة في كل ثقافة يستخدمون مصطلحات علم اجتماع متماثلة في التجريد - مثل «الفقر» و«التشرد» - لإخفاء من هم الفقراء والمشردون، ويستخدمون المناورات السياسية نفسها لتخليد هذه الأنظمة والتكنولوجيا نفسها لفرض ذلك. وهذا ما اتهمته سيمون فيل بأنه الأداة البيروقراطية «التي تستثني كل حكم وكل عبقري» في اندفاعها

لتجميع كل القوى في داخلها. وكان أحد الردود على هذا الاتجاه هو الرجعية الحرفية المدمرة للمجتمعات على امتداد خطوط التصدع العشائرية - العداوات العرقية، وحروب اللغة، والتعصب الديني - وكأن حل «هم مقابل نحن» يمكن أن يكفي بعد لإحداث كمال قابل للتأكيد، وإحساس منبعث من «الأنا».

وكلما ازدادت المركزية والبيروقراطية، ازداد الإحساس باللامبالاة، وهو ما أطلق عليه أرندت تعبير «خيبة الأمل الحادة للقدرة على الفعل في العالم الحديث». والمزيج من الإحساس باللامبالاة بين الأكثرية مع الوضع الملح، والذي يهدد الجميع سوف يسبب حتماً بين الأقلية رد فعل مجرباً وحقيقياً: وهو العنف.

ويخدم العنف، طبعاً، في استمرار الحلقة، ليس بمزيد من العنف فحسب، بل وبمزيد من المركزية أيضاً، ومزيد من البيروقراطية، وباستثمار تقني أكبر لوسائل السيطرة الأكثر قتلاً. والعنف، مع ذلك، عمل جيد بصورة رهيبة. «والعنف هو مسرع التطور الاقتصادي»، وفق كلمات إنجلز. فالعنف يتطلب ويدعم أنظمة مراقبة أكثر وأسلحة «مضادة للإرهاب» مميتة أكثر - التطوير والتجارة لمسدسات وبنادق أكثر، وقواعد إطلاق للصواريخ أكثر، ومفجرات ومتفجرات بلاستيكية أكثر، ومدافع رشاشة أكثر، مما بيع أصلاً عن طريق تجارة السلاح الدولية إلى الإرهابيين في المقام الأول. وقد كان ج. بوير بيل على حق تماماً عندما أشار، في عمله **الرعب وراء حدود البلاد**، إلى أن «كل الثوريين إرهابيون بالنسبة للمُعرَّض للتهديد». وأضاف: إنهم **سوق** أيضاً بالنسبة لرجال الأعمال.

وقد مضى وقت طويل منذ أن كيفت الشركات المتعددة الجنسيات نفسها مع هذه العملية غير الملائمة دورياً ولكن المسرعة اقتصادياً بشكل إجمالي. ويستثني القطاع الخاص التأمين ضد الخطف باعتباره مسألة ممارسة منتظمة؛ وقد عُرف عن أقسام العلاقات العامة المشتركة بأنها تشتري مساحة «لإعلانات» الإرهابيين؛ والمديرون التجاريون التنفيذيون يتم دفع فديتهم بهدوء من قبل شركاتهم سراً بينما يتوعد الممثلون ظاهرياً بصراحة وصخب حول سياستهم بأن لا فدية ولا تفاوض.

وقد أخذنا بضعة أمثلة عن هذه المؤامرة العجيبة أوضح من رأس الجبل الثلجي الذي كُشف في الفضيحة الأمريكية إيران كونترا ـ التي تضمنت حكومات، وشركات خاصة، وشركات كبيرة وصغيرة، ورؤساء، وملوك، وسلاطين، والجيش، وحاخامات وأئمة، ومصرفيين، ودبلوماسيين، ومحامين، وموزعي المخدرات، والشبكة العالمية لتجار الأسلحة، ومكائد عبر ثلاث عشرة دولة مختلفة في خمس قارات ـ وكلهم تورطوا في بيع الأسلحة إلى مجموعة من الإرهابيين لتمويل مجموعة أخرى من الإرهابيين، وكلهم خلال ذلك يشجبون الإرهاب. والمثال الآخر عن العمل المعتاد هو توقيف الحكومة الفرنسية لأبي داوود (فلسطيني زُعم أنه شارك في جرائم قتل الرياضيين الإسرائيليين في ميونيخ) وإطلاقها اللاحق لسراحه كي لا تفسد عقود العمل الفرنسية مع الدول العربية.

وليس من النادر بالنسبة للمختصين بالإرهاب أن يتحدثوا بمصطلحات اقتصادية دون خجل: «... ينتمي الإرهاب جزئياً إلى الفئة الصعبة من الطوارئ ذات الاحتمال المنخفض جداً والتأثير العالي جداً،

إلى جانب الحرب النووية، أو الزلازل، أو الأمراض القاتلة الناجمة عن الهندسة الوراثية... [ونتيجة لذلك] **إن تكاليف فرصة التحضيرات الطارئة من أجل الإرهاب غير المألوف تختلف كثيراً عن تقييم الفائدة والكلفة»**. (التأكيد لي). ولنعبر عن ذلك بصراحة أكثر، إن دفع الأجساد النازفة إلى غرف الحالات الطارئة في المستشفيات وإلى المقابر أقل كلفة من الاستثمار في الإجراءات الوقائية الحقيقية التي تنصب على القضايا الجذرية. وذلك لن يكون مربحاً اقتصادياً. ومن الأفضل اقتصادياً جعل العالم آمناً من القتل*.

كذلك لا يُعتبر تجار الأسلحة الرسميون وغير الرسميين والأعمال الكبرى ـ الكومبيوتر، والذخائر، وصانعو المواد الكيميائية ـ هم الرابحون فقط. فكما أحيا العنف لمدة طويلة الاقتصاد العالمي البطريركي بشكل عام، كذلك يعمل الإرهاب الآن بشكل خاص. وهذا يتطلب تجميل الإرهاب. فالمخازن الكبرى الرئيسية، والبوتيكات، وإعلانات الأزياء، تعرض أحدث الألبسة الأنيقة: ثياب العمل (المكملة لعلامات التمويه) وأحزمة الذخيرة، وأحذية المعركة. وتقف مجلة **الجندي المرتزق** في كرب شديد جنباً إلى جنب مع شقيقتيها Hustler و Penthouse في رسالتها المتبادلة حول العنف الداعر وأدب الدعارة العنيف. وتقوم صناعة السينما بدورها. ومن **الخروج** عبر **يوم الأحد الأسود** ويوم **ابن آوى** إلى **الطبالة الصغيرة**، تقدم لنا هوليوود البطل الإرهابي الجنسي المتجهم، بالمقارنة مع الصورة غير الفاتنة بشكل لافت للنظر التي

---

* من أجل تحليل موثق بشكل شامل حول كيف يضع النظام الاقتصادي البطريركي العالمي ـ بصورة نظام الأمم المتحدة للحسابات الوطنية ـ بشكل مؤسساتي قيمته العليا على وسائل الموت بينما يلغي الإسهامات الإيجابية مثل عمل المرأة أو سد النقص البيئي، انظر ماريلين ج. وارينغ، **إذا دخلت النساء في الحساب: اقتصاد نسائي جديد** (نيويورك وسان فرانسيسكو: هاربر وراو، ١٩٨٩).

يقدمها أغلب صانعي الأفلام من الخارج، من **الرجل الشاذ خارجاً** وفيلم جون فورد الكلاسيكي **المخبر** عبر **معركة الجزائر**، و**الإنكليزية العاطفية**، وأفلام كوستا غافراس **زد**، و**المفقود**، و**المخدوع**، وفيلم مرغريت فون تروتا المذهل **ماريان وجوليان**. (وتثبت الاستثناءات القاعدة، طبعاً، ويمكن للمرء دائماً الاعتماد على لينا ورتمولر لتأمين إصدارات عكسية للموضوع، بنشر أساطير قديمة بالية حول نساء رجعيات سياسياً وماسوشيات جنسياً، وحول رجال يتمتعون بالجاذبية عندما يكونون عنيفين وأكثر جاذبية حين يكونون إرهابيين).

وقارنوا تلك الصورة بالحقيقة.

تعلن الصحيفة الصباحية عن معاناة ١٢٠٠ امرأة، وطفل، ورجل عجوز تاميليين ـ ضحايا الحرب الأهلية العرقية ـ وهم يقفون في صف أمام معبد هندوسي، بانتظار حصص الطعام. وبيوتهم، في فالفيديتوري، وهي منطقة ريفية في سريلانكا، قد تعرضت للقصف بالقنابل من قبل السنهاليين الذين يمسكون بزمام السلطة في الحكومة. ويزعم الموظفون أن هذا «القصف العنيف»، الذي قتل من ٥٠٠ إلى ٦٠٠ فلاح، كان «لا يهدف لإرهاب المدنيين، بل لطرد مقاتلي حرب العصابات من نظام للأنفاق طوله ثلاثة أميال... وكانت الطريقة الوحيدة لتدمير الأنفاق هي قصف المساحة بكاملها». كما اعتقلت الحكومة، أيضاً، أربعة آلاف شاب محلي للاشتباه بأنهم إرهابيون، في رد جزئي على اختطاف التاميل وضربهم لحمولة حافلة من النساء والأطفال السنهاليين قبل بضعة أسابيع. وهناك ذعر وحداد بين النساء على الجانبين معاً. وتحيط نساء التاميل بموظف حكومي زائر، ويتوسلن إليه

للمساعدة بخصوص أربعة آلاف رجل حجزوا في السجون، ويقحمن أوراقاً بأسماء الأبناء، والآباء، والإخوة، والأزواج في يديه، ويناشدنه كي لا يُعذَّب أقرباؤهن المحبوبون في السجن. وفي خطاب له، يحاول أن «يهدئ مخاوفهن، ويعد بأن بضع منظمات نسائية» تطوعت في محاولة لترتيب خدمة بريدية إلى الموجودين في السجن - وهكذا يفتح حساباً للعمل النسوي المدني الطوعي. وبالنسبة للنساء، إن مقاتلي حرب العصابات والجيش يجلبون الكوارث. ويشتكين من أن كلتا المجموعتين من الرجال يسرقون، وينهبون، ويتحرشون بالنساء والبنات. وهن يكرهن الجيش الحكومي لقيامه بذلك، لكنهن يرهبن أيضاً القوات المتمردة التي تقاتل ظاهرياً لتحريرهن. ومن رجال التاميل الخاصين بهن، يقول أحدهم بضجر، «إذا عاد الفتية، فإننا سوف نتعرض للتجربة ذاتها ثانية. إننا نريد أن نُترك بسلام».

ومع ذلك فإن الارتباطات تظل غير ملحوظة من قبل الخبراء. والارتباطات، بأي حال، يتم تجنبها بشكل متواصل.

* * *

انظروا إليها عن قرب، لاحظوها ثانية. إنها تعبر الطريق القذر، وتوازن سلة ضخمة على رأسها، ورضيع على وركها. أو تخرج من بناية مكتبها بعد ساعات، لأنها عملت متأخرة. أو تتحرك عبر الصباح الصيفي المبكر، لتحمل وتسحب الماء من البئر، أو لمجرد أنه يوم جميل وهي تجري للتمرين. هناك وقع خطوات وراءها، إنها خطوات رجل. وهي تخاف. ولديها مبرر كي تخاف. وهي بالتأكيد ستشعر بإحساس مختلف لو أنها سمعت خطوات امرأة وراءها.

والآن انظر إليه عن قرب: إنه يسرع عبر المطار كي يلحق بطائرته.

أو يقود دراجته، وسلته محملة بالكتب، إلى الجامعة. أو يصعد الدرجات إلى سفارته في عمل رسمي. أو يدير لفة فيلم جديد في آلة تصويره ويبدأ عمله. وفجأة هنالك وقع خطوات خلفه. سريعة وثقيلة،. خطوات رجل. وفي جزء من الثانية وقبل أن يلتفت حوله، يشعر بالخوف. ويقول لنفسه لا مبرر للخوف. لكنه بالحقيقة خائف. **وشعوره سيختلف حتماً، لو سمع خطوات امرأة خلفه.**

هل من الممكن أن الإرهاب يجذب الكثير من الانتباه اليوم لأن الرجال، بالإضافة إلى كونهم مرتكبيه الرئيسيين، هم أيضاً من بين ضحاياه؟ وليسوا ضحايا ظروف الحرب، والقتال، وحلبة الملاكمة، وحانة الزاوية، وحجرة الرياضيين، وقاعة الاجتماع، وقاعة المحكمة «المتحضرة» الشرعية المقبولة ـ بل ضحايا ما يتعلق بالطبقة، والعمر، والعرق، والوظيفة، والجنسية؟ ضحايا عنف عرضي تلقائي غير سوي في صراع فوق رؤوسهم، عنف عادي جداً إلى درجة دعوته بالسياسة؟

إذا كان **الرجال** خائفين الآن في الظروف اليومية، فمن الضروري إذاً أن تؤخذ الحالة بصورة جدية، ومن الواجب أن يولى الانتباه. هذه أيضاً ديمقراطية بطريركية.

وإلى أن نفهم الارتباطات بين أزمة المجتمع وحياتنا الفردية الخاصة، وإلى أن نكشف هذه السلسلة من النشاط الجنسي للعنف، وإلى أن نفهم من هو عاشق الشيطان فعلاً، حينذاك يمكننا حقاً أن ندرك المفاهيم الأخرى، والتي سوف تسمح لنا باسترداد مكاننا الشرعي على هذا المنظر الطبيعي الجميل المعرض للخطر الذي ندعوه بالوطن.

إن الرحلة نحو الفهم داخلية وخارجية في الوقت نفسه.

وتلك الرحلة نفسها رحلة رعب.

الفصل الثاني

البطل المميت:
أقدم مهنة

الشفقة هي الإحساس الذي يكبح الذهن بوجود أي شيء هام وثابت في المعاناة البشرية يوحده مع الإنسان المعاني. والإرهاب هو الإحساس الذي يكبح الذهن بوجود أي شيء هام وثابت في المعاناة البشرية يوحده مع السبب السري.

جيمز جويس

لسنا بحاجة إلى بطل آخر.

تينا تيرنر

إذا كان علي تحديد خاصية واحدة بأنها عبقرية النظام البطريركي، فهي التقسيم إلى أجزاء منفصلة، والقدرة على وضع الانفصال في نظام مؤسساتي. فالعقل مزقته العاطفة. والتفكير انفصل عن العمل. والعلم انشق عن الفن. والأرض نفسها تقسمت؛ بحدود قومية. والكائنات البشرية تعرضت للتصنيف: بواسطة الجنس، والعمر، والسلالة، والعرق، والتمييز بين الجنسين، والطول، والوزن، والطبقة، والدين، والقدرة الطبيعية، **إلى درجة تدعو للتقزز**. والجانب الشخصي انعزل عن السياسي. والجنس انفصل عن الحب. والمادي ابتعد عن الروحي. والماضي انفصم عن الحاضر المنفصل عن المستقبل. والقانون تجرد من العدالة. والرؤيا ابتعدت عن الواقع.

ونحن جميعاً متأثرون، ومجروحون من هذه القدرة. وهي تتعزز يومياً بكل مؤسسة حولنا. ونتيجة لذلك، يتطلب البقاء على قيد الحياة قسوة الإحساس - أو هكذا توصلنا للاعتقاد. إننا نتعلم ذلك ونحن أطفال: أن نتجاوز بسرعة الشخص المتشرد أو المرأة المتسكعة في الشارع. ونقرأ في الصحيفة أن ولايات أمريكية معينة أعادت عقوبة الإعدام، وأن البارحة قُتل سجين آخر بالغاز أو الكهرباء أو بالحقن؛ ونجفل، ونقلب الصفحة. ونحن نبرر كذبنا، في العمل، وفي الصداقة، وفي الحب. وقد اعتدنا على الوحشية في أخبارنا التلفزيونية كل ليلة، ونصنع الشطائر بين القصص المبهجة «ذات الاهتمام الإنساني» والإعلانات التجارية المعالجة للصداع. ونفكر قليلاً - أو لا نفكر - بها. ونخشى أن يكون تكرارنا لذلك، و**ملاحظتنا وتفكيرنا** فعلاً، معناها دعوتنا للجنون.

ولم تكن هاناه أرندت الأولى التي تدرك حالة الكينونة هذه، لكن الاسم الذي أطلقته عليها يظل أكثر دقة من ترشيحه لوصف القرن العشرين بكامله - وهو، برأيي، عبارة مرادفة للنظام البطريركي: **تفاهة الشر**.

لقد تقدم ما يدعى بتطور القرن العشرين خطوة داخل الرعب. وخلق ما يمكن أن أطلق عليه **تفاهة الخير**. وهذا يعزز أنواعاً مختلفة من الانتهاكات. فهو ينحط باللغة نحو الشعارات التجارية والجعجعة السياسية. ويقلل من قيمة العاطفة. ويغلف التأمل الفكري بانحرافات مثل «التكيف وأفضلية البقاء على قيد الحياة في الكارثة النووية». ويسمح للمتعصبين الدينيين بتفجير عيادات تحديد النسل وبيوت العبادة

باسم الحب الإلهي والمبادئ الأخلاقية. ويتطلب أيضاً الاستيعاب السريع للأفكار الإيجابية الجديدة ولفظها خارجاً بشكل فوري تقريباً، بحيث لا يحدث هضم خلال ذلك.

وعلى سبيل المثال، ثمة من يزعمون أن الحركة النسائية التحررية قد أصبحت «عتيقة الطراز» الآن. وكان ذلك الرأي، وهو تعبير مضحك عن تفكير يتوق لذلك، قد أُطلق باطراد ممل كل سنة خلال العقدين الأخيرين، منذ النشوء الأول لموجة الحركة النسائية التحررية هذه. (وقد أُطلق أيضاً ضد موجات سابقة. وكانت النساء اللواتي أعلن عن أنفسهن بأنهن نساء «ما بعد الحركة النسائية التحررية» واللواتي أكدن بأنهن «يؤيدن المرأة بدون أن يعارضن الرجل» قد شكلن مجموعة بوهيمية في نيويورك، ونشرن مجلة أدبية للمحافظة على بقاء تلك الأفكار العتيقة الطراز على قيد الحياة ـ في عام ١٩١٩). ونضحك في سرنا، فأمر زوالنا يظل مبالغاً به. ومع ذلك فمن الحقيقي أن السلطة الذكورية قد تمكنت من الانطلاق بشكل مباشر من السخرية عبر التبجح إلى السأم من هذا الموضوع دون المرور بالفهم. إنه رد الفعل المعادي، والقمع، بالتأكيد. والاختيار، حيث وعندما يمكن. والتفاهم، لا. وفي البداية كانت الفكرة جديدة جداً، عندما كانت قديمة في الحقيقة. ثم أصبحت الفكرة عتيقة الطراز، عندما أوشكت أن تبدأ بتحقيق مركز جيد.

وما دامت حقيقة النساء تظل خفية، فالمعاناة ستكون موضع تجاهل. وما دامت حقيقة المعاناة تظل خفية، فالنساء سيكن موضع تجاهل. ولكن من الأسهل أن يواجهن الرعب ويشعرن بأنهن متحدات ضمن «قضايا» سرية مجردة من أن يخاطرن بالإشفاق (بمعناه الأقدم

للشفقة والعاطفة) ويخاطرن بالمواجهة والاتحاد مع المكابد الإنساني المحدد. ويبدو أن السياسة الذكورية قد اتخذت شعاراً لها بيت الشعر القديم المرير «أحب الإنسانية؛ لكن الناس هم الذين لا أستطيع تحملهم».

وإذا كان علي تحديد خاصية واحدة على أنها ميزة لفكرة التحرر النسائي، وثقافته، وعمله، فستكون **الترابط**. وهذه القدرة، في رفضها للركود، ذكية ومتلونة، مثل رقصة الطبيعة نفسها وهي تنعكس في الطيف من علم الأحياء الدقيقة إلى الفيزياء الفلكية. وهي إذاً قدرة متقلبة ـ وخطرة بالنسبة إلى كل وضع راهن قابل للتخيل، بسبب الإصرار على **الملاحظة**. ومثل هذه الملاحظة تتضمن كلاً من الانتباه والتمييز، وهي في الحقيقة تقنية فلسفية ونشطة بالنسبة لوجودها في العالم، وكذلك بالنسبة لتغيير العالم. والملاحظة، في هذا المعنى، تتطلب أن يصبح البقاء عملية تحسس واعٍ بدلاً من إضفاء طابع الخشونة عليه. وذلك المطلب بدوره يُعتبر حاسماً، من أجل الأفراد ومن أجل الإنسانية معاً.

وباستخدام هذه التقنيات من أجل الملاحظة، إذاً، يمكننا أن نستكشف ـ ونقيم الارتباطات ونحن نستكشف ـ الأساس الأسطوري للغموض الإرهابي، والسحر الذي يحدثه الغموض لنا، والذي ننكره غالباً لكنه حقيقي مع ذلك. وتلك الأسس تشكل قاعدة ـ **وهي** قاعدة كل مجتمع ذكوري في العالم. والأسطورة هي ببساطة شكل آخر من التاريخ، التاريخ المرمز للاعتقادات الإنسانية. وهي تؤثر فينا مع ذلك، وربما أكثر من قبل، لأننا لم نعد نعترف بها، تاركين نماذجها الروحية الأصلية حرة للتأثير علينا بصورة غير واعية.

وقد اعترف جورج سوريل بالتأثير المحتمل للأسطورة على السياسة؛ وفي مقالته المثيرة للجدل **تأملات حول العنف** عام ١٩٠٨، أشار على الثوريين المعاصرين بأن:

تأطير المستقبل... يحدث عندما تتخذ توقعات المستقبل شكل تلك الأساطير التي تنطوي على... أقوى المضامين لشعب، أو حزب، أو طبقة... [،] والتي تلجأ إلى العقل مع الإصرار على الغرائز... [،] والتي تعطي مظهر الحقيقة الكاملة إلى الآمال بعمل فوري يمكن بواسطته، وبشكل أسهل من أي طريقة أخرى، للرجل [كذا] أن يصلح الرغبات، والعواطف، والنشاط العقلي.

وحين عدد سوريل «أقوى المضامين» لشعب، أو حزب، أو طبقة (ندرك سبب إعجاب موسوليني به)، أغفل «الإصرار على الغرائز» الأهم - والمتعلق بالغريزة الجنسية والتذكير والتأنيث. لكن سوريل آنئذ، كان يتحدث في الحقيقة عن الرجل.

وهذه هي الثقافة كلها.

والغموض الإرهابي هو الأخ التوءم للغموض الرجولي - والأب الأسطوري للاثنين هو البطل. وثمة سحر للإرهابي لأنه الإظهار التقني القديم للبطل.

وهو البطل المنتصر حين يفوز بثورته وينتقل إلى قصر الرئاسة (جورج واشنطن، ماو تسي تونغ، فيديل كاسترو، أنور السادات، ميناحيم بيغن)، وهو البطل الشهيد حين يخسر ويُدمَّر (سبارتاكوس، كريزي هورس، زاباتا، باتريس لومومبا، تشي غيفارا). ولأنه يحمل بداخله الإمكانية المضاعفة لقوة الانتصار وقوة التضحية، فهو يجسد

بمصطلحات بطريركية كل ما تبقى لنا ـ بعد قرون من التلاعب، والنقص، والفساد ـ مما كان عاطفة ذات مرة. ويمكننا تتبع أثره في الزمن البطريركي، ببقايا بقع الدم.

وقد اعتبر اليونانيون، بتأكيدهم على الاعتدال في كل الأمور، الحب الجنسي الحاد هياجاً، و«حماساً قدسياً»، وصنفوا العاطفة كنوع من الجنون، يحترمونه لكنهم يعزلونه في محاولة لاحتوائه. وقسم التقليد اليهودي المسيحي العاطفة إلى (العاطفة نحو الله) المقبولة و(العاطفة الدنيوية أو الجسدية) المرفوضة ـ ووجه اللوم إلى النساء باعتبارهن محرضات للأخيرة. وفي العصور الوسطى، كانت الصور المكبوتة للحرية العاطفية الجنسية قد عادت إلى الظهور في الأسطورة والخرافة والتراث الشعبي، وحتى في الهلوسة الجماهيرية: العاشق الجني أو الجنيّة التي تهاجم المحبوب في الحلم، والفارس الأسود، والعشيق البهيمي، ومفهوم «الامتلاك» (من قبل حبيب شيطاني أو ملائكي) في معان متعددة الدرجات. وكانت النساء، سواء كضحايا أو محرضات، مستهدفات في عصر النهضة باعتبارهن تجسيداً للشهوانية، وارتفع الاضطهاد المنظم للبنات والنساء باعتبارهن أدوات للعاطفة إلى مستويات جديدة مع الإحراق الجماعي للساحرات. وفي عصر التنوير، جرى قمع العاطفة من جديد، وهذه المرة عن طريق السخرية منها ونعتها بالتفاهة، تحت ثقل المنطق المزعوم. ونحن نشهد في الفترة المعاصرة انفجار العاطفة من جديد، بصورة لا يمكن تجنبها، وبقوة حيوية أشد من أن تروض، لكنها الآن، بعد قرون من التشويه والإنكار، قوة لا يمكن فصلها تقريباً عن العنف. وهذه ثقافة غربية فقط. وحين نتتبع أثر البطل عبر مجال الدين

وعلم الجمال ـ وهو ما يتطلب فصلاً خاصاً ـ سوف نلمح نمطاً ثقافياً مشتركاً ضخماً يشكل بصورة حتمية المجال النفسي الذي نعاني فيه اليوم. ومع ذلك، فإن استكشاف الأسطورة يكمن أمامنا للحظة.

وهاهي جيليان بيكير تدرج في قائمة «الرغبات» التي قد تحرض إرهابياً «عادة، التوق المباشر وغير الناضج لدور البطل». وهاهو إدوارد هيامز يشير إلى أن العمل الأول لخلايا القرن التاسع عشر الإرهابية في أوروبة كان تبني نظام الإشارات السرية والطقوس الأسطورية من الماسونيين. وهاهي مارثا كرنشو تعترف بأن «الأساطير الاجتماعية والتقاليد والعادات تسمح بتطور الإرهاب كتقليد سياسي راسخ. وثمة مثال ممتاز... هو إيرلندة، حيث يعود تاريخ التقليد المتعلق بالقوة الجسدية إلى القرن الثامن عشر، وأسطورة مايكل كولينز بين عامي ١٩١٩ ـ ١٩٢١ لا تزال تلهم، وتبرر إلى حد ما، الإرهاب الأقل تحاملاً بكثير والأقل فعالية للجيش الجمهوري الإيرلندي المؤقت المعاصر في إيرلندة الشمالية». وكرنشو لا تعود إلى الوراء بشكل كاف، وبخاصة فيما يتعلق بإيرلندة. وعلى سبيل المثال، إن الفينيان، وهي مجموعة شبه عسكرية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، دعوا أنفسهم باسم الفينيان، أو الفيانا، زملاء المحارب البطل الأسطوري أويسين، ابن نصف الإله فين ماك كول. وقصائد وليم بتلر ييتس والليدي غريغوري ومسرحياتهما، وقصص جيمز جويس، لا تزال حية في الربط بين الماضي الأسطوري لإيرلندة ما قبل المسيح ـ آلهتها، وأبطالها، وعمالقتها، وشعبها الخارق، وملوكها المحاربين المقدسين ـ وبين الصراع السياسي الإيرلندي المعاصر.

وليست إيرلندة المثال الوحيد المتوفر. فالرايخ الثالث استفاد بذكاء من أساطير نيبيلونغ. ويقرن إرهابيو الجناح اليميني الإيطاليون المعاصرون أنفسهم عمداً مع أسطورة تاريخية أكثر حداثة، وهي الفاشية، والسحر الذي مارسته على الإيطاليين في الثلاثينات والأربعينات. وتمضي مجموعة إلى درجة تسمية نفسها فرقة عمل موسوليني. وسينديرو لومينوسو (الطريق المشرق) الماوي الاتجاه من البيرو يدمج العنف الثوري مع صورة شبه غامضة، بزعمه أنه حقق النبوءة بأن حكام الإنكان القدماء سيعودون يوماً ما ليثأروا لشعبهم. وعودة إلى الولايات المتحدة، فاسم المينوتمن - وهي منظمة متطرفة محافظة جداً تتحالف أحياناً مع كو كلاكس كلان - يوحي بالتطابق مع مينوتمن ثورة المستعمرات ضد إنكلترة. وفي الجانب الآخر من الحواجز الأيديولوجية، استمد رجال الطقس اسمهم من عبارة بوب ديلان «لا تحتاج إلى خبير بالطقس لتعرف اتجاه هبوب الريح» في أغنيته «الحنين السري للوطن». (وخلال ذلك عكسوا معناه). وقد يكون صانعو الأسطورة قدماء أو حديثين أو معاصرين. والأسطورة - التي تميّز نفسها بقوتها - هي الرسالة.

وبدون الدعاية لأسطورة البطل، يُعتبر القتل عملاً قذراً. ومع أسطورة البطل، يصبح أي عمل عنيف ليس ممكناً فحسب ولكن حتمياً: فالمغتصب يتحول إلى مغرر، والمستبد يحكم بالحق المقدس، والإرهابي يعيد تكوين البطل.

هاهو يقف هناك: صغيراً، هزيلاً، مكسواً بالسواد، وجهه في الظل أو مقنع بخوذة، وحركاته رشيقة وحذرة مثل حركات قطة لصة، وجسمه المتلئ بالعضلات لا يحمل فقط الأدوات السحرية للموت بل أداة الموت

السحرية نفسها، التزامه الكلي. وهو متعصب للتفاني، ومزيج من التهور والانضباط؛ وهو يائس ولذلك فهو ضعيف؛ وهو في خطر كلي ولذلك فهو شجاع؛ وهو مثالي وفي الوقت نفسه واقعي متصلب. وفوق كل شيء، هو شخص مكرس كلياً لعاطفة. لكن عاطفته هي الموت.

ونحن ندرك أن هذه قوة ضارة. وندرك بشكل أقل ما يكمن وراء قناع التزلج الذي يضعه أو جورب النايلون الذي يشوه قسماته: الرجل البارز في تراث الترفيه الشعبي، بطل الملايين. ورجل ماي وست الجنسي المقنع. والحارس الوحيد. وزورو. وأبطال الكتاب الهزلي الرجل العنكبوت والفانوس الأخضر. والحيوية المسلوبة الشخصية لدى ماردي غراس، والكرنفال، والحفلة التنكرية. والمتبجح، وقاطع الطريق، والقرصان، والمتهور، وطريد العدالة. والأمير الضفدع. والوحش الذي يهدد الحسناء. والأزياء، والثياب الموحدة، والأقنعة، التي يرتديها رجال الكنيسة والجيش (كما أشارت فرجينيا وولف في **ثلاثة جنيهات**)، ورجال الشركات، والمتطرف العصري أو اليوبي، وسائق الدراجة أو الزعيم. وكانت أقنعة البطل وملابس الامبراطور يفصلها نفس الخياط، وللغرض نفسه.

وقد يجيب أحد الأشخاص، «لكن هذا هراء، فالإرهابي هو رجل يرتدي قناع التزلج أو قناع الجورب لأنه لا يريد كشف هويته؛ إنه ببساطة لا يريد أن يعرف أي شخص من هو، وهذا كل شيء».

وهذا ما أقصده بالضبط.

ومن ت. إ. لورنس التاريخي إلى ريت بتلر الخيالي (الذي كان مهرب أسلحة، هل تذكرون؟)، ومن السوبرمان الخيالي إلى أوبرمنش

التاريخي، ومن دمية الحرب إلى لعبة الحرب، إنه الهومبر، «الرجل». ويبتسم منتج السيارة الرياضية لامبورغيني التي ثمنها ١٥٠٠٠٠ دولار بشكل ساخر وهو يتحدث بصوت خفيض في مقابلة تلفزيونية، «لامبورغيني هي البيان المطلق لطريد العدالة».

والقناع، كما ترون، أمر ضروري.

فهو يحافظ على غموضه ويعززه. ويعرقل الكشف. ويمنعنا من تمييزه مع كل ظهور مميت جديد. كما يساعد أيضاً في منعه من إنجاز ما يزعم بشكل يائس جداً أنه يسعى لتحقيقه: المعرفة الذاتية.

ويكتب جوزيف كامبل، في عمله الكبير **البطل ذو الألف وجه**، «البطل هو رجل الخضوع الذاتي. ولكن الخضوع إلى ماذا؟ ذلك بالضبط هو اللغز الذي علينا أن نسأل أنفسنا عنه اليوم والذي هو في كل مكان الفضيلة الأولى والصنيع التاريخي الذي على البطل أن يحله». والبطل لم يحله. ولو فعل ذلك، لجعل نفسه غير ضروري.

ويتعقب كامبل النموذج الأصلي عبر ٤١٦ صفحة مزدحمة بالأمثلة من ثقافات عديدة، من الماضي والحاضر، على امتداد كوكبنا. ويصور نوعين من البطل: المنقذ العرقي /العشائري/ المحلي، الذي يراه في موسى العبراني أو تيزكاتليبوكا الأزتيكي؛ والمنقذ العالمي، الذي يميزه في محمد، أو المسيح، أو غاوتاما بوذا. ويحذر كامبل بإدراك أنه بينما «ينتصر الأول على مضطهديه الشخصيين، فإن الثاني يستعيد من مغامرته وسيلة لتجديد مجتمعه بكامله. والأبطال العشائريون أو المحليون... يقدمون عطاياهم إلى شعب واحد؛ والأبطال العالميون... يأتون برسالة إلى العالم كله».

الأولى أنه يغفل التفوق العرقي العالمي التعيس الملازم لعملية التقسيم. وبالنسبة لجميع الشعوب، إن «وضعها الشعبي» الاستثنائي الخاص **هو** العام، و**هي** المجتمع كله. وقد أكدت آلة الدعاية في الرايخ الثالث أن الشعب الألماني هو Das Volk (ليس شعباً، بل **هو** الشعب)، وينطبق الاتجاه نفسه على مفاهيم وعبارات مثل الهان (الشعب) في الصين، واليهود بصفة الشعب المختار، وروسية الأم المقدسة، والقدر الواضح للولايات المتحدة، وآلاف الأمثلة الأخرى لمجموعة معينة تعتبر نفسها المركز والمنقذ لكل مجموعة أخرى، سواء رغبت أي مجموعة أخرى في ذلك أم لم ترغب. وهذا هو قلب القومية والعذر الأقدم للامبراطورية. ولذلك، فإن تصنيف كامبل الاعتباطي (والمتميز بالتفوق العرقي) لموسى كبطل «محلي» وللمسيح كبطل «عالمي» يُعتبر مضللاً، وبخاصة لأن المسيح (ومحمد، وغاوتاما بوذا)، سواء أكان شخصية تاريخية أم نموذجاً أسطورياً، كان يُدرك **ذاتياً** بأنه «محلي» وقد أتى بالإنقاذ أو التحرير إلى «شعبه» الخاص. ويقودنا هذا إلى حالة سوء الإدراك الثانية لدى كامبل، بأن الأبطال العالمين، على عكس أولئك الفتية المحليين، يحدثون إحساساً أعظم وأوضح بالجماعة. والحملات الصليبية، والجهاد (الحروب الإسلامية المقدسة)، والنزاع الديني الذي عمره ألف سنة على شبه القارة الآسيوية يدل بالتأكيد على أن التابعين الخاصين للمسيح ومحمد وبوذا قد فهموا حتماً رسالة قادتهم حول الولاء **العشائري**، حتى ولو كان كامبل، في إنسانيته الخاصة، يتوق إلى تجاهل ذلك. وحالة سوء الإدراك الأخيرة، والأكثر أهمية من الجميع، والتي تعتمد عليها في الحقيقة الاثنتان السابقتان، هي الإحساس

بالتفوق **الذكوري** لدى كامبل، والذي يتكشف في نص لغته والروح التي يقبل بها مفهوم الإخضاع: «سيد الكون» الذي يعتبر جميع «البشر إخوة له». وبضربة واحدة يتضاءل غموض الكون إلى هدف للإخضاع، وتزول نصف الأرواح البشرية التي تتوق إلى الإنقاذ والتحرير ويختفون.

وينتبه كامبل ليعلن أن البطل قد يكون ذكراً أو أنثى، مع أن أكثر من ٩٠ بالمائة من أمثلته المستمدة من الأسطورة والخرافة والقصص الشعبية تصور البطل بأنه ذكر. وما لا يراه كامبل هو أن البطلة الأنثى الرمز هي محتالة في عالم خلقه وحدده الوعي الذكوري وعززته السلطة الذكورية؛ وهي لم تعد بعد ممثلة حقيقية لغالبية النساء أكثر مما تُعتبر الصورة المطوية الكبيرة في وسط مجلة Playboy تمثيلاً حقيقياً لأجساد غالبية النساء. والإخفاء القسري للحقيقة، والإلغاء المفروض للأنثى، يتداخلان مع **عدم الملاحظة**، ويكمنان في جوهر النظام البطريركي نفسه. والأخطار، والبحث، ومنح السلطة، والإخضاع، والسيادة، والأخوة، والمصطلحات نفسها ـ لا شيء منها مستمد منا أو من تجربتنا الأنثوية، أو لصالحنا أو لصالح تجربتنا؛ ولا شيء منها يخصنا.

ويمكن القول، أيضاً، إن البطل الذكوري ومطلبه لا يمثلان غالبية الرجال. ولكن يجب حينئذ السؤال عما إذا كان غالبية الرجال يلاحظون ويدركون **ذلك**. هل يفعل ذلك الأولاد الصغار، وهم يلعبون بدمى الأسلحة والدبابات والسفن الحربية والقنابل المشتراة أو البديلة المؤقتة؟ وهل يفعل ذلك الشباب، وهم يرقصون رقصة الحرب في مناسك سن البلوغ أو يتسكعون بخشونة على زوايا الشارع أو يقومون بالشكل المميز لذلك في بيوت الأخوة؟ هل يفعل ذلك الرجال البالغون، المسعورون

بألعاب كرة القدم أو الرغبي، ومباريات الملاكمة ومصادمات الهوكي (التي يعتبرونها استجماماً) كاستراحة من مناورة تحقيق السلطة في الشركة أو الكنيسة أو الحكومة أو المجال الأكاديمي (التي يعتبرونها مهنة)؟ هل يفعل ذلك الرجال الذين يقتلون الحيوانات للرياضة؟ هل يفعل ذلك الرجال الذين ينضمون طوعاً إلى الجيش أو يسمحون بتجنيدهم؟ هل يفعل ذلك الرجال الذين «يطيعون الأوامر فقط»؟ هل يفهم أي من هؤلاء الرجال أن البطل هو تلفيق ناجم عن نقص خيالهم، وأنهم يمكن أن يتنفسوا بعيداً عن تأثيره على موتهم العادي؟ أم هل يقوم كل منهم، بشكل سري أو علني، بالتطابق معه؟ وكيف يمكن لإنسان ذكر ألا يتطابق معه، حين تصبح السلطة ـ ليس بالضرورة السلطة البطولية، بل السلطة العادية بأشكالها المتعددة ـ حقاً شرعياً لذلك الإنسان الذكر لمجرد كونه ولد ذكراً في النظام البطريركي؟ إن الأخطار، والبحث، ومنح السلطة، والإخضاع، والسيادة، والأخوة، المصطلحات نفسها، هي مستمدة من تجربته هو ولصالحه؛ وجميعها تخصه.

والبطل هو الرجل العادي المجسد بصورة ضخمة، والذي يعرض بدوره على نحو مستمر ذلك الوعد بالتضخم للرجل العادي. وهو ينجز وعده الإجمالي بما يكفي غالباً ليظل مغرياً، وهو ينجز جزءاً من وعده كل لحظة ـ كطعم لسلطة الذكر على الأنثى ـ بما يكفي لإبقاء الرجل العادي في العبودية. والجرعة اليومية من السلطة على حياة شخص آخر (لا يهم إلى أي درجة قد يكون الرجل نفسه خاضعاً تماماً إلى رجال آخرين) تحمل بالأحرى الطابع الإدماني المتهور. والسلطة، تمييزاً لها عن القدرة، تقع الآن إلى حد كبير في شرك الثقافة العالمية إلى درجة الظن بأنها طبيعة بشرية، بينما تعكس بشكل أدق القوى المحركة البشرية

الذكورية. لكن «الطبيعة البشرية» تبدو غير قابلة للتحدي بصورة كافية، و«طبيعية» بشكل مريح. وبذلك يصبح التمييز بين الذكورة والأنوثة حالة طبيعية وغير مرئية تماماً من الأمور - حتى في الحياة الخاصة للرجال الليبراليين الذين يقدمون عروضاً «بطولية» عامة لشجبها. ولنحتفظ بهذه الحالة الطبيعية في ذهننا ونحن نتذكر أن الغالبية الساحقة للإرهابيين هي من الذكور. ولنحتفظ بذلك في ذهننا ونحن نتذكر تصريح مارثا كرنشو بأن «الخاصية العامة البارزة للإرهابيين هي حالتهم الطبيعية».

ونحن مسلحات بهذه الأفكار الثاقبة، يمكننا الخروج لمقابلة البطل الأسطوري، حيث يندمج مع الإله، والملك، والملك الإله، والمحارب، والمحرر، والمنقذ. وقد اخترعه، مع ذلك، مجرد بشر معرضين للفناء - العقل الباطن «الذكري» الجماعي - وتم بناؤه تدريجياً أو أعيد بناؤه خلال حقب طويلة. ولنستمع إلى السير جيمز فرايزر وهو يصف تلك المهمة الثقيلة للاختراع في دراسته الضخمة عن الأسطورة، **الغصن الذهبي**:

ما من رجال بالتأكيد كانت لديهم حوافز أقوى... من هؤلاء السحرة الهمجيين. وكان إبقاء التظاهر بالمعرفة على الأقل ضرورياً تماماً؛ فمجرد اكتشاف خطأ وحيد قد يكلفهم حياتهم. ولا شك أن هذا قد أدى بهم إلى ممارسة الخداع لإخفاء جهلهم؛ لكنه أمدهم أيضاً بالحافز الأقوى لاستبدال المعرفة الحقيقية بالزائفة...

أليس هذا منطقاً قابلاً للتكيف تماماً من أجل اختبار القنابل النووية، مع التهديد الواضح والسعي وراء المعرفة كتبريرات مضاعفة؟

والبطل يرتدي، كما يعبر كامبل عن ذلك، ألف وجه. لكن يملك مظهراً جانبياً وحيداً، يتغير في التفاصيل البسيطة لكنه يظل محافظاً على جوهره نفسه من ثقافة إلى أخرى. وهو يتيم عادة، وأبوه قتيل أو مجهول (أوديب، إبراهيم، كوتشولين الأيرلندي) أو إله غامض (ثيسيوس، هرقل، المسيح). ويأتي من نسب نبيل ومع ذلك فإن ذكره غير واضح في طفولته (أوديب، تشاندراغوبتا الهندي، سيغفريد، المسيح) أو ينشأ في بيت نبيل لكنه يختار الفقر وهو شاب (موسى، جوزيف، بوذا). وهو مع ذلك رفيع الثقافة وذو براعة جسدية فائقة، ويعرضها بشكل مبكر في أعمال مدهشة. ويتعرض للاختبار بقوة وهو صغير، وينجو من الموت بصعوبة (الهروب إلى مصر، هرقل الطفل يخنق الثعابين في مهده، البطل الفلندي فاينامويتن يمتد صامداً طوال قرون)، ويرسخ سجلاً من الإنجاز الضخم. ودعوته ـ كي ينقذ أو ينتقم لعائلته، أو عشيرته، أو شعبه ـ تأتيه وهو شاب (أوديب عند أبي الهول، المسيح يعظ في الهيكل، كريشنا الهندي وكوتشولين وسيغفريد ينجزون أعمالاً مدهشة وهم لا يزالون أولاداً). ولإدراكه بأنه يواجه موتاً مبكراً إذا تولى القيام بقدره البطولي (أورفيوس، المسيح، أوسيريس المصري، فوتان الجرماني، بران الويلزي، أدونيس البابلي)، فإنه يجد الشجاعة عبر المساعدة الإنسانية و/أو الخارقة، ويتعلم إخضاع نفسه إلى قوة أعلى/زعيم قضية/إله، ويتابع مهمته وقدره. والأرض تتطهر بدمه. والمحاصيل تزدهر. وعبر موته، يتطهر الناس في عملية تطهير طقسية، وبذلك يُبعثون.

وكما يصفه كامبل:

هذا الموت وفقاً للمنطق والالتزام العاطفي للحظتنا العابرة في عالم المكان والزمان، هذا التمييز، والتبدل في تأكيدنا، للحياة الكونية التي تنبض وتحتفل بنصرها بنفس قبلة إبادتنا، هذا... الحب للقدر الذي هو الموت الحتمي، هو الذي يشكل تجربة الفن المأساوي؛ ومن هنا تنشأ بهجته، ونشوته المعوضة...

وقوة البطل، إذاً، تكمن في موته أولاً من أجل «المنطق والالتزام العاطفي» لبهجة بسيطة في الوجود؛ وقوته متجذرة في تأكيده على «نفس قبلة إبادتنا»؛ وسحره يتوقف على «حبه للقدر الذي هو الموت الحتمي». وهو شجاع، يتخلى عن أنانيته ومنفصل عن أنانية الآخرين، ومنقطع عن المنطق الحي وشفقة الالتزامات العاطفية، ويعترف فقط بالنشوة المعوضة للموت المأساوي، **والبطل يعيش مسبقاً كرجل ميت.** وكرجل ميت يكون جريئاً، لأنه كرجل ميت لا تقهره أي قوة حياتية.

لكن هذه هي الصورة الجانبية لخلفية البطل فقط. وهو يبلغ نضجه وكمال قواه بالمرور عبر المراحل الطقسية، وكل منها يوحي بالتراث الذكوري. ومع ذلك فقبل أن نتتبعه عبر مناسك انتقاله، سنتوقف ونلقي نظرة على الصورة الجانبية الأخرى.

وقد رسم تشارلز أ. راسل وبومان هـ. ميلر صورة اجتماعية للإرهابي، مستندة إلى تجميع وتحليل لبيانات منشورة تتضمن ٣٥٠ جماعة وقادة إرهابيين منفردين من مجموعات أرجنتينية، وبرازيلية، وألمانية، وإيرانية، وأيرلندية، وإيطالية، ويابانية، وفلسطينية، وإسبانية، وتركية، وأورغوية ناشطة بين عامي ١٩٦٦ و١٩٧٦. وقد ركزا بشكل خاص على ثماني عشرة مجموعة، ودرسا «الإرهابي المديني الحديث»،

بالمقارنة مع مقاتل حرب العصابات الريفي. وتضمنت المجموعات أولئك المتورطين بأعمال خارج الحدود المحلية (مثل الجيش الأحمر الياباني) بالإضافة إلى المتورطة محلياً والملتزمة بالصراعات العرقية فقط (مثل ETA، يوزكادي تا أسكاتاسونا، وحركة أرض الأجداد والحرية الباسكية). ودراستهما مطولة ومفصلة؛ واستنتاجاتهما تعليمية.

الجنس: «على الرغم من الفوارق البسيطة بين بعض المجموعات المدروسة، يظل الإرهاب المديني ظاهرة ذكورية بصورة سائدة». وأكثر من ٨٠ بالمئة من جميع «العمليات الإرهابية البارزة» كانت «بتوجيه الذكور وقيادتهم وتنفيذهم» خلال العقد المدروس*.

العمر: «... متماثل بشكل متميز من مجموعة إلى مجموعة... والإرهابي المديني العادي كان بين ٢٢ و٢٥». (مجموعة الجيش الأحمر، المعروفة أكثر باسم مجموعة بادر ماينهوف، كانت استثناءً لهذا، بعمر متوسط يبلغ (٣١,٣) كما أظهرت أيضاً حضوراً عالياً غير عادي للنساء - حتى في القيادة).

الخلفية الاجتماعية والاقتصادية: «أتى ما يزيد عن الثلثين من الطبقتين الوسطى أو الراقية في دولهم أو مناطقهم الخاصة.

---

* تتضمن استثناءات جديرة بالذكر لهذا النموذج التوباماروس ومجموعة بادر ماينهوف، واللتين سندرسهما بتفصيل أكبر فيما بعد. وحتى الآن يحتوي النموذج على أكثر الخلايا والمنظمات. وعندما يتضمن ذلك النساء على أي حال فإنهن على أساس موظفات مساندات: ممرضات، وساعيات، ومضيفات للمخابئ، ومسهلات للتوثيق المزيف، وتخزين الأسلحة، وجمع الأموال، الخ. وإحدى الصفات التي تميز سيئ السمعة «كارلوس» - إليتش راميريز سانتشيز، الإرهابي الفنزويلي المولد كما يصرح عن نفسه والمرتبط حالياً بالعمليات الأوروبية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - هو استخدامه لمصادر معلومات من الإناث عبر أوروبا في هذه الأدوار المساندة. وفي الطرف الآخر، تعارض ETA الباسكية مشاركة النساء بشدة لأن «مكانهن هو البيت» و«يتحدثن أكثر من اللازم، وبخاصة إلى راعي أبرشيتهن» (روبرت ب. كلارك، «نماذج في حياة أعضاء ETA»، **الإرهاب: سجل دولي**، المجلد ٦، العدد ٣ [١٩٨٣]، الصفحة ٤٢٧).

وفي غالبية الأمثلة كان آباؤهم من أصحاب الحرف (أطباء، محامين، مهندسين...)، أو موظفين حكوميين، أو دبلوماسيين، أو رجال دين، أو ضباط عسكريين، أو حتى موظفين في الشرطة أحياناً. ومع أن هؤلاء الآباء كانوا جزءاً من الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية الموجودة، فإن العديد منهم كانوا خائبي الأمل في جهودهم لاستخدامهم كأدوات في سرعة التحرك المتصاعدة». ويعكس الإرهاب بوضوح البديهية القديمة بأن من يقوم بالثورات هم أصحاب التوقعات العالية أكثر من المعرضين بقوة للاضطهاد. وفي الجيش الجمهوري الإيرلندي المؤقت فقط ثمة اختلاف متميز في التركيب، بوجود الكثيرين من طبقة اجتماعية واقتصادية أدنى.

التعليم والعمل: «..إن الثلثين... هم أشخاص يحملون بعض التعليم الجامعي، أو خريجون جامعيون، أو طلاب دراسات عليا». وترتفع النسبة إلى ٧٥٪ بين مجموعات أمريكا اللاتينية، وبخاصة التوباماروس، والمونتونيروس، و ERP (الجيش الشعبي الثوري الأرجنتيني). وقد تعلم العديدون في الخارج ويتحدثون لغة ثانية. وغالبية أعضاء جيش التحرير الشعبي التركي كانوا طلاب جامعة تقنية في الشرق الأوسط أو خريجين. وجانجاكومو فيلترينيلي، ناشر الكتب المليونير، كان شخصية رئيسية في الإرهاب الإيطالي اليساري. وقد أسس الألوية الحمراء الإيطالية عالم اجتماع، وقاد رجل اقتصاد ERP الأرجنتينية، وأوجد محام التوباماروس؛ وكان تشي غيفارا طبيباً، وأندريس بادر محامياً. وحركة الطقس السرية، التي تدعى أيضاً باسم رجال الطقس - وكلهم من البيض، ومن الطبقة المتوسطة أو الراقية،

ومتعلمون ـ قد اتبعوا هذا النموذج كما لو كان نظاماً مباشراً. ومن جديد، يُعتبر الجيش الجمهوري الإيرلندي المؤقت فريداً من نوعه.

الحالة العائلية: «لا يزال الإرهابي الأعزب هو القاعدة». وكان أكثر من ٧٥ ـ ٨٠٪ عازبين. «بعض الأفراد القليلين المتزوجين المتورطين في النشاطات الإرهابية الألمانية (ماهلير، ماينهوف، لوثر) قطعوا الروابط مع الزوجات والأولاد كي يتابعوا الطرق الإرهابية. وفي حالة توباماروس الأورغوية فقط، وهي مجموعة وفقاً إلى... ريجيس ديبراي ربما تكون قد حصلت على أكبر استفادة من النساء [كذا]، وكان حوالي ٣٠٪ من الملاك الإرهابي متزوجين».

وفي الطبعة المنقحة من عملها الذي أصبح كلاسيكياً الآن، **خلف الحجاب: الفعالية النسوية ـ الذكورية في المجتمع المسلم الحديث**، تعرض فاطمة المرنيسي، عالمة الاجتماع المغربية والباحثة النظرية في الحركة النسائية التحررية، تحليلاً موازياً، وهو «تحليل المتشدد». وهذا موضوع ذو أهمية خاصة بالنسبة إلى أنصار الحركة النسائية التحررية للعرب والمسلمين لأن المتشددين الدينيين يهددون (وينجحون غالباً) في إعاقة حقوق النساء التي تحققت بصعوبة. وتحذر المرنيسي بأن المتشدد ليس جاهلاً ولا عديم الثقافة. وتستشهد بدراسة سعد الدين إبراهيم المتعمقة حول أربعة وثلاثين مقاتلاً إسلامياً مصرياً، ونتائج بحثه في أن المقاتل المتشدد ينتمي إلى الطبقة المتوسطة، ويفضل الفروع العلمية من المعرفة، ويقوم بأداء جيد بصورة استثنائية، وبخاصة في الطب، والهندسة، والعلوم العسكرية التقنية، والصيدلية. وبالإضافة إلى ذلك، إن أكثر الأعضاء يأتون من «أسر طبيعية متماسكة»، ولكن من خلفية ريفية

حديثة. ويُعتبر العامل السكاني - «المكون للشباب» بين السكان - وأمثال هذه الهزات الاجتماعية الاقتصادية والسياسية باعتبارها قابلية متصاعدة مفاجئة للحركة والزوال الجغرافي، مكونات رئيسية أخرى.

ويُعتبر العمر (كعامل معترف به) والجنس (كعامل معترف به بشكل أقل) عنصرين حاسمين. والدكتورة رونا فيلدز عالمة نفسية سريرية تقيم في الولايات المتحدة وأمضت عقدين وهي تعمل مع أطفال من إيرلندة الشمالية وفي معسكرات اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأوسط. وخلال ذلك الوقت، واجهت العديد من الأطفال الذين عملت معهم، بعد أن أصبحوا بالغين، وانضمت، في بعض الحالات، إلى مجموعات إرهابية. وكان العديد من هؤلاء الأطفال قد نجوا من إذلال الطفولة وإضعافها في حالات التهديد اليومي للحياة. وبالنسبة لهم، كان إنكار الموت المتحد مع الاتقاد الدائم أمراً مميزاً، بالإضافة إلى عدم القدرة على رؤية أي طريق حقيقي للخروج من الضعف حتى آخر حياتهم. ويجب ألا يصدمنا أن هذا بدوره قد أوجد رؤيا ثنوية محددة للكون، على أنه أسود أو أبيض، جيد أو شرير. وقد وجدت الدكتورة فيلدز أن النماذج الموجبة الوحيدة، البالغين الوحيدين الذين بدا أنهم يسيطرون على قدرهم ويتصرفون وكأن أفعالهم تحدث فارقاً، كانوا أولئك الذين ينتمون إلى المجموعات الإرهابية: وهم الذين استطاعوا ملء توق الأطفال إلى آباء أقوياء يشعرونهم بالحماية. وكان أغلب الأطفال قد تجاوزوا مناوشة قريبة واحدة على الأقل مع الموت عند وصولهم إلى بداية سن المراهقة، سواء نتيجة المرض أو الهجوم المباشر. وبعضهم سبق له أن تعرض للسجن. وقد كان لهذا أثر كبير على الأولاد من الناحية الثقافية بشكل مختلف تماماً عن تأثيره على البنات.

هذه التجربة ضربة رهيبة لهويتهم كرجال، وهم يعوضونها بالانضمام إلى هذه المجموعات.

ومن الناحية الثقافية، **لا يُعتبر الضعف ضربة لهوية البنات كإناث؛** وبشكل ما، يُعتبر تدريباً مناسباً. والإحساس بالذنب في البقاء على قيد الحياة، والانتقام للأخطاء التي وقعت بحق أسرة المرء، هما مكونان إضافيان أثرا على الأولاد. وقد درست الدكتورة فيلدز أطفالاً فلسطينيين نجوا من مذبحة مخيمي صبرا وشاتيلا للاجئين في لبنان عام ١٩٨٢. وقبل المذبحة، كان الأولاد قد تحدثوا باستياء ضد التدريب العسكري الذي يجري حضهم على تلقيه منذ سن الثامنة فصاعداً، وكانوا غاضبين بشكل خاص من القوات الفلسطينية شبه العسكرية التي عرضت عليهم التدريب. ولكن:

بعد المذبحة، شعر الأولاد بالأسى والإحساس الشديد بالذنب نتيجة مشاعرهم السابقة بالاستياء... وشعروا بأنهم مسؤولون بشكل ما... وشعروا بأن الطريقة الوحيدة التي يمكنهم التعويض فيها هي الحلول مكان الذين قُتلوا. لقد تُركوا مع استحواذ يقتصر على أمر واحد هو الانتقام.

وهكذا، تتضح الرؤية. وهي بشكل أولي لشخص ذكر، شاب، من عائلة «جيدة»، متعلم ومثقف وماهر، يُظهر نضجاً مبكراً وموهبة، مجتث ومعبأ بشكل اختباري نتيجة فترة الثورة، ومتقد بهذه الحالة، وتتملكه معاناة شعبه. وهو مثالي، وشجاع، ومنضبط ذاتياً، ومع ذلك لا يستطيع إيجاد طريقة للخروج من الإحساس بالذنب، والأسى،

والعجز حتى يواجه معلمه /زعيمه/ إلهه. وهو يُهيأ بعدئذ لاتباع طريق نكران الذات. ويحطم كل الروابط الإنسانية الأخرى. هو مدرك للأخطار، لكن هاجسه في الإنقاذ أو الانتقام لقضيته، إلى جانب اقتصاره على حب مصيره المأساوي، يقرر مصيره. ويرفع البندقية.

أو صولجان السلطة، أو العصا. أو نصوص القانون. أو الصليب.

أبكي من أجل أدونيس. فالآن فقط يبدأ صنع البطل فعلاً: تجربته واختباره، مناسك انتقاله، وتشكيل إله منه.

وسوف يرافقنا كامبل ويكون دليلنا. وهو يرى ثلاث مراحل رئيسية، كل منها ذات مراحل فرعية. أولاً: **الانفصال والمغادرة**؛ وتتضمن هذه الدعوة للمغامرة، ويحاول البطل الهروب من المهمة أو الدعوة، وظهور معلمه، أو دليله، أو مجنِّده، أو مساعده. ثانياً: **اختبارات الانضمام والانتصارات**؛ وتشمل هذه المرحلة المجازفات والأخطار، ويواجه البطل الماغنا ماتر (رمز الأم أو «المرأة الفاضلة»)، وتجنبه للمرأة الغاوية («المرأة الشريرة» المتحررة جنسياً والمتمكنة ذاتياً)، وتكفيره عن رمز الأب المفقود وامتزاجه معه. ثالثاً: **العودة والاندماج في المجتمع**، والذي يمكن أن يحدث بطريقتين: إما بموت /تمزيق/ تشتيت البطل عبر شعبه ـ حيث يزودهم استشهاده ويلهمهم بالقدرة المعززة ـ أو عبر نصره، حيث تحررهم تعليماته الروحية وأمثولته (أو نصره الدنيوي وقوته العلمانية). وبأي طريقة، كما يخبرنا كامبل، «يكون تأثير المغامرة الناجحة للبطل هو الفتح والإطلاق ثانية لتدفق الحياة في جسم العالم».

وعلي أن أستطرد للحظة هنا، وأشير إلى أنه في لحظة كتابة هذا ـ

وكذلك في لحظة قراءتكم ـ ثمة ثلث مليون امرأة في المخاض؛ ٣٠٠٠٠٠ كائنة بشرية قد انحنين الآن في تقلصات، وهن يصرخن أو ينشجن أو يلهثن بألم. وأكثرهن مصابات بفقر الدم أو سوء التغذية، وبعضهن يعانين من الجوع، وأكثرهن يفتقرن إلى المساعدة الطبية الحديثة، وبعضهن يفتقرن حتى إلى قابلات القرية، والعديد منهن تعرضن للتشويه التناسلي بالختان أو الإغلاق، والعديدات سوف يمتن خلال الولادة، أو يلدن أطفالاً ميتين، أو مصابين بفقر الدم، أو مدمنين على المخدرات، أو مرضى أو مشوهين، والكثيرات منهن لم يتجاوزن سن الثانية عشرة، وبعضهن في المخاض لإنجاب طفلهن الرابع عشر أو الخامس عشر. وفي هذا الوقت ثمة ثلث مليون امرأة ـ غارقات في العرق، ومخضبات بالدم، ومنهكات، وبعضهن على وشك الموت».

وهذا لا يعتبر مغامرة. ولا يُطلق عليه تعبير مهمة البطل. إنه مجرد أمر «طبيعي».

لكننا حينئذ نكون قد ضللنا عن البطولة.

عودوا معي ثانية إلى المراحل الطقسية في تحول الولد إلى رجل، والرجل إلى بطل، والبطل إلى إله. وكل مرحلة في زي أو آخر، هي استهلال مغيظ في عملية الاحتضار والموت. وخلال ذلك، يكتسب البطل مهارات أكبر ويعزز تلك التي برع فيها مسبقاً. ومن الأسطورة اليونانية إلى الأسطورة الإفريقية المركزية، هناك الفكرة المهيمنة المتكررة في مواجهته لوصي مخيف عند كل خطوة من طريقه؛ وبالتفوق على الوصي فقط في منافسة ذكية أو قوة وحشية يمكن أن يظفر بالأدوات أو المعرفة السرية. وعلى البطل عادة أن يكون مولوداً مرتين أيضاً. وهذا

حاسم بالنسبة إلى انفصاله عن الأم؛ وعليه إما أن يلد نفسه أو يجد شكلاً **ذكورياً** قوياً يحمله: ديونيسوس من فخذ زيوس، يونس التوراتي ورافن بطل الإسكيمو اللذين ابتلع الحوت كلاً منهما لكنه يعود إلى الظهور ثانية وهو أقوى من قبل، موي البولينيزي وماكول السلتي اللذين التهمهما مخلوق بشع لكنهما استطاعا قتل المخلوق والهرب. وعندما «يولد ثانية» فقط يصبح البطل مستعداً لمواجهة قوة الأنثى.

وقد ظهرت هي مسبقاً بأشكال متعددة، وهي بشكل متكرر المساعدة التي بدون معاونتها لم يكن قادراً على اجتياز خطوات سابقة. إنها آريادن التي تدل ثيسيوس على الطريق إلى متاهة مينوتور (الذي يهجرها لاحقاً). وهي ميديا التي تنقذ جيسون من أبيها الحقود (وهو يخونها لاحقاً). وهي بياتريس دليلة دانتي، وغريتشن ملهمة فوست، ومريم العذراء، مصدر الشفاعة لدى الأب الغاضب. وهي المرأة العنكبوت لدى الشعوب الأصلية في الجنوب الغربي من أمريكا الشمالية. وقد أظهرت نفسها مسبقاً إلى البطل على أنها الأم الكبيرة. لكنها تظهر الآن بصفتها كائناً **مستقلاً بذاته**. وهي ليست موجودة الآن فقط كمصدر عون له. وهي الآن الخطرة. وهي الآن المغوية، والميدوسا، والمرأة الطائشة في الفلكلور الروسي، والشريرة الماكرة، والمجدلية، والساحرة. وإذا كانت موجودة (برأيه) من قبل، على أنها عطية يمكن استخدامها ثم رميها، فهي موجودة الآن (برأيه) على أنها تهديد يجب الهروب منه أو إخضاعه. إنها المفعول به؛ وهو الفاعل. هي الاسم؛ وهو الفعل:

تمثل المرأة مجموع ما يمكن معرفته. والبطل هو الذي يتوصل إلى المعرفة. ومع

تقدمه... يخضع شكل الإلهة بالنسبة له إلى سلسلة من التبدلات: ***وهي لا يمكن أن تكون أعظم منه****، مع أنها يمكن أن تعد دائماً بأكثر مما يستطيع أن يفهم حتى الآن... والزواج الغامض... يمثل* ***سيادة*** *البطل الكلية على الحياة؛ لأن* ***المرأة هي الحياة، والبطل هو مدركها وسيدها****... واختبار البطل... جعله* ***قادراً على تحمل الامتلاك الكامل للأم المدمرة****، عروسه الحتمية. ومع ذلك فهو يعرف أنه* ***هو والأب واحد****: هو في مكان الأب. (التأكيد لي).*

وهي بالنسبة للبطل مجرد مرحلة أخرى في الطريق إلى هدفه كي يكتشف ويصبح الأب، ولذلك يصل إلى حالة الموت التي يدرك أنها مجددة لشعبه. وكي ينجز هذا، عليه أن يستخدم ما تمثله ولكن «بالسمو عليه»: نقطة الاتصال بالحبل السُّري، وتر أخيل الذي لمسته أصابع حياة الأم، وحيث أُضعفت إمكانية المعرفة التامة [للأب]. وبتعبير أوضح، **لأنها تمثل الحياة، فهي المدمرة النهائية لأكثر ما يقدره ـ الموت**.

لكنه وصل الآن أخيراً إلى عرش الأب، قلب المتاهة. وكامبل، بالتأكيد لا يدرك المعنى الكامل لما يقول، فهو يخبرنا:

إن مشكلة البطل الذاهب إلى لقاء الأب هي أن يكشف روحه متجاوزاً الرعب إلى درجة يكون معها مستعداً لفهم كيف أن مثل هذه المآسي المرضة والمجنونة في هذا الكون الواسع والقاسي قد أكدت كلياً فخامة الكون... وهو يشاهد وجه الأب، ويفهم ـ ويتم التكفير عن الاثنين.

هل كان هذا هو العيب القاتل في إدراك النساء للكون؟ والذي برغم المحاولات والتجارب التي طالت ألف سنة والتي قزمت كلمة

«مغامرة»، وبرغم حقب الصراع التي أبهتت كلمة «بطولة»، لا تزال النساء يفشلن في إدراك الكون على أنه قاس فحسب، ولا تزال النساء يعتبرن الحياة شيئاً أكثر من عقبة في طريق الموت؟

والبطل لا تعوقه مثل هذه المسائل الطفولية. وبعدما أنجز الآن التكفير مع الأب، يمكنه أن يرجع إلى شعبه إما بصفته رسولاً أبوياً أو بصفته الأب. وهناك شرك مضلل واحد فقط: «أن يصبح بطل الأمس مستبد الغد، ما لم يصلب نفسه اليوم».

وفي تلك الجملة بالذات نلمح كل التاريخ البطريركي.

وقد فسر فرازير هذا النموذج بأنه يعكس منطق ما دعاه «العقل الوحشي»:

إذا كان مجرى الطبيعة متوقفاً على حياة الرجل ـ الإله، فأي كوارث لا يحتمل توقعها من الإضعاف التدريجي لقواه وانقراضها النهائي في الموت؟ وهنالك طريقة واحدة فقط لتفادي هذه الأخطار. يجب قتل الرجل ـ الإله حالما يُظهر أعراضاً بأن قواه قد بدأت تهن، ويجب أن تتحول روحه إلى وريث نشيط... وعندما ينجح الملك أولاً في التوصل إلى قبول حياة شخص آخر كضحية بدلاً من حياته، يصبح عليه إظهار أن موت ذلك الآخر سيخدم الغاية تماماً بالإضافة إلى موته هو... وعلى البديل أن يُستثمر، على الأقل في هذه المناسبة، بالصفات المميزة القدسية للملك... ولا يمكن لأحد أن يمثل الملك جيداً في شخصيته القدسية مثل ابنه، والذي ربما يفترض أن يشارك في الوحي القدسي لأبيه. ولا أحد، إذاً، يمكن أن يموت بشكل ملائم من أجل الملك، وعبره، من أجل الشعب بكامله، مثل ابن الملك.

إن الرجل ـ الإله يجب أن يُقتل حالما يُظهر أعراضاً بأن قواه قد

بدأت تهن. ولا عجب في أن تخبرنا كرنشو، «عند المقارنة، فإن الإرهاب يساعد في زوال الأنظمة المصابة بمحنة». ولا عجب «في أن يبدو الإرهاب معززاً النظام القديم، [و] مؤكداً لصدارة القوة في العلاقات الدولية». ولا عجب، كما أدركت أرندت، «أنه في صراع العنف ضد العنف يكون تفوق الحكومة مطلقاً دائماً»؛ لكن هذا التفوق يدوم فقط ما دامت بنية قوة الحكومة سليمة - أي أنه، ما دامت الأوامر تُطاع... فكل شيء يعتمد على القوة وراء العنف. والانهيار الدراماتيكي المفاجئ للقوة الذي يواكب الثورات يكشف بومضة كيف أن الطاعة المدنية - للقوانين، وللحاكم، وللمؤسسات - ليست سوى توضيح خارجي للمساندة والقبول. ولا عجب أنه يبدأ ثانية من البداية، مراراً وتكراراً، وأن يُعزل المستبد على يد البطل، وأن يُضحى بالبطل على يد المستبد.

ولا عجب في أن المنظمات والخلايا الإرهابية لديها مناسك لدخول الأعضاء الجدد - اختبارات تتطلب انتهاك المحرمات (بشكل حرفي أو مجازي) أو «حرق الجسور» خلفهم. ولا عجب أن فرانز فانون قد أدرك هذه المتطلبات - «بأن كل فرد يؤدي عملاً غير قابل للنقض» - باعتباره أمراً أساسياً في تماسك يمكن أن يتعرض بشكل فعلي للهجوم.

ولا عجب، أيضاً، في أن يلعب ذلك الثأر الممجد مثل هذا الدور الأولي كمحرض: «يمكن لرغبة الإرهابيين في تقبل المجازفات العالية أن تتعلق بالإيمان أيضاً بأن موت الشخص سيتم الانتقام له. وتوقع الثواب يضفي على فعل الإرهاب وموت الإرهابي معنى واستمرارية، وحتى شهرة وخلوداً. ويمكن للثأر ألا يكون مجرد دور للغضب بل ورغبة في التفوق».

والتفوق المقدم بالأفعال المؤكدة على الحياة كالحب، والولادة، والعناية بالذات وبالآخرين وبالكوكب، لا يمكنها كما يبدو أن تنافس التفوق المقدم بالثأر؛ ونشوة «الحماس القدسي» يجب أن تكون أقل جاذبية من رغبة الدم الفعلية. ورؤيا الحياة «الجماعية اللاواعية» للثقافة المشتركة النسائية (والجماعية **الواعية**) هي كما يبدو في أحسن الأحوال مصدر للتلاعب واستنزاف الطاقة منه، وفي أسوأ الأحوال إغراء شرير بعيداً عن السبب الأعلى للقتل والتدمير. وتشير مارثا كرنشو إلى أن الإرهابيين يميلون إلى إظهار هاجس حاد بالمبادئ الأخلاقية، وبخاصة فيما يتعلق بالنقاء الجنسي* - باسم «الخير الأعلى». وهي تذكر بما يُدعى بالأغلبية الأخلاقية (والتي عرضها المؤمنون بالحركة النسائية التحررية على أنها ليست هذا ولا ذاك). وهي تذكر أيضاً بالمقدم البحري السيئ السمعة الآن أوليفر نورث، الذي نسق، من مكاتب مجلس الأمن القومي، غارة القصف الأمريكي بالقنابل على ليبيا، وأشرف على الغزو الأمريكي على غرينادا، وأشرف على زرع الألغام في موانئ نيكاراغوا، ونظم عمليات الكونترا في أمريكا الوسطى، وابتكر أسلوب إيران كونترا في بيع الأسلحة إلى إيران. وهذا هو الرجل الذي دعاه رونالد ريغان «بطلاً وطنياً» (مع أن نورث نفسه ضحك قائلاً «لقد جرى وصفي أنا أيضاً بأنني إرهابي» من قبل الآخرين**). وهذا هو الرجل الذي خاض بروح المغامرة الكثير من الأفعال غير الشرعية والسرية القاتلة وعلى وجهه الأمريكي ابتسامة صبيانية الطابع. وهذا هو المسيحي

* إن مفهومنا الجديد «تفاهة الخير» قد يوضح هذا الجانب في المجموعات المعاصرة (وبخاصة اليسارية الغربية). ورجال الطقس، الذين سنبحث موضوعهم لاحقاً بتوسع أكبر، كانوا ضد الزواج الأحادي بشكل عنيف وفعال.

** شهادة أمام لجنة التحقيق الاستشارية المشتركة في مجلس الشيوخ حول قضية إيران/كونترا، ٨ تموز ١٩٨٧.

«المولود ثانية» والذي يصرح بأنه على «علاقة شخصية مع يسوع المسيح كقوة دافعة» في حياته. وهذا هو المتعصب الذي اختار مقاومة التوالد، والذي «يعارض الإجهاض» والذي تتفاخر لاصقة مانع الصدمة في سيارته بأن «اللّه وفير الإنتاج». ولا يتناقض أي من هذا التقليد الإرهابي مع سياق البطل. فالحياة هي الموت، والموت هو الحياة. أو، كما في الشعارات التي تنبأ بها جورج أورويل، «الحرب هو السلام، والحرية هي العبودية».

وكأن كتيبات الإرهاب تعيد كتابة الكتاب المقدس، أو التوراة، أو القرآن، فهي كلها تقدم الإرشاد نفسه إلى المؤمن.

وكتاب تعليم الثوري، الذي ألفه سرغي نتشايف عام ١٨٦٩، بالتعاون مع باكيونين، يبعث القشعريرة في الروح بالمباشرة التي في هذه الرسالة.

الثوري رجل محكوم عليه. وهو ليس له اهتمامات خاصة به، لا قضايا، ولا مشاعر، ولا ارتباطات، ولا ممتلكات، حتى ولا اسم... وهو عدو عنيد لهذا العالم، ***وإذا استمر في العيش فيه، فهذا فقط كي يدمره بشكل أكثر فعالية...*** *وكل العواطف الرقيقة و**المتخنثة** من القرابة، والصداقة، والحب، والامتنان، وحتى الشرف يجب أن تكون مقموعة لديه **بعاطفة باردة ومصممة**... ويجب أن يكون لديه ليل نهار مجرد **فكرة واحدة، وهدف واحد ـ التدمير بلا رحمة...** ولا مكان لأي رومانسية، أو أي نزعة عاطفية، أو نشوة، أو حماس...* ***وهو ليس ثورياً إذا شعر بالشفقة على أي شيء في هذا العالم...*** *وعليه أن يواجه إبادة مركز اجتماعي، أو علاقة، أو أي شخص... وأسوأ الأمور بالنسبة له هو إذا كان له عائلة، وأصدقاء، وأحبة؛... فهو ليس ثورياً إذا استطاعوا كف يده. (التأكيد لي).*

وبعد ذلك بمئة سنة تقريباً، قام كارلوس ماريغيلا، وهو برازيلي ترك الحزب الشيوعي بسبب قتاليته غير الكافية، بتأليف **دليل حرب العصابات في المدن**. وقد أصبح أحد الكتب الخلاقة (أستعمل هذه الكلمة عمداً) في اليسار الجديد في الولايات المتحدة، ودُعي بالكتاب المقدس للقوات المتمردة على امتداد العالم الثالث. ويطري ماريغيلا، بحنكة القرن العشرين وأسلوب العلاقات العامة، موضوعه بطريقة كان نيتشايف سيعتبرها معسولة. وبالنسبة إلى ماريغيلا، فإن مقاتل حرب العصابات يتميز بالشجاعة، والعزم، و«التفوق الأخلاقي»، والمبادرة، وقابلية الحركة، والمرونة، والتقلب، والسيطرة على أي حالة معطاة. وعليه أن يكون أيضاً رامياً بارعاً وكذاباً سلساً. وعليه أن يكون قادراً على تحمل المطر، والحرارة، والجوع، والإعياء. وعليه أن يعرف كيف يختفي، وكيف لا يثق بأحد، وكيف لا يخاف الخطر أبداً ولكن ألا يتصرف بشكل متهور أبداً. وعليه أن «يعرف كيف يعيش بين الناس وعليه أن يكون حذراً كي لا يبدو غريباً ومنفصلاً عن حياة المدينة العادية»، أي، عليه أن يكون قادراً على التصرف **بشكل اعتيادي**. وعليه أن يتدرب «بشكل منظم» كي يكتسب «المعرفة والصنعة في المهن والمهارات من كل الأنواع». وكما لاحظ كرستوفر دوبسن ورونالد باين، إن هذه الخصائص «تصل إلى ما جرت العادة بتسميته في الجيش البريطاني 'OLQ' – الخصائص اللائقة بالضابط». وبتوازنه في وسط الطريق بين النفاق المبتسم للجيش البريطاني والأمانة الصارمة لدى نيتشايف، يعتنق ماريغيلا الاثنين حين يصل إلى قلب تعليماته: «**مبرر مقاتل حرب العصابات في الوجود هو الطلقة**».

وقد تجنب ماريغيلا أن يصبح مستبد الغد (ولو أن بعض أتباعه حققوا ذلك). واختار صلب نفسه. وقُتل عام ١٩٦٩. وتظل «حقيقته» ماضية إلى الأمام. فقد اخترق قلب المتاهة. ويوقره الكثيرون على أنه «أبو الثورة الحديثة».

لكنه ليس الأب الوحيد في عالم السلطة الأبوية والصراع الأخوي هذا - السلطة التي عُقدت والصراع الذي استُخدم باسم الأخوّة البشرية. ونحن نسمع صداه، بالإضافة إلى صدى نيتشايف (والأباتشي وشيوخ سيوكس، ومحمد، وموسى، والمسيح) في هذه الكلمات: «في بلادنا يعرف الفرد أن الفترة المجيدة التي حدثت له [كذا] في أن يحيا هي فترة التضحية؛ وهو قد تعلم معناها». وهاهو تشي غيفارا، في **الاشتراكية والإنسان في كوبا**. وربما كان تشي قد حصل على ازدراء نيتشايف لأنه «مخنث» بإنكاره للإرهاب بحد ذاته، وادعائه بأن «الثوري الحقيقي تحرضه مشاعر الحب القوية» - لكنه يوضح ذلك بأنه حب **القضية**. ويستمر في التركيز على لازمة سمعناها من قبل: «إن القادة الثوريين ليسوا حاضرين غالباً لسماع كلمات أطفالهم الأولى؛ وعلى زوجاتهم أن يشاركن أيضاً بتضحيتهن إذا كان على الثورة أن تصل إلى هدفها؛ وعلى أصدقائهم أن يكونوا فقط من بين رفاقهم في الثورة. وبالنسبة لهم ليس ثمة حياة خارج الثورة».

ولنجرب تمريناً صغيراً في المنطق هنا - المنطق الذي وفقاً له يجب أن يكون بطل كامبيل ميتاً. استبدلوا كلمتي «ديني» و«دين» بكلمتي «ثوري» و«ثورة» في الاقتباس المذكور أعلاه، ولاحظوا أنه لا يزال يقدم معنى مألوفاً بشكل غير راسخ. واستخدموا الآن كلمتي «مشترك» و«شركة». و«عسكري». و«وطني» و«أمة». و«قبلي» و«قبيلة».

و«حرفي» و«حرفة». إنها تحقق نتيجة مروعة. (من الواضح أنها لا تحقق نتيجة عند استخدام عبارتي «المؤمنين بالحركة النسائية التحررية» و«الحركة النسائية التحررية»، وذلك بالضبط نتيجة الطبيعة التكاملية للتجربة النسوية). وأكثر النساء سيربطن فوراً ما لا يربطه أكثر الرجال: إنه رجل نادر في أي مسيرة حياتية وفي أي ثقافة من يكون حاضراً ليسمع كلمات طفله الأولى؛ وأن مؤسسة «الزوجة» نفسها، في الروح والعقد القانوني، تتطلب التضحية من أجل هدف الزوج؛ وأن الصداقات، والمسكن، وأسلوب الحياة، مصممة ومحددة بمهنته أو عمله أو سياسته أو دعوته، سواء أكانت متواضعة أم سامية*. وغيفارا لا يصف الثورة فقط. إنه يصف المؤسسات الدينية والعمل والحرب والدولة والعائلة. إنه يصف النظام البطريركي.

وفي المناضل، **العمود الفقري للثورة**، يوصي غيفارا (والذي، بالمناسبة، كانت لديه زوجتان وعدد من العشيقات، وفق طراز الثقافة اللاتينية الذكورية «الطبيعية»)، بتضحية أكبر بالذات. ويكرر بأن المناضل يتطور عبر المهمات اليومية والتدرب الصارم، ويجب أن يكون

---

* كان المقدم أوليفر نورث سيكسب احترام غيفارا. وفي شهادته أمام لجنة التحقيق الاستشارية المشتركة لمجلس الشيوخ في ٨ تموز ١٩٨٧، قال نورث إن أسفه الواهي الوحيد حول جميع نشاطاته حين كان عضواً في هيئة مجلس الأمن القومي هو «أنني تركت عائلتي في سبيل العمل». وبتسي نورث، زوجته (وأم أربعة أطفال) زودتنا بحقيقة ما وراء الستار لدى «رجل متعدد الوجوه» في مقابلة مع مجلة Life (آب ١٩٨٧، الصفحات من ١٢ ـ ١٧): «كان الأطفال غالباً ما يرونه في نهايات الأسبوع... ونادراً ما كنت أعرف أين يذهب... وكنت أتذمر عادة، "لماذا لا يمكنك أن تكون هنا؟" وكنت سأصاب بالجنون فعلاً... ثم أفكر، "إن هذا سوف يسبب الخلاف. كوني سعيدة عندما يكون هنا". ولم يكن الأمر متعلقاً به هو. كان شيئاً علي أن أتعامل معه... وكان كثير الغياب خلال حياتنا الزوجية، لذلك فقد قدر أن أقوم بعملي جيداً مع الأطفال. وأنا أنوي أن أعمل في مرحلة ما...» وهذا لا علاقة له به أو بعمله. إنها مشكلتها، واضطرابها العصبي. وهي لا تدرك بأنها كانت «تعمل» طوال الوقت.

«مشغولاً دائماً بكل مشاكل الثورة». ولكن حتى تشي ـ الذي أظهر «قدرته على التضحية» عبر ما امتدحه فيدل كاسترو بأنه «موته البطولي والمجيد» ـ لم ينجح في إدراك عدم المنطق المؤلم للكلمات التالية في كتاب صغير أصبح المبدأ الحي لأكثر من ربع جماهير الأرض:

*إن الهدف الفوري هو تدمير العدو، لكنه في الوقت نفسه المحافظة على الذات... **كيف نبرر إذاً تشجيع التضحية البطولية في الحرب**؟ ألا يتناقض هذا مع «المحافظة على الذات؟» في الحقيقة، لا يوجد تناقض على الإطلاق... **فكل من التضحية والمحافظة على الذات مناقض ومكمل للآخر**. فمثل هذه التضحية تُعتبر أساسية ليس لتدمير العدو فقط بل وللمحافظة على الذات أيضاً ـ و«**عدم المحافظة**» الجزئية والمؤقتة (التضحية، أو دفع الثمن) ضرورية من أجل المحافظة العامة والدائمة. (التأكيد لي).*

لا يوجد تناقض على الإطلاق. وهذا التفكير المشوه، الذي يذكر بصورة مقلقة بالبطل الذي يُطلب منه التحول إلى صورة الإله الملك عن طريق تمزيق أوصاله من أجل شعبه، هو من «الكتاب الأحمر الصغير»: **أقوال من الرئيس ماو تسي تونغ**. وقد لقن ماو أن كل التناقضات السياسية يجب أن تُحل ـ ما عدا، كما يبدو، هذه الأعجوبة، حيث لا يُعتبر «عدم المحافظة» انتحاراً ولكنه المحافظة المطلقة على الذات التي تمّ إنكارها في البداية. وقد أطلقت الفيلسوفة المؤمنة بالحركة النسائية التحررية ماري دالي على هذا النوع من عدم المنطق بشكل ملائم اسم «الانعكاس البطريركي».

إنه وطن الموت. وسواء من اليمين أو اليسار، فالاتجاه هو نفسه

بشكل مذهل. وإذا استخدمت مجموعات متمردة خارج الحدود تكتيكات إرهابية من أجل عزل القوة العالمية لآبائهم الاقتصاديين والسياسيين (المستبدين)، فمن الممكن أن يقال إن المجموعات المحلية القومية الانفصالية العرقية، مثل ETA الباسكية والجيش الجمهوري الإيرلندي المؤقت تشن الحرب لمواصلة عمل آبائها السياسيين والفعليين (الذين استشهدوا). وفي كلتا الحالين، يكون الحافز الأولي، كما سنتذكر من الفصل الأول، هو إضفاء صفة الشرعية عليها، حتى عندما يكون من المستحيل تحقيق النصر نفسه: وهو ما يطلق عليه لويجي بونانات «إثارة رد من الخصم». واعتراف الأب بأي منها يعني أنه من الممكن أن تصبح مكانه.

وعلى امتداد الطريق، على أي حال، يمكن لأنواع أخرى من الشرعية أن تصلح كجوائز، وكذلك كحوافز أخرى. ويكتب كونور كروز أوبرين، وهو يسلم بأن الإرهابي لديه مظالم حقيقية مشتركة مع أعضاء من مجتمع أوسع، بأن الإرهابي أيضاً «يرفع نفسه، بواسطة المظلمة أو الجور والعنف الذي يضفي عليه صفة الشرعية، إلى قوة نسبية، واعتبار، وامتياز في المجتمع الذي ينتمي إليه».

إنه مجتمع ذكوري.

وبالتأكيد إن القوة والاعتبار والامتياز قد تراكمت لدى «كارلوس»، الذي يفتخر بمهارته، وحبه للكافيار والخمور الممتازة، ومطابقته مع روبن هود، ومآثره في تجنب الأسر والهروب عند إلقاء القبض عليه. وفي وقت يعود إلى عام ١٩٧٥، كان بإمكانه أن يتفاخر بشيء من الصحة، «أنا كارلوس المشهور». ففي كانون الأول من تلك

السنة، قاد عملية استيلاء جريئة على مقر أوبيك (منظمة البلدان المصدرة للنفط) في فيينا، واحتجز كرهائن بعض أكثر رجال العالم قوة، وبينهم أحد عشر وزير نفط بمن فيهم الشيخ اليماني من المملكة العربية السعودية. ولافتتان كل منهما بالآخر كما يبدو، فقد انهمك اليماني وكارلوس في حوار. وسأله الشيخ عن السبب **الحقيقي** - غير السياسة أو المغامرة - لعمله الإرهابي. ولا بد أن كارلوس قد أدرك من السؤال نفسه أن اليماني سوف يفهم، لأنه أهمل كل بلاغة وأجاب بشكل مباشر، من رجل إلى رجل: «أريد أن أكون بطلاً». وبعدما أطلقه كارلوس، ذكر اليماني المحادثة بلهجة احترام. (هناك أكثر من طريقة للتحول إلى الأب).

ولكن في نفس الوقت، ماذا عن المرأة؟ في أساطيرها، هي الأم التي يرفضها، والمغوية التي يقهرها، والزوجة التي يستعبدها.

وفي العالم الحقيقي، تؤلف ثلثي جميع الأميين و ٩٠٪ من جميع السكان اللاجئين. وهي الأغلبية بين المسنين بالإضافة إلى أنها المشرفة الأولى على المسنين. وفي الدول المتطورة، تساهم بأكثر من ٥٠٪ من الإنتاج الإجمالي للطعام، وفي القارة الأفريقية، تشكل أكثر من ٨٠٪ من جميع المزارعين - لكن عملها غير منظور في الناتج القومي العام والناتج المحلي العام. وفي الدول الصناعية، تشكل أكثر من ٤٠٪ من قوة العمل المأجورة لكنها تكسب من نصف إلى ثلاثة أرباع ما يكسبه الرجال في نفس الأعمال. وهي تترأس ثلث جميع الأسر في العالم. وما من مكان يُعتبر فيه إنتاجها للبشر على أنه «إنتاجية». وهي تؤلف الأكثرية ضمن العشرين مليون شخص الذين يموتون سنوياً نتيجة أسباب

تتعلق بالجوع، وضمن المليار الذين يعانون من نقص مزمن في التغذية ومن حرمانات الفقر الأخرى. وهي تعاني قبل ذلك ولفترة أطول من النفايات السامة، والنووية، والمطر الحامضي، والحرب الكيماوية، والمبيدات المميتة، لأن مثل هذه الملوثات القاتلة تحصل على ضريبتها الأولى في تزايد سرطانات الجهاز التناسلي النسائي، وفي الولادات الميتة، والإجهاضات، والتشوهات الخلقية. وهي تعمل حيثما توجد: وعملها بصفة مدبرة منزل أو أم، بصفة مومس أو راهبة، يُمحى لأنه يُعتبر طبيعياً؛ وعملها في المزرعة، أو المصنع، أو المكتب يُهمش لأنه يُعتبر غير ماهر أو عابراً أو متنقلاً.

وفي العالم الحقيقي، جرى تقييد قدميها إلى حجم ثلاث بوصات. وتم إحراقها على المحرقة الجنائزية لزوجها (تزايدت ممارسة **الساتي** ثانية في الهند خلال العقدين الماضيين). وتعرضت للقتل وهي طفلة (تزايدت ممارسة الوأد النسائي ثانية مؤخراً في الصين، بسبب السياسة السكانية الحكومية الصارمة والرغبة في الصبيان). وقد أُحرقت كساحرة على تسعة ملايين خازوق خلال عصر المحرقة في أوروبا. وهي لا تزال تعاني وتموت من زواج القاصرات وتعدد الزوجات والهجر، ومن التشويه التناسلي وعمليات استئصال الرحم غير المبررة، ومن الإخفاء القسري في الحجاب والعرض القسري في أدب الدعارة. وفي بعض التقاليد العشائرية الأمريكية الشمالية والأفريقية والآسيوية، توجد محظورات غذائية تحرمها بشكل خاص من البروتين، وتفرده للذكور. وفي مئات الحضارات، «المتطورة» و«النامية» على حد سواء، إما بالتحريم أو التهذيب الاجتماعي، تأكل أخيراً، بعد الرجال - وما تبقى فقط.

وهذا لا يُدعى تضحية مجيدة.

وهذا لا يُدعى استشهاداً بطولياً.

إن هذا أمر شنيع متعمد.

إن **وجودها نفسه شنيع**. فهو يعوق البطل عن تحقيق ذاته، وسبره للانفصال عن القوة الحياتية للكون الفوضوي المتغير الذي لا يمكن السيطرة عليه. وهي أقل تهديداً فقط إذا استطاع فصلها قسرياً عن **نفسها**، وتشظيتها إلى الأنفس الثانوية التي يحددها هو، وتصعيد تلك الأنفس لمساعدته في مهمته ـ وهو ما استنكره روبرت غريفز، في كتابته تحت تأثير لورا رايدنغ في **الإلهة البيضاء**، باعتباره «الفكر الذكوري الذي يحاول جعل نفسه مكتفياً ذاتياً من الجانب الروحي». وعندما تنطق ما لا يوصف وتذكر هذا الانشقاق الذي خلقه، فإنه سيلوم الرسول ويعتبر **أنها** الانفصالية. والوسيلة الوحيدة التي يمكنها بواسطتها كبحه في أي تدقيق هي أن تنكر نفسها. وإذا جعلت مطلبه مطلبها، ونظامه نظامها، وأسلوبه في تنفس الموت في الحياة أسلوبها، فمن الممكن عندئذ قبولها (إلى درجة معينة): «المرأة الصالحة». وهو ما يعني، بشكل ساخر، أنها يمكن أن تعيش ـ ولكن على شكل شخص لن تتمكن من تمييزه بعد.

وهكذا فإن الزوجة سوف تبرر في زوجها ما لن تبرره في نفسها. الابنة سوف تحن إلى أبيها المثير، وتتخلى عن نموذج حياة أمها الكئيب. الأم سوف تختن ابنتها ـ بحيث يمكن لابنتها أن تكون صالحة للزواج ولا تتضور جوعاً. الزوجة «المتحررة» سوف تصبح المعيل الوحيد، وتساند زوجها، وتدعو ذلك عصرية. كذلك أيضاً، فإن الأم سوف تحول بصرها

حين يدس زوجها يده بين ساقي ابنتهما، وتنكر صرخات الابنة. وسوف تخبر أبناءها أنه لا يهم إلى أي درجة من السوء يتصرف أبوهم في الوقت الذي لا يزال عليهم أن يحترموه. وهكذا فإن بعض المؤمنين بمساواة الجنسين يسلمون مع ذلك الصبية الأطفال إلى شعائر الختان البربرية، وإبهاج الأزواج الذين يزعمون أنهم «مؤمنون بمساواة الجنسين». والنساء يضربن الأطفال مثلما يُضربن أنفسهن.

وهذا يُدعى بالبقاء على قيد الحياة.

ولكن ثمة أساطير أقدم من أسطورة البطل، ومصنوعات يدوية لواقع متخيل يختلف عن واقعه، وأساطير مدفونة تحت قرون من الغطاء البطريركي. وقد كُتبت مجلدات عن أديان قديمة سبقت الأب الإله في كل ثقافة على هذا الكوكب. وكانت الكونية آنذاك، وأُطلق عليها مليون اسم. كانت العذراء، والأم، والعجوز الشمطاء. وأصبحت عشتروت وإينانا، والأرض وأفروديت، ودانا، ونغامي، وديميتر، وسيريدوين، وبريجيت، ولوسيا، وموريغين، وأستريا، وكالي وساراسفاتي، وكوتليكيو المكسيكية، والآلهتين هوخما وماترونيت العبريتين، وبيل وباباتوانوكو البولينيزيتين، وآلا وأويا وأوشون وأوبا الأفريقية، وأميراتسو وكوانون الآسيويتين، ومريم المسيحية. وكانت إلهة الذرة وإلهة القمح، والشافية، ومروضة الحيوانات، ومحضرة النار. وكانت صائغة الكلمة، ومصدر المحاصيل، وإيقاع البحر، وقوس السماء، وخالقة العالم. وفيما بعد، كانت أم اللّه ـ والوسيلة الوحيدة لبعثه. وبصفتها عشتروت، وسيبيل، وأوسيت، أو إيزيس، فقد جدت في بحثها حتى عثرت على الشظايا المبعثرة لجسده، الذي ذبحه الأخ أو الأب أو

الابن، وخيطتها إلى بعضها ثانية، وجعلتها كلاً واحداً. **لكنها كانت من نفسها ولأجل نفسها**.

وكانت تهدده دائماً بالحياة، هي التي استطاعت أن تريق الدم لإحداث الأحياء وليس الموتى، والتي كانت أداتها السحرية هي نفسها.

وما أطلق عليه فريزر اسم «العقل الوحشي» (وكأنه لا يفكر من خلالنا) اعتبر أن روح الإنسان أو ماهيته تكمن في دمه. وإذا كان الأمر كذلك، فعليها أن تبدو أكثر رهبة، فهي يمكن أن تنزف لكنها تحافظ على روحها. وإذا كان هو، البطل، لا يستطيع ذلك، فربما يستطيع جعل روح أخرى تنزف، وعندئذ يزيد قواه بذلك الدم الآخر: بالقربان المقدس، الحرب. **وما يمكنها أن تريقه من أجل الحياة، يمكنه أن يريقه من أجل الموت**. وإذا بدت أفعالها عفوية، فعليه هو أن يبدو بطولياً. وكل الأشياء، بما فيها الطبيعة نفسها ـ المحاصيل، والبحار، والطقس، وطبقة الأوزون ـ يجب أن تتوصل إلى الاعتماد على جهده. و«إذا كان مجرى الطبيعة يتوقف على حياة الرجل الإله»، فعليه إذاً أن يقتل ويموت، يموت ويقتل، باعتبار أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يعرفها لاستكمال ذلك.

هل من المحير إذاً أن هؤلاء الأشخاص الأكثر افتتاناً «بحق الحياة» للجنين هم عادة نفس الأشخاص الذين يدعمون حكم الإعدام، والخدمة العسكرية الإلزامية، والتمويل المتزايد للتسلح؟ وبالنسبة إلى «العقل الوحشي»، يُعتبر الأمر المحرم الذي في صميم كل المحرمات هو أن الدم لا يمكن أن يتطهر إلا في نار الصراع الذكري، سواء من أجل الحدود، أو الثروة، أو القوة، أو الشهرة، أو الأرواح. وإذا كان سفكها للدم سوف

يحصل على الاحترام باعتباره عملية حياتية إيجابية، فإن سفكه للدم باعتباره عملية موت إيجابية سوف يبطل. وجسدها، وعقلها، وروحها، وتقاليدها، **ووجودها الحقيقي**، يجب أن يزول.

لكنه لا يستطيع أن يمحوها كلياً، فعندها لن يبقى من يدعمه؟

وما لا يمكن أن يُمحى كلياً يجب أن يكون تحت السيطرة.

ولذلك جعل منها هدفه، شيئه. وأنزل مرتبتها إلى علاقتها **معه**، باعتبارها قرينة أو ضلعاً أو نسلاً، مثلما أنزل مرتبة أثينا من «المستقلة بنفسها» إلى ابنة إلهة محاربة قفزت من دماغه.

وهل تقلصت بسهولة؟ في التباهي الذاتي، ترك لنا البطل سجلات نضالها. ومنها الملحمة البابلية التي صورت سقوط تيامات الآلهة العظيمة على يد ابنها ماردوك، بعدما خلقت الكون من تدفق دم حيضها، والذي من بقيته أصبح البحر الأحمر:

بالشفاه التي لم تفشل نطقت بالكلمات المتمردة...
ثم رفع الإله الصاعقة، سلاحه القوي،
وضد تيامات، التي كانت غاضبة، أرسل كلمته هكذا:
«لقد أصبحت عظيمة، لقد سموت بنفسك عالياً...
وتدبرت أمرك ضد آبائي الآلهة...
قفي! لننضم أنا وأنت إلى المعركة!»
وحين سمعت تيامات هذه الكلمات،
أصبحت مثل شخص ممسوس، وفقدت عقلها.
وأطلقت تيامات صرخات هائجة ثاقبة،
وارتجفت وارتعشت حتى أساسها.

وقرأت تعويذة، ولفظت رقيتها...
إلى القتال تقدموا، إلى المعركة اقتربوا.
ونشر الإله شبكته وأمسك بها،
والريح الشريرة التي كانت خلفه أطلقها في وجهها.
والرياح الرهيبة ملأت بطنها.
وأمسك الرمح الثلاثي وفجر بطنها،
ومزق أجزاءها الداخلية، واخترق قلبها.
وتغلب عليها وقضى على حياتها؛
ودمر جسدها ووقف فوقه...
وبهراوته القاسية سحق جمجمتها.
وقطع قنوات دمها...
ثم استراح الإله، وراح يحدق إلى جسدها الميت،... وابتكر خطة ماكرة.
وشطرها مثل سمكة مسطحة إلى نصفين؛
نصف منها أقامه غطاء للسماء.
وثبت رتاجاً، وأقام مراقباً،
وأمرهما ألا يدعا مياهها تتقدم...

وقام ماردوك، البطل، بتعديل الخليقة عن طريق إعادة تشكيل السموات والأرض من لحمها المذبوح - كي يتمكن بعد ذلك من خلق سلالة جديدة: من الأبطال. وبهذا التعديل المنحرف، يمثل ماردوك النظام، وتمثل تيامات الفوضى. وتقف حيوية اللغة والتصوير في القصيدة القديمة شاهدة على عداوته الحادة نحوها. ولم يكن ذلك رسالة تعلمتها أو رسالة هدأت سريعاً بواسطتها. لقد تطلب منه كل تاريخ «الحضارة» كي يعزز

تلك الرسالة، يوماً بعد ليلة، وسنة بعد عقد بعد قرن، حياة بعد موت بعد جيل.

وهي لا تزال ترفض ذلك.

لقد تعرضت للقيد، والإعاقة، والإسكات، والضرب، والاغتصاب القاسي، والتجويع، والعرض، والشراء والبيع والإتجار بها، ورفع منزلتها أو إضعافها، والسخرية منها، وجعلها تافهة، وطردها، ومحوها - **ثمة شيء ما بداخلها يرفض ذلك.**

وأخبرها طوال دهور بأنها عديمة الذات. وحتى عندما صدقته، لم تتنازل في سعيها وراء تلك الذات بأساليبه كبطل. وكان يمكنها أن تسعى وراءها في الكنائس والمعابد التي رسخت افتقارها المفترض لها في أولادها، لمجرد أن تفقدها وهم يكبرون بعيداً عنها. ولدى مجموعات إيقاظ الوعي أو المعالجين. في غرف الانتظار والممرات لقصوره وسلطاته التشريعية وشركاته، في لجانه السياسية ومحاكمه ومواخيره الفكرية. **لكن ثمة شيئاً ما في داخلها يعرف أنها** - في افتقارها للجسد، والمعرفة، والوسيلة، وحتى الروح أحياناً - **لم تفقد تلك الذات أبداً.**

من المعتقد بشكل عام أن العجز يولد العنف - باعتقاد الرجال عادة وإعطاء مثل عن الرجال عموماً. والإرهابي، أو البطل، أو الرجل العادي، يتصرف باستمرار ضد الخوف أو حقيقة العجز. وكما عبرت عن ذلك جين ن. نيوتسن في «مآزق الإرهابيين»، «إن الصعوبة بالنسبة للإرهابيين هي أن اللاعبين الحكوميين [كذا] لا يدركون أن وراء بلاغة العنف يكمن ألم الضعف، **الألم الذي يمكن أن يهدئه فقط النشاط الذي يُفهم على أنه قوة»** (التأكيد لي). ويكتب لورنس زيليك فريدمان،

وكأنه يوافق، «إن توضيحات المؤسسات النفسية اللاواعية هذه تثير ليس مجرد الخوف بل والإحساس بالغرابة؛ بأن الإرهابي كلي القدرة على ما يبدو».

وضعفه - ضعف الابن الذكر ضد الأب البطريركي - يرتبط بشكل معقد مع إحساسه بالعجز، إحساسه بالذات الجوفاء. وبالنسبة له لا يُعتبر التسكين قوة حقيقية للذات بل قوة يمكن إدراكها هكذا من قبل خصمه: إنها دائرة مغلقة من الإدراك الذكوري، التعريف الذكوري (الكل من الفعالية والعجز)، الفهم الذكوري للذات على أنها قوة يصادق عليها الذكور الآخرون فقط.

وضعفها (الذي يعززه ويزيده ضعفه) ليس مرادفاً للعجز سواء بنظره أو **بنظرها**. وربما كان قد عرفها على أنها مخلوق جنسي فحسب، وربما كان قد حددها بمداركه عن وظائفها الشهوانية والتناسلية على أنها مجرد وسيلة له، لكنها مع ذلك إنسان - وقد عُرفت دائماً بأن جوهر ذاتها أعظم من الأعضاء التناسلية والرحم. ومن السخرية أنه بينما عرّف نفسه بأنه كائن متعدد المظاهر، **فهو** الكيان النافذ الصبر الذي يعمل بشكل مستمر على أساس نشاطه الجنسي: يخافه، يبحث عنه، يطلبه، يختبره، يغصبه ويفرضه بالقوة. وسياسته قذفية. ومنذ زمن طويل نسي ما يمكن أن تكونه «النفس» حقاً، ولذلك نسي ما هي «القوة» حقاً.

يظهر العنف حين تكون القوة في خطر، كما تذكرنا أرندت. وإذا ظهر عنف الابن حين تكون قوة الأب في خطر، إذاً فأي نتيجة يمكن أن نستنتجها من حقيقة أنهما كليهما، عبر التاريخ، كانا يستخدمان العنف وكأنه طريقهما الوحيد؟ هل الأمر أنهما كليهما يشعران بالخطر

بشكل مستمر، ليس كل واحد من الآخر ضمن ثنائيهما الذكوري فحسب، بل سوية، من شيء آخر غير ذلك، هدف خوفهما المشترك وكرههما للنساء! ولماذا؟

وإذا كانت قادرة على منح الحياة، فإنه سيمنح الموت. ولكن بقدر ما يستطيع قهرها، فهو يسيطر عليها، ويمتلكها، ويقتلها - **وهو لا يمكنه أن يصبح هي.**

لقد صنع من قوته ما دعاه اليونانيون thanatos وما سماه البوذيون: mara قوة العداء، ومغناطيسية الموت. وما تصنعه هي من قوتها دعاه اليونانيون eros، والبوذيون: kamaقدرة الرغبة، وقوة الحياة.

ولدى كل من أوليفر نورث وكارلوس يمكننا تمييز سياسة Thanatos لكن السياسة التي تشع بشكل عكسي ومشوش خلال الظاهرة التي تُدعى «المساواة بين الجنسين» تتطور من عملية اجتماعية عبرت عنها ذات إنسانية إيجابية نشيطة. **وهذه** السياسة هي التي تطالب بها النساء الآن، و**هذه** السياسة هي التي على الرجال أن يشاركوا فيها كي يحرروا أنفسهم من الاستبداد أو المحنة. وإذا لم نهتم بها، لن يبقى أحدنا على قيد الحياة.

إنها سياسة القرن الحادي والعشرين. إنها سياسة إيروس.

الفصل الثالث

الموت في سبيل الحب:
الدين والفلسفة وعلم الجمال

والرعب مني أرسله أمامكم، وأهزم جميع الأمم التي تواجهونها، وأجعل جميع أعدائكم يولون مدبرين.

خروج ٢٣: ٢٧

لا يمكن لمخلوق أن يبلغ درجة أعلى من الطبيعة بدون أن يكف عن الوجود.

أناندا ك. كوماراسوامي

إن موت امرأة جميلة هو، بدون شك، الموضوع الأكثر شاعرية في العالم.

إدغار ألان بو

إن الدين والفلسفة وعلم الجمال كلها وسائل تصل النفس البشرية عن طريقها إلى شيء ما أعظم من ذاتها، كي تلقي نظرة خاطفة على معنى الحياة وجمالها. وهذا، ظاهرياً، هو هدفها العام. وحيث تحقق هذه الثلاثة كلها العكس فهو في صياغتها وممارستها لمفهوم المؤسسات البطريركية، لأنها تشارك في دعاية مسمومة: الموت في سبيل الحب، نكران الذات باعتباره أعلى درجات الخير. وفي المعتقدات الثلاثة كلها، يُعتبر الوعي غير مُحتمل، ومتناقضاً، ومرفوضاً. ونتيجة لذلك، فإن الميزتين المرهفتين للتناقض ـ التردد والصبر ـ تقل قيمتهما. ولنربط هذا مع التقليد الذي يعتبر الحدس والتناقض «سمات أنثوية»، يُسخر منها

بتسامح ثم تُستبعد من المحادثة الفلسفية الجدية.

وفي مقالته «الدين والإرهاب» يلمح موشي أمون مثل هذا الارتباط، ميل الإيديولوجيات الروحية والسياسية إلى التعامل ليس مع الناس ولكن مع المفاهيم. ويأسف لأن «الأمر يتطلب فيلسوفاً أو عالماً أو حبيباً للاقتراب من الناس بشكل فردي وكأفراد، وليس بصورة مجردة». ولا يضيف «أو امرأة». ومع ذلك ألم تتعرض النساء للتعذيب بالافتراض أنهن عاجزات عن «التفكير المجرد»؟ وبما أننا نعرف أن النساء أثبتن قدرة كبيرة في الرياضيات العليا، والتأمل الفلسفي واللاهوتي، والإبداع الشعري، والاكتشاف العلمي، وغير ذلك من فروع المعرفة المجردة، أفلا يمكننا الافتراض بأن التعذيب كان في الحقيقة يتعلق برفض الجنس النسائي، رفض احترام التجريد بحد ذاته، رفض التجريد خارج رعب من النوع المحدد؟

ذلك الرعب يكمن في قلب ظلام «الحضارة». وكل الحملات المسيحية في التاريخ لفرض «نظام» دقيق جاف حاد تنشأ من ذلك المكان. إنه يستوجب «عدم الملاحظة» لأن **الملاحظة** هي إدراك استحالة البقاء تحت سيطرة مطلقة لكل تفاصيل الوجود. وهو مكان للغضب من أي شيء لا يمكن السيطرة عليه. والدين، والفلسفة، وعلم الجمال كلها معاً عملت من أجل الدعاية لتلك السيطرة.

أيام الغضب، يوم الحساب

إذا كان علينا النظر بانتباه أكثر إلى المؤامرة التاريخية العالمية للرعب التاريخي، فلتحذري أيتها القارئة. سيكون عليك أن تغطي ذراعيك وساقيك، وسيكون عليك أن تحجبي وجهك. وسيكون عليك أن ترتدي لفات من القماش من رأسك حتى أصابع قدميك؛ ولن تتمكني من ارتداء البنطال، ولو أن قسسك قد يرتدون التنانير. وسيكون عليك أن تغطي رأسك أو تحلقيه. وسيكون عليك أن تطيعي الأب، والزوج، والأخ، وحتى الابن. وسيكون عليك أن تصبحي حبلى، سواء أرغبت في ذلك أم لا، وأن تحافظي على الحمل حتى نهايته، سواء أرغبت أم لا. وعليك أن تظلي بعيدة عن الأماكن المقدسة حتى لا تلوثي مثل هذه المواقع، وإذا كنت محظوظة وسُمح لك بالدخول، فقد تُجبرين على العبادة من وراء جدار أو ستار. وعليك أن توافقي، وتنحني، وتركعي، وتتملقي، وتسجدي. وعليك أن تحولي بصرك. وعليك أن تعملي طوال قرون كي تفوزي (بشكل جزئي فقط) بنصر مشكوك فيه بالاقتراب من المذبح مباشرة ومساعدة الآخرين. وقد يُقال لك إنك بلا روح. و يمكن أن تدخلي الجنة وفق مزاج الرجل، كملحق له، ضلعه، جاريته. وسوف تُحرمين إذا سألت. وسيُعلن أنك خاطئة، وزنديقة، ومرتدة، وملعونة،

ومدانة، وخادمة الجحيم. وستتعرضين للعذاب، والجلد بالسياط، والشنق، والإحراق.

وإذا منحت روحك وضحيت بجسدك في سبيل هذا النظام، فستنالين الاحترام باعتبارك مبعوثة حية تسهل دخول الرجل إلى مملكة السماء.

ولكنك، قد تسألين، ما علاقة هذه القواعد بحيوية الروح؟ ما علاقة هذا بـ... **الرعب**؟ الخلية في انقسامها ـ نجمة بالغة الصغر في النوفا تحت المجهر؛ زعفران هش يطلق صولجانه باخضرار عالياً عبر الثلج؛ ضفدع في صحراء كالاهاري يعيد ببراعة تكوين جسده المجفف المدفون، في المطرة الأولى بعد الجفاف الطويل؛ الثقوب السوداء الواسعة المزدحمة بالطاقة والمجرات في دوامات من الرقص مع الألوان القزحية لبعضها بعضاً ـ ما علاقة هذه بقواعد من هذا النوع؟ كيف يخاطب هذا النظام البراكين الواقعة تحت سطح البحر وهي تفجر جزيرة بعد جزيرة حديثة الولادة في سلاسل غير قابلة للقسمة بخفاء مثل نظرية الخيط، الفرضية الأكثر تقدماً في الفيزياء النظرية؟ كيف يتحدث هذا النظام إلى وحول الحالة الفريدة الغامضة والمترابطة في الوقت نفسه لكل بصمة إصبع، وكل صدفة، وورقة شجر، ومورثة، وبلورة ثلج؟

إن الدين لا يتحدث عن أي من هذه العجائب. فتلك ليست وظيفته. والدين لا يبحث في الرعب والبهجة، على الرغم من امتلاكه الظاهري لهما ووعده بكشف ما يقع فعلاً حولنا كل يوم في آخر الأمر، وإتاحته بشكل حر للاحتفال. إن الدين يدور حول شيء ما غير ذلك. واشتقاق الكلمة نفسها، من اللاتينية، يتعلق بكونه مقيداً بالقواعد. إن الدين يدور حول الرهبة.

إن الرب... قد منعهم بشكل واضح من لمس ثمرة شجرة المعرفة... ولكن هنا تقدم الشيطان، المتمرد الأزلي... ليجعل الرجل خجلاً من جهله وطاعته البهيمين،... ويعتقه... واعترف الله بأن الشيطان كان على حق [في أمره]: «هوذا الإنسان قد صار كواحد من الآلهة؛... امنعه، إذاً، أن يأكل من ثمرة الحياة الأبدية، حتى لا يصبح خالداً مثلنا».

سيكون من العدل الظن بأن ذلك نص توراتي مشكوك فيه، لكن من كتبه هو ميخائيل باكونين ـ المؤلف المشارك، كما ستذكرون، لكتاب **تعليم الثوري**.

وفي التوازن بين الشخصيتين ـ الإله الغيور والمتمرد الشيطاني الذي تعادل مرارته غضب الآخر ـ تتأرجح حياتنا بشكل خطر، كما تأرجحت طوال قرون. وكان مجيء المسيح المنتظر يعني دائماً كشف الرؤيا: نهاية العالم.

ودليل تلك الرسالة المسيحية عن الموت قد ملأ طوال آلاف السنين مكتباتنا العامة ـ ومقابرنا. لكننا نستطيع التدقيق في بعض الأمثلة، ولو لوضع الرعب الديني المعاصر في سياقه الزمني المحترم.

إن إله النظام الغاضب ومسيح الثورة المتمرد يبتليان كل هياكل الآلهة البطريركية. وزيوس الراعد وبروميثيوس وهو يلوح بقبضة يده بثورة ضد الآلهة قد يكونان منطلقاً للبدء. أو قد نركز على التقليد اليهودي المسيحي الغربي، حيث أُعلنت فكرة المسيح المنتظر بشكل خاص. ولرؤية الابن، يمكننا أن نحلل السيكاري والزيلوت الذين، من خلال الإرهاب الواسع الانتشار، رعوا حالات تمرد جماعية ضد روما في وقت مبكر يعود إلى عام ٦٦ ـ ٧٠ بعد الميلاد. وكان الهدف تكثيف

نقص الثقة اليهودية في الهيئات اليهودية المحلية، وتحريض مثل هذه الكراهية بين اليهود والرومان واليونانيين بحيث تصبح جميع المفاوضات مستحيلة. وقد تم تحقيق هذا بواسطة استراتيجية الرعب: القتل بطعنات الخناجر المخفية في ضوء النهار، وبخاصة في الاحتفالات الدينية، مما يخلق جواً من الذعر. ومع إدراكه بأن «الرجل يمكن أن يكون أكثر ضعفاً حين يعتبر نفسه آمناً كلياً»، يكتب ديفيد س. رابوبورت «الرعب والمسيح المنتظر: تجربة قديمة وبعض النظائر الحديثة»، إن هؤلاء القوميين المسيحيين قصدوا باعتداءاتهم «إظهار أن ما من ظرف أو اتفاقية يمكن أن يحققا المناعة». وقد انتهت الثورة بانتحار الزيلوت الجماعي خلال حصارهم في ماسادا، وهو عمل لا يزال موضع احترام كنموذج عن التضحية البطولية الذاتية التي جرى تفضيلها على الاستسلام.

أن تنصح بالصبر كان معناه الخذلان. وأن تتردد كان معناه الخيانة. وأن تتناقض كان معناه عدم النقاء. وأن تتوق إلى عظمة الحياة كان معناه إظهار نفسك جباناً.

و«النقاء» المفتون بمثل هذا الكمال، الذي يمكن إحرازه بواسطة الموت فقط، هو صفة مميزة للخيال الألفي. ومن أجل الخيال، جرى العمل وفقه بتناغم مريع. ولرؤية الأب الكامل، قد نمضي وقتنا في إعادة معاينة ألوهية الملوك، أو حقهم المقدس، من الفراعنة عبر البوربون وحتى الأسرة السعودية الوهابية المعاصرة. ولرؤية كل من الأب الكامل والابن الكامل، قد نتفحص ما كان سيناريو «لوثر مقابل البابا» في الحقيقة يعيد تمثيله. أو قد ندرس الثورة البيوريتانية ـ بما فيها عبادة ميلتون لله ولكن تطابقه مع الشيطان بصفته المتمرد الكبير.

وفي التقليد الشرقي، قد نجد أباطرة آلهة أكثر، وقواعد أكثر، وإرهاباً مقدساً أكثر. وقد نجد ضوابط منمقة متأصلة في الكونفوشية. وقد نتجول عبر متاهة نظام الطائفة الهندوسية وملاءمته السياسية عبر استخدام غاندي الرائع له من أجل الاستقلال ضد البريطانيين في القرن العشرين. وقد ندرس السفاحين، الطائفة الهندوسية التي أظهر أعضاؤها ولاءهم الديني بالقتل الشعائري، أو الثاغي، الخنق المطبق على الغرباء. وقد نواجه البوذية المسالمة المطبقة عسكرياً في القتال من أجل القومية البورمية. وقد نتفحص القتالية المتواصلة في الإسلام، من الحشاشين في القرن الحادي عشر (مصدر كلمتنا «قاتل = assassin»)، الذي آمنوا بأن القتل كان مفتاح الجنة الفورية، وقد نشمئز من التفكير المشوش وراء تعبير مثل الجهاد («الحرب المقدسة») ـ ولكن ألم نر، إذاً، ذلك التشويش نفسه فعالاً في «الحملات الصليبية المقدسة»، ونسمع الترشيد العلماني له خلال القرن العشرين في عبارة «الحرب العادلة»؟

وقد نستهجن الشعائر الدينية التي مارستها الماو ماو قبل شروعها بمهام إرهابية خلال الحملة الكينية من أجل الاستقلال. لكننا سنعتبر تلك انعكاساً لكل «الفتوحات من أجل المسيح» التي مارستها القوى الأوروبية طوال قرون في ضمها قارات بأكملها كمستعمرات ـ الاستيلاء على العبيد، وبيعهم، وامتلاكهم (من أجل المسيحية، ولإنقاذ أرواحهم بالهداية القسرية)؛ والإبادة الجماعية لشعب المايا، والإنكا، والعديد من السكان الأصليين الآخرين؛ والمبشرون المتدفقون عبر العالم، وصليبهم بيدهم، في الخطوط الأمامية مباشرة لجيوش الإمبراطورية ـ يمنحون تلك الجيوش تبريرها المطلق.

والعنف الديني هو إيقاع المسيرة الأفضل الذي يعرفه الرجال. وهو تطور منطقي مجنون، إذا كان موقف المرء تجاه القدرة الكونية هو الرعب بالدرجة الأولى. وبقابليتها على التكيف، وملاءمتها، وخلوها من الأخلاق، تنتقل الرسالة بعيداً: «إذا كانت إرادة اللّه هي التي تتطلب من العنف أن يعيد حقوقنا، فمن أنا لأتحدى إرادة اللّه؟» وقد قيل ذلك أصلاً في الستينيات من قبل السيناتور الأمريكي المحافظ السابق والمرشح الرئاسي السابق باري غولدووتر - ومع حلول عام ١٩٨٧ تم اقتباسه بإعجاب من قبل المسؤول النقابي الراديكالي أبيساي تورا دفاعاً عن الانقلاب العسكري المضاد للديموقراطية في فيجي.

ويمكننا أن نسفح حياتنا كلها على أرض هذا الموضوع. فقد فعلت هذا أجيال حتى الآن. ولكن كل ما نحتاج إليه هو أن ننظر حولنا اليوم.

ففي سريلانكا، تقوم جماهير التاميل الهندوس، التي عانت طويلاً من التمييز المطبق ضدها على يد الأغلبية السنهالية البوذية، بتبني تكتيكات إرهابية رداً على ذلك.

وفي الهند، تقاتل طبقة ضد طبقة، والهندوس ضد المسلمين، وطائفة ضد طائفة. وكان على انفصال الباكستان أن يحل ذلك أيضاً. وكان على انفصال بنغلادش عن الباكستان أن يحل ذلك. والأقلية السيخ يعانون الآن، ويموتون، ويقتلون في أعمال إرهابية، زاعمين أن انفصال البنجاب سوف يحل ذلك.

وكان على تقسيم إيرلندة أيضاً أن يحمل حل ذلك، لكن رجال الدين الروم الكاثوليك لا يزالون يخفون أعضاء هاربين من الجيش الجمهوري الإيرلندي المؤقت - بينما يحرض الموقر البروتستنتي إيان بيزلي

تابعيه كي يحافظوا على تأجج الإرهاب. وكما كتب برناديت دفلن، «هناك القليل جداً من المسيحيين في إيرلندة الشمالية... وشعبها يتبادل الكراهية باسم يسوع المسيح» واللّه إلى جانبهم جميعاً، وكل جانب ملتهب بوهجه المسيحي الخاص.

وفي أقدس أيام التقويم الإسلامي، في حرم مكة ـ المنطقة المقدسة حيث يُحرم العنف حتى في زرع الحياة ـ قُتل ٤٠٢ شخصاً، معظمهم من النساء، في أعمال شغب أحدثتها مظاهرة إيرانية. والإيرانيون فارسيون، وليسوا عرباً، وهم مسلمون شيعة، وليسوا سنيين مثل التسعين بالمائة الآخرين في العالم الإسلامي. والصراع يدور حول الهوية، حول الاعتبار، والشرعية، والعداء العرقي ـ وحول القوة الجغرافية السياسية، وحول الاقتصاد، وحول النفط. وخلال الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩، ارتدى العديد من الرجال الزاحفين ضد الشاه أكفاناً بيضاء لإظهار تلهفهم للموت في سبيل قضيتهم الدينية السياسية. وفي الحرب العراقية الإيرانية، تطوع شباب من أجل الواجب وهم يضعون مناديل «الشهيد» القرمزية و«مفاتيح الجنة» الصغيرة حول أعناقهم. وفي مكة عام ١٩٨٧، وضع المتظاهرون النساء في صفوف أمامية؛ وحمل الرجال خلفهن رايات تعلن أن «النصر يتحقق بأفواج الشهداء»، وراحوا يقذفون الحجارة، ويحرقون السيارات. وتحركت قوى الأمن السعودية داخل الموضع المقدس. ونجمت الفوضى عن ذلك، وسُحق المئات بالأقدام حتى الموت. وبالإضافة إلى ٤٠٢ ماتوا، تم التبليغ عن ٦٤٩ شخصاً مصاباً، بمن فيهم ٣٠٣ إيرانياً، واستمر العنف طوال خمس ساعات. وبلغت المصادر السعودية والإيرانية معاً بأن الأرض الملطخة بالدم كانت مفروشة بنعال النساء وحُجُبهن.

ومع ذلك، فالإسلام، مثل اليهودية، دين تأويل، وليس دين عقيدة موحَّدة: فقد ساهم بحصته من الصوفيين، والعلماء، وصانعي السلام. ولذلك كان لكل تقليد ديني معارضوه الذين أثبتوا القاعدة (وأعتُبروا زنادقة غالباً)، وأفراد تجاوزت نزاهتهم الروحية النظام الذي خدموه برغم ذلك. والأكثر علاقة بصلب الموضوع هو أن **كل دين منظم،** - وبخاصة التأويل المتعصب للدين - بدلاً من أن يكون ذا طابع روحي، **كان دائماً "حركة سياسية"**، ترتبط بشكل متوافق مع سياسة التقمص، وبنفس التوافق تستهدف النساء لأنهن أسوأ عوائق لتلك السياسة. وكلمة **فتنة** العربية تدل على الفوضى والقوة الجنسية للمرأة في آن واحد. والمفهوم الكونفوشيوسي والرمز الصيني لكلمتي «امرأة» و«عبد» هو نفسه. والصلاة اليهودية التقليدية الأساسية للرجل هي أن يشكر اللّه لأنه لم يولد امرأة.

وقد قيل إن اليهود وصلوا إلى «رجولتهم» مع تأسيس دولة إسرائيل، ليس لأنهم قاوموا مضطهديهم ولكن نتيجة الأسلوب العنيف الذي قاوموا به. (كانت وحدة «مقاومة الإرهاب» السرية الإسرائيلية التي قادت عمليات الانتقام ضد الصحفيين الفلسطينيين وموظفي منظمة التحرير الفلسطينية في أوروبا بعد مذبحة الرياضيين الأولمبيين الإسرائيليين في ميونيخ عام ١٩٧٢ قد أُطلق عليها اسم: غضب اللّه). وثمة تبرير دائماً، بغض النظر عن المكان الذي يقرر فيه المرء دخول حلقة العنف. وقد بدأت عصبة الدفاع اليهودية في الولايات المتحدة عام ١٩٦٨؛ وكان هدفها المعلن حراسة شوارع بروكلن في نيويورك، لحماية مجتمعها من جريمة الشارع. لكنها سرعان ما اتخذت وضعية التحفز،

وبدأ أعضاء JDL «عصبة الدفاع اليهودية» ينظمون، ويرتكبون، وحتى يتعهدون أحياناً أعمالاً إرهابية. وكان لأعضاء JDL علاقة بست حوادث مشابهة على الأقل، بما فيها تفجير سيارات ومنازل بالقنابل، ومحاولات اغتيال، ورمي قنابل مسيلة للدموع على عرض لفرقة مويسييف للرقص في دار أوبرا متروبوليتان عام ١٩٨٦، حيث جُرح عشرون شخصاً. وقائد JDL المؤسس هو الحاخام مئير كاهان. وهو يدعم ويقود أيضاً كما يُظن حركة كاخ القومية المتطرفة في إسرائيل. وكاخ متهمة بالهجمات على العمال الفلسطينيين، وقذف القنابل على الأضرحة الإسلامية، وحتى مساندة مجموعة أكثر سرية أيضاً، وهي الرعب ضد الرعب، أو TNT (الأحرف الأولى من اسم المجموعة باللغة العبرية). ومجموعة TNT بدورها يُشتبه بها (أو ادعت مسؤوليتها علناً) في جرائم قتل ثلاثة رؤساء بلديات في الضفة الغربية عام ١٩٨٠، والاعتداء على الجامعة الإسلامية في الخليل عام ١٩٨٣ حيث قُتل ثلاثة عرب وجُرح ثلاثة وثلاثون شخصاً جروحاً خطرة، ومؤامرة لقصف قبة الصخرة، أحد أقدس المواقع الإسلامية كلها. والحاخام، مثل الملا، رجل الله.

وكذلك كان رجال الدين المسيحيون البيض الذين شاركوا في الإعدامات غير القانونية في الجنوب الأمريكي أو تغاضوا عنها. وكذلك الذين ينتهكون قدسية المعابد والمقابر اليهودية. وكذلك أعضاء اليمين المسيحي الجديد، الذي يتضمن منظمات تؤمن بتفوق البيض مثل كنيسة الأمم الآرية لمسيحيي يسوع المسيح. ومؤيدو هذه المجموعة التي مقرها ولاية إيداهو ارتبطوا بقذف القنابل على المساعدات الفدرالية؛ وقائدها،

الموقر رتشارد بتلر، متهم فدرالياً بتهم التحريض على العصيان. والأخوة الصامتة، والمعقل الأمريكي الأبيض، والطريقة الدينية، والتحالف الوطني، والكلان، وجماعة إقرار النظام، والمنظمة المتمركزة في أركنساس والمدعوة باسم الميثاق، والسيف، وسلاح الرب - كلها مجموعات شبه عسكرية تنتمي بشكل غير محكم إلى اليمين المسيحي - تشارك في علم لاهوتي مشترك، أطلق عليه اسم «الهوية» بشكل ملائم.

ونشأت «الهوية» عام ١٩٤٦ بواسطة منظم كلان والقس الميثودي السابق وسلي سويفت. وسيخبركم أنصار «الهوية» بأن المسيح كان آرياً، وليس سامياً، وأن اليهود ينحدرون من قابيل نتيجة تزاوج حواء مع الشيطان، وأن قبائل إسرائيل المفقودة كانت أنغلوسكسونية فعلاً، وأن الولايات المتحدة هي الأرض الموعودة - والتي يجب تطهيرها من غير الآريين جميعاً. ومن منصبه في كنيسة المسيح في ماريبوزا، كاليفورنيا، يعظ وليم بوتر غيل، قس «الهوية»: «صحيح أنني أعلّم العنف! واللّه قال إنكم ستقومون بذلك على هذه الطريقة! لقد حان الوقت ليخبركم شخص ما بأن تتحولوا إلى العنف، أيها البيض». لكن غيل كان يُعتبر غير فعال إلى حد ما برأي كيث غلبرت، الذي أمضى خمس سنوات في سجن سان كوينتين بسبب مؤامرة لتفجير ١٤٠٠ رطل من الديناميت خلال خطاب مارتن لوثر كينغ. وغلبرت، الذي أسس الكنيسة المجددة ليسوع المسيح في بوست فولز، إيداهو، يعظ بأن النبي إيليا كان قد تقمص في شخص أدولف هتلر وأن **كفاحي** كان في الحقيقة آخر أسفار الكتاب المقدس.

وهؤلاء الجنود المسيحيون يواصلون التلفيق، ويقومون بالتجنيد في سجون البلاد. ويتباهى جورج ستاوت، أحد قادة كلان والأمة الآرية في تكساس، بأن «شبكة السجن» واسعة: «في أحد سجون تكساس فحسب، ثمة أكثر من ٣٠٠ سجين على قائمة عناوين الأمة الآرية». ولكن حتى لا نريح أنفسنا بفكرة أن مثل هذه الفلسفة والتكتيك تستهوي فقط الذين يُعتبرون على هامش المجتمع المحروم المفتقر، علينا الإدراك بأن عصبة الدفاع الوطنية المسيحية تقوم بعقد جلسات تدريب في «قاعدة البقاء» التابعة لها والتي تبلغ مساحتها ٢٣٢ فداناً في ميزوري؛ وأن قائدها، جون هاريل مليونير إلينوي، يقوم بتجنيد أعضاء يملكون طائرات نحو بناء الجناح اليميني للأسطول الجوي المسيحي. ويجب ألا ننسى أيضاً وزير الداخلية السابق جيمز واط وهو يتجاهل إنذار اختصاصيي البيئة في تعليقه بأن التخلص من النفايات النووية وتلويثها لا يهمان لأن يسوع سيكون قريباً هنا في مجيئه الثاني. أو بات روبرتسن واعظ الكترونيك بنتيكوستال، الذي أدار عامي ١٩٨٧ و١٩٨٨ حملة جدية ممولة جيداً من أجل الرئاسة؛ وبينما كان يوجه «مواعظ» مستمرة ضد العرب من محطة إذاعة في لبنان (إحدى محطات عديدة يملكها روبرتسن)، تنبأ بأن المحرقة النووية - هرمجدون - متوقعة خلال حياتنا، وأنه يجب الترحيب بها لأنها سوف تبشر بعودة المسيح لإحلال السلام واحتضان «المخلَّصين» عبر الهداية. ثم هنالك رونالد ريغان نفسه، الذي لم ينكر أبداً ملاحظاته خلال عشاء عام ١٩٧١: «لا يمكن أن يطول الوقت الآن. لأن حزقيال يقول إن ناراً وكبريتاً ستمطر على أعداء شعب اللّه. ولا بد أن ذلك يعني أنهم سوف يُدمَّرون بالأسلحة النووية... والآن وقد أصبحت

روسية شيوعية وملحدة، والآن وقد وجهت روسية نفسها ضد الله... فإن هذا يلائم الوصف». وعند توقع اقتراب هرمجدون وحتى تسببها بواسطة رجل إصبعه على الزناد النووي، فإن الانفصال المزعوم بين الكنيسة والدولة يكون في خطر أن يصبح مشوشاً في النهاية*.

والتوق إلى الرؤيا شائع لدى اليمين المسيحي. وقد كتب وليم ل. بيرس، زعيم التحالف الوطني النازي الجديد، الذي يوجد مقره العام في واشنطن العاصمة، رواية رؤيوية ودليلاً إرهابياً، **مذكرات الخراط**، والتي أثرت بعمق على رجل اسمه روبرت جي ماثيوس، وهو مقاتل مسيحي آخر. وخلال أوائل الثمانينات كون ماثيوس ثروة تزيد على ثلاثة ملايين دولار من سرقات مصرفية وسرقات مسلحة للسيارات؛ ومع أنه تمكن من تفجير بنائين فقط بالقنابل قبل أن يتحصن في قتال حتى الموت مع عملاء مكتب التحقيق الفدرالي FBI عام ١٩٨٤، فقد ترك دليلاً على خطط مفصلة من أجل مهاجمة وشل «البنية التحتية وأنظمة المساندة في مدينة أمريكية رئيسية». وقد وجد ماثيوس أيضاً نفسه من خلال «الهوية». وكذلك فعل رجلان تم إلقاء القبض عليهما في صحراء كاليفورنيا مع أكبر مخبأ غير شرعي للأسلحة في تاريخ الولايات المتحدة. وكذلك فعل قس من متشيغان ادعى أنه هو الذي نشر بدعة الهرطقة**.

---

* كتاب غريس هاليسل **التنبؤ والسياسة: مبشرون مقاتلون على طريق الحرب النووية** (وستبورت، كونكتيكت: لورنس هيل، ١٩٨٦) يثير الشعور بالقشعريرة لدى أي شخص استخف باليمين الديني الأمريكي على أنه حركة لا علاقة لها أو مرحلة مؤقتة.

** كان الهراطقة مجموعة مضطهدة من المنشقين المتهمين في جنوب فرنسا منذ القرن الحادي عشر وحتى القرن الثالث عشر. واتهمتهم البابوية باعتناق مذهب المانوية. والمانوية نفسها تلخصت بأنها «الذروة والنهاية القصوى التي يوصل إليها عن طريق المعرفة الروحية الثنوية القديمة». ("ماني والمانوية"، في **موسوعة الدين**، إعداد فرجيليوس فيرم [نيويورك: المكتبة الفلسفية، ١٩٤٥] الصفحات من ٤٦٥ ـ ٤٦٧) تؤمن المانوية، في شكلها الأصفى، بأن كل المادة شريرة، وبأن عدم الوجود هو الطريق الوحيد إلى النور.

ولا مجال للإنكار أن النساء أيضاً متورطات في اليمين المسيحي. وقد خصصت أندريا دوركين تحليلاً ذكياً جداً بطول كتاب عن كيفية وجودهن وسببه. لكنهن لسن نشيطات في إرهاب تلك الحركة. وربما لم يجدن أنفسهن فعلاً في «الهوية»؟ أو ربما لم يؤتمن على أسلحة اللّه، باعتبار أن النساء هن أوعية سيئة السمعة للشيطان.

ولا بد أن كنيسة الروم الكاثوليك كانت تحذر الرجال من مواهب النساء الجهنمية طوال سنوات؛ وهي المرشحة الأطول أمداً والأكثر موثوقية للخوف من النساء في السجلات. وخلال اضطهاد الساحرات، انخفض عدد السكان في مدن أوروبية كاملة ليقتصر على الذكور فقط: فقد جرى ذبح جميع النساء. ومؤخراً في عام ١٩٧٦، نقلت وكالة أسوشيتد برس قصة امرأة في الثالثة والعشرين، وهي أنيليز ميتشل، من كلنغنبرغ في ألمانيا، والتي ماتت بعد إخضاعها إلى مناسك طرد الأرواح على يد كاهنين كاثوليكيين. وقد حققت هيئات مدنية في إجراءات طرد الأرواح، التي أوصى بها أصلاً كاهن محلي عمره إحدى وثمانون سنة اعتقد بأن ميتشل كانت خاضعة للشياطين التي سببت لها نوبات عنيفة. وبترخيص من الأسقف جوزيف ستانغل، جرى استدعاء طاردين للأرواح الشريرة - هما الأب أرنولد رينز والأب إرنست ألت. وزعم الأب رينز، الذي لا يكره الشهرة، خلال لقاء تلفزيوني، أن ميتشل كانت خاضعة إلى ما لا يقل عن ست أرواح، بمن فيها لوسيفر، ونيرون، ويهوذا، وقابيل، وأدولف هتلر (كيف يتنقل). واستمرت طقوس طرد الأرواح عشرة أشهر؛ وازدادت نوبات ميتشل تكراراً وشدة، وهبط وزنها إلى سبعين رطلاً. ولم يطلب الكاهنان أي مساعدة طبية.

وأخيراً ماتت، «من سوء التغذية والتجفاف» وفقاً للتقرير الطبي. وأبرشية الأسقف ستانغل هي فيرزبرغ، حيث جرى في سنة واحدة فقط خلال القرن السابع عشر إحراق أكثر من ثلاثمائة امرأة حية بتهمة «التعامل مع الشيطان». ودلت الخلفية الطبية التي كُشف النقاب عنها بعد موتها على أن النوبات الغامضة قد جرى تشخيصها وهي في المدرسة الثانوية: كانت أنيليز ميتشل تعاني من الصرع.

إن تركيز الطاقة العاطفية للهوية الذكورية، والسياسة الفاشية وكره المرأة والعنف، والمؤسسات الدينية هي حلف سيئ السمعة. وفي الثلاثينات، أثار الاشتراكيون الوطنيون الألمان ـ النازيون ـ الشعور العام ضد النساء المستخدمات وموانع الحمل والإجهاض والشذوذ الجنسي، وأحيوا المثل الأعلى حول (الأطفال والكنيسة والمطبخ) للنساء الألمانيات. واستمر ائتلاف ناشط كاره للنساء بين الحزب النازي والمؤسسة الدينية لفترة كافية كي يعزز هتلر قوته. وجرى تعطيل المجموعات والمنشورات المؤمنة بتحرير المرأة، كما حدث لعيادات منع الحمل. وفي عام ١٩٣٣، أصبح هتلر مستشاراً، وطُرد المؤمنون بتحرير المرأة، بالإضافة إلى «غير الآريين»، من وظائفهم في التعليم وغيره من الوظائف العامة. وحُظر على النساء المنصب السياسي والمنصب القضائي. وفي عام ١٩٣٤، مُنع الإجهاض واعتُبر جريمة ضد الدولة، يُعاقب عليها بالأشغال الشاقة أو الإعدام.

وهز الماركسيون أكتافهم، آه، حسن، ماذا تتوقعون؟ الدين هو أفيون الشعوب. والدين يمكن أن يكون أيضاً أفيون الماركسيين، وتأججاً مدنياً يكتمل بالأيام المقدسة والقديسين العلمانيين. يظهر ليس في

تكريس الإيمان الألفي فحسب (مهما يكن إلحادياً)، ولكن على شكل دين بسيط قديم. وقد كان لينين هو الذي وصف البولشفيين هكذا: «نحن الأتراك الشبان للثورة، مع إضافة بعض اليسوعية». ولنلق نظرة ثاقبة على اليسار المسيحي بالإضافة إلى اليمين المسيحي.

لقد كان كينيث كاوندا، أول رئيس في زامبيا، مدافعاً متحمساً للمقاومة السلمية والسلبية خلال نضال زامبيا للتحرر من البريطانيين. وانتصر ذلك النضال عام ١٩٦٤، وواجهت الدولة الصغيرة حينئذ حرباً متطاولة في زمبابوي المجاورة (روديسية الجنوبية آنذاك). وأصبحت زامبيا قاعدة مقدسة للاجئين ومقاتلي حرب العصابات للمحاربين المجاورين من أجل الاستقلال، وهدفاً أيضاً للضربات الروديسية البيضاء الأرضية والجوية. وفي هذه المرحلة، عدل كاوندا، المسيحي المخلص، معتقداته حول العنف، مدافعاً عن وجوده الملح وجاعلاً من مسيحيته تبريراً: لقد أكد، في الواقع، أن المغفرة بعد الذنب هي عملياً النهاية التي تبرر وسائل العنف. وفي كتابه **لغز العنف** يصور بصورة ملتوية هذا اللاهوت السياسي:

*إذا لم نكن نتصرف لتغيير الأمور ـ التي يجب أن تستدعي العنف لدى الذين سيقومون بأي شيء لحماية امتيازنا ـ فإننا، **في سلبيتنا**، نلقي بثقلنا إلى جانب الظالم... وقد انتهيت إلى دعم الكفاح المسلح لأنني لم أعد أستطيع الإيمان بأن أي شيء أفضل من استخدام القوة. وكنت مأخوذاً إلى حد كبير ببعض كلمات كاتب فيكتوري، هو دوغلاس جيرولد: «إننا نحب السلام كما نمقت الجبن، **ولكن ليس السلام بأي ثمن**. وثمة سلام أكثر تدميراً **لرجولة الرجل الحي** مما هو مدمر لجسده»... [لقد رجحنا] شكلاً شريراً ضد آخر وطلبنا المغفرة من الله حين تعهدنا بأن نعمل ما كان علينا عمله. (التأكيد لي).*

وقد أسأل فوراً لماذا يُعرض علينا خيار إما/أو، وكأن العنف و«السلبية» هما الخياران الوحيدان. لكن المظهر الأكثر إيحاءً حتى لهذا الوضع ليس أن العنف قد تبناه المضطهدون في نضال من أجل الحرية، ولكن أن المسيحية التي يُفترض أنها سلمية يمكن استخدامها (وقد استُخدمت) **كأساس منطقي**. وأعتقد أن هذه كانت مسألة إعادة تفصيل للقماش الديني كي يصبح ملائماً أقل مما هي الإدراك بأنه ملائم تماماً للبدء به. والخيط لتثبيته في مكانه الصحيح؟ الرجولة. **ولماذا تُفهم الرجولة دائماً على أنها الثمن العالي جدا للسلام؟**

وفي عام ١٩٨٧، خاطب رئيس نيكاراغوا دانييل أورتيغا سافيدرا الأمم المتحدة. وقد اختار القيام بذلك في ٨ تشرين الأول، وهي الذكرى السنوية لموت تشي غيفارا. وفي مؤتمره الصحفي بعد ذلك، قام أورتيغا بمقارنة غيفارا مع يسوع المسيح، «في وفائه غير الأناني نحو الآخرين». وحالما تحدث أورتيغا، رابطاً بين آلهته بأسلوب هادئ وقور، وصل عدد تشرين الثاني من مجلة Playboy إلى أكشاك الصحف. وكان موضع ترحيب كبير بلغة الإثارة لاحتوائه على صور نصف عارية تمثل جيسيكا هان، وهي امرأة شابة مسيحية متشددة كانت قد «تسببت في سقوط» الامبراطورية المالية والعقارية لمبشر PTL («مدح الرب») التلفزيوني جيم باكر في فضيحة دينية أُطلق عليها اسم بيرليغيت. وزعمت هان أن باكر قد أقدم على اغتصابها؛ وادعى باكر أن هان قد قامت بإغواء رجولته نحو الخطيئة. وتلا ذلك قدر كبير من الغضب - بما فيه بعض ادعاء الصلاح الذاتي المشوش بين النساء اللواتي سبق أن دعمن هان باعتبارها ضحية لكنهن لا يعرفن تماماً الآن أين يعقدن خططهن السياسي

الصحيح، بما أنها منحت مقابلة وصوراً إلى مجلة Playboy الإباحية مقابل أجر كبير. وبدا أن القليلين قد اهتموا بأن نفس العدد من مجلة Playboy قد أجرى مقابلة طويلة أيضاً مع دانييل أورتيغا سافيدرا (سياسة جدية، كما تفهمون). ولكن بالنسبة إلى بعضنا، كانت تلك سياسة الرجولة الشائنة كالعادة. وعلى الرغم من تأكيداته بأنه مؤمن ذكر بحركة تحرير المرأة (أتساءل إذا كان من الممكن القول إن الحركة النسائية التحررية الحقيقية تنحدر بنسبة مباشرة إلى العدد الموجود من «المؤمنين الذكور بتحرير المرأة»)، فقد كان أورتيغا قد ألف ديوان شعر ثوري كما يزعم بينما كان مسجوناً من قبل الدكتاتور السابق سوموزا. وكان عنوان الكتاب - بدون سخرية - **افتقدت ماناغوا بالتنانير القصيرة.** ولم يقم أحد بانتقاد أورتيغا آنذاك بسبب عنوانه الرجولي الثوري. ولم يقم أحد بانتقاد أورتيغا الآن من أجل ظهوره في مجلة Playboy. وفي كلتا الحالتين، كانت تصرفات دانيل أورتيغا تصرفات رجل ثوري. وفي كلتا الحالتين، كانت تصرفات جيسيكا هان تصرفات امرأة قذرة!!.

في **علم النفس الجماهيري للفاشية**، كتب ولهلم رايخ أن «المسيحية الكاثوليكية، بشكل خاص، قد مضى عليها وقت طويل منذ أن عزلت شخصيتها الثورية»، وقد خفضت من قيمتها بطلبها الآن من «ملايين تابعيها أن يعتبروا الحرب "قدراً"، وتكفيراً عن الخطيئة». وأنا أعارض ثانية. فالمسيحية - والمسيحية الكاثوليكية بشكل خاص، إذا شئتم - قد احتفظت بكل ميزات «شخصيتها الثورية» الذكرية، التي تلوى في قلبها السري دائماً فحيح الإزالة من الوجود: حب الموت على أنه وسيلة نكران الذات النقية والوحيدة للتكفير عن خطيئة الوعي. ولا عجب أن

المرأة، التأكيد المجسد لإيروس، والولادة، والحياة، هي عقبة لعينة.

و«العلم الديني للثورة» فقط يؤكد هذا. وأنا لا أتكلم عن أولئك الأفراد الشجعان الذين تركوا كنيستهم بعدما لمحوا مدى مصلحتها الشخصية ومشاركتها في المعاناة الإنسانية، وهي متروكة كي تعمل وتعيش وتموت أحياناً بين ضحاياها في تأكيد يومي للنعمة الإلهية. لكنني، بالأحرى، أتكلم عن أولئك القساوسة والراهبات (الشجعان بشكل فردي أيضاً) الذين، مثل أسلافهم المبشرين الاستعماريين، يعملون، ويعيشون، ويقاتلون، ويموتون أحياناً أيضاً بين ضحايا المؤسسة التي لا يزالون يقسمون لها يمين الولاء. ويُدعى هذا بالاستفادة من الأمرين ـ وروما هي سيدة تلك التقنية. وستار الدخان للنضال اللاهوتي يمكن أن يرتفع: يمكن أن تزعم الكنيسة الرسمية أنه يجب أن يُعاد إلى القيصر ما هو حق للقيصر، وأن عدم التورط السياسي أمر إلزامي؛ وكنيسة «التحرير» (بالعودة إلى تفسير رايخ) يمكن أن تصر على إنعاش «الشخصية الثورية» للمسيحية المعنية. وإذا فاز القيصر في شخص الجنرالات ولجانهم السياسية، فإن الكاردينالات سوف يقيمون قداساً. وإذا فاز القيصر في شخص المتمردين (ولجانهم السياسية)، فإن الكاردينالات سوف يقيمون قداساً. وفي الحالين، سوف تحتفظ الفاتيكان بمقعدها في الأمم المتحدة. وفي الحالين ـ على امتداد أمريكا اللاتينية، وفي إسبانيا والبرتغال، وفي جمهورية إيرلندة والفليبين ـ سيكون مرفوضاً الطلاق، ومانع الحمل، وبشكل خاص الإجهاض. (وعودة إلى الوطن في الولايات المتحدة، إن الإخوة بيريغان يساوون حق المرأة في الإجهاض مع القدرة القاتلة للبنتاغون). وقضايا «الإيمان والأخلاق»،

التي من أجلها اطلعوا على حقوق النساء الإنسانية، والجنسية، والتناسلية، سوف تبقى منيعة. وفي الحالين، ستكون الصفقة متعلقة بأجساد النساء. والقياصرة القدماء يدينون بإبقائهم في السلطة؛ والقياصرة الجدد يدينون بتسليمهم السلطة. وجماهير النساء هي الخاسرة فقط.

وربما كانت أكثر الخدع جميعها مدعاة للدهشة هي الاطراد الذي ينطلق الإصلاحيون على أساسه في هذا. وقد استحضر هتلر «الكذبة الكبيرة»، وتنبأ بأن الكذبة كلما كانت أكبر، سيتم قبولها بشكل أفضل. وقد صنف أورويل ذلك في **ألف وتسعمائة وأربعة وثمانين،** ودعته ماري دالي، كما أشرنا، «الانقلاب البطريركي». ومع ذلك فهو يستمر. ويتحدث الواعظون برتابة «في الحياة نحن موتى». ويعلن رجال الدين «سوف تجدون ذاتكم عبر خسارة النفس». وكي تغير النساء العالم، وحياتنا إلى درجة أقل بكثير، يتطلب الأمر النظر عبر مثل هذه «الحقيقة» الشاملة مراراً وتكراراً، حتى ولو كانت تلك العملية التي تمزق العين التي تدمع فقط، مراراً وتكراراً، يمكن أن تغسل بلاء توقنا الخائف إلى عدم الرؤية بعد.

إذاً، ربما، يمكننا القيام بإعلان حقيقي، لأنفسنا ولبعضنا بعضاً: بأننا معجزة.

وسياسة النشوة، هنا والآن، حتى في خضم المعاناة السابقة التي لا توصف، تُعتبر سمة مميزة للتفكير والعمل المتعلقين بتحرير المرأة. وهي ليست «ديمومة الحياة» المجردة كنوع من الحصة الموعودة (إذا استُثمر ألم كاف اليوم وتراكم على جميع أيامنا القادمة). إنه تأكيد هادئ وآني

و**محدد** للحياة **الآن**. ويمكنك أن تسمعه في المرح والأذى لدى النساء اللواتي يقمن بمقارنة الملاحظات حول حياتهن. ويمكنك رؤيته في الطرق التي تخفي بها الأمهات أبناءهن - من المشايخ، ومن المجموعات الثورية، ومن وكالات القوة العظمى. ويمكنك تنفسه من الزهور النامية في القدور المتصدعة على الأروقة والعتبات في الأحياء الفقيرة للمدن وفي معسكرات اللاجئين. وهو صبور وواع ومتناقض. لكنه ليس سلبياً. وهو ليس بعيداً عن التمرد.

ومفهوم السيطرة النسائية هذا، كما هو واضح، يُعتبر فوضوياً وغير عملي، ومحافظاً حتى.

وهو شكل من العمل والتمرد يختلف كلياً عن سياسة الموت المنتشي الذي يمجده الدين البطريركي وينجزه، والواجب المضاعف الفذ في تقديس وترسيخ سلطة العرابين خلال إلهام الأبناء المتمردين وإيجاد مبرر لهم. ونشوة الموت هي ما تسمعه في المواعظ التي يلقيها القساوسة العسكريين في كل جيش. ويمكنك رؤيتها على شكل رمز سري في بعض الأديان التي أنشأها العبيد مثل فودون في هايتي، وكاندومبلي وماكومبا وأوباندا في البرازيل. ويمكنك تنفسه في الرائحة النتنة للحم الرهبان البوذيين الذين يضحون بأنفسهم، أو الجثث المتعفنة بعد الموت الشبيه بالماسادا لجيم جونز وأتباعه في هيكل الشعب.

هذا المفهوم البطريركي، كما هو واضح، يُعتبر منظماً وبراغماتياً وتقدمياً.

إنه عالم مقلوب ظهراً لباطن. إنه اضطراب عقلي.

والاضطراب العقلي، مهما تكن مكوناته الأخرى، يتضمن دائماً عنصر الرعب.

وإذا قنّع الدين المؤسساتي رسالته الحقيقية بشكل منافق - شهوة الإبادة - بأكاذيب طقسية، فقد كانت الفلسفة وعلم الجمال التقليديين على الأقل أكثر صدقاً. فالدين قد ادعى حب الحياة وهو يسعى من أجل الموت - وحفظ القواعد في مكانها الصحيح بواسطة الرعب. والفكر والفن الذكوريان، من ناحية أخرى، قد أدركا وعبدا ونشرا بشكل صريح «الموت في سبيل الحب».

كأس السم

لقد عرضنا جسراً مزعوماً عبر هذه الهوة المصطنعة: «الحب الصافي» على أنه نقيض الشهوة الدنيوية وبديل النشوة المقدسة. وهو ليس نقيضاً ولا بديلاً، وهو ليس جسراً بالتأكيد. وفي التراث الشعبي (أفلام هوليود، والروايات التافهة، وبطاقات التحية المميزة)، من المعتاد إضفاء صفة التفاهة والعاطفية على **عمل** الحب العاطفي الضاري الصعب بشكل حقيقي - العمل الذي تحمله النساء حصراً تقريباً في العلاقات الإنسانية. وفي الميادين الأقل شعبية والمؤثرة في الوقت نفسه للفكر والفن، يرتبط «الحب الصافي» مع فكرة ليبيستود («الموت في سبيل الحب»)، على أنها العاطفة التي تزهر بشكل استحواذي فقط لدى العشاق المشؤومين، وتزدهر لفترة قصيرة، وتنهي بالخيانة أو الفوضى أو القتل أو الانتحار. والحساسية الوثنية* القديمة والروحانية النسائية كانتا مختلفتين تماماً. فقد مجدتا مزيجاً من الشهوة والعاطفة والنشاط الجنسي النسائي المعترف به (بكل تعبيراته) كقوة حيوية. أما ما دعته الساحرات الأوروبيات بالطريق القديم أو ويكسي (صنعة الحكماء) فقد

* تعني كلمة وثني "pagan" «ساكن الريف» (وتعني كلمة كافر "heathen" «ساكن المروج»). لأن معتقدات عبادة الآلهة القديمة عاشت أطول بين الفلاحين وأهل الريف، وأصبحت هذه المصطلحات تطلق على الموالين للاعتقادات الروحية غير البطريركية.

تمَّ سحقه مع نشوء المؤسسات الدينية والثقافية البطريركية التي أمكنها أن تلهم وتبرر العنف السياسي بشكل أكثر كفاءة. والعاطفة الشهوانية لا مكان لها هنا. وتعويضاً لذلك، يُقدَّم لنا عشاق أنقياء ومأساويون، مثل روميو وجولييت، اللذين تجاوزا ظاهرياً مثل هذه العداوات. لكن تلك النماذج في الواقع الاجتماعي والوعي الاجتماعي **عززت** الافتراضات الثقافية بأن العداوة ترتبط حتماً بالعنف وأن نجاة الحب الوحيدة هي التحرر بالموت.

ومن السذاجة الافتراض بأن هذا مرض في الثقافة الغربية فقط، أو أن الأعراض بدأت مع الرومانسيين. على العكس، لقد ولدت هذه الفكرة، على شكل توءم سيامي، مع النظام البطريركي: فالأساطير الأسبق تغير شكلها ورسالتها فجأة في إعادة نسائية للرواية. ليليث تتغير من زوجة آدم الأصلية إلى ثعبان، وكائنات الهاربي والسيرين الخرافية تصبح مميتة، وآلهات الأقدار تتحول إلى أرواح منتقمة، وأبو الهول إلى قاتلة. وثمة تغيير مماثل يعلي من شأن القسوة يحدث في الأسطورة الأفريقية، وفي الحكايات الشعبية الأمريكية المحلية، وفي الخرافات الآسيوية. والنوع نفسه من السادية «المقدسة»، ذات الأسلوب الإباحي، تلعب دورها في ملحمة **جلجامش** البابلية القديمة، و**مابينوغيون** الويلزية، والقصائد الاسكندنافية القديمة، و**ماهابهاراتا ورامايانا وريغ فيدا** الهندية - حتى أصبحت أخيراً، كما عبر عن ذلك ماريو براز في **المعاناة الرومانسية**، «مطابقة الشهوة مع الموت» كاملة. والمرأة، طبعاً، هي دائماً أداة الشهوة.

وتريستان، ذلك البطل الرومانسي البدائي، هو تجسيد لهذه العقدة

الثلاثية: العاطفة والتمرد والمرض. والفارس تريستان، كما تذكرون، يُرسَل لمرافقة الأميرة إيزولد في رحلتها لمقابلة الملك مارك والزواج منه، لكن تريستان وإيزولد يشربان على غير علم جرعة حب مقدرة ويصبحان عاشقين. وبعد زواجها، ينحدر الثلاثي إلى المأساة، مع محاولة العاشقين الهرب (والموت) وهلاك الملك مارك. وحتى في اختلافاتها، تتطابق الأسطورة مع ثلاثي لانسيلوت ـ غوينيفر ـ آرثر. لكن روايات سابقة للقصة، وهي بقايا أسطورة أمومية سلتية وتوتونية، تقدم لنا إيزولد متألقة بقوتها. وفي بعض الروايات تكون كاهنة الآلهة، وفي بعضها ملكة حاكمة. وهي ليست قرينة أحد. فهي التي تختار حبيبها. ومصيرها في يديها، وجرعة الحب (ليست موجودة حتى في بعض الروايات) هي مجرد ـ جرعة **حب**. وهي التي تقدم إلى حبيبها، بشكل صريح، دعوة إلى سعادة واضحة. وبعض الروايات الأقدم تحمل نهاية سعيدة حتى (ليست بالضرورة شرطاً أساسياً سواء للفن أو للحساسية النسائية، لكنها سارة دائماً حين تتمكن من إحراز إحداها). ومع دخول الإله الجديد، مع التوتر بين وجهة نظر العالم الوثني والمسيحي، ومع سقوط الملكات الحاكمات وحلول القانون السالي الذي يمنع الوراثة الأنثوية للعرش، تغيرت المؤامرة. ويدخل الملك مارك، الزوج الغيور، والإله الغيور. ويدخل تريستان مختلف، وهو الآن متمرد مثل الشيطان، شهيد مسيحي مثل المسيح. ويدخل الجانب اللاإرادي وكأس سم الحب، والذي يعني شربه نشوة مأساوية عابرة بانتظار عقاب حتمي: الشهوة، الخيانة، الذنب، الامتلاك، الهلاك.

وفي مقالة بعنوان «نماذج التمرد»، يفترض فيتوتاس كافوليس أن

أسطورة تريستان لأول مرة «تقدم نموذجاً للرجل والمرأة كي يكونا رفيقين متمردين متساويين [كذا]»، في مؤامرة ضد الملك مارك. (وهذا كله جيد جداً، لكننا ندرك الآن أن مثل هذه «المساواة» في الروايات اللاحقة لم تكن تعني منحها السلطة وإنما فقدانها للسلطة، وليس إضفاء الصفة الإنسانية عليه ولكن رفعه إلى مرتبة البطل). ويرى كافوليس أن الحب الرومانسي هو المتهم: «عند جذور «كيمياء» [كأس الموت في سبيل الحب] للحب الرومانسي يوجد التحول إلى آلية تقودها القوة، منفصلة عن الوعي، لذلك التلقي المنشط الذي يدعى العاطفة». وهو يرى أن هذين «الرفيقين المتمردين المتساويين» قد اختارهما تمردهما بدلاً من أن يختاراه، وأنهما أداتان في ظروف تمَّ عزلهما قسرياً عنها ـ وهو يرى في هذا العزل نذيراً لأشكال حديثة من التمرد: «لقد قدم اليونانيون نموذجين أسطوريين للتمرد: تمرد "عقلاني" للفرد الثري (بروميثيوس) وتمرد "عاطفي" للجماعة البائسة (ديونيسوس)*. وتعكس الحضارة الأوروبية الحديثة المعادلة: تمرد "عاطفي" للفرد الثري (تريستان) وتمرد "عقلاني"، فيما بعد، للجماعة المضطهدة (ماركس). وقد جرى إضفاء الصفة الفردية على ديونيسوس، والصفة الجماعية على بروميثيوس».

وبروميثيوس وديونيسوس وتريستان ـ وماركس (الذي كان، بالمناسبة، سليل أحبار المسيح المنتظر)، كلهم ذكور؛ وكلهم نماذج ذكورية للتمرد. ومع التحول الأوروبي الحديث، حيث تدخل شخصية تاريخية حقيقية لتأخذ مكانها مع الآلهة والأبطال، يفيض كأس السم. والنموذج التريستاني للتمرد من أجل رجل فرد غني في القرن العشرين هو شكل

---

* الإله الذي كان يُعتقد أن احتفالاته تثير هيجاناً من التهتك الجنسي، وشهوة الدم، والفوضى.

من التضحية الذاتية (والتضحية بالآخرين، سواء أكانوا متطوعين راغبين أم لا). وتعلق مارثا كرنشو، في كتابتها عن التضحية الذاتية كحافز إرهابي، أن العديد من الأفراد «بدوا مرحبين بالأسر لأنه تسبب في التحرر... وبإحساس من الرضا والإنجاز». وتستشهد بأن ميريدور (عضو في قيادة أرغون العليا) كان في «روح معنوية عالية» حالما اعتقله البريطانيون، وتعلق بأن مناحيم بيغن أظهر مشاعر مشابهة: هزة من الابتهاج عند التوقيف، لأن المعاناة الحقيقية التي كانت حقاً للبطل يمكن تجربتها أخيراً.

والتمرد الماركسي «العقلاني» ليس انتحارياً بشكل حرفي جداً. إنه نوع مختلف من الموت؛ وهو ينشد السلطة المركزية: **بطل الأمس يصبح مستبد الغد، ما لم يصلب نفسه اليوم.**

والأسوأ، هو ما يحدث حين يكون الذين يتبنون الأسلوب الماركسي «العقلاني» (يعملون، كما يدعون، لمصلحة المضطهدين) هم أنفسهم محرضين من قبل الأسلوب التريستاني «العاطفي»؟ موت مضاعف في سبيل الحب. فالأغنياء، المضرمين بالذنب، ينشدون الغفران عبر الاستشهاد. والأغنياء، العاملون «من أجل» الجماعة، ينشدون السلطة المطلقة عبر الاستبداد. **وكل طريق هو هروب من الهوية متنكر بقناع البحث عنها**. والمعرض للاضطهاد لن يمتلك فرصة أبداً.

وهذه تدعى سياسة.

وهذه تدعى فلسفة أيضاً. والدولة هي التي قدمت إلى سقراط كأس السم؛ ولم تكن إيزولد (ولم تكن بالتأكيد أم سقراط فيناريت، التي كانت متخصصة بالرياضيات، أو زوجته «السليطة»، زانتيبي، التي كانت قابلة ومداوية). بل كان رجال آخرون.

ونيتشه، الذي دعا جورج إليوت «مجرد امرأة مثقفة» وجورج ساند «بقرة كاتبة كثيرة الإنتاج»، والذي كتب، «إن النساء يُعتبرن عميقات ـ لماذا؟ لأن المرء لا يمكنه أبداً اكتشاف أي قاع لهن. والنساء لسن ضحلات»، قد منحنا أيضاً جواهر مثل «إن فرط القوة فقط هو دليل على القوة؛ والقوة تستعاد عبر الجرح». وقد سخر من إضفاء صفة الروحانية على الحب ودعا من أجل «إضفاء صفة الروحانية على العداء». لكنه كان في أقصى قسوته حول الحرية:

إن قيمة أي شيء... تكمن في مقدار ما ***يكلفنا... والحرب هي تدريب على الحرية****... ولماذا الحرية؟... أن يكون المرء مستعداً للتضحية بالرجال من أجل قضيته، وهو ليس مستثنى... والحرية تعني أن الغرائز الرجولية التي تبتهج بالحرب والنصر قد فازت بالسيطرة على الغرائز الأخرى، مثل غريزة «السعادة»... والرجل الذي أصبح حراً يزدري الرفاهية التافهة التي يحلم بها أصحاب الدكاكين... والبقر، والنساء، والإنكليز، والديمقراطيون الآخرون. إن الرجل الحر هو* ***محارب****.*

ويدفعك هذا إلى الرغبة في إعادة تقييم الإنكليز. ويجعلك تفهم أيضاً لماذا تبنى الرايخ الثالث فلسفته بهذه السهولة، على الرغم من المدافعين عن النيتشية الذين لا يزالون يدعون بأن ذلك لم يكن خطأه وأن الفتى المسكين تعرض إلى ضغط سيئ.

لنسلم بأن نيتشه هو علامة سهلة. لكن **عبادة الذكر** (العبادة الخائفة من الأب الرجولي المنتصر) **واشتهاء الموتى** (عبادة حب الموت للابن الرجولي المقدر له الموت) تقسم فلسفة الذكوريين بينهما. وكلما كان الفيلسوف معاصراً أكثر، كان تأثيرهما المزدوج أكثر قابلية

للإدراك. ويمكن القول إن المركيز دي ساد هو الأب الحقيقي للفلسفة الحديثة، لأن كتاباته (وممارسته) نشرت الممارسة الإباحية السياسية والفكرية والجمالية للموت في سبيل الحب. وساد هو السلف الروحي لبعض المعاصرين الوجوديين المحترمين مثل سارتر وجيد وجينيه وباتي - والذين جميعهم مشغولون بعبث الرقة، والذين بالنسبة لهم جميعاً، كما علقت ديبورا كاميرون وإليزابيث فريزر حول القتلة الجنسيين، «الشهواني منتهك والانتهاك شهواني».

وإذا كان الانتهاك شهوانياً، إذاً فالاعتداء يمكن أن يكون ثورياً. والامتلاك يساوي الاغتصاب ويساوي السلب. وعدم الوعي يساوي النسيان ويساوي النشوة. وإذا كان الموت يجعل المرء حياً بحدة أكثر، إذاً فالرعب شرط أساسي للحياة.

وقد أتت كلمة «فلسفة» من الجذر philos، إحدى الكلمات اليونانية التي تعني «حب». حب الفكر؟ ربما علينا إعادة تسمية هذا الفرع باسم «الفلسفة».

وعلى عكس نيتشه أو ساد، لا يُعتبر ألبير كامو علامة سهلة. وبما أنه فيلسوف وكاتب مسرحي وروائي فقد انتج مجموعة غنية من الأعمال، وكلها تتعلق بموضوع الحنين إلى الحرية*. وفي **القتلة العادلون**

---

* كعضو نشيط في المقاومة الفرنسية خلال الحرب العالمية الثانية، حيَّر كامو المتطرفين والمثقفين الفرنسيين برفضه الانضمام إلى سارتر ودوبوفوار ومالرو وغيرهم لإدانة الأعمال الفرنسية في الجزائر. وزعم مؤيدوه أن صراعه الشخصي حول كونه قد ولد ونشأ في الجزائر **المستعمرة** كان ثانوياً في الحقيقة بالنسبة إلى اشمئزازه المتزايد من كل أشكال العنف؛ ويناقشون أن هذا الاشمئزاز قد أتخم أعماله في الخمسينيات حتى أصبح كل ما كتبه شجباً ضمنياً لفرنسا، لكنه أحس بأنه كي يصبح أكثر وضوحاً كان عليه أن يشجع عنف التمرد الجزائري من جهة أخرى. وهذا دفاع مشكوك فيه. انظر جورج ج. جوايو، «ألبير كامو وإفريقيا الشمالية» Yale French Studies (إصدار خاص عن كامو)، ربيع عام ١٩٦٠، الصفحات ١٠ - ١٩.

والمتمرد، يعترف بالإرهابي الذي عليه المجازفة أو البحث عن الموت كوسيلة للخلاص. وفي **أسطورة سيزيف،** اعتبر «نعمة النسيان الكلي للذات» أحد أشكال الانتحار. واستطاع رؤية أن بطله المتمرد كان عبداً للموت في سبيل الحب، لكنه في الوقت نفسه لم ير أن مثل هذا المتمرد لن يحصر نفسه بالانتحار، لكنه قد يصرع معه البريئين ـ الذي قد يفضلون ذاتاً واعية، **الحياة** من أجل الحب. وفي **المتمرد**، وصف أن البطل:

*المتمرد رجل [كذا] يوشك على قبول المقدس أو رفضه... وكل سؤال، وكل كلمة، هما فعل تمرد بينما في العالم المقدس تكون كل كلمة فعلاً رحيماً... **ويمكن لعالمين فقط أن يوجدا من أجل العقل الإنساني:** المقدس (أو، للتحدث بالمصطلحات المسيحية، عالم الرحمة) وعالم التمرد. واختفاء واحد يعادل ظهور الآخر... **وهنا نكتشف ثانية من جديد الكل أو لا شيء**. (التأكيد لي).*

لماذا علينا دائماً أن نكتشف ثانية الكل أو لا شيء؟ **لماذا** يمكن لعالمين فقط أن يوجدا للعقل الإنساني (الذكر)؟ **لماذا** لا يمكن لفعل التمرد وفعل الرحمة أن يكونا الشيء نفسه؟ ليس ممكناً؟ إذن أخبروني في أي من تلك الفئتين تلائم الصور التالية:

امرأة تقول لا.

شخصان في منتصف السبعينيات يمارسان الجنس.

امرأة ناضجة تتعلم القراءة.

رجل يحزم أمتعته للذهاب إلى السجن بدلاً من الانضمام إلى الجيش.

طفل يسأل، «لماذا لا أستطيع الاقتراع؟»

عاشقان مستلقيان يتعانقان بسلام، وقد التفّت أطرافهما، وروحاهما؛ وهما من الجنس نفسه.

امرأة تدرك بأنها لا ترغب في حمل طفل لا تستطيع أن تحبه أو تهتم به؛ تلتقط سماعة الهاتف وتتصل بعيادة الإجهاض.

راهبة تقيم قداساً.

امرأة تبعث برسائل مشفرة: تخيطها في أربيليرا تشيلية، وتطرزها على غطاء رأس فلسطيني، وترمزها في قصيدة.

أفعال تمرد، أفعال رحمة - أم كلاهما في الوقت نفسه؟

إن الإبداع الفني دائماً هو فعل متزامن مع التمرد والرحمة، كما كان على كامو أن يعرف. لكن سياسة التقمص قد أعاقت تفكيره:

يمكن للفاتحين الحديثين أن يقتلوا، ولكن لا يبدو أنهم قادرين على الإبداع. والفنانون يعرفون كيف يبدعون لكنهم لا يستطيعون أن يقتلوا فعلاً. والقتلة موجودون بشكل استثنائي جداً فقط بين الفنانين. وعلى المدى البعيد، إذاً، يجب أن يموت الفن في مجتمعاتنا الثورية. لكن الثورة حينئذ كانت ستعيش امتدادها المخصص. وفي كل مرة تقتل الثورة في الرجل [كذا] الفنان الذي كان يمكن أن يكونه، تُضعف نفسها أكثر قليلاً.

فكروا، إذاً، بما فعلته **كل** ما يُطلق عليها اسم ثورة، حين تقتل في الرجال فناني الحياة الذين يمكن أن يوجدوا، وتقتل في النساء فنانات الحياة اللواتي وُجدن، **وتقتل فن الحياة**. ولا عجب في أن كل ثورة من عمل الرجل تستنزف امتدادها المخصص لحظة وصولها إلى السلطة.

وقتل الفن قد يأخذ العديد من الأشكال: الرقابة المباشرة وغير المباشرة، وعزل الفنان فيما لا علاقة له به، وفي التفاهة، وفي تحريم موضوع البحث، وفي إضفاء الطابع التجاري، و - بإحدى أكثر الوسائل

تأثيراً ـ التلاعب بالفن على شكل دعاية. وحين يتم هذا بسرعة وصخب، يصبح من السخف كثيراً الاعتراف به. ولكن عندما يتمُّ بثبات طوال حقب، فإنه يصبح غير منفصل عملياً عما نعرف أنه فن، ولا يكون من السهل تحديده. والفنان يحمل مرآة للمجتمع؛ وتلك إحدى وظائفه. لكن الانعكاس الخالي من الروح لعاشق الشيطان الآن أصبح كلي الوجود بصورة خفية. وجمالياً، أصبح العنف ممتزجاً جداً مع أفكارنا حول العاطفة الرومانسية والقوة الجنسية بحيث بات الرعب بات يمثل ليس مجرد الخلاص الديني والاستكشاف الفكري بل والجمال نفسه.

الرجل الميت

السلب. مثل الاغتصاب، مثل الامتلاك، مثل بطاقة خروج من حالة الوعي، مثل إلغاء الذات ـ فكرة السلب التي تتخم الفن والأدب والثقافة الذكورية العالمية. وعاشق الشيطان هو الذي يتبختر بجمال، مثل كوابيسنا.

ويمكننا تتبعه عبر المعارض والمتاحف، أو عبر حياة المؤلفين الموسيقيين الذكور ونزعاتهم المتكررة، أو عبر المسارح وشاشات العرض. لكن صفحة الأدب ـ أو حتى جزءاً منها ـ ستكون كافية لعرض الكل، مثلما تكفي قطعة واحدة من شريحة الصورة لإعادة بناء الصورة كلها.

وربما لأنني، مثل أكثر النساء وبعض الرجال، أحب صنع الأشياء الجميلة بالإضافة إلى إضفاء الجمال على الأشياء، كنت أشعر أحياناً بالحيرة حول الأشكال التي ينبعث فيها الجمال حين نعتبره «فناً عظيماً». الجمال التراجيدي، كله عملياً. لكن الكوميديا، التافهة الآن فيما يتعلق بالدعابة أو الفطنة، كانت تُعتبر ذات مرة الأسمى بين جميع الأشكال الجمالية. وكانت المهرجانات القديمة للمسرح تنتهي بالكوميديا **بعد** التراجيديا، ليس من أجل أن ينصرف الجمهور بنهاية سعيدة عذبة ولكن كي تخلّف انطباعاً لديهم حول أصعب مهمة للوعي الإنساني: التمجيد

في الوقت نفسه لما يجرؤ المرء على فهمه وما لا يستطيع إدراكه. ومع ذلك فإن «الجمال الكوميدي» اليوم هو نوع من عدم التطابق. وما يُعتبر أكثر جمالاً هو (من جديد) المشؤوم أو الملعون، النادر والثمين نتيجة لذلك (بالمقارنة مع المألوف والثمين نتيجة لذلك). وما هو جميل يجب أن يكون عابراً، شيء ما يُثمّن لأنه مفقود الآن أو سيكون. وعلم الجمال يظل في حالة مستمرة من الحداد الإدراكي، بدلاً من الاحتفال اليومي بكل ما يمكن أن نراه، ونعرفه، ونحبه، قبل فوات الأوان.

وقد توصلنا إلى الاعتقاد بأنه إذا كانت صورة أو فكرة متواضعة، أو هزلية، أو بسيطة، فلا بد أن تكون سطحية؛ وإذا كانت جليلة، أو مأساوية، أو منحرفة، فلا بد أن تكون عميقة. وثمة تناظر يلتمس الانتباه هنا: كما كان فن النساء لآلاف السنين يُعتبر «صنعة» (لأن اللحاف والطاسة الفخارية والسلة لها أيضاً **وظيفة** يومية، للتدفئة والتغذية والحمل)، وهكذا فإن «الفن الجميل» يُعرَّف بأنه شيء ما غير مفيد إلى درجة عالية، ولذلك فهو «نقي»، ولذلك فهو ممارسة تقتصر إلى حد كبير على الرجال.

ومثل أكثر النساء، أحب أن أكون مفيدة. لكنني لست أكاديمية ولا اختصاصية بعلم الجمال. إنني امرأة أدواتها الفنية هي الأدوات العادية في حياتنا اليومية ـ المستخدمة في لوائح البقالة وعناوين الصحف، وعلى لافتات الشوارع وصناديق الحبوب، وفي أغاني الأطفال، وقصص العجائز، ودمدمات المجانين، وفي الوصفات ورسائل الحب: الكلمات. وربما كانت الفنانة التي أدواتها مألوفة أقل ـ الرسامة، النحاتة، المؤلفة الموسيقية ـ تجد نفسها مختلفة أكثر عن الآخرين لأن أدواتها متخصصة

أكثر. وبالتأكيد سيبدو هذا حقيقياً بالنسبة للفنانة الممثلة، فأداتها هي جسدها. ولكن هنا يكمن الأمر ـ فعلى المرء إذا كان كاتباً أن يتعامل مع الكلمات، مما يعني محاولة إعادة اكتشاف قدرتها وإنعاشها، والذي يعني بدوره ملاحظة الأسلوب الذي تحولت بواسطته إلى التفاهة والضعف، والذي يعني بدوره ملاحظة كيف تمَّ ذلك وبواسطة من؟.

وكل هذا، طبعاً، سياسي. وبما أن الأدوات الحية للغة هي مشتركة مع أشخاص حولنا، من السيدة المتشردة المتسكعة التي تكلم نفسها عند زاوية الشارع إلى السياسي الذي يوجه بيان مؤتمره الصحفي إلى الملايين، فإن الاستخدام المتبادل لتلك الأدوات يتطلب استغراقاً مستمراً في الوضع الإنساني.

لذلك (مع الإدراك الكامل بأن الرجال يقولون إن النساء يتحدثن أكثر من اللازم دائماً، ومع إدراك أكمل حتى بأن ثلثي أميي العالم هم من النساء اللواتي مُنعن من تعلم القراءة) فإنني سوف أركز مناقشتنا لعلم الجمال على الأدب.

وهنا، أيضاً، يظل قدر الأنثى لازمة متكررة. والمرأة هي «الحسناء التي لا ترحم»، وهي الحورية العربية، وديبوك العبرية. وجرى تجديد كليوباترة التاريخية ولوكريزيا بورجيا لملاءمة هذه الصورة. «وفينوس، التي كانت بهجة العالم، تهبط الآن، في زمن المسيحية، إلى مستوى مصاصة دماء شريرة»، في تعليقات ماريو براز (الحداد الإدراكي). **والمرأة المميتة** نموذج ثقافي متقاطع بدائي إلى درجة أنها أصبحت نموذجاً علمانياً، كي تُستخدم ضد النساء الحقيقيات في مطلبنا الجاد وغير البطولي من أجل إنسانيتنا.

وثمة نموذج بدائي أكثر خطورة ـ لأنه **غير** معترف به كترجمة للحقيقة العلمانية ـ وهو **الرجل المميت**. مع أنه كان موجوداً منذ بداية النظام البطريركي. والتغيير نفسه الذي سبب لنا الرعب من ميدوسا خفض ديونيسوس من صورة النشوة الاحتفالية إلى صورة النشوة العنيفة، وأضفى طابع الخشونة على «بان = Pan» المرح اللعوب القديم إلى مغتصب ورّثنا كلمة «رعب = panic». والرجل المميت كان المحتال الماكر الذي تحول إلى حقود (لوكي في الأسطورة الجرمانية، ولوغ في الأسطورة السلتية، ومئات من الأشكال المختلفة في أساطير الأمريكيين المحليين، والبولينيزيين، وغيرهم من الشعوب البدائية ـ السيد الخبيث للفوضى يصبح الأمير الفظ للظلمة). ومع حلول أواخر القرن الثامن عشر أو أوائل القرن التاسع عشر، يتحول مصاص الدماء إلى عاشق الشيطان. وهو يرمز الآن إلى عاطفة خالدة نحو ما يُعرّفه بالحرية، وهي عاطفة بالغة العنف بحيث يمكن تحقيقها في القبر فقط. وكما عبر براز عن ذلك:

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، يصبح مصاص الدماء [من جديد] امرأة، كما في أغنية غوته الشعبية؛ ولكن في القسم الأول من القرن، يكون العاشق القاسي المميت رجلاً بصورة ثابتة؛ وبمعزل عن مبررات العرف أو العرق (الجنس الأقوى [كذا] بقي هكذا ليس في الاسم فقط، حتى عصر الانحطاط، حين... بدت الأدوار معكوسة)، ما من شك بأن السحر الشرير للبطل البايروني كان تأثيراً...

ويتعقب براز عاشق الشيطان عبر غوته وشيلر وفلوبرت وشيلي

وكيتس وبايرن وسوينبرن، وكذلك بودلير وفرلين طبعاً. ويستخرج جذور «جمال المريع» لدى بعض المؤلفين مثل تاسو ومارلو ونوفاليس. ويلاحظ أيضاً أن الروائيات القوطيات ـ ماري شيلي، مثلاً ـ «قد وقعن تحت تأثير وجهة النظر الذكورية». وهذا تصريح متعاطف على ما يبدو، حتى نأخذ بعين الاعتبار أن ماري شيلي، وبالتأكيد إميلي وشارلوت برونتي، قد كتبن في الحقيقة على طريقتهن عبر النموذج القديم لعاشق الشيطان. واعترفت كل منهن بجاذبيته على طريقتها لكنها دعته مسخ العالم الذكوري، أو شكلاً شهوانياً مصطنعاً (**فرانكنشتاين**)، أو قوة مدمرة بشكل وحشي ما لم يتم نضجها خلال أجيال عن طريق الوقت والحب (**مرتفعات وذرنغ**)، أو تجسيداً مستبداً بوضوح يجب تفاديه حتى يمكن للألم الإنساني والإدراك الداخلي أن يلطفاه (**جين إير**).

وإنقاذ العاطفة الشهوانية من العاطفة التقمصية ـ والمطالبة بالأولى مع رفض الثانية ـ ليس مهمة سهلة عندما لا تبالي ثقافة المرء، كما عبر أوسكار وايلد عن ذلك، بأن «يقتل كل رجل ما يحب». وبالإضافة إلى ذلك، إن التاريخ هو قصة العنف ـ العنف الشرعي العام (علاقات الرجال مع رجال آخرين) والعنف الشهواني الخاص (علاقات الرجال مع النساء). وأغلب الملاحم القديمة (**جلجامش**، **ماهابهاراتا**، الخ.) التي أشير إليها سابقاً في هذه الصفحات هي قصص حرب. وكذلك **الإلياذة** والتوراة. وفي **النساء والحرب**، تخصص جين بيتك إلشتاين بعض التحليل لظاهرة أن «الروايات التي اعتُبرت بين الأعظم في العالم ـ مثل **الحرب والسلام** لتولستوي ـ تمنح حضوراً، وحتى نبلاً، للنوع الأدبي». وتشير إلى أن «الرجال كانوا لفترة طويلة رواة عظماء لقصص الحرب...

وقصص مقاومة النساء المقاتلات والمجندات كانت تُروى أحياناً لكنها لم تصل إلى المرتبة **الأدبية** لروايات الحرب الكبرى للرجال - ستيفن كرين، إريتش ماريا ريمارك، أ. ب. هربرت، إرنست همنغوي، نورمان ميلر، جيمز جونز، جوزيف هيلر... » وروديارد كبلنغ. وسيغفريد ساسون. وروبرت غريف. ووليم ستايرن. وتوماس بينشن. وكيرت فونيغت. والقائمة مؤثرة بصورة محزنة.

وعلى الرغم من وجود بعض كتابات الحرب البارزة للنساء (إديث وارتون، غرترود ستاين، ويلا كاثر، سيمون دوبوفوار، مرغريت دوراس)، فإن إلشتاين تؤكد أن النساء لم يكنّ أقل انتشاراً في هذا الموضوع فحسب بل إن اهتمامهن به كان يقل (ويختلف) عن الرجال. ويتساءل بول فوسيل، مؤلف **الحرب الكبرى والذاكرة الحديثة**، لماذا: «[كانت النساء] بالإضافة إلى الجرحى الدائمين، هن الضحايا الرئيسات في الحرب، حيث يُبعد رجالهن الأموات خلف المعاناة. ومع ذلك فإن المراثي كتبها الرجال، والقصائد التي تسجل حب الجنود كتبها الرجال، ولم يكن يبدو أن النساء هن حماة السخرية المضادة للحرب. ويبدو هذا شاذاً، وينتظر تفسيراً».

وهل يبدو شاذاً جداً؟ هل الحب الشاذ الذكوري المعبّر عنه بشكل مقبول عبر العنف غامض جداً حقاً؟ وبالنسبة إلى النساء، هل من الممكن أننا لا نستمتع جنسياً بالحرب كما يفعل الرجال، وأننا في الحقيقة قد لا نحب الموضوع؟ لندع غرترود ستاين، في **حروب رأيتها**، تساعد فوسيل للخروج بالسخرية المضادة للحرب التي ينتظرها:

هذا صحيح لكن النساء طبعاً لا يمكن أن يعانين منها [الحرب] كما يفعل الرجال، فالرجال برغم كل شيء جنود، والنساء لسن كذلك، ويحبون فرنسا بقدر ما نحبها ونحن نحب فرنسا بقدر ما يفعل الرجال، ولكن برغم كل شيء نحن لسنا جنوداً ولذلك لا نستطيع الإحساس بالهزيمة كما يفعلون، كما أن النساء في هزيمة إثر هزيمة لديهن ما يفعلنه أكثر من الرجال، وعليهن أن يلفتن اهتمامهم إلى أن الهزيمة أمر طبيعي، ولذلك فإن لديهن وقتاً أقل للمعاناة.

وقليلات جداً منا لاحظن أنه مثلما الرجال، في الصلاة المسيحية، «هم في الموت حتى في الحياة»، كذلك فإن الرجال كطبقة هم في حالة حرب حتى وهم في السلام. وفي عملها الكلاسيكي «السياسة الجنسية»، تختار كيت ميليت ثلاثة أدباء بارزين - د. هـ. لورنس، هنري ميلر، ونورمان ميلر - للتعبير عما دعوته الإحساس التقمصي. ويمكن للمرء تحليل الروائي الياباني البارز يوكيو ميشيما بالطريقة نفسها، لكن ميلر، الذي ازداد إحساساً بالتفوق الذكوري بحماقة أكثر مع مرور السنين، قد وفر علينا المشكلة بتأمين كتابات مبجلة عن هاجس ميشيما بفكرة الرجولة، والتسلط العسكري، والموت، ومساهمته في إعجاب ميشيما بعبادة الموت الذكوري التي نشأت منذ انتحار الأخير. ومع ذلك، لسنا بحاجة إلى إعادة تحطيم قلوبنا وأفكارنا في الإسهاب أطول مما يجب حول مؤلفين عبدوا العنف. وحتى تعدادهم سيكون تقليداً للتكتيك القضيبي المتعلق بالمبالغة في القتل، بما أنه يمكن القول إن العنف **هو** موضوع الأدب البطريركي.

وللإرهاب نفسه أتباع أدبيون أقل وأكثر انتقاء، لكن النوع الأدبي يتزايد حديثاً. وفي هذه الحالة على الأقل يرى الكتاب بعض النماذج بوضوح أكثر مما يفعل «الخبراء».

وقد كان دوستويفسكي يرجع إلى الموضوع بصورة متكررة. وفي رواياته **المسوس، والأخوة كارامازوف، والجريمة والعقاب، ومذكرات من تحت الأرض**، كان يتعذب من خياره الرئيسي حول إما/أو: الخلاص عبر اللّه (الأب) أو الخلاص عبر العمل الاجتماعي (الابن المتمرد).

كما سبر جوزيف كونراد الإرهاب في عدد من الروايات، وبخاصة **تحت العيون الغربية والعميل السري**. وفي الأخيرة، يتجول شخص أغضبه عدم اهتمام عامة الناس غير المسيسين عبر الرواية وقد خبأ متفجرات في مقدمة قميصه، في بحث أبدي عن المفجر الكامل. وتوقه إلى قتل نفسه **هو** وسيلته لتحديد الذات؛ ولا شيء يمكنه إرضاء ذاته سوى الدمار. ويلتقط كونراد خاصية الجشع، والبحث عن عمل شنيع حقاً يتطلب تخريباً مثيراً دائماً كي يلفت الانتباه ـ وأكثر من أي شيء، كي يصل إلى إشباع جنسي فعلي. ويذكر هذا بموسيقى فاغنر «Liebestod» الشهيرة، حيث تزداد جملة موسيقية توتراً أكثر فأكثر، بدون أن تهدأ أو تكون قابلة للإشباع. وفي قفزة جانبية للربط، يذكر أيضاً بأغنية ميك جاغر المسعورة «لا أستطيع الوصول إلى إشباع»، التي كانت شعبية جداً في السبعينات.

وهاهو السيد فلاديمر، إحدى شخصيات **العميل السري**، يحاول التأكيد على هدف قد يكون مرضياً:

قد تسبب قنبلة في المعرض الوطني بعض الضجة. لكنها لن تكون خطرة بصورة كافية... ولكن ماذا على المرء أن يقول عن عمل يتصف بالضراوة المدمرة يصل في سخفه إلى درجة أن يكون عسيراً على الفهم أو التفسير، وغير معقول تقريباً، ومجنوناً في الحقيقة؟ والجنون وحده مرعب حقاً، لأنك لا تستطيع تهدئته

سواء بالتهديدات، أو الإقناع، أو الرشوة... وعلى الهجوم أن يحمل كل الحماقة المروعة للتجديف غير المبرر.

وهاهو هانز جوشيم كلاين الشخصية الحقيقية، وهو إرهابي ألماني تورط عام ١٩٧٥ بخطف وزراء أوبك في فيينا، كما ذكر في مقابلة مع Der Spiegel عام ١٩٧٨:

لقد سألنا أنفسنا... ماذا يمكن أن يكون عمل لا يستطيع أحد تجاهله... لقد بحثنا عن نقطة مركزية حيث يجتمع كل شيء: الألمان لا يزالون يتصارعون مع ماضيهم؛ المشكلة الفلسطينية الناشئة حديثاً؛ بندقية تبدأ قتال حرب عصابات في المدن. ومثل هذا العمل لا يمكن لأي أحد أن يتجاهله، من الليبراليين إلى النازيين القدماء...وقد وجدناه: قنبلة تنفجر في مقر المجتمع اليهودي - في ذكرى [Kristallnacht «الليلة البلورية»، في تشرين الثاني عام ١٩٣٨، حين قاد النازيون غارات متزامنة معادية لليهودية على امتداد ألمانية]... ومع ذلك لم تنفجر القنبلة، وانتشرت هذه القصة بشكل جزئي حول العالم.*

لاحظوا (كما فعل كونراد) أن **المحتوى السياسي ثانوي أو لا علاقة له** بالتوق إلى عمل شرس شنيع **عديم الإحساس** بصورة كافية. ويتجاوز هذا الانعكاس المنحرف المتعلق بخلط الحرية مع العنف. ومبرر الحرية لم يعد مستخدماً حتى. إن هذا هو «الفعل الصافي» نفسه - الجنون.

وقد استخدم هنري جيمز الإرهاب موضوعاً له في **الأميرة كاساماسيما**. وربما بسبب حظه الطيب في أن أليس جيمز أخته، كان

* مما يثير الانتباه، أن النقاط المركزية للهجمات الإرهابية عملياً ليست أبداً الملاعب الرياضية، أو صالات التدليك، أو نوادي رجال، أو الأماكن المشابهة حيث تتجمع شرائح كبيرة من السكان الذكور.

متعاطفاً بشكل غير عادي مع الإحساس النسائي؛ وشخصياته النسائية هي دائماً تقريباً أكثر تطوراً وأكثر تذكراً من شخصياته الذكورية. (وقد عاب عليه هذا بعض النقاد الذكور). وفي **الأميرة**، يكون الثوري الذكر المثالي لديه، هياسنث روبنسن، ممزقاً بين عالم العنف الثوري الذي التزم به مسبقاً، وعالم الجمال والصفاء الذي تقوده الأميرة إليه. وينهمك جيمز في جميع قضايا الاضطهاد الطبقي، لكنها أيضاً، بشكل لافت للنظر، تخص «العالم» الذكوري مقابل «العالم» النسائي. وروبنسن لا يستطيع الوصول إلى سلامه الكامل مع أي منهما: ويقتل نفسه.

وبرغم افتتانه الدائم كما يصف نفسه بعبادة البطل، فقد لمح أندريه مالرو سياسة بديلة أيضاً، سياسة إيروس، عبر شخصياته النسائية في **الوضع الإنساني** (رواية رائعة تُرجمت إلى الإنكليزية، بشكل مثير للسخط، باسم **قدر الإنسان**). لكن اللمحة كانت تتلاشى، وقد تركها تزول. ويهمس أحد إرهابييه الثوريين، «ليس من الصعب جداً أن تموت حين تحتضر وحيداً»، كاشفاً أهمية اصطحاب الآخرين معك إلى الموت في سبيل الحب. وشخصية أخرى «كانت لديه قوة متبقية فقط للألم الذي يمكن أن ينزله... بهذه المرأة: أن يهجرها عن طريق الموت». ويبتهج آخر، أيضاً، «كان من الضروري أن يصبح الإرهاب عبادة صوفية»، ثم يُفجر قنبلته ـ ونفسه.

وكان خوليو كورتازار أحد كتاب أمريكا اللاتينية المعاصرين الذين حاولوا التوفيق بين الإرهاب والثورة والثقافة، والتحرر الجنسي (المحدد ذكورياً). وقد برر الفساد لأنه حتمي في الانتقال إلى العالم الجديد حيث يمكن انبعاث رجل جديد (نعم، كذا). ويكتب في Libro de Manuel

عن بطله الخاطف، «على المرء أن يحب في نوبة المرض صورة التحرر... برغم الخيارات الحتمية الأسوأ؛ فالأيادي الثورية كان عليها أن تتلطخ بالصفراء والغائط، مثل يدي جراح - كي تنتزع الورم وتمنح حياة جديدة إلى الشاب». والشاب هو الدولة المحتاجة للشفاء من نوبة المرض. الدولة أنا. وهي من جديد قد قُتلت وبُعثت ثانية.

وقد عمل غراهام غرين طوال سنوات في جهاز الأمن البريطاني، كما عمل جون لي كاريه. وكلاهما استخدم الرعب والرعب المضاد مواضيع في قصصهم. وقد وازن غرين بثبات وعناية بين المتهكم بحد ذاته، والباحث عن الموت في سبيل الحب، وبين نفس أخرى تنشد نعمة خادعة غير دائمة. وذلك التوتر وحده يجعل عمله جذاباً وغير عادي. ويركن لي كاريه إلى توتر أسهل، بين عادة الموت كطريق إلى الحياة والمفاجأة في مواجهة رغبة للعيش بطريقة مختلفة.

وفي العقدين الماضيين، رفعت الروائيات أقلامهن للكتابة عن هذه الحرب - وبمفهوم مختلف بصورة مميزة. وليس من الممكن ولا من الضروري تلخيص حبكاتهن المتنوعة هنا، ولكن من الممكن ملاحظة التشابه في أسلوبهن ومعالجتهن لفكرة هذا الموضوع. وبرغم الميل إلى تجميل حياة الهاربين (في فيدا) وإضفاء الطابع الرومانسي على صراعات حركة ثورية سرية شابة (في **راقص النسر كي ينام**)، تقوم مارج بيرسي بتسمية ومصارعة الجاذبية التي يحملها عاشق الشيطان لشخصياتها، الذكورية والأنثوية على حد سواء. وتنهمك دوريس ليسينغ، في **الإرهابي الجيد**، في تحليل طبقي أكثر بساطة - يجد باحثوها الصغار المسترسلون وراء الإثارة أنفسهم في موضع أعمق مما خططوا له. لكن

لسينغ، أيضاً، تعري واجهة غبطة الموت في سبيل الحب؛ ويكون إرهابيوها الذكور تهكميين، ومن النماذج الانتحارية بصورة مسلم بها أو من المتبجحين المزاجيين؛ وتكون إرهابياتها النساء قلقات بصورة متنوعة من عدم الشعور القذر بالمسؤولية الذي يتم به تخطيط أعمال المجموعة وتنفيذها، ومن النتائج حتى حين تكون ناجحة. وخلال ذلك، أيضاً، تحاول النساء في صفحات بيرسي وليسينغ معاً الاستمرار في الحياة كالمعتاد. ويقمن بتنظيف الأحياء الفقيرة في المنطقة حيث تستقر الشاحنات، ويزرعن الحدائق ويستجدين النقود ويشترين البقالة ويطبخن وجبات رخيصة مغذية ويتعاملن مع الشرطة والبيروقراطيين وأهداف القضية ومفجرات السلك ويُرحن رجالهن. وخلال ذلك، يتبختر الرجال، ويناقشون النظرية السياسية، ويناورون حول المزايا التكتيكية والجنسية.

وبشكل لافت للانتباه، يكشف أغلب كتاب القصة هؤلاء ما يظل لغزاً بالنسبة إلى خبراء الإرهاب. إن النشاط الجنسي للرعب والإرهاب حاسم بالنسبة إلى أعمال بيرسي وليسينغ، لكنه يشكل جوهر أعمال جيمز، ومالرو، وغرين، ولي كاريه. وقد صور جميع هؤلاء الكتاب المكون الجنسي على أنه أساسي في الرعب، وعلى أنه ما يجذب الرجال بشكل حاسم إلى مثل هذا الفعل، وما يجذب الرجال الآخرين إلى الرجال الملتزمين فعلاً بمثل هذا الفعل، وما يجذب النساء إلى أولئك الرجال. ويرى الكتاب الذكور (ما عدا غرين) النموذج لكنهم لا يرتابون فيه بشكل خاص. والجاذبية المميتة، وإضفاء الطابع الشهواني على القسوة والموت، بالنسبة لهم، قد تجاوزا الآن أكثر التعبيرات الأخرى للحدة الجنسية بين البشر. وقد أصبح «مسرح القسوة» لأنتونين أرتود ترفيهنا

اليومي، وواقعنا اليومي*. وبالنسبة للكتاب الذكور، من الطبيعي أن يتآمر الرجال، ويقتلون، ويتعرضون للقتل كشكل غريب من المرح، بينما تحاول النساء (إما بالانضمام إليهم أو برفضهن القيام بذلك) إيقافهم دون جدوى. وربما يستهجن الكتاب الذكور هذه الحالة، لكنهم يعتبرونها مرضاً مزمناً ووباء في المجتمع، وغير قابل للتغيير على الأرجح. وربما كانت الكاتبات لا يتخيلن (حتى الآن) مفاهيم بديلة، لكنهن على الأقل يبحثن عن تمرد مختلف بشكل نوعي، مهما يكن صغيراً، في شخصياتهن النسائية. وعلاوة على ذلك، إنهن يفرقن بين الدفاع الأصيل وبين عنف مجاني (وملتهم) لأنه يمنح إحساساً مثل رعشة الهوية الجنسية.

وهكذا نعود إلى الهوية.

وفي **أدب الدعارة: الرجال يمتلكون النساء**، يكتب أندري دوركين، «إن العقيدة الأولى لإيديولوجية التفوق الذكوري هي أن الرجال لديهم هذه النفس والنساء يجب، بالتعريف، أن يفتقرن إليها. والنفس الذكورية... مؤهلة لأن تأخذ ما تريد لدعم ذاتها أو تحسينها، وأن تحصل على أي شيء، وأن تعوض أي حاجة مهما كلف الأمر... والنفس هي الإدانة، فوق مستوى المنطق والتدقيق، بأن ثمة معادلة بين ما يريده المرء وحقيقة أن المرء كائن».

ويقترح بول ولكنسن، في **الإرهاب السياسي**، أن «العنف المتطرف

* يعتبر نيهيميا فريدلاند وجفري ز. روبن الإرهاب احتجاجاً سياسياً أرتودياً مقدماً بشكل متعمد في إطار اجتماعي أنهكته المساهمة السياسية الديموقراطية: «ليس من المحتمل أن يختفي الإرهاب السياسي عن المسرح. لكن رؤيته كعمل مسرحي قد يساعد في منع المآسي الغبية». («مسرح الرعب»، **علم النفس اليوم**، آذار ١٩٦٨، صفحة ٢١).

يؤخذ بشكل أولي على أنه فعل توكيد للذات وتعبير عن الذات» بالنسبة لبعض الإرهابيين. وتتقدم جيليان بيكر خطوة أخرى؛ وتعلق على نظرية ولكنسن، «هذا صحيح بالتأكيد فيما يتعلق بالإرهابيين الذين درستهم، وأعتقد أنه قد يكون صحيحاً فيما يتعلق بجميع الإرهابيين. التقليد الرومانسي، مع تأكيده على... إشباع العواطف...، وما دعاه بول ولكنسن بإضفاء الطابع الجمالي على السياسة، بحيث تُرى السياسة نوعاً من الشكل الفني (وهو الشكل الذي يحب الدكتور غويلس أن يفكر به)... الذي لا يزال حياً وعاملاً لدى الإرهابيين».

وما يراه دوركين ـ وما لا يلاحظه ولكنسن أو بيكر (مع أن بيكر توسع في التحليل على الأقل) ـ هو أهمية من يقوم بتعريف النفس، وأضيف، **من يقوم بتعريف** الحافز الرومانسي. والمتهم ليس الحب الرومانسي بل التفسير التقمصي للحب الرومانسي. والقضية ليست إضفاء الطابع الجمالي على السياسة بل إضفاء الطابع الذكوري على السياسة وعلى علم الجمال. والعاطفة ـ وحتى إشباعها ـ ليست موضع لوم، بل إنها بالأحرى الفكرة المفسدة بأن **العاطفة تتطلب ضحية**، وهي فكرة سادية تماماً باركها رجال الدين، وعقلنتها فلسفة الرجال، وجملها فن الرجال، ومارستها سياسة الرجال.

ومع ذلك فقد كانت العاطفة أصلاً حول الحدة في **الحب**: حب شخص آخر (سيكون ذلك تجدداً رومانسياً)، وحب فعل الخلق (سيكون **ذلك** انبعاثاً جمالياً)، وحب إطلاق العنان للأفكار (سيكون ذلك نهضة فلسفية)، وحب الحياة كلها على هذا الكوكب وحب المحيط الحيوي نفسه (سيكون **ذلك** تجديداً سياسياً)، وحب الروعة المتخيلة وغير المتخيلة للكون (سيكون ذلك إحياء روحياً).

ولماذا يجب أن تتطلب العاطفة ضحية؟

تكتب ديبورا كاميرون وإليزابيث فريزر في عملهما الرائع **شهوة القتل: تحقيق نسائي عن القتل الجنسي**:

في الحب، تحاول النفس الهروب من ذاتها، ونحو الأخرى؛ ولكن لأن الأخرى تستثني الذات بالضرورة نتيجة لاختلافها، فإن الحب يمكن أن يتحول بسهولة إلى اشمئزاز، والرغبة إلى دمار. وفي هذه التطابقات للإثم والإثارة الجنسية، والجنس والموت، والحب والكراهية ـ وأخيراً، نتيجة لذلك، الحرية والموت ـ يمكننا رؤية احتمالات وصف وجودي للقتلة الجنسيين على أنهم متمردين مطلقين، الممثلين المطلقين للإثارة الجنسية في أنقى أشكالها.

ويشير كاميرون وفريزر إلى عيبين في مثل هذا الوصف. أولاً، إن تحويل الحب إلى كراهية هو تمرد تقليدي بشكل ممل. (لقد كشف المؤمنون بتحرير المرأة، ليس بصورة متزامنة، «الثورة الجنسية» و«التحرر الجنسي» اللذين يزعم أصحاب الأدب الإباحي ترقيتهما باعتبارهما أكثر نوع تقليدي من التعاون والتوافق مع الوضع الراهن. وكما يتطلب الاستبداد والإرهاب كل منهما الآخر، كذلك يفعل الكبت الجنسي والأدب الإباحي. ولا شيء ثوري ـ أو جديد حتى ـ يتعلق بأي من ذلك. أو كما عبر كونراد في **العميل السري**، «إن الإرهابي والشرطي كليهما يأتيان من السلة نفسها. والثورة، والشرعية ـ حركتان متعاكستان في اللعبة نفسها»). والعيب الثاني هو أن هذا الشكل من «الحرية» يعتمد على عبودية شخص آخر أو حتى موته. وهذا هو الوضع الذي يخاطبه المؤمنون بتحرير المرأة في عبارة «ليست هنالك استثناءات شخصية».

والحرية لا يمكن أن توجد في الاقتصار أو في الفراغ، وفي مواجهة ألم شخص آخر، وبالتأكيد ليس على حساب ذلك الألم.

ويعطينا تحليل كاميرون وفريزر مفتاحاً حول السبب في أن العديد جداً من الرجال يستغرقون في البحث عن «غريب آخر» أكثر فأكثر، ولماذا يتم هذا البحث في أشكال متعددة من العرقية، والتمييز الجنسي، وسوء معاملة الأطفال. والآخر الغريب هو عنصر رئيسي في تجارة الرقيق الجنسي العالمية. فالنساء الصغيرات الشقراوات ذوات العيون الزرقاء «يختفين»، بواسطة ما يُدعى بطرق خط أنابيب مينيابوليس للبغاء، من أجل التصدير إلى بيوت الدعارة الأفريقية والعربية، بينما تُطلب النساء الأفريقيات والآسيويات عالياً في «مراكز إيروس» في ألمانيا الغربية وهولندة. وثمة شيء واحد مؤكد: مهما تكن القسوة التي يمارسها الرجال بعضهم بعضاً فإنهم يجربونها ويصقلونها أولاً على النساء.

لكن الآخر لا يزال «يستثنى الذات بالضرورة نتيجة لاختلافها». مما يعني أن المحاولة البائسة للهروب من الذات تظل مستمرة. وحولنا، عاشق الشيطان الحديث يتحرك بهدوء، بحنكة قابلة للتكيف. ويحاول بعضنا، نتيجة تعرضهم لإغوائه، الهروب عبر «إماتة الجسد» ـ بحرمانه، وكبت النشاط الجنسي (قواعد الأب). وينشد الآخرون تفكك الذات عن طريق الإفراط بالكحول أو المخدرات (ثورة الابن). ويكون النظام الأبوي المغرور خارج السيطرة وتمرد الابن هو التوافق، لكن كلاً منهما يعرض الإلغاء فعلاً. ولماذا يجب أن يكون الإلغاء ممتعاً؟

وكيف لا يمكن أن يكون ممتعاً إذا لم يكن ثمة ذات للبدء بها؟

وإذا كنت عاشق الشيطان وحدقت خلفك على امتداد أثرك، حيث لا

زهور بل أشلاء تقفز من كل طبعة قدم، وحيث الرسائل الأخيرة لجميع موتاك ملطخة بالدم المجمد مثل علامات على أنك قد عبرت ذلك الطريق، وحيث زفيرك معلق في الهواء ويلوثه الرعب - ألن تشعر بالاشمئزاز؟ ألن تتوق إلى النسيان، ألن ترغب مهما كلف الأمر في ألا تتذكر، وألا ترى أكثر من ذلك؟

كل منا يفعل هذا يومياً. ونحن ندعوه بالبقاء على قيد الحياة. وأحيانا نجدف باللغة، وندعو ذلك حباً. ونشربه حتى الثمالة.

وإذا شعرنا للحظة بشكل آخر - خارج اللامبالاة أو حتى السخط - فهو مستعد. وهذا التأكيد الذكري للذات على إخفاء الافتقار إلى ذلك، كما يكتب دوركين، «حيادي أمام الإنكار أو التحدي... وهذه الذات ليست محسوسة بشكل شخصي فحسب. إنها محمية بالقوانين والتقاليد،... وموثقة في التاريخ، ومؤيدة في توزيع الثروات... وحين يتردد الإحساس الشخصي بالذات، فإن المؤسسات المكرسة للمحافظة عليه تدعمه». لذلك، إذا حاولنا الاتصال في داخلنا مع واقع مختلف - **طاقة مسؤولة عن الفرح** - فهو مستعد.

لقد عرف أننا ذات يوم سوف نكشف القناع عن أساطيره، وأديانه، وفلسفاته، وعلم جماله المزيف. وقد كانت دائماً مفيدة له لكنها في النهاية مجرد ممارسات عقيمة. وعليه إظهار نفسه بشكل أكثر وضوحاً الآن؟ بدون المزيد من الألعاب المغوية الرشيقة؟ إذاً فليكن ذلك. لقد بنى في مواجهة هذا اليوم صرحاً تعمد أن يكون منيعاً. ومن هنا سوف يحمي نفسه، بنظام طاغ إلى درجة اعتباره قدره النهائي، وقدرنا، كما ينوي.

وهو يدعوه بالدولة.

الفصل الرابع

الرعب الرسمي
دولة الرجل

الرجال العظماء، والأمم العظيمة، لم تكن متفاخرة أو مهرجة، بل كانت مدركة لرعب الحياة، وقد حصنت نفسها لمواجهته.

رالف والدو إيمرسون

الرعب... هو نتيجة للمبدأ العام للديمقراطية المطبقة على أكثر الحاجات إلحاحاً في الوطن.

روربسبيير

جميع الدول تستند إلى العنف.

ليون تروتسكي

ما من طريقة لبدء ذلك.

أجلس في غرفة صغيرة تطل على شارع هادئ في أمريكا الشمالية، في منتصف الليل. ومصابيحي تتألق بتحد قبالة الظلمة خارجاً، ولكن لتفعل ذلك عليها إضاءة أكوام الشواهد المحيطة بي، وأكداس الأوراق المجمعة والمحفوظة كي تثبت ـ ماذا؟ الحقيقة؟

إن نشرة هذا الشهر الصادرة عن منظمة العفو الدولية تذكر التعذيب في الصين، وكمبوديا، وفيجي، والبرازيل، وسورينام، وبوروندي، وتايوان، والاتحاد السوفيتي، والصومال، وتركيا، وفييتنام، وليبيا، وإثيوبيا، وإيطاليا، وباراغوي، وفنزويلا، وسريلانكا، والمكسيك، والتشاد.

والإنذار الأخير من اليونيسيف (صندوق الأمم المتحدة للأطفال) يجد أن جوع العالم لا يزال يتزايد، ولا يزال يحمل أكبر تأثير مدمر على النساء والأطفال. وفي عامي ١٩٨٥ و١٩٨٦ مات أطفال بسبب المجاعة في الهند والباكستان أكثر مما مات في جميع الأمم الإفريقية الست والأربعين سوية. وعام ١٩٨٦ مات أطفال في بنغلادش أكثر من إثيوبيا، وفي المكسيك أكثر من السودان، وفي إندونيسيا أكثر من جميع دول الساحل الأفريقي الثماني المصابة بالجفاف. وتتحدث نشرات الأخبار اليوم عن فشل ١٠٠٪ من المحصول في إثيوبيا. وخلال ذلك، تشير منظمة الفاو (منظمة التغذية والزراعة) إلى أن الجوع يتزايد مع أن الطعام لم يكن سابقاً بمثل الوفرة والرخص التي عليها اليوم؛ وفي أجزاء من العالم النامي، يستمر إنتاج الغذاء في النمو أسرع من السكان. لكن دولاً مثل الهند أندونيسيا، كما تشير الفاو، **تصدر** الآن كميات ضخمة من الطعام، مع أن أعداداً متزايدة من سكانهما لا يملكون ثمن الطعام. ويقول المدير العام لمنظمة الفاو إدوارد ساوما: «إن الاستقطاب في نظام الغذاء العالمي مستمر».

أفكر بهاجس القلة، بمنطق الموت في سبيل الحب وهو يقتل الذي يحبه ويقيم الذي يفقده، وأجد نفسي أتذكر جملة هربرت ماركوس: «ولكن كلما دنا الاحتمال الحقيقي لتحرر الفرد من القيود التي كانت تبررها القلة وعدم النضج، ازدادت الحاجة للمحافظة على هذه القيود وتنظيمها خشية انحلال نظام الهيمنة القائم».

وأحدق في أكوام الورق السخيفة. لو كان إنقاذ الحياة سهلاً كإنقاذ الورق...

يصف إصدار جديد من ANC News Briefing، الرسالة الإخبارية للمؤتمر الوطني الإفريقي، بهدوء تصعيد العنف في جنوب إفريقية ـ الاحتجاز، الاعتقال، التعذيب، الاغتيالات، المحاكمات، الإعاقة، الطرد، أعمال الشغب، الضرب، القتل؛ وجملة **إنهم لن يقتلونا جميعاً** مكتوبة على لافتة تحملها امرأة أفريقية سوداء شابة وُضعت صورتها على غلافها.

والنشرة الحالية لحملة حقوق الإنسان في فلسطين تعدد بهدوء التصعيد في المناطق المحتلة ـ الاحتجاز، الطرد، المحاكمات، الضرب، أعمال الشغب، القتل...

تثيرهم قصاصات ورق صغيرة مثبتة على الجدار ترتجف كنسمة ليلية من النافذة. وكل منهم لديه اسم كُتب عليها بسرعة، كي يذكرني: عيدي أمين. الجنرال بينوشيه. شاه بهلوي. دوفاليه جاروزيلسكي. تروجيلو. ماركوس. بوتا. وعلى إحداها كُتب اقتباس من ستالين، ملاحظته إلى زميل قبل توقيعه شخصياً على مذكرة أربعين ألف إعدام تقريباً في أربع فئات (الجيش، الشرطة السرية، فئة عامة، و«زوجات أعداء الشعب»): «إن اختيار المرء لضحاياه، وإعداده لخطته بدقة، وإطفاء غليل ثأر لا يهدأ، ثم الذهاب إلى السرير... لا شيء أحلى من هذا في العالم». وقصاصة أخرى من New York Times، وهي تغطية لمحاكمة عام ١٩٨٧ الفرنسية للضابط النازي والمعذب السابق كلاوس باربي، «جزار ليون»؛ وفي اعتراف باستخدام باربي من الهيئة الأمريكية لمكافحة الاستخبارات في ألمانيا بين عامي ١٩٤٧ و١٩٥١، يصفه ضباط مكافحة الاستخبارات بأنه «أمين» و«مقاوم عنيف

للشيوعية» و«أحد أفضل عملائنا في ألمانيا». وعلى واحدة أخرى أيضاً ثمة اقتباس من الجنرال السابق إبيريكو سانت جين، حاكم ولاية بوينس آيرس، في الأرجنتين، في ظل الحكومة العسكرية: «سنقتل أولاً جميع المخربين؛ ثم المتعاونين معهم؛ وبعدهم المتعاطفين معهم؛ وبعد ذلك، الذين يظلون محايدين؛ وأخيراً، المترددين». ومثبت بجانب تلك رسالة مصفرّة هربتها منذ زمن طويل إحدى المؤمنات بتحرير المرأة إلى أخرى: «كيف يمكن أن أخبرك... إنهن ينطلقن بصمت داخل البلازا دي مايو كل أصيل. واحدة بعد الأخرى، أفراد، جماعات، نساء عجائز، نساء عاديات، يظهرن في وجه الرعب، كل منهن ترتدي مئزراً أو وشاحاً أو غطاء رأس والأسماء مطرزة عليه، أسماء أولادها، وأحفادها، "المختفين". وإذا كانوا معتقلين، يأتي المزيد. بصمت. لا شيء يوقفهن. لا أحد، **لا أحد غيرهن** في هذا البلد الجريح النازف كله لديه الشجاعة للقيام بأي اعتراض آخر، **لا أحد**. وهؤلاء النساء يُطلق عليهن اسم «النساء المجنونات». من هو المجنون، أسألك، يا أختي؟ من المجنون؟»

تتناثر على مكتبي بطاقات بقياس ثلاث بخمس. وثمة أرقام مدونة بسرعة عليها. تسعة ملايين - الساحرات. ثلاثة ملايين - الأرمن. ستة ملايين الموالون لمعاداة النازيين. سبعة ملايين - الأسرى على سفن الرقيق. والأرقام تقريبية، وتنافسية، وبلا معنى؛ وهي مربكة وتصرح بأقل من الحقيقة. كم عدد الموتى خلال الزحف الكبير في الصين؟ كم عددهم خلال إعادة الإسكان الجبرية للسكان الأصليين في العالم الجديد؟ كم عددهم من السكان الأصليين القدماء خلال «استيطان» استراليا؟ كم عددهم في المذابح الأوكرانية والبولندية؟ كم عددهم خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية في لبنان؟

يستلقي دفتر مذكرات مفتوحاً مؤقتاً على الأرض عند قدمي، وكُتبت فيه على عجل محاولات عاجزة مخنوقة لقصيدة. وتتلوى الكلمات عبر الصفحة البيضاء بمنطقها الخاص، باشتقاقاتها المبتكرة الخاصة. الرعب. الأرض. الجندي الإقليمي. الأرضي.

ما من طريقة لبدء ذلك.

وبجانب دفتر المذكرات تنتشر محافظ الملفات، تغطي عملياً أرض الغرفة. **القومية**، عنوان إحداها. **الدولة والعائلة**، مكتوب على واحدة أخرى. **اقتصاد الرعب**، على ثالثة. **اللغة وتلطيف الرعب. هيروشيما. الرعب الدبلوماسي. الدولة النووية. البيئة في الرعب. الأعمال الوحشية (في القرن العشرين فقط)**. وكل حافظة ملفات مثقلة ومنتفخة - وغير كاملة.

ليست هناك حافظة بعنوان النساء. فالنساء يعانين وهن مجهولات الاسم، ويصحن بلا صوت، ويمتن غير مرئيات عبر كل قصاصة، وكل اقتباس، وكل نفاية دليل. وكتبت المؤرخة البارزة جيردا ليرنر في **خلق النظام البطريركي**: «كان ذلك بعد أن تعلم الرجال كيف يستعبدون النساء من مجموعات يمكن تعريفها بالغرباء فحسب، حين تعلموا كيف يستعبدون الرجال من تلك المجموعات، وبعد ذلك، التابعين من داخل مجتمعاتهم الخاصة... وقد سبق استعباد النساء، الذي يجمع بين العرقية والتمييز الجنسي، تشكيل الطبقات واضطهاد الطبقة».

ما من طريقة لبدء ذلك. ولكن لا بد من وجود طريقة ما لإنهائه.

«إذا كان على شخصية الإرهابي أن تكون مفهوماً عقلياً نفسياً بدلاً من أن تكون مفهوماً سياسياً قانونياً، فإن دراستها يجب أن

تتضمن العديد من السياسيين، والموظفين العسكريين، والشرطة، ورجال الأعمال (بخاصة منتجو السلاح)، والعلماء والتقنيين (بخاصة مصممو الأسلحة) بالإضافة إلى المختطفين ومقاتلي حروب العصابات في المدن».
كان هذا هو المفهوم المنطقي الذي أخذه ريستو فرايد من قسم علم النفس، من جامعة جيفاسكايلا، في فنلندة، من أجل مؤتمر برلين حول الإرهاب. لكن شخصية الإرهابي هي مفهوم سياسي قانوني - وهذا منطقي أكثر بأن تتضمن دراستها الفئات التي ذكرها فرايد.

من الأمور المألوفة أن الذي يفوز في المعركة هو الذي يكتب تاريخها، وهذا يعني (كما نومئ جميعنا، ونحن نتثاءب) أن الحقيقة تصبح طيعة. ويعني أيضاً، **أن تتابع العنف يتم تجاهله بشكل متعمد**.

لماذا نثق بأي حال بالزعماء الذين كانوا إرهابيين قبل أن تهبط عباءة الاحترام على أكتافهم (أي أنهم بعد أن فازوا أصبحوا شرعيين): هتلر، ستالين، ماو تسي تونغ، مناحيم بيغن وأنور السادات معاً؟ لماذا لا نعتبر الأمر غريباً أن يكون العديد من الأشخاص الذين قاموا بالتعذيب، والذين استخدمهم بهلوي شاه إيران في قوة السافاك المروعة الخاصة به لا يزالون يمارسون عملهم، بعدما أعاد استخدامهم الخميني؟ أي فصل للأفكار جرى ارتكابه بحقنا كي نعتبر الإرهابي فرداً ذا شخصية ثابتة ورؤية عالمية بينما هو يرتكب أعمالاً إرهابية من موقع ضعف نسبي، لكننا نعتبر بعد ذلك أن تلك الأعمال هي «مرحلة»، تمَّ تجاوزها الآن، بعد أن وصل الرجل نفسه إلى السلطة وأصبح قادراً على ممارسة الرعب عن طريق صولجان الدولة الرسمي؟ ألا نفهم أن القتل يغير الناس بأشكال لا يمكنهم الشفاء منها تماماً أبداً؟

وهذا هو نفس تحليل الأفكار الذي يفسر صدمتنا أمام النسبة العالية من الاعتداء في بيوت المحاربين القدماء في حرب فيتنام، وفي تطورات متوقعة للسياسة الخارجية مثل فضيحة إيران ـ كونترا. وكنا قد نشرنا فكرة **عدم رؤية** عملية «دبلوماسية» عالمية متمركزة في القوة البطريركية: إضفاء الصفة الشرعية على الإرهاب.

«إضفاء الصفة الشرعية» هو المفتاح. إنه يضيء ليربط بين إضفاء الصفة الشرعية السياسية وإضفاء الصفة الشرعية العائلية: الطفل «الشرعي» هو الذي يعترف به **والده**؛ والطفل الذي تعترف به أمه «فقط» لا يزال «غير شرعي» في قوانين غالبية الدول. والقفزة من الطفل الشرعي إلى السلطة الشرعية ليست بعيدة جداً. والشرعية هي فكرة منحها واستنتجها **الرجال**. (كلمة «عائلة» بالمناسبة لها جذر في الكلمة الأوسكانية famel أي «خادم» أو «عبد»، مملوك. وكلمة «أب»، طبعاً، مشتقة من pater، أي «مالك» أو «سيد». ومن هنا جاءت العبارة اللاتينية pater familias ـ «مالك العبيد»، «رجل الأسرة»).

وما من شرعية منحتها الدولة «ممثلة» بشكل مجرد في الأسرة مثل الشرعية الممنوحة من الأب. ونحن لا نتحدث بالتشبيهات أو الاستعارات. إننا نشهد بنية هرمية حقيقية للقوة، التي تستخدم ذخيرة عنف فنية من الإنكار إلى الإبادة الجماعية، وكل حجر منها يستقر على الآخر. وفي مناقشة عمله **تاريخ النشاط الجنسي**، يصف ميتشل فوكولت هذا الهرم: «إن العائلة، حتى الآن، ليست مجرد انعكاس أو امتداد لقوة الدولة؛ وهي لا تقوم بدور ممثل الدولة فيما يتعلق بالأطفال، كما أن

الذكر لا يقوم بدور ممثلها فيما يتعلق بالأنثى. **وكي تعمل الدولة بالطريقة التي تقوم بها، يجب أن توجد، بين الذكر والأنثى أو بين البالغ والطفل، علاقات سيطرة محددة تماماً»**. (التأكيد لي). وبكلمات أخرى، إن التأثير يجري **نحو الأعلى**، وليس العكس. وتحلل أليس ميلر، في كتابها الرائع من **أجل مصلحتك الخاصة**، بالتفصيل تنشئة هتلر البطريركية الاستبدادية. وهي تفعل ذلك ليس بأسلوب نفسي مخفف مبسط، ولكن لتعرض فقط إلى أي حد تحدث الوحشية البطريركية المتنوعة على الروح والجسد في الأسر العادية المتوسطة - وكيف يؤثر ذلك، ويدعم، وفي الحقيقة **يحول بشكل يتعذر اجتنابه** الدولة إلى ما نعرفه وما نعاني منه في جميع أنحاء العالم اليوم*.

والشرعية في الأسرة تكافئ الأولاد الذين يضمنون الاستمرار الناجح للسلالة الأبوية. والشرعية في الدولة تكافئ الذرية التي تنشغل في الإرهاب الذي يُدار بنجاح، أي أنها تمنح القوة للإرهابي الذي يفوز. وتخليد الأسرة والدولة هو الشأن الأسمى، مهما يكن الثمن. وفي حالة الأسرة، إن ثمن شرعية الأطفال هو الملكية الزوجية للمرأة التي هي أمهم

* في هذا المجال، كان للمنادين بتحرير المرأة تأثير أكبر من ثورة أكتوبر والأيام العشرة التي هزت العالم. وتتنبأ الماركسية اللينينية بالتلاشي النهائي للدولة. لكنها تحاول بالنظرية والممارسة أن تحفظ السلطة البطريركية سليمة بتقديس «العائلة» بأسلوب يجعل الموقر بيلي غراهام يبتهج بالاعتراف والموافقة. والنساء، بعدما لاحظن لبعض الوقت أن شكلاً ضيقاً معرفاً بأنه ذكري من «الأسرة» هو معادٍ لاهتمامات كل من النساء والأطفال، كن في نفس الوقت يعدن بشكل هادئ تعريف «الأسرة» بطرق لا تعد ولا تحصى. وقد خلق هذا تغييرات واسعة الانتشار في أسلوب حياة العالم الصناعي وتمييزاً جديداً للأنماط النسوية التقليدية للعائلة في العالم النامي - وجميعها قوبلت بصيحات الإنذار من سياسيي العالم. وفي الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والعالم الثالث أيضاً، يحذر الزعماء الذكور من «دمار الأسرة». وتلاشي الأسرة كمؤسسة بطريركية هو شرط أساسي لتلاشي الدولة كما نعرفه. وكالعادة، لا تعد النساء بالتحرير النهائي. والنساء يفعلن ذلك - تلقائياً وبصورة متزامنة - الآن.

ويعني هذا طاعتها، وصمتها، ورضوخها لمؤسسة الأسرة. وفي حالة الدولة، إن ثمن شرعية الإرهابي هو إبطال الديمقراطية نفسها، كمفهوم وممارسة معاً - مما يتطلب طاعة مشابهة، وصمتاً، ورضوخاً من عامة الناس فيما يتعلق بمؤسسة الدولة. وغالبية السكان عملياً في جميع الدول الأمم هم من الإناث، وهي مجبرة من قبل النظام البطريركي على الطاعة والصمت والرضوخ، مما يعني أن «الديمقراطية» لا توجد حتى الآن في أي مكان. وماذا يحدث إذاً، حين تبدأ تلك الغالبية برفض الرضوخ والطاعة، هل تبدأ بالكلام؟ ماذا يحدث حين ندرك أن الإرهاب، بعيداً عن كونه تهديداً للدولة، **هو الوسيلة التي يحكم بها الرجال تحت النظام البطريركي على بعضهم بعضاً والتي يتفق أنها تنجح***؟

إن الإرهاب يعزز الدولة. وإذا فشل الإرهابيون، فإن الدولة الحالية تكون أقوى لأنها أسقطتهم. وإذا نجحوا، فإن إرهابيو اليوم يصبحون سياسيي الغد (الذين يشجبون الإرهاب بقوة).

وتقترب مارثا كرينشاو من قول هذا: «يبدو أن الإرهاب قد عزز النظام القديم، وأكد صدارة القوة في العلاقات الدولية...» وتستمر لتعرض أين تستقر القوة الحقيقية: «إن الخطر الرئيسي في الصراع الدولي ربما يكمن في الإرهاب الثوري ضد الدولة أقل مما يكمن في استخدام الدولة أو استغلالها للإرهاب كأداة للسياسة الخارجية». وكما

* يحدد ميتشل فوكولت بدقة هذه العملية نفسها: «إن غير الشرعية المسيطر عليها هي وكيل لعدم شرعية المجموعات المهيمنة. وإحداث شبكات البغاء في القرن التاسع عشر مميز في هذا المجال: مراقبات من الشرطة ومراقبات على صحة المومسات، وإقامتهن المنتظمة في السجن،... التسلسل الهرمي الصارم الذي كان يحافظ عليه في محيط البغاء، والسيطرة عليه من قبل المخبرين المهملين، كل هذا جعل من الممكن إيجاد منفذ واستعادة... الفوائد الضخمة للمتعة الجنسية... المدانة بشبه السرية وجُعلت غالية بشكل طبيعي». (**الانضباط والعقاب** [نيويورك: الكتب الممتازة، ١٩٧٩]، ص ٢٧٩)

يقـول مـثل قـاطع الطريق، «قـدم لهم عـرضـاً لا يمكـن أن يرفـضـوه». مما يقودنا إلى الحافظة التي تحمل عنوان **الرعب الدبلوماسي**.

* * *

الدبلوماسية القسرية

«الدبلوماسية القسرية» تعبير يستخدمه مايكل ستوهل في المختارات الأدبية الجريئة إلى حد ما والتي أعدها مع جورج أ. لوبيز، **الدولة الإرهابية: القوى المحركة للعنف والقمع الحكوميين**. ويفهم ستوهل الدبلوماسية القسرية على أنها مرادف لإرهاب الدولة العلني ـ القصف الأمريكي بالقنابل لكمبوديا عام ١٩٧٥، مثلاً، والذي جرى ليس من أجل كسب أرض عسكرية ولكن **لنقل رسالة القوة**، وبذلك كان في الواقع عملاً إرهابياً.

كما يُعتبر قصف هيروشيما وناغاساكي مثالين أكثر قبحاً حتى، وإذا كان الهدف هزيمة اليابان. فلماذا لم يتم إلقاء القنبلة على قصر الإمبراطور أو مركز الحكومة في طوكيو؟ أو إذا كان الهدف، كما زُعم أحياناً، مجرد إعطاء إنذار تحذيري حول هذا السلاح الهائل الجديد، فلماذا لم يتم إلقاء القنبلة بعيداً عن الشاطئ، في المحيط الهادي؟ لأن الأولى كانت ستحطم الدولة الرسمية وجميع أجهزتها البيروقراطية (شيء لا يفعله إخوة السلاح)، وكانت الثانية ستغرس رعباً غير كافٍ. وكان **الرعب** مطلوباً.

ولذلك، في صبيحة السادس من آب عام ١٩٤٥، أفرغت قاذفة

قنابل أمريكية من طراز B-29 حمولتها بقوة تفجيرية تبلغ عشرين ألف طن TNT واختفى مركز مدينة هيروشيما بكامله، وتحول إلى رماد خلال ثوانٍ. وكانت الضريبة الفورية من الأجسام المتفحمة أضخم من أن تحصى. لكننا نعرف أنه خلال ثلاثة شهور مات ١٣٠٠٠٠ شخص. وخلال أربعين سنة بعد ذلك، لا يزال نحو ٤٠٠٠٠٠ شخص يعانون ويموتون من آثار ذلك. وغالبية «الهيباكوشا» (ضحايا القنبلة الذرية) هم من النساء. وقد تحملن قدراً عالياً من حالات الإجهاض والنسل الذي يحمل عيوباً ولادية، كما يعانين هن وأطفالهن من حالات كثيرة ناجمة عن الإشعاع: اللوكيميا والسرطانات الأخرى، وضياع الكالسيوم، وتخلف النمو، وتزايد الأورام، وإعتام عدسة العين، الخ. ويمتن في وقت مبكر وبشكل مؤلم. كما قامت النساء أيضاً بالإشراف الأولي على المرضى والمحتضرين. وكانت النساء «الهيباكوشا» المشوهات ذوات الوجوه المتقرحة قد هجرهن أزواجهن بالآلاف، ولا يزلن منبوذات بنسبة كبيرة؛ ونسبة بطالتهن تبلغ ثلاثة أضعاف المعدل الوطني. وهذا كله كان، كما تفهمون، من أجل السلام. وعلى الرغم من ملاحظة وزير الحرب الأمريكي ستيمسون، قبل اختبار القنبلة الذرية الأولى في ألاموغوردو، بأنها يجب ألا تُعتبر «سلاحاً جديداً بشكل مجرد ولكن على أساس أنها تخلق تغييراً ثورياً في علاقة الإنسان مع الكون»، وعلى الرغم من إلحاح بعض العلماء العاملين على تصميم القنبلة وتصنيعها على ألا يكون أول استخدام لها على هدف مدني («التقرير إلى وزير الحرب» في حزيران ١٩٤٥)، فإن ذلك قد جرى بالضبط. وكان التبرير من شقين - أن القصف كان ضرورياً لإضعاف القيادة اليابانية (الإرهاب) ولإنقاذ أرواح

الجنود الأمريكيين واليابانيين التي بغير ذلك سوف يضحى بها في حرب طويلة الأمد. وتلقت مجموعة من القادة الرسالة من المجموعة الأخرى من القادة. وتمَّ إنقاذ الجنود. أما النساء والأطفال فقد كانوا قابلين للاستهلاك. وتمت خدمة الدبلوماسية. وعمل الرعب.

وكي ينجح الإرهاب، يجب أن يتبعه فقدان الذاكرة. يجب أن نُجبر على النسيان، والأفضل نسيان أن الحدث قد جرى على الإطلاق، أو على الأقل أنه كان عملاً إرهابياً. ونتيجة ذلك كان الإخفاء المفروض على «الهيباكوشا»، والتقليل اللاحق من شأن الكارثة بكاملها في الولايات المتحدة، وكذلك، ـ بشكل أكثر تمرساً ـ في الوعي الوطني الياباني. وخلال العقد الماضي، قام نادي الفطر ـ المؤلف من ضحايا المجزرة الذرية وجيل الناجين ـ وحركة السلام اليابانية، ذات الأغلبية النسوية أيضاً، بالاحتجاج على المعالجة الناقصة والارتجالية للمجزرة الذرية في كتب التاريخ المدرسية. فالحكومة اليابانية ترغب في أن يعكس التاريخ الصداقة فقط بين الولايات المتحدة واليابان. وتجد الحكومة الأمريكية أن ذلك ملائم جداً. فهو بكامله مجاملة دبلوماسية. وإلى جانب ذلك، في اقتصاد السوق العالمية اليوم، يُعتبر مثل هذا الاجتهاد مربحاً. وتناقش نساء نادي الفطر بأن هذا المحو يخدم بشكل سيئ ذاكرة العالم، ويخدم بشكل سيئ اليابان، التي تخلت مؤخراً عن تأكيدها السلمي التالي للحرب لتحل محله لهجة محارب الساموراي، الظاهرة أولياً في المعاملات التجارية (انظر الفصل التاسع) وفي إعادة البناء العسكرية المتواصلة (نفقات الدفاع اليابانية هي ثالث أعلى نفقات في العالم الآن، تتفوق عليها فقط نفقات القوتين الكبريين). والنساء اليابانيات يتم

تجاهلهن. وعندما قام إلي ويسيل، وهو مؤرخ معسكرات الموت النازية، بزيارة اليابان (بدعوة من مجلس الإعلان الياباني) في أيار عام ١٩٨٧، لم يتم تجاهله. فقد كان ويسيل رجلاً، وفائزاً بجائزة نوبل. وبالإضافة إلى ذلك، كان يعرف كيف يلعب لعبة مقارنة رفع الفرد في المعاناة الإنسانية. وفي بيان هجومي بشكل مذهل قوبل بالتصفيق، قال، «لقد كانت أوشفيتس تعني الحكم على آخر يهودي بالموت. وهنا، من الواضح أنه لم يكن من المقصود قتل آخر ياباني». لقد وضح ذلك، أن مراسم وضع الأكليل الرسمية يمكن أن تستمر.

وهذه، أيضاً، دبلوماسية.

وقد لعب الاتحاد السوفيتي اللعبة نفسها في رسائل السياسة الخارجية القسرية مع «تدخلات مكبوحة» في ألمانيا الشرقية، وهنغاريا، وتشيكوسلوفاكيا، وأفغانستان ـ قوة تنذر بقدوم مزيد من القوة، وتبرر نفسها دائماً بأنها تسعى من أجل السلام. وقد فسر جون ستويسينغر القواعد في **هنري كيسينجر: ألم القوة**، حيث أفاد بأن «منطق نيكسون كان أنه يقصف من أجل السلام... وأن جزئي فيتنام، كما ناقش نيكسون، سيكونان مستعدين للتوقيع مع الولايات المتحدة حالما تنتهي معالجة الصدمة. وبهذا التفكر، تحولت أجزاء كثيرة من هانوي وهايفونغ إلى أنقاض».

ويبدو من الواضح أن القوى العظمى ليست القوى الوحيدة المنشغلة بالدبلوماسية القسرية، وذلك من أفعال مثل الغارات الجوية «التحذيرية» الإسرائيلية فوق بيروت، و«الغزوات» الحدودية الهندية الباكستانية، و«المناوشات» المغربية الليبية في الصحراء الغربية.

ولكن إذا لم تكن الدبلوماسية القسرية بصفتها الشكل العلني لإرهاب الدولة عملية دائماً، فهنالك الشكل السري. وإذا كانت غاية الإرهاب إسقاط الحكومات القائمة بواسطة التصدع، فإن أغلب أفعال وكالة المخابرات المركزية تفي بالمطلوب. وسوف تتضمن العينات عمليات وكالة المخابرات المركزية في إيران (١٩٥٣)، وغواتيمالا (١٩٥٤)، وإندونيسيا (١٩٥٨)، وخليج الخنازير في كوبا (١٩٦١)، وتشيلي (١٩٧٠ـ ٧٣). وفي عام ١٩٧٦ كشفت لجنة مجلس الشيوخ حول نشاط المخابرات برئاسة فرانك تشيرتش «الجهود الموافق عليها رسمياً» لقتل فيديل كاسترو (فشلت) وزعيم الكونغو باتريس لومومبا (نجحت عام ١٩٦٠). ومنذ وقت قريب، قرر بعض «الرجال المطلعين» السابقين أن يقتلوا ويعلنوا، ولذلك علمنا بسر حكايات إدوين ب. ولسون الخاطئة، الذي أغوته وكالة المخابرات المركزية وتخلت عنه؛ والجندي المرتزق يوجين هاسينفوس؛ والعميل السابق فيليب إيجي، الذي يصف في **داخل الشركة: مفكرة وكالة المخابرات المركزية** المجال الواسع للوسائل التقنية التي يجري تعليمها. وكتاب الكشف الذي أصدره عام ١٩٨٧ صحافي التحقيقات بوب وودوارد حول مدير وكالة المخابرات المركزية السابق وليم كاسي متخم بهذه الأمثلة.

إن أحد الأشكال الأكثر مواربة للرعب الرسمي السري هو ما أُطلق عليه اسم «الإرهاب الباطني». ويصوره لي كاري على شكل قصة، كما وثّقه وودوارد بشكل حقيقي ـ وهي تقنية تستخدمها بشكل منتظم وكالة المخابرات المركزية، ولجنة أمن الدولة السوفيتية، والموساد الإسرائيلية، بين العديد من قوى الدولة السرية الأخرى. وتتضمن هذه الإستراتيجية

هندسة اعتداء، أو اغتيال، أو عمل رعب آخر بطريقة تُظهر وكأن الشخص الآخر قد ارتكبها: فأنت تتخلص من بعض خاصتك (أو حلفائك) وتضع اللوم في هذه الهمجية على الجانب الآخر. وما دمت متدرباً مسبقاً على التخلص من خاصتك حين يكونون مدنيين ونساء، فإن هذا لا يهز ضميرك. وفساد هذا التبادل هو أن الجانب الآخر، المدرك لعبث الاحتجاج حول براءته في مثل هذه «الدعاية عن طريق العمل»، قد يتابع أحياناً ليكتسب فضل ما لم يفعله في الحقيقة.

ثم هنالك ما قد أطلق عليه اسم «إرهاب الدولة، التقدمي، الطويل الأمد». وقد نشر مؤخراً ألبرتو فرانتشسكيني، مؤسس الألوية الحمراء الإيطالية والذي ينفذ حالياً حكماً بالسجن حتى عام ٢٠٢٠، كتاباً يفصل تاريخ الألوية الحمراء. وهو يزعم أن قراره بالتخلي عن الإرهاب كتكتيك كان سببه التحرر من الوهم أمام الطريقة التي كانت تستخدم فيها مختلف الحكومات المجموعات الإرهابية كأدوات في لعبة سياسية جغرافية أكبر. ويتذكر فرانتشسكيني زيارة رسول من جهاز الأمن الإسرائيلي، والذي عرض صفقة على أعضاء الألوية الحمراء: أن يكشف لهم أسماء الزملاء الذين خانوهم، بالإضافة إلى أسمي عميلين من الشرطة السرية كانا يحاولان اختراق المجموعة؛ وبالمقابل، على الألوية أن تتعهد بعدم التخلي عن الكفاح المسلح. والسبب؟ إن الحكومة الإسرائيلية «أرادت إبقاء إيطاليا غير مستقرة بشكل دائم بحيث تعتبر الولايات المتحدة أن إسرائيل هي حليفها الوحيد الموثوق في البحر المتوسط».

أيها القارئ، إنني لا أخترع هذا.

وأحيـاناً يكون إرهاب الدولة السـري و«الدبلوماسيـة القسـرية» مطلوبين، بشكل متـتـابع أو واحداً بعد الآخر. وكلاهما، على سبيل المثال، كانا لبعض الوقت مستخدمين بشكل منتظم من قبل الولايات المتحدة ضد ليبيا القذافي - إلى حد أن ولع القذافي الذي لا يُنكر بالإرهاب يُذكّر بشكل مثير للشفقة بتعهد المبتدئين المتلهفين الذين يحاولون اجتياز الاختبارات والفوز بالقبول في الأخوة خلال فترة غموض طويلة. وبعدما باعت الولايات المتحدة بشكل سري الأسلحة والمتفجرات البلاستيكية وغيرها من أدوات التجارة الإرهابية إلى القذافي عن طريق ويلسون وعصابته، حاولت بعد ذلك بالوسائل السرية اغتياله أو الإطاحة به. وبلغ هذا الجهد ذروته مع غارات القصف الأمريكي ضد ليبيا في ربيع عام ١٩٨٦، والتي جرت على أمل إلهام المعارضة المحلية للقذافي كي تثور ضده. وقد أشار رتشارد فالك في **الأمة**، إلى أنه «ليس من قبيل المصادفة، أن الغارات قدمت فرصة لاختبار أنظمة أسلحة جديدة وتكتيكات التدخل، مثل غارات القصف الليلية بعيدة المدى». وظاهرياً، كانت الغارات انتقاماً لرعاية ليبيا تفجير حانة الرقص في برلين الغربية. ومع عجز الولايات المتحدة عن إثبات ارتباط ليبيا بحادثة حانة الرقص، فقد ظل الخط الرسمي مع ذلك أن الغارة ضد ليبيا كانت - أي شيء غير ذلك - لإيقاف الإرهاب. وعلى أي حال، بما أنه من غير الشرعي اغتيال رأس الدولة، فإن تصريح وزير الخارجية جورج شولتز حول النية - تم نقله على نطاق واسع في الصحافة بعد القصف - كان معجزة في الكلام المزدوج. فقد قال، «إن القذافي لم يكن هدفاً مباشراً. لقد عرفنا أن ذلك كان مقر إقامته وأنه ربما يكون هناك مع أفراد من

أسرته. لقد كنا نبين له أننا نستطيع إيصال أشخاص إلى مقربة منه، وهذا هو الثمن الذي سيكون عليه دفعه نتيجة الإرهاب المستمر، ولهذا السبب أصيب أفراد من أسرته خلال هذا الأمر». ومع ذلك، كانت ابنته الطفلة هي التي قُتلت فقط، وبعض الفلاحين والمزارعين. والجرحى لا يدخلون في الحسبان. وهذا لا يُدعى إرهاباً*.

وخلال ذلك، لنعد إلى الوطن، يعمل مكتب التحقيق الفدرالي داخلياً، مستخدماً تشكيلة مشابهة من التقنيات العلنية والسرية. وللمكتب تاريخ من مجموعات التسلل وإيقاع الفوضى داخل الولايات المتحدة، وبشكل أولي عبر COINTELPRO، وهي برنامجه لمكافحة الاستخبارات؛ ويعمل في بعض الأوقات مثل القبضة في القفاز مع الجريمة المنظمة كي يحقق ذلك ـ حالة أخرى من القوة «غير الشرعية» و«الشرعية» التي تظلل كل منهما الأخرى على امتداد طيف العنف**. وقد قيل ذات مرة إن الحزب الشيوعي البالغ الصغر وغير المؤثر في الولايات المتحدة قد تمَّ التسلل إليه بحيث أن عضويته كانت تضم تسعة من عملاء مكتب التحقيق الفدرالي والناشطة العمالية إليزابيث غورلي فلين التي بلغت الثمانينات من عمرها. وقد أسس المكتب وحدة جديدة

* لم يكن أفراد الشعب الأمريكي مشوشين إلى درجة تصديق شولتز، لكن مواقفهم عكست فصام حكومتهم: وفي استفتاء أجرته النيوزويك بعد أسبوع من الغارة الأمريكية، كان ٧١٪ وراء الرئيس «شخصياً»، لكن ٣٩٪ من الذين جرى استفتاؤهم كانوا يعتبرون أن الغارة سوف تزيد النشاط الإرهابي، واعتقد ٢٣٪ أنها لن تؤثر، واعتبر ٣١٪ فقط أنها سوف تقلل الإرهاب فعلاً. والسؤال «هل كانت الغارة الأمريكية بحد ذاتها عملاً إرهابياً»؟ لم يتم طرحه. (ريتشارد فالك، «التفكير حول الإرهاب»، الأمة، ٢٨ حزيران ١٩٨٦، صفحة ٨٨٧).

** تعرضت الجريمة العالمية المنظمة للتحدي عام ١٩٨٢ عن طريق تشكيل منظمة أرامل المافيا في صقلية وكالابريا - أماكن ولادة المافيا الأصلية ـ «لمعارضة ثقافة العنف الذكوري والخضوع الأنثوي». وهذا العمل الشجاع المذهل، في قلب المنطقة البالغة الذكورة، لم تلحظه الصحافة العالمية تقريباً.

في السبعينات، وهي SOARS (هيئة العمليات الخاصة والبحث)، «لتطبيق مفهوم فريق تأديبي متعدد على دراسة التهديد الإرهابي ولجعل خدماته متوفرة على أساس محلي وعالمي في آن واحد». وكذلك عند نقطة الاتصال المحلية والعالمية، أسس الرئيس ريتشارد نيكسون عام ١٩٧٢ لجنة مجلس الوزراء لمحاربة الإرهاب، برئاسة وزير الخارجية، وتتألف من وزراء الدفاع والنقل والخزينة؛ والمدعي العام؛ ومديري وكالة المخابرات المركزية، ومكتب التحقيق الفدرالي، ومجلس الأمن القومي؛ وبعثة الولايات المتحدة إلى الأمم المتحدة؛ والمستشار المحلي للرئيس. وفي الوقت نفسه أوجد نيكسون «المجموعة العاملة» للجنة مجلس الوزراء، والتي كانت تمثل عام ١٩٧٧ ستاً وعشرين إدارة ووكالة ومكتباً.

وهذا التخصيص لدولارات دافعي الضرائب من أجل إضفاء الطابع البيروقراطي على نشاطات «الأمن القومي» يبدو بدقة أكثر أنه تخصيص للأموال من أجل برنامج مجموعة مواجهة علاجي ضخم للعجز. ويصف ريتشارد ج. بارنيت في كتابه **جذور الحرب: الرجال والمؤسسات وراء السياسة الخارجية الأمريكية**، ما كان يُسمى في عصر كندي وجونسون بلا حياء «أعراض مرض الصدر الكثير الشعر» في البنتاغون، ووزارة الخارجية، والبيت الأبيض، ووكالة المخابرات المركزية:

إن الصلابة هي الفضيلة الأكثر تقييماً... والرجل المستعد للتوصية باستعمال العنف،... حتى عندما يتسلط، لا يدمر سمعته من أجل التعقل... لكن الرجل الذي يوصي برفع القضية إلى الأمم المتحدة، [أو] يطلب المفاوضات... فإنه سريعاً ما يصبح معروفاً بأنه «رقيق»...

*والإحساس البيروقراطي **بالرجولة** يفلح في مئات من الطرق الصغيرة. فهنالك أسلوب التحدث إلى المرؤوس ـ الأمر الصارم، المقنّع بالتبسط الظاهري ـ أو إلى من هو أعلى مقاماً ـ المشحون بالحقائق، الكمي، المفعم بالحيوية [-] ... [تطوير] تسليم المدافع الرشاشة [،] ..القراءة السريعة [،]... التحليل الحاد وغير المعقد والآلي عادة لمشكلة ما لأن ذلك في البيروقراطية العسكرية هو أسهل ما يمكن بيعه... والرجل الذي يتألم حول استلاب حياة إنسانية يعتبره زملاؤه غامضاً على أقل تقدير.*

ودائرة القوة هذه هي عملياً **مجتمع كل الرجال**: وبين عامي ١٩٤٠ و١٩٦٧، ضمن ما يزيد على أربعمائة شخص كانوا مديري أمن قومي، كانت هناك امرأة واحدة فقط. واليوم، بعد عشرين سنة، تحتوي وزارة الخارجية على خمس سكرتيرات مساعدات فقط (جميعهن ذوات مناصب «بسيطة»، مثل شؤون المستهلك، والاتصالات، والبروتوكول، وقضايا المخدرات). وثلاث نساء فقط تسلقن إلى مكان يقترب من دوائر القوة الحقيقية ومن ثم إلى الحافة الخارجية: وكانت آن أرمسترونغ، وجين ج. كيركباتريك، وكلير بوث لوس، المتوفيات الآن، اعتباراً من تشرين الأول عام ١٩٨٦، أعضاء في المجلس الاستشاري الرئاسي للمخابرات الخارجية.

ويضع جورج أ. لوبيز، في تمييزه للتقنيات الشائعة لدى الدولة كإرهابية، قائمة بأربعة مفاهيم ـ سيطرة المعلومات، فرض القانون، الإكراه القانوني الاقتصادي، والتهديد السافر للحياة (بما في ذلك الخطف، الاختفاء، التعذيب، الخ.). وهو يناقش بفطنة غير عادية بأن الأربعة كلها متضافرة مع القوة المحركة للنظام البطريركي: «إن التأكيد

على الذكورة يتطلب افتراض خصائص المحارب البطل: الميل إلى العنف، هالة المقاتل، والرفض الواضح للخصائص المرتبطة بالمظاهر الضعيفة والأنثوية للبشر: الحساسية، الرحمة، العاطفة، الرقة تجاه الآخرين، وهكذا».

إنه على صواب - لكن الحقيقة أسوأ. ومن السهل جداً تخيل القوة مركزة في سلسلة من الغرف، مع عشرة أو حتى مائة من البيروقراطيين الذين يدعون أنهم أبطال من المستوى العالي وهم ينطلقون نحو المعركة الفاصلة من أجل استحسان أحدهم للآخر. والحقيقة الأكثر رهبة هي أن **كل فرد ذكر في النظام البطريركي مدرك لقوته النسبية ضمن مخطط الأمور**. والقليلون يمكن أن تحزنهم تلك القوة، والكثيرون قد يدعون براءتهم منها، والأكثرية قد ينكرونها أو يتظاهرون بتجاهلها، والبعض قد يبتهجون بشكل صارخ بها - لكنهم جميعاً مدركون لها. ونتيجة لذلك، لا حاجة هناك لإصدار أوامر محددة للفرد الذي يقوم بالتعذيب في، لنقل، سانتياغو أو أنقرة أو معسكرات الغولاغ. إنه يعرف أن أفعاله يدعمها العمودان التوءمان لدولة الرجل - الطقوس الأخوية للضرورة السياسية. وباعتباره نصيراً لثاناتوس، فهو شخص يحترف «اللعبة» السادية الماسوشية بين «بالغين موافقين»، كما أنه الشخص المرافق للمغتصب. وهو الشخص ذو السلطة التنفيذية المتحدة «لصيادي الرؤوس»، الشخص ذو القبعة الخضراء، والشخص المرافق لوزير الدفاع الأمريكي السابق روبرت ماكنامارا وهو يصرخ في وجه المحتجين ضد حرب فيتنام في هارفارد، «لقد كنت أقسى منكم في الحرب العالمية الثانية وأنا أقسى منكم الآن!»

ولا تُظهر هذه السياسة القذفية نفسها بوضوح أكثر مما في اللغة نفسها. ونحن نألف الآن لطف التعابير، والتشويشات، والانعكاسات السريعة الانتشار مما يجعل تصوير كافكا لبلاغة الدولة يبدو اعتدالاً رقيقاً. والعبارات مثل «أهداف ناعمة» (المدنيون العُزّل)، و«ضربات جراحية» (عمليات القصف الجوي بالقنابل)، «هجوم دفاعي» (هجوم استهلالي)، «ألعاب حربية»، و«ألعاب تدريبية لتقليد المعركة»، شائعة جداً بالنسبة لإقامة حملة تشويش يومية مستمرة، ومملة جداً لخلايانا العصبية الأخلاقية بحيث أننا خفضنا مقاومة حملات التشويش للأكاذيب الواقعية الصريحة في وقت إعلانها. ونقرأ عن البحث والتطوير لقنبلة نيوترون لن تخرب الملكيات، فهي «فقط» ستقتل الناس والحيوانات، وهي «نظيفة تماماً» لأن غبارها الذري سيكون منخفضاً. ونتعرف على المختصر الجديد NEWOT - «عمال غير أساسيين بدون نقل» في خطط الإخلاء لحالة الطوارئ النووية؛ و NEWOT في الواقع هي مرادف «للنساء والأطفال». هل تحولنا إلى ذرات أكثر مما يسمح لنا بعمل الارتباطات؟

بند: «لست معتاداً على مساءلة رؤسائي، ولا مشكلة لدي في ذلك». المقدم أوليفر نورث، في شهادة أمام لجنة تحقيق الشيوخ والنواب المشتركة في ٩ تموز ١٩٨٧.

بند: «كنت أنفذ الأوامر فقط». أدولف آيخمان، خلال محاكمته عام ١٩٦١ في إسرائيل على جرائمه ضد الإنسانية.

بند: «كان من الضروري تدمير القرية من أجل تهدئتها». الجندي الأمريكي المستشهد به على نحو واسع في فيتنام عام ١٩٦٨.

بند: «علينا تسوية النظام من أجل إنقاذه». ـ شعار مجموعة بادر ماينهوف/زمرة الجيش الأحمر، في السبعينيات.

بند: «المبادئ الأخلاقية للارتفاع» تعبير فني كان يستخدم لوصف الصلابة التي يجب أن يُدرب عليها طيارو القاذفات، ليتطور فيهم البعد الضروري إذا كان عليهم أن «يقتلوا عن بعد» «أهدافاً رقيقة متعددة» بصورة مؤثرة، وأن يتغلبوا على ما قد يكون ذنباً في القتل من موقع لا يكون فيه المرء نفسه مهدداً (كما يمكن أن يكون المرء في معركة التحام أرضي، حيث، بالمقارنة، تكون أخلاقية «الدفاع عن النفس» معززة).

بند: كما جرت مناقشته في تحقيق لجنة الشيوخ والنواب المشتركة عام ١٩٨٧ حول قضية إيران/كونترا، فقد قدمت الولايات المتحدة «مساعدة إنسانية» إلى الكونترا النيكاراغوية بالإضافة إلى «مساعدة قاتلة». وتضمنت الأولى الأحذية، وثياب العمل، وحصص الطعام والخيم ومواد الميدان ـ بالإضافة إلى لعب عيد الميلاد لأطفال الكونترا، وإمدادات طبية للجرحى وأكفاناً وتوابيت للموتى. وتضمنت الثانية الأسلحة والذخيرة.

بند: خلال جلسات التحقيق نفسها، في ٢١ تموز ١٩٨٧، وجه السيناتور وليم س. كوهين (جمهوري، من ولاية مين) كلامه إلى العميد البحري جون بويندكستر حول الكلمات التي استخدمتها إدارة ريغان:

إن اللغة هامة في السياسة كما في الأدب، لأنها تساعد في تحديد قيمنا. وعلي إخبارك بأنني أجده مزعجاً حين تقول «إنني حجبت معلومات عن المؤتمر لكنني لم أضلله». أو إن دعم الإدارة للكونترا كان نشاطاً سرياً ولكن ليس عملاً مستتراً. أو إن الولايات المتحدة أذعنت في الشحنة الأولية للأسلحة المضادة للدبابات [إلى

إيران] لكنها لم تقرها... وإننا لم نبادل الأسلحة بالرهائن، مع أن السيد حكيم والجنرال سيكورد قد توصلا إلى صيغة رهينة ونصف مقابل ٥٠٠ صاروخ مضاد للدبابات... وسأقترح باحترام أنه إذا رغبت الإدارة باستعادة المساندة القوية للشعب الأمريكي... فإنها يجب أن تتوقف عن إهانة ذكائه.

وكان الأميرال بويندكستر قد عرّف سابقاً أسلوبه الإداري بأنه أسلوب جيد في «العمل التقسيمي».

وتُعتبر اللغة كأداة في ترسانة الدولة الحربية في أقصى درجات الإفصاح فيما يتعلق بالسياسة الجنسية تحديداً. وقد لاحظ المؤمنون بتحرير المرأة هذا أحياناً. من بينهم تشارلوت بيركينز جيلمان، في وقت سابق من هذا القرن. وفي وقت أحدث ساهم كتاب هيلين كالديكوت: **حسد الصاروخ: سباق التسلح والحرب النووية** في تحليل حيوي حول الموضوع، كما وسعت كارول كوهن ذلك التحليل في مقالة بعنوان «الجنس والموت في العالم العقلاني لمثقفي الدفاع». ومع ذلك فالممارسة الوقحة تستمر، والرجال المستغرقون فيها غير خجلين مما يكشفون عن أنفسهم.

حمل عدد تموز ١٩٨٧ **من مجلة القوة الجوية** (كل صفحة منها قد تجمد العقل) مقالة مثالية، **صواريخ وأهداف**، دافعت عن الاحتفاظ بصواريخ بالستية عابرة للقارات وتوسيع إنتاجها. وبتتبيلها بعبارات ك «قابلية القتل»، «فرض الحصص»، «مستودعات مقساة»، و«منشئ قواعد إطلاق» أيدت المقالة «تطوير ثاقبات أعماق الأرض في الوقت المناسب لوضع الأهداف السوفيتية فائقة الصلابة تحت الخطر». وحدثونا

عن «اقتران» التحذير والاستجابة، وتأكدنا أن التركيز هو على التصميم المقترب من الكمال لتعليب «ثاقب صلب لأعماق الأرض»، وأن «مساعدات الاختراق الأكثر فعالية قيد العمل»، وأن ASMS (برنامج أنظمة الصاروخ الاستراتيجي المتقدم) يقدم دعماً مباشراً لبرنامج صاروخ حافظ السلام عبر PADS (أنظمة نشر مساعدة الاختراق). ويصل صاروخ واحد MX حافظ للسلام إلى تخريب يفوق القنبلة التي دمرت هيروشيما بأربعمائة ضعف. وقد قارنت المقالة نظام مينوتمان بنظام حافظ السلام، متوقعة بشغف الأنواع الجديدة من الأسلحة، بما فيها «ابن حافظ السلام ٢»، واغتبطت بأن «حافظ السلام طوله واحد وسبعون قدماً وقطره اثنتان وتسعون بوصة ويزن ١٩٥٠٠٠ رطلاً».

عجباً!

وفي نفس مقالة **مجلة القوة الجوية**، عبّر إعلان من صفحة كاملة* لروكويل إنترناشونال (حيث يتراجع العلم لصالح العمل) عن التزامها بالدفاع الوطني، ونذرت نفسها «لحماية المجال الأوروبي والمجالات الأخرى في العالم من هجوم ـ تقليدي، كيميائي، و/أو نووي»، وسجلت مساهماتها في «تقوية تقنيات عصرية جداً... عبر مزيج من تصاميم نظام نشيطة وسلبية». وتفاخر الإعلان بأن «روكويل كانت جزءاً مكملاً لفريق تطوير صاروخ حافظ السلام... [العامل على] التوجيه والسيطرة والملاحة والسيطرة على الإطلاق والتقوية النووية وقابلية البقاء على قيد الحياة». (إذا ظننتم أن قابلية البقاء على قيد الحياة تشير إلى أشكال

* للقارئ الناشط الذي يقدّر معرفة أي شركات يقاطع، فيما يلي قائمة جزئية بالمقاولين الشركاء في مشاريع حافظ السلام: بوينغ، جنرال الكتريك، هونيويل، لوكهيد، وستينغهاوس. وفي المرة القادمة التي تشتري فيها تذكرة طائرة، أو ثلاجة، أو محمصة خبز، حاول عدم التقسيم وتمتع بسلامة عمل هذا.

الحياة، فأنتم على خطأ. إنها تعني قابلية البقاء على قيد الحياة للصواريخ عندما تتعرض للهجوم من صواريخ أخرى).

إنني لا ألفق هذا.

ونشرة اليونيسيف **العمل من أجل الأطفال*** لم تكن تلفقه أيضاً عندما نقلت، في عام ١٩٨٦، أنه «كان ثمة تركيب هائل للأسلحة في صناعة الألعاب في الولايات المتحدة. وأن غالبية الألعاب الأكثر رواجاً هي أسلحة أو دمى [عسكرية] مزيفة... وقفزت مبيعات لعب الحرب من نحو ٣٢٥ مليون دولار عام ١٩٨٢ إلى نحو مليار دولار عام ١٩٨٤.

لقد أطلق على القنبلة الذرية التي أزالت هيروشيما بمودة اسم «الولد الصغير».

وجرى إعداد جيل جديد كامل - صبية صغار تمَّ تدريبهم سيكونون متعصبين حول اختراق أعماق الأرض المتصلبة. وقد قابلناهم من قبل، إنهم **الوطنيون**. وألمان حركة فرايكوربس، محاربو الحرب العالمية الأولى القدماء الذين كانوا أسلاف الحزب النازي الناشئ وأعضاءه الأوائل، هم أحد مواضيع **التخيلات الذكورية**، وهو كتاب من تأليف كلاوس ثيويليت، الكاتب الألماني. وفي هذا الكتاب يخصص ثيويليت بعض الدراسة لصور السيولة والقذارة في الخيال الفاشي. ويبدو أن أدب فرايكوربس تملكته فكرة أن الشيوعية كانت فيضاناً أو مداً، وكان يحمل رؤيا عن المرأة بأنها مقسمة إلى المرأة الحمراء (العاهرة، الشيوعية، القوة

* نقلت نفس مقالة العمل من أجل الأطفال عن رتل من خمسة عشر ألف صبي إيراني بعمر التاسعة يزحفون للقتال ضد العراق، وهم ينشدون، «اندفعوا، اندفعوا، من يخطون على الألغام سوف يذهبون إلى الجنة». الأطفال الإناث؟ في عام ١٩٨٤، كانت ستة عشر ألف مومس يعملن في خمسمائة حانة وصالة تدليك تخدم القاعدة العسكرية الأمريكية في خليج سوبيك، في الفيلبين، وتتراوح أعمارهن بين الثانية عشرة والخامسة عشرة.

الغـامـرة للنشـوة الجنسـيـة الخطرة) والمرأة البـيـضـاء (الأم، الزوجـة، الممرضـة). وكـان أعـضـاء فـرايكوربس يعـادون «كل المواد الهـجـينة التي ينتـجـهـا الجسم والتي تتـدفق على وفـي وفـوق وخـارج الجـسم... **الدفء الذي يذيب الحدود المادية**» (التأكيد لي).

كم يجب أن يكون كبيراً ـ الرعب المذيب للحدود المادية بين الأجسام الإنسانية الضعيفة، بين الحدود الوطنية الخادعة! كم يجب أن يبدو الناعم غـادراً، السائل، التغليف، الحركة غيـر السـاكنة التي لا يمكن السيطرة عليها للتاريخ، لعمليات الحياة، للوجود نفسه! كل شيء يجب أن يكون مسـتخدماً ضد مثل هذه الخيـانة. كل شيء يجب أن يـكون مسـتعـملاً ـ مخترعاً، مبتكراً، مشوهاً، معكوساً، ومكرساً للخدمة ـ لدعم التخيل.

النظام. التخطيط. الحواجز.

واللغة يجب تهيئتها كي تكذب. والأدمغة يجب غسلها للنسيان. والدين يجب أن يبتـهـج بهـذه القـسـوة، والفلسـفـة يجب أن تمجـد هذه الصـلابة، والفن يجب أن يرفع هذا الجـفـاف. والقـوانين يجب أن تصـفح عنهـا، والقواعد يجب أن تـفرضهـا، والاقتـصاد يجب أن يجعلها مـربحة، والتـعـليم يجب أن ينشـرها. وكل كلفـة تقـتـضـي، وكل ثمن يُدفع، وكل فـعل يُرتكب، يجب أن يكون لغـرض واحـد: كي **تصلب وتخلد** (حـتى بالإسقاط الطقسي).

ولهذا الغرض، حتى الخصوم يمكن أن يتعاونوا في عالم ذكوري.

ولهـذا، تقيـم المجـمـوعـات الإرهابيـة الألمانيـة اليـمـينيـة اتصـالاً مع شبكات العتاد الحربي في لبنان والجزائر اليساريتين.

ولهـذا، تتـاجـر إسـرائيـل مع جنـوب إفـريقـيـا (زبونهـا الوحيـد الأكبـر

للتسلح اعتباراً من عام ١٩٨٠)، وتبيع كلٌ من الولايات المتحدة والصين الأسلحة إلى إيران والعراق من أجل حرب كل منهما ضد الأخرى.

ولهذا، تمَّ إنشاء خطوط الهاتف المباشرة لربط وزارات الداخلية وقوات الأمن في جميع الدول الأوروبية، فيما يدعوه المعلقون «السوق المشتركة ضد الإرهابي».

ولهذا، يستطيع العالم أن يتحمل إنفاقاً عسكرياً سنوياً يتجاوز ١١٠ دولارات أمريكية لكل امرأة وطفل ورجل على هذا الكوكب، مما يفوق الإنفاق على الصحة بمقدار ٢٨٪؛ والإنفاق العالمي على البحث والتطوير العسكري يمكن أن يعادل ربع كامل الإنفاق العالمي على البحث والتطوير لكل قضية وموضوع. وإذا أنفقت مليون دولار أمريكي يومياً خلال ألفي سنة، فإن المجموع سيعادل نصف ميزانية الدفاع الأمريكية من عام ١٩٨٣ إلى عام ١٩٨٨ ـ بينما، وفقاً للمجلس الاستشاري الوطني حول الفرص الاقتصادية، سيكون جميع السكان الفقراء في الولايات المتحدة مؤلفين من النساء والأطفال مع حلول عام ٢٠٠٠. ولهذا، فإن أكثر من ٢٠٪ من العلماء والمهندسين المؤهلين في هذا الكوكب يمكن أن ينشغلوا في العمل للجيش؛ وأمكن للقرن العشرين أن يتحمل ٢٠٧ حروب فُقد فيها ٧٨ مليون حياة؛ وأمكن لثلثي جميع الدول ـ الأمم (التي تضم ٩٧٪ من سكان العالم) أن تنشغل بحرب واحدة على الأقل في هذا القرن؛ وأمكن لثلاثة وتسعين شكلاً جديداً من الدول أن تخلق ـ وأغلبها بشكل عنيف ـ بين عامي ١٩٤٥ و١٩٨٥.

ولهذا.

«ربما يمكن وضع حالة للإرهاب على أنها مساهمة إيجابية للمجتمع؛ وعلى الأقل يجب عدم التغاضي عنها... ومن ينظر إلى أن الإرهاب في المجتمع هو نموذج علاقة الفريسة بالمفترس؟» لقد طرح ذلك السؤال ببرود الدكتور ف. جنتري هاريس، الذي يكتب في الصحيفة نفسها أيضاً، «بشكل تحريضي، إن عناصر مثل الذكورة، ونزع الشخصية، والإلفة، والتفكير السحري تلعب دوراً [في الإرهاب]».
ويفترض أنتال دويتش، في «حول اقتصاد الإرهاب»، أن الأفعال الإرهابية التي نشأت على يد قوة عظمى (أو من ينوب **عنها**) ضد أخرى (أو من ينوب عنها) هي أكثر ربحاً من المجابهة الرئيسية السافرة بين الدول العملاقة نفسها. والهجمات الإرهابية أو سرقات الرؤوس النووية التكتيكية لأحد الجانبين، مثلاً (وبالتالي الهجمات المضادة، بالتأكيد)، أكثر «مسالمة». فهي تسبب خسارة الوجه، لكنها لمصلحة كل دولة أكثر مما سيكون الاستخدام الهائل للأسلحة نفسها. ويناقش دويتش بأن خسارة الوجه، مع ذلك، أفضل من الحرب النووية.

هكذا تماماً. لكن هذا النوع من التفكير يهمل **طيف العنف**. إن الوجه (سواء إن أُنقذ أو فُقد) يرتبط بالرأس - وبالجسم.

ويعيش الإرهاب النووي على امتداد خط مباشر بين الدولة الموجودة والدولة المنتظرة (في أشخاص سياسيين إرهابيين متمردين). وفي الماضي غير البعيد، كانت القوة والتسليح النوويان هما الملكية الوحيدة للدولة الموجودة. والآن أصبحا متوفرين للدولة المنتظرة. وبين القوى العظمى، فإن عملية تخزين الكميات الاحتياطية المتصاعدة للقدرة على الإبادة من أجل التعادل، والتفوق، وتعادل الطرفين من جديد، يُطلق

عليها اسم «الرادع النووي». كما يُطلق على الحالة أيضاً، بشكل حرفي، اسم «توازن الرعب». وعلى أي حال، كما في الدبلوماسية القسرية، فإن الدول الأصغر يمكن أن تشارك في هذه اللعبة، ويتخذ تكاثر الأسلحة النووية «الطابع الديمقراطي». ويُنكر بعض الدول الأصغر ملكية هذه الأسلحة. ويكشف بعضها ذلك بصورة علنية. ويلعب بعضها بها بأسلوب إرهابي باطني. وعندما سرب مردخاي فانونو أخبار ترسانة إسرائيل النووية السرية، أنكرت ذلك إسرائيل. ثم جرى اختطافه من قبل الموساد، وأُحضر بالقوة من روما إلى القدس، وحوكم من أجل تعريض أمن دولة للخطر، واعتُبر مذنباً (في آذار ١٩٨٨) بجريمة الخيانة، والتجسس الخطر، ونقل معلومات سرية مفيدة إلى العدو. وقد رشحته مؤسسة برتراند رسل إلى جائزة نوبل للسلام لعام ١٩٨٨. ومع ذلك فقد لاحظ محاميه أن «الميزة الرئيسية للترسانة النووية هي الردع» واقترح أن الحكومة الإسرائيلية ربما رغبت في الحقيقة أن يتحدث فانونو إلى الصحافة. وعلى أي حال فقد ناقش المحامي، «إذا قدم أحد ما دليلاً على أن إسرائيل **لم** يكن لديها أسلحة نووية، فإن **ذلك** سيشكل تهديداً لأمن إسرائيل».

إن سرقات المواد النووية ـ لأسباب تتعلق بالربح أو الأيديولوجية أو الدبلوماسية القسرية ـ في تزايد مستمر. وقد حذر تقرير راند كوربوريشن لعام ١٩٨٠ من ميل متصاعد مستمر في هذه «الحوادث النووية». وفي تشرين الثاني عام ١٩٨٧، سلم البنتاغون تقريراً إلى الكونغرس ينذر بأن الفرص الإرهابية لسرقة «البلوتونيوم المدني» يمكن أن تتزايد نتيجة للاستخدام التجاري المتزايد للبلوتونيوم. (قُدِّر بأنه مع

حلول التسعينيات، فإن ما يصل إلى ثلاثمائة شحنة سنوياً من البلوتونيوم المفصول لمصانع معالجة النفايات سوف تنتقل جواً إلى الوسائل النووية في أوروبا واليابان في صفقات تجارية). وبالنسبة للبنتاغون فإن هذه المادة تتخذ مظهر الميزات الشريرة للخطر الإشعاعي فقط عندما تكون في أيدي الدولة المنتظرة مقابل الدولة الموجودة.

إن أي أم يمكن أن تخبرك بأنه ما أن توجد لعبة، حتى يجري تسويقها؛ وما أن يجري تسويقها، حتى يتم الحصول عليها؛ وما أن يتم الحصول عليها، حتى يجري اللعب بها. وقبل خمس سنوات مضت، كان أحد أسوأ مصادر الرعب لطياري الخطوط الجوية هو اختراع مسدس بلاستيكي يمكن ألا تكشفه كاشفات المعدن في المطار. وهذا السلاح موجود الآن. وقد كشفت الصناعة التي طورت المسدس عن ماسح جديد يعمل بالأشعة السينية يمكن أن يكشفه بشكل مضمون. وعلى الرغم من هذا، فإن الرهان يتزايد. واثنان و٤٠٪ من المخزون الأمريكي للأسلحة الكيميائية موجود في بلدة تويلي، في صحراء يوتا الغربية. وفي عام ١٩٨٧، مُنح ممثلو الاتحاد السوفيتي جولة موجهة في القاعدة، كجزء من التفتيش التجريبي المتبادل للذخائر الكيميائية على كلا الجانبين. ووافقت كلتا القوتين العظميين على أنه «أمر بالغ التفاؤل» الاعتقاد بأن معاهدة تمنع مثل هذه الأسلحة يمكن التوصل إليها بسهولة. ومع ذلك، فإن المندوبين السوفييت (بين سماعهم جوقة خيمة المورمون واستضافتهم على شطائر الموز) قد عُرضت عليهم مثل هذه الأسلحة على أنها صواريخ و« GB » كيميائية، الأكثر سمية بين جميع الأسلحة الكيميائية، والتي تسبب «الغثيان والتقيؤ والتشنج والخمول، وتؤدي

إلى الغيبوبة والتشنجات والموت». والأسلحة الكيميائية، كما قال أحد الخبراء الأمريكيين، تشكل خطراً خاصاً لأنها «رخيصة وسهل إنتاجها ـ يمكن أن تكون السلاح الوحشي للرجل الفقير». وفي عام ١٩٨٦، أطلقت شركة راند نتائج مسح ثلاثمائة «خبير بالإرهاب» من خمس وعشرين دولة مختلفة. وقال ٧٠٪ تقريباً من الذين شاركوا في المسح «إنه من المحتمل أن الإرهابيين سوف يمتلكون في النهاية أسلحة كيميائية أو بيولوجية». وقال ٤٠٪ تقريباً إن الإرهابيين ربما يحصلون على الأسلحة النووية.

والممتلكات النووية ـ سواء أكانت محطات كهربائية أم أسلحة أم نفايات ـ من المحتمل أن تسبب ذبول الدولة بسرعة أكثر مما تصور ماركس. ولسوء الحظ، فإن الدولة لن تفنى وحدها. وهذه بالتأكيد هي اللعبة النهائية لصبي صغير تمت تقسيته واللعبة التي تُعتبر سلاحاً بشكل حتمي، سواء استخدمت من أجل «أهداف سلمية» أم لا. أولاً، إن تسلسل العنف هو كما يلي تماماً: إنه يرفض التجزيء الدقيق. ثانياً، إن الحوادث النووية تصبح أكثر شيوعاً من الخيالات الاستمنائية الذكورية للاختراق. ثالثاً، إذا بقينا نثق بكلمة «سلام» المنبعثة من أفواه السياسيين الموجودين أو السياسيين المنتظرين، فإننا حمقى انتحاريون. (البرازيل تبني تجهيزات نووية تحت الأرض أسفل منطقة الأمازون. وبعملها هذا، تدمّر إحدى أعظم الغابات المطرية في العالم، والتي تنتج وحدها أكثر من ربع أوكسجين الكوكب. والتجهيزات النووية، كما تدَّعي الحكومة البرازيلية، هي لأهداف سلمية فقط. ومن قبيل المصادفة أن التجهيزات هي تحت سيطرة الجيش)!!.

لا بد من طريقة لإنهاء ذلك.

هناك طريقة. لقد شهدت الثمانينات العديد من الأمثلة الموحية للعملية النسوية بشكلها الخاص من المجابهة (الرقيقة والمتدفقة والغامرة) مع الدولة. وإحداها ـ العاملة جنباً إلى جنب مع طريقها الخاص غير المباشر في بُعدٍ مختلف تماماً عن مواصلة العنف ـ قد أثرت بشكل جوهري على السياسة النووية العالمية.

وفي وقت مبكر يعود إلى الخمسينات، بدأت النساء في دول المحيط الهادي بالتعرض لتأثيرات الإشعاع من تجارب القصف الأمريكي في جزر مارشال. وقد قمن بصياغة تعبير «أطفال قنديل البحر» لوصف الأطفال الذين يولدون لهن ـ أطفال بدون عيون أو أذرع أو أرجل. وجرى تجاهلهن. وبدأن بالتعبئة. وبسبب نقص الأموال والقوة وتكنولوجيا الاتصالات، كان عليهن التحرك ببطء. ومع حلول السبعينات كن منشغلات في تيار ثابت من أعمال الاعتراض الصغيرة؛ وفي عام ١٩٧٤، على سبيل المثال، قامت الجمعية الوطنية لنساء الجزيرة في تاهيتي بمظاهرة ضد تصريف النفايات الإشعاعية في المحيط الهادي؛ وسدت النساء الطرق المستخدمة لنقل مواد النفايات. ومع حلول منتصف السبعينات، كان العلماء يؤكدون أخيراً ما كانت النساء يقلنه طوال عقدين ـ بأنه كان ثمة علاقة عرضية بين التجارب النووية (بشكل أولي، آنذاك، من الفرنسيين)، وحادثة المواليد الأموات والولادات الشاذة والإجهاضات والسرطانات النسوية والأمراض الإشعاعية. (على سبيل المصادفة، أطلق الفرنسيون أسماء نسوية على الحفر التي أحدثوها باختباراتهم «لخارقات أعماق الأرض» على جزيرة موروروا المرجانية).

وترجع حركة نزع السلاح النووي من المحيط الهادي تاريخ بدايتها (بين نحو عشرين ألف جزيرة في المحيط الهادي) إلى ذلك الوقت ـ عندما أصبح الرجال متورطين. ومع حلول أوائل الثمانينات، كانت الحركة مرئية ومسموعة، وتشكّل تهديداً للدولة النووية في مظاهرها الوطنية ومواقعها الجغرافية المتعددة على امتداد العالم. وفي حزيران ١٩٨٤، سقطت حكومة الحزب الوطني في نيوزيلندة ـ بسبب قضية إن كان سيتم السماح بدخول السفن العاملة أو المسلحة نووياً إلى موانئ تلك الدولة أم لا. وكان من الضروري الدعوة إلى انتخاب مفاجئ، وفاز حزب العمال المعارض فوزاً ساحقاً بالسلطة ـ على أساس برنامج نزع السلاح النووي. وردت الولايات المتحدة على حليفتها أولاً بالتهديدات وأخيراً بحل معاهدة أنزوس (أسترالية ونيوزيلندة والولايات المتحدة). (في عدد أيار عام ١٩٨٥ من **مجلة القوى الجوية**، عبّر الجنرال الجوي الأمريكي المتقاعد ت. ر. ميلتون عن حنقه بأن الولايات المتحدة كانت تتعرض «للازدراء» من «عذرية نيوزيلندة النووية»). لكن مفهوم فأر نيوزيلندة الذي أخذ يزأر كان ينتشر، وبدأت على غرار الدول الصغيرة الأخرى بالتعبير عن نفور أو رفض مكشوف لاستضافة قواعد القوة العظمى أو التجهيزات النووية أو إدخال السفن النووية في أحواضها.

والآن، إن الكثير مما ورد آنفاً مألوف بالنسبة لأي شخص على صلة بشكل منتظم مع صحيفة أو إذاعة. لكن ما كان أقل ملاحظة في هذه القصة المغطاة بشكل مختلف على نطاق واسع هو **أن النساء هن** اللواتي عبأن حركة نزع السلاح النووي من المحيط الهادي في المقام الأول. **وكانت برلمانية مؤمنة بتحرير المرأة** (مارلين ج. وارينغ، في الحادية

والثلاثين من العمر) هي التي انسحبت من مؤتمر الحكومة التحضيري لحزبها (الوطني) بسبب هذه القضية، مما أدى إلى سقوط حزبها والحكومة. **وكانت النساء** في حكومة حزب العمل الجديدة هن اللواتي أجبرن رئيس الوزراء الجديد على الوقوف إلى جانب ميثاق حملته الخاصة بالموانئ المنزوعة نووياً بالإضافة إلى الأرض المنزوعة نووياً.

وبعد ذلك بسنة واحدة، وفي تموز عام ١٩٨٥، تعرضت سفينة السلام الأخضر لحفظ البيئة العالمية، **رينبو وارير**، للقصف وهي ترسو في ميناء أوكلاند؛ وقُتل أحد أفراد طاقمها. ولم يمض أكثر من أسبوع حتى أوضح التحقيق أن فريق القصف كان مؤلفاً من عملاء إرهابيين للدولة بتكليف من فرنسة من أجل تدمير **رينبو وارير** قبل شروعها في المظاهرات البحرية المخطط لها والمضادة للتجارب النووية في المحيط الهادي. **وكانت النساء** هن اللواتي قمن بتسهيل سرعة التحقيق. وكان جميع العملاء الفرنسيين الذكور باستثناء واحد يملكون إلى حد كبير صالات «تدليك من أجل تخفيف التوتر» ونساء مقيمات في كل مناسبة؛ وفي جميع النواحي الأخرى، كان الفريق يحافظ على مظهر متواضع، لكنهم تركوا أثراً واضحاً في السلوك الجنسي. وعند الاعتقال، كانت العضو الوحيدة من الفريق الإرهابي الفرنسي التي تبدي سلوكاً «غير متصلبٍ» امرأة، وهي دومنيك بريور. وقد افترض مايكل كينغ، مؤلف موت **رينبو وارير*** والذي يُعتبر مرجعاً في هذه القضية، أن هذا قد حدث لأن بريور ربما لم يتم إخبارها بأن البعثة قد تضمنت مخاطرة

* لقد وصلني تحليل مايكل كينغ لسلوك دومنيك بريور في محادثة شخصية، بعد أن نشرت Penguin Books كتابه عام ١٩٨٦.

استلاب حياة إنسانية، وربما كانت سترفض المشاركة لو أنها عرفت ذلك.

ومع حلول منتصف عام ١٩٨٧، كانت الحكومة الفرنسية قد أجبرت أخيراً على الاعتراف بإرهابها الرسمي (على الرغم من مثابرتها على التجارب النووية في المحيط الهادي*)، وكان التوزيعات قد جرت، وبدا جميع السياسيين المتورطين متشوقين لإهمال المسألة. وطرحت حكومة رئيس الوزراء ديفيد لانج مشروع قانون وحشي إلى حد ما قد حول القوى الطارئة للإرهاب الدولي - التي كان من الممكن أن تعطي الحكومة الحق في مراقبة تغطية الصحافة أو تقييدها (ما افترضته الدولة) في حالة الطوارئ؛ وتضمن مشروع القانون أيضاً عدة قوى طوارئ أخرى بعيدة المدى يمكن استخدامها في انتهاك الحريات المدنية المحلية. وربما افترضت الدولة أن الناس، الذين لا يزالون مجروحين من جولة أولى مع الإرهاب في قضية **رينبو وارير**، سوف يحتشدون بعيداً عن الخوف لمساندة مشروع القانون. لكن الصحافة احتشدت، كما احتشدت مجموعات الحريات المدنية - وكذلك فعل المجلس الوطني لنساء نيوزيلندة. (مع كتابة هذا، عاد مشروع القانون تحت التنقيح - بدون عبارة الرقابة ومع تخفيض عنيف في المقاطع التي تقلص الحريات المدنية).

إنني لا أقصد التضمين بأنه لم يكن ثمة رجال ذوو مبادئ متورطين في هذه العملية بكاملها. لقد كانوا موجودين. كما أنني لا أقصد أيضاً

---

* في عام ١٩٨٨، أعلنت فرنسا خططاً للتخلي عن جزيرة موروروا المرجانية باعتبار أنها موقع لم يعد سالماً، لأن قاعدة الجزيرة تتجزأ والفرنسيون لا يرغبون في تعريض موظفيهم إلى مستويات عالية جداً من الإشعاع. وفي الوقت نفسه، أعلنت الحكومة الفرنسية - وهي تتبرأ من مسؤوليتها عن موروروا - أنها سوف تنقل عمليات تجاربها النووية إلى مستعمرة أخرى من مستعمراتها أو «ممتلكاتها» الإقليمية في منطقة المحيط الهادي.

التضمين بأنه لم يكن ثمة بعض النساء اللواتي عملن لدعم سياسة ثاناتوس. لقد كن موجودات. وأنا **لست** أشير إلى أن تاريخ حركة نزع السلاح النووي من المحيط الهادي، وتغطية الصحافة لسقوط الحكومة، وحل أنزوس، والاعتقال السريع للإرهابيين، وتنقيح نيوزيلندة لمشروع

قانونها ضد الإرهاب، **قد ركز على الرجال**. **رجال** جزر المحيط الهادي، وسياسيي نيوزيلندة، ورجال طاقم السلام الأخضر (مع أن الطاقم كان يتضمن النساء)، الخ. لكنني أركز على المتغير الخفي، العامل المهمل الذي تاه، وهو يتدفق بهدوء ولكن بثبات: **النساء**.

إن النساء، كما تفترض الدولة، لا علاقة لهن بإحداث فارق. وإلى جانب ذلك، كما تفترض الدولة، إن النساء لا يفهمن في أمور الدولة - ولا يكترثن بأي حال. وفي عام ١٩٨٥، قدم رونالد ريغان، رئيس هيئة أركان البيت الأبيض آنذاك، إحدى أسوأ ملاحظاته سمعة في مهنة اشتهرت مسبقاً بالتمييز العنصري والتعبيرات الجنسية. ففي اجتماع قمة جنيف بين الرئيس ريغان والزعيم السوفيتي ميخائيل غورباتشيف، قال ريغان بجذل، «إن النساء لن يفهمن أوزان رؤوس الصواريخ» أو قضايا الأمن الوطني الأخرى. ولا تزال الملاحظة تعتمل في صدر مساعدة وزير الخارجية روزان ل. ريجوي. وباعتبارها امرأة مخلصة باعتراف الجميع لدولة الرجل، فإن ريجوي تتمنى تقدم النساء فيما يتعلق بهذا، وتملك «اعتقاداً عميقاً بعدم وجود وجهة نظر نسائية حول الأمن الوطني - العدد المحدد للفرق العسكرية، وأعداد الصواريخ، وما هي النسبة الملائمة لنمو ميزانية الدفاع...» ومع اعترافها بالسبب الحقيقي «لاعتقادها العميق» في مقابلة حديثة أضافت، على أي حال، «إلى حد

أن امرأة في الحقل تقول، "كامرأة، أعتقد..." ستجد أن الأبواب التي تفتح على ممرات السلطة مغلقة أمامها».

ويستمر النقاش عما إذا كانت النساء يحكمن بشكل مختلف عن الرجال، مثل استعراض ترفيهي ثانوي خلال احتراق روما. لكن ماريان ك. ديامند، أستاذة التشريح العصبي في جامعة كاليفورنيا (بيركيلي)، تكتب، «إنها مجرد مسألة وقت قبل أن تسمح لنا التكنولوجيا بالقياس الدقيق للفوارق في بنية الأدمغة الإنسانية الذكورية والأنثوية. وتشير الدراسات الحيوانية بوضوح إلى أن مثل هذه الاختلافات موجودة. وبوجود الترتيبات المختلفة للخلايا العصبية بين الجنسين، هنالك بلا شك أنواع مختلفة من السلوك المتأصل. وأن تحكم الإناث بشكل مختلف عن الذكور هو احتمال حقيقي».

وبشكل مفهوم، إن المؤمنين بتحرير المرأة يشعرون بالاضطراب من مثل هذا التحليل البيولوجي: إن كل ما علينا عمله هو النظر إلى الطريقة التي استُخدمت ضد النساء في الماضي*. لكن ذلك كان في الحقيقة **مادية بيولوجية**، ومن جديد، لم تكن النساء هن اللواتي يعرفن

---

* أو في الحاضر. وفي ١٨ كانون الأول ١٩٨٧، نظم بندزكرمينالمت ثلاثاً وثلاثين غارة في المدن على امتداد جمهورية ألمانيا الاتحادية. واندفعت الشرطة المسلحة بشدة داخل بيوت وأماكن عمل الناشطين المؤمنين بتحرير المرأة ـ النقاد المؤمنين بتحرير المرأة للتكنولوجية الوراثية والتناسلية، والأمومة البديلة، والقدر الجنسي، والهندسة الوراثية، وانتهاكات الغشاء المحيط بالجنين والتخصيب في الأنابيب. وانتشر تحالف المجموعات العاملة في هذه القضايا من زورا الحمراء المتطرفة إلى عصبة ربات البيوت. وكان بين الذين تمَّ اعتقالهم أطباء صحة، وعلماء اجتماع، وصحفيون. وجرى تفتيش النساء وهن عاريات، وتضمنت المواد المصادرة أوراق بحوث تعليمية، وقوائم بالذين حضروا البحوث، وسجلات عناوين خاصة. وزعم رجال الشرطة أن الاعتداءات كان من الممكن تبريرها تحت فقرة القانون ١٢٩ ـ آ: «الدعم المحتمل أو العضوية في منظمة إرهابية». انظر جينا كوريا وسينثيا دي ويت، «تطورات قضايا حالية: خلاصة» الهندسة التناسلية والوراثية: **جريدة التحليل النسائي العالمي**، المجلد الأول، العدد الثاني (١٩٨٨) صفحة ١٨٣- ٢٠٣.

أو يترجمن «الاختلاف». ولم يحملن **ممارسة بناءة** قد تكون محتملة فيما يتعلق بخيارات أن «الاختلاف» مقدم لنا كلنا. إننا **لسن** مثل الرجال. و«المثل» هو مقياس حدده الرجال - وهو منحرف كأي مقياس حدده فقط جزء يعلن عن نفسه بأنه الوجود.

ومهما يكن الوضع أو السبب - متأصلاً أو ذا طابع اجتماعي، بيولوجي أو تقليدي - فإن الحقيقة هي أن **النساء كمجموعة** لا يشاركن بشكل تاريخي في الإثارة الذكورية التي تخلط بين الصلابة والقوة وتنتج بذلك آليات رعب الدولة تحت ذريعة «الأمن القومي».

ماذا تعني تلك العبارة الفارغة إلى حد سخيف - «الأمن القومي» - في عصر نضوب الأوزون، وتأثير البيت الزجاجي، وتشيرنوبل، وبوبال، وقناة الحب؟ إن الكارثة ليست بحاجة إلى تأشيرة دخول. ماذا تعني العبارة ضمن الحدود الخاصة لدولة ما، لذلك، إذا كانت المصادر الطبيعية هناك مسلوبة إلى درجة أن «أمنهم» يُعتبر نكتة سخيفة؟ **لا يوجد شيء مثل «الأمن القومي»** في عالم حيث يمكن لدولة ما أن تحول دولة أخرى إلى رماد خلال دقائق، وحيث الهواء والأرض والماء (التي تتحرك وتتبدل وتتدفق) مشتركة* - في مختلف الظروف.

ويبدو أن دولة الرجل تنزع إلى إهمال هذا الأمر بقدر الإمكان خلال اندفاعها نحو ذروة شهوة الموت النهائية التي تمت السيطرة عليها. وقد

---

* من أجل رؤى بديلة فيما يخص «الأمن القومي» انظر «لو كان لدى النساء سياسة خارجية: مناقشة على المائدة المستديرة مع بيلا أبزوغ، باتريشا دريان، مارسيا جيلسبي، بيرديتا هوستون، روبين مورغان، وغلوريا ستاينم»، مخطوط، آذار ١٩٨٥. انظر أيضاً كتيّب ريتشارد فالك الرائع «النووية والاهتمام القومي - وضع الحليف غير النووي»، محاضرة سنوية حول السلام (أوكلاند، نيوزيلندة: مؤسسة نيوزيلندة للدراسات حول السلام، ١٩٨٦). من أجل استكشاف الحقوق القانونية للمصادر الطبيعية، انظر كرستوفر د. ستون، **الأرض وأخلاقيات أخرى: حالة التعددية الأخلاقية** (نيويورك وسان فرانسيسكو: هاربر أند رو، ١٩٨٧).

عبّرت عن ذلك بيريت آس الناشطة النرويجية في مجال تحرير المرأة بصورة بليغة قائلة: «إن الدولة البطريركية هي دولة إما أنها تعيد بناء نفسها بعد الحرب، أو أنها في حالة حرب حالياً، أو أنها تستعد لخوض الحرب».

إننا نعيش فيها، «حالة الحرب» هذه. وهي تتخم حياتنا. دولة الوجود الغريبة الواسعة بكاملها التي نحن مجبرون فيها على البقاء على قيد الحياة بحالة طوارئ، دولة الرعب. والاستمرار في تسميتها هكذا يعني تشجيع الازدراء، كي يُعتبر مفرطاً، مثيراً للمخاوف. وأن تخرق الواجهة الناعمة العديمة الشكل لهذا الرعب يعني أن تكون معطلاً من النظام ـ النظام المحدد المستقيم الهش. «إن نظاماً عنيفاً هو فوضى»، كما يُحذّر الشاعر، و«الفوضى الكبرى هي نظام».

لقد أتوا إلينا في منتصف الليل...
في السادسة عشرة، هي الساكنة الصغرى لصف الموت...
الحجز الوقائي قانوني تحت بعض الظروف...
أقل من ٣٥ بالمئة من الناخبين المؤهلين الأمريكيين صوتوا عام ١٩٨٠...
اليوم أعلن حكم عرفي في...
ثلاثة عشر ألف طفل مسجونون في جنوب إفريقيا...
ولدي الوحيد. لا أعرف أين أخذوه...
الفاقة هي القاتل الأكبر للأطفال في الولايات المتحدة...
عجز زعماء القمة عن الموافقة على مزيد من التخفيض للأسلحة النووية...

أجلس في غرفة صغيرة في أمريكا الشمالية. يسرب الفجر ضوءاً رمادياً معدنياً عبر شوارع المدينة خارج نافذتي. الجدران والأرض مكسوة بالملاحظات المبعثرة، والمذكرات، والشهادات، والحقائق. نفايات الورق. نفايات اللحم. **لا بد من وجود طريقة لإنهاء ذلك**. في قبضة الموت لمثل هذا الرعب والألم، مثل هذا الغباء الرسمي الفظ، مثل هذا الوضع الجنسي الشاذ والقسوة المشرعة ـ وثمة وقت قليل جداً متبقي ـ ونحن نفكر، **بالتأكيد، إن أي شيء يمكن أن يغير هذه الحالة يجدر القيام به. أي شيء. مهما يكن**.

إن عاشق الشيطان هنا أمامنا.

«ثمة طريقة»، يهمس بتشجيع، «طريقة تقدم الأمل ـ وغبطة تفوق إثارة القوة المهيبة. هل ترونها، تتحرك بلا صوت بين الشجيرات الصغيرة، تجثم على قمم السقوف، تصيح في الناس المتأملين، تحتشد في التلال وفي الشوارع؟ أليست جميلة، مبهجة، لا تقاوم؟ إنها احتفالية، حريق هائل. إنها ما يحتاج إليه العالم. إنها أمنيتكم الخاصة الأكثر سرية. إنها الثورة».

الفصل الخامس

شهوة الحرب:
الارتفاع الثوري

كلما أضع قناعي على وجهي، أشعر بحرارة الطبقة العاملة. ولا يزعجني الخطر النهائي: إنه يملأني بعاطفة محمومة، كما لو أنني أنتظر حبيباً...

الإرهابي الإيطالي المعلن عن نفسه توني نيغري

هذه بندقيتي،
وهذا مسدسي.
واحدة للقتل،
وواحد للمرح.

أغنية تدريب عسكرية أمريكية

نعلن عن وجود شهوة للحرب في أمريكا!

خبراء الأرصاد الجوية، شيكاغو (١٩٦٩)

نجلس أنا وصديقة قديمة لتناول العشاء. هي أمريكية بيضاء متوسطة العمر، من أصل إيرلندي، مؤمنة بتحرير المرأة، معارضة طوال حياتها للعنف. وهي أيضاً كائنة حساسة وذكية. الطعام حسن التحضير، والنبيذ معتق، والمحادثة مثيرة. ومع الانهماك الاستحواذي للكاتبة المتشابك في كتابها الحالي، أناور حول الموضوع كي أصل إلى الإرهاب. وهي سريعة الفهم، ومتجاوبة. ونحن متفقتان في تفجعنا على العنف السائد. وهي تثيرني قليلاً: تتذكر عندما تجاهلت معارضتها للعنف

باعتبارها ليبرالية برجوازية، وعندما خشيتْ أن تعلن عناوين صحيفتها الصباحية مقتلي في اشتباك بالسلاح مع مكتب التحقيق الفدرالي أو اعتقالي بتهمة تخريب ما مما يعني قضاء حياتي وراء القضبان. وهي تملك الآن كل الحق في أن تقول «لقد أخبرتك بذلك». ونضحك، ويستمر الكلام. لقد كنا نتحدث بالسياسة طوال عقدين. ونتفق معاً على التحسر من تصاعد القوة والإرهاب في الدولة. ونتفق معاً على التعبير عن الخطر من يقظة الجناح اليميني ونتفجع على خسارة الجناح اليساري للرؤيا الإنسانية.

وأخاطر بالقول، «**إن إذلال** الاضطهاد يعبر عن كل مظاهر المعاناة ـ الإذلال بأن يملي الطاغية على المرء سلوكه كلياً». وتومئ بالموافقة. أكاد لا أقول أي شيء جديد. «ولكن... حسن، إن الأمر المخيف هو أن السلوك الثوري نفسه أيضاً يمليه الطاغية. وبطريقة ما، تظل النساء خارج نموذج الصور المعكوسة للانهاية ذاك. وبطريقة ما، ربما يمكننا أن نقفز أحراراً من نمط التمرد التقليدي ذاك بصورة كاملة».

وتحدق بي. لقد فقدتها.

«إنك لا تعنين، لا يعقل أنك تعنين... اسمعي، إن هذه مشكلة أكبر من التمييز بين الجنسين. لا يمكن أن تكوني ساذجة في هذا. أعني... إنك بالتأكيد لا تدرجين صراعات التحرر الوطني ضمن ذلك النمط!» تقول هذا بشكل يعبر عن الشك.

وأبدأ بالتلعثم. لم أكن أعتقد أنني أقول أي شيء شنيع بشكل خاص.

وأتمتم «حسن، آه، نعم، إنني أدرجها، ولا أعتقد أنه من السذاجة بالضرورة الظن بأن تكون الدعوة لتحرير المرأة قادرة بشكل استثنائي

على مواجهة المشكلة. إنني أشعر فعلاً أنها مشكلة... آه، الرجال. أعني، إنني أعتقد **حقاً** أن حركات التحرر الوطنية ـ مهما تكن عادلة، ومهما يكن عدد النساء المستغرقات فيها ـ كانت بالتأكيد بقيادة الذكور ولغايات ذكورية وبتكتيكات ذكورية وتحديدات ذكورية للسلطة. وعلى سبيل المصادفة، لقد خدعوا النساء جميعهن بعد "التحرير". وهذا ليس جديداً بالتأكيد. وهكذا فإن حركات التحرر الوطنية تحمل بذور شهوة الدم الخاصة بهم، فسادهم... »

وتقاطعني مروعة. «لا **يمكن** أن تعنيهم **جميعاً**. ربما بعض ثورات أمريكا اللاتينية أو إفريقيا، التي تتوطد لأنها مجرد انقلابات عسكرية».

وأشعر بأننا على أرض خطرة، لكنني لا أفهم السبب بعد. وأغمغم، وأنا أبتلع بصعوبة، «نعم، **جميعهم**».

فتقول، وصوتها يعلو: «هذا جنون! ذلك رجعي!» ثم تصيح، «لا يمكن أن تشمليهم كلهم هكذا! **إن الإيرلنديين مختلفون!**» "

* * *

إن أحداً ما مختلف دائماً. في هذه الظروف، في هذا الوقت. والأشخاص الذين يكونون مختلفين دائماً هم نفسهم دائماً. وهم أشخاص ذكور. والأشخاص الآخرون، المشغولون بمحاولة إثبات أنهم ليسوا مختلفين، وأنهم مماثلون فعلاً (أي مماثلون للرجال، أي بشر)، يجب أن يدافعوا عن الذكور. ويجب أن يفعلوا ذلك لأن إدراك الآخرين لهم وإدراكهم لأنفسهم وسلوكهم الموضوعي ـ مختلف. إنهم الإناث.

ولكن لا قدر الله أن نكون ساذجات فيما يتعلق بهذا.

وتصحيحاً لغبائنا الثقافي، إذاً، لنجلد أنفسنا عبر بعض التفكير الثوري الأبوي. وهذه الممارسة هي تحد دائماً، لأن مثل هذا التفكير حاول قتلنا طوال قرون ـ سواء بالقتل السافر أو بإضجارنا حتى الموت.

إنها حركة قدمين خيالية، رقصة موت مألوفة، التي تحاول تبرير أفعال الثورة (الدولة المنتظرة) كشكل مختلف عن الدولة الموجودة. والجنرالات، والسياسيون، و«الخبراء» الذين ورد ذكرهم في الفصل الأول قد استخدموا التبريرات نفسها ـ الضرورة، الحاجة لمقابلة القوة بالقوة ـ وفي حالتهم، لمصلحة الدولة. وبشكل مشابه، عرض سيرجيو بانونزيو، أحد الأيديولوجيين الرئيسيين للفاشية كفلسفة سياسية، «تمييزاً» واضحاً بين «القوة» و«العنف»:

*إن **القوة** المعيارية أو المادية أو القسرية تُظهر نفسها عن طريق وسائل تمَّ إقرارها (شرعية) اجتماعياً: وسائل الاتصال، المدارس، مبادئ السلوك المحكومة بالقانون، مقاييس الدخول في المهن، النظام القانوني، القوات المسلحة للأمن العام، ومؤسسات الاحتجاز والعقاب، وغيرها. ويمسك القانون **الوضعي** بكل هذه معاً... **والعنف**، بدوره، هو النظير التام للقوة ما عدا أن نشاطاته لا تمتلك إقراراً اجتماعياً معترفاً به ولا تمثل تصرفاته **قانوناً** وضعياً بل **احتمالياً**... وتمثل القوة مصالح النظام الاجتماعي الحالي، بينما العنف هو الحافة القاطعة لنظام بديل. (التأكيد لي).*

ماذا يمكن أن يفعل أحدهما دون الآخر باعتباره سببه الأساسي في الوجود؟ أحياناً يُعترف بهذا صراحةً. وقد أعلن العضو السابق في جماعة بادرماينهوف/الجيش الأحمر هانز جواشيم كلاين، في مقابلة عام ١٩٧٨ مع صحيفة Libération الفرنسية أن الجيش الأحمر اعتبر

«أنها مسألة شحذ لتناقضات النظام من أجل تأكيد الفاشية المستترة. وكي تتحرك الجماهير، يجب أن تصبح الحالة أكثر جدية». وكان هذا أيضاً هو تفكير الحزب الشيوعي في ألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية. فقد أصبحت التناقضات مشحوذة بشكل حاسم - وتحطم الشيوعيون. (هل يثير الاهتمام بشكل جانبي فقط أن يكون الإرهاب ضد الدولة كما يبدو قد ظهر بعنف أكثر في تلك الدول حيث، قبل جيل، كان إرهاب الدولة الحاد والفلسفة الفاشية الفعلية هما القاعدة، كما في إيطاليا وألمانيا الغربية واليابان؟)*

إن مفهوم الاستقطاب - الذي اعتنقه بعضنا في الستينيات والسبعينيات - يمكن أن يخدم كتبرير أخلاقي لتلك اللحظات (النادرة) عندما يؤدي شعب الدولة المنتظرة الأقل قوة في الحقيقة أفعالاً تقترب من همجية الدولة الموجودة، أو يحاول حتى (بشكل أكثر ندرة) اللجوء بصورة أفضل إلى همجية الدولة. ويتطلب ذلك منطقاً قابلاً للتعديل: فالأعمال العنيفة ضد الدولة سوف تلهم وتحشد وتعبئ عامة الناس (وهم العمال والطبقة العاملة، الخ. والذين يُنظر إليهم آلياً على أنهم الرجال). وإذا لم ينهض عامة الناس في الحقيقة، فإن الدولة **ستفعل ذلك**، بالكبح، وبعد ذلك سيصبح عامة الناس على الأقل «راديكاليين». وإذا لم يحدث هذا أيضاً - إذا خرج المحافظون، مثلاً، إلى جانب الشرطة - لماذا يتضح إذاً أن تنظيم «الجماهير» (التي يتم تصورها آليا على أنها

* يمكن اعتبار الدول الثلاث كلها أمثلة عن مجتمعات لويجي بونانات المغلقة: «ألمانيا الغربية مع عدم وجود حزب شيوعي وحركة للطبقة العاملة؛ واليابان مع نموذج لمنظمة العمل الرأسمالية التي تميل لأن تكون متجمعة أكثر فأكثر؛ وإيطالية مع طبقة حاكمة صلبة جداً [والتي]... تمتص أي إبداع». (لويجي بونانات، «بعض النتائج غير المتوقعة للرعب»، صحيفة أبحاث السلام، المجلد ١٦، العدد ٣ [1979]، الصفحتان ٢٠٥ - ٢٠٦).

جماهير الرجال) يكون في تلك اللحظة مستحيلاً تاريخياً، مما يعتبر أكثر تبريراً لليأس، ولارتكاب أفعال العنف. أو، كما كتب هيغل، «مت، وكن ما أنت عليه». إنه تفكير دائري. فكلمة «ثورة» **تعني** ذلك: دوران العجلة، الانقلاب رأساً على عقب. **لكن العجلة التي تدور هي العجلة نفسها**.

وماذا عن ذلك «اليأس» الذي يظهر على السطح عندما يفشل الاستقطاب من أجل التعبئة والتحول إلى الراديكالية؟ هل هو يأس حقاً؟ لا أعتقد ذلك. فنحن نعرف أن الدولة تدافع عن إرهابها بحسب ما هو ضروري للأمن القومي أو النظام الداخلي - وأن هذه الأعذار هي تغطيات للاحتفاظ بالقوة. وهكذا فقط، تبرر الثورة إرهابها على أنه ضرورة للتعبئة، أو إن لم يكن ذلك، فهو التحول إلى الراديكالية، أو إن لم يكن ذلك، فهو مولد لليأس. لكن هذا «اليأس» لا يتكون من الألم أو حتى من نفاد الصبر. ولو كان كذلك، فسيحمل طاقة عاطفية تجعل مفهوم التكتيكات **الإبداعية** أمراً إلزامياً بدلاً من العاطفة التي تستقر للدوران حول العجلة من جديد. وكما لم يكن العنف أبداً متعلقاً حقاً بمسألة «الأمن»، أو «النظام»، أو «التعبئة»، أو «التحول إلى الراديكالية»، فهو لا يتعلق أيضاً بمسألة «اليأس». وقد سمى ألبير كامو ما يتعلق به **حقاً** دون إدراك المعنى الكامل لدلالته: «إن الاستياء هو... تسمم ذاتي - الإفراز الشرير، في وعاء مختوم، **بالعجز الطويل الأمد**» (التأكيد لي). ومع إدراكه الجيد بأن الثورات تساعد في دعم الدولة أو تجديدها، فقد كتب أيضاً، «إن النمو الغريب والمفزع للدولة الحديثة... قد ولّد مع ذلك الروح الثورية لعصرنا. والحلم النبوي لماركس

و... تنبؤات هيغل أو نيتشه قد انتهت باستحضار... دولة عقلانية أو لاعقلانية، والتي في كلتا الحالتين، على أي حال، قد تأسست على الرعب». مقبول، بتحفظ.

ولكسر هذا النمط، سيكون على «الثوري» أن يرفض **الدوران** فيه. ولكن عليه بعد ذلك أن يجرؤ على التخلي عن فكرته الأكثر أساسية حول ما هي القوة، وتصوره حول ما هي الإنسانية. وما دام الابن يحتفظ بفكرة الأب عن القوة (ويعتبر نفسه إنساناً بذلك التعريف نفسه)، فإن المتمرد سوف يستقر طويلاً في سلطة صاحب المنصب. وقد اعترف كل من ماركس وإنغلس بأن عمل النساء - في إنتاج قوة العمل نفسها (إعادة الإنتاج) وفي المحافظة عليها (إدارة المنزل والأمومة) - كان دعامة كل نشاط اقتصادي. ومع ملاحظة ذلك، فقد استمرا في تجاهله وتركيز كل الأمل على ما عرّفاه بشكل ضيق باسم «قوة العمل» - الذين ينظر إليهم على أنهم الرجال. ولو أنهم فعلوا غير ذلك، لانتهوا إلى رؤيا مختلفة جداً عن الطبقة العاملة. وقد استمر المفكرون الثوريون الذكور مراراً وتكراراً في تجاهلهم لهذه الفكرة، مثلما تجاهلوا الأغلبية النسوية في الإنسانية - حاجاتها، ألمها، وحلولها المسكتة.

وهؤلاء المفكرين، كما تدركون، يشكلون أفضل المنظرين السياسيين العاقلين في قرننا. وكان باولو فرير أحدهم. وفي **علم أصول المضطهدين**، يصطدم بالفكرة، ثم ينحرف برشاقة حولها. ومع شجبه «للكراهية التي تكمن في قلب عنف الظالمين» فإنه يطالب الثوري بأن يخلق نفسه (كذا) بشكل مختلف:

ولكن دائماً تقريباً، خلال المرحلة الأولية للكفاح، يميل المضطهَدون... ليصبحوا طغاة، أو «طغاة فرعيين». والتركيب ذاته لتفكيرهم قد تكيف بتناقضات الوضع

الوجودي المادي الذي تشكلوا عليه. ومثلهم الأعلى أن يكونوا رجالاً، ولكن بالنسبة لهم، أن يكونوا رجالاً يعني أن يكونوا طغاة. وهذا هو مثالهم عن الإنسانية،... مثالهم عن «الرجولة»... وما دام [المضطهَد] يعيش في الازدواجية التي تتضمن أن تكون يعني ***أن تكون مماثلاً****، وأن تكون مماثلاً يعني* ***مماثلاً للطغاة****، وهذه المساهمة [التحويلية] مستحيلة... وبشكل وظيفي، فإن الظلم يدجن... وهناك طريقة واحدة فقط أمام الزعماء [الثوريين] لتحقيق الأصالة: عليهم أن «يموتوا» كي يولدوا من جديد من خلال المضطهَد ومعه... والطائفية، التي يغذيها التعصب، تضعف دائماً.*

وحل فرير هو أن على الرجال (وهو يعني **الرجال** فعلاً) أن يخوضوا «مشاركة حوارية» مع بعضهم بعضاً، ويغامروا «بفعل الحب» الواحد للآخر، وهكذا يخلقون نموذجاً جديداً. وهو لا يلاحظ أبداً وجود نموذج **أن تكون بدون أن تكون مماثلاً** فعلاً أمام أنفه: النساء اللواتي كان ظلمهن أكثر «تدجيناً» و«إضعافاً»؛ النساء اللواتي كن في «مشاركة حوارية» ليس فقط مع بعضهن البعض ولكن مع أقرانهن الذكور طوال قرون؛ النساء اللواتي خاطرن، وخاطرن، وخاطرن من جديد «بفعل الحب».

وعلينا عاجلاً أم آجلاً أن نتعامل مع فرانز فانون. وهذا صعب عليّ، أصعب مما توقعت. وقد قرأت فانون أولاً بالفرنسية، في أوائل الستينيات ـ وأعماله المشبوبة العاطفة، وبخاصة Les damnés de la terre (المعذبون في الأرض)، تميز بعمق ظهور وعيي السياسي كامرأة في أوائل عشريناتها. وخلال تلك السنوات، وحتى في سنوات تأسيس موجة الدعوة لتحرير المرأة هذه، كان فانون صوتي الثوري الأكثر إعزازاً. وبعد وقت طويل من اكتشافي لكلمات إليزابيث كادي ستانتون ومرغريت فولر، وتحرري من ألبرت ميمي وتشي وهو وماو وكل الفتية

الآخرين، لا أزال أستشهد بفانون. وقد وضعت عنواناً لإحدى مقالاتي الأولى عن تحرير المرأة «المعذبون في الأرض» وكان فانون هو الذي أقرأ نفسي والنساء الأخريات **فيه** ـ خفة اليد تلك التي اعتدنا عليها ـ إقحام المرء لوجوده بين سطور النص الذي يستخدمه (والذي يعني فعلاً) ضمير المذكر خلاله. لقد استغرقني الأمر عقدين كي أتخلص من فانون.

ولذلك فأنا أدرك الآن فقط أنني برغم قراءتي لجميع أعمال فانون، فقد ركزت على أجزاء أعماله التي جذبت الآخرين من جيلي اليساري الجديد. ومقالة واحدة بشكل خاص، «حول العنف»، في **المعذبون في الأرض**، هي أفضل ما اشتُهر به فانون فعلاً. ويستطيع غالبية القراء (كما فعلنا) ملاحظة حقيقة أن توضيحه للعنف كفعل مطهر لا يلخص موقفه الكلي حول العنف. رغم كونه طبيباً نفسانياً، ولد في المارتينيك، وترأس القسم النفسي لمستشفى بليدا في الجزائر عام ١٩٥٢، مع تزايد حدة كفاح الاستقلال الجزائري ضد فرنسا. وما رآه وذكره كان «الاضطراب الذهني» الناتج لدى الذين اضطهدهم الاستعمار. ولكن من هم الذين عرّفهم بأنهم «المضطهدون»؟ قرب **نهاية المعذبون في الأرض**، هنالك مقطع يدعى «الحرب الاستعمارية والاضطرابات الذهنية». ويستشهد فانون بمثل هذه الحالات على أنها «عجز لدى جزائري تلا اغتصاب زوجته ـ التي كانت قد "خانته" هكذا»، «اضطراب عقلي مميز من النموذج الاكتئابي بعد مقتل امرأة ـ وهي في حالة جنون موقت»، «مفتش شرطة أوروبي عذب زوجته وأولاده بعد قيامه بالتعذيب رسمياً»، «هذيان اتهامي وسلوك انتحاري متنكران بشكل "نشاط إرهابي" لدى جزائري شاب» (الذي ظل ينشد، «أنا لست جباناً، أنا لست امرأة، أنا لست خائناً»).

والنساء «الجبانات» اللواتي تعرضن للاغتصاب والتعذيب لم يُثرن اهتمام فانون. لقد تعامل مع الرجال، وعزا أفعالهم للاستعمار. ويدرج أربع عشرة حالة من العينات المصنفة بشكل متعدد تحت أربعة عناوين مختلفة واثنتين وعشرين فئة ثانوية، لكنه يذكر النساء كمريضات ثلاثة مرات فقط. وإحداها هي حالة «الوضع العصابي لفرنسية شابة قُتل أبوها، الموظف العالي المرتبة، في كمين». (يتكون «اضطرابها العصبي» من «ابتهاج غير ملائم لموت أبيها»، وتعاطف في غير مكانه مع معاصريها الجزائريين). وتتضمن الإشارة الثانية «اضطرابات ذهنية نفاسية - وهي اختلالات عقلية تحدث لدى النساء عند الولادة». ويكتب فانون، إن النساء الجزائريات، وبخاصة اللاجئات، يعانين من «الاهتياج،... والاكتئاب العميق، وجمود النشاط،... ومحاولات الانتحار؛... و[يعبرن] بالدموع والعويل، والمناشدة من أجل الرحمة؛ [ويختبرن] أوهام الاضطهاد... [و] انطباع الموت الوشيك، حيث يمكن للأمهات أن يناشدن جلادين خفيين كي يُبقوا على طفلهن» (بعد وصف سريري من جملة واحدة حول كيفية حدوث هذا الاختلال العقلي لدى **جميع** النساء الوالدات حديثاً، يعزو فانون ظهوره في حالاته إلى الاستعمار). وتأتي الإشارة الثالثة للنساء كمريضات في مقطع «الاضطرابات النفسية الجسمية». وأقتبس النص بكامله: «مشكلة الحيض لدى النساء. هذا المرض معروف جيداً، ولن نبدد وقتاً كثيراً عليه. والنساء المصابات إما يبقين ثلاثة شهور أو أربعة بدون حيض، أو يرافقه ألم كبير، مما يسبب مضاعفات على الشخصية والسلوك». ومع أن هذا «المرض» «نفسي جسمي» و«معروف جيداً»، فإنه يعزوه، في

حالاته، إلى الاستعمار. وعلى أي حال، ليس من الضروري أن نبدد وقتاً كثيراً عليه.

ماذا يتطلب من الإنسانية أن تفعل، وهي تنتصب أمام عينيه ـ مغتصبة، معذبة، متهمة بجبن التعاطف، والمناشدة من أجل الرحمة، متخيلة ألمها، وهي تلوح بصورة مسعورة بأوشحتها وعليها أسماء الأطفال المختفين، تضرب بقدورها، وتبكي، وتنوح، وتلتمس ـ **ماذا يتطلب من الإنسانية أن تفعل كي تصبح مرئية**؟

وتشخيصات فانون وتحليله **وإدراكه** كانت محددة كلياً بجنسه. وبصورة ساخرة، بوصفته العلاجية، وهي موجهة بالتأكيد إلى الرجال، وتتلمس طريقها نحو طريق مختلف. وبرؤيته أن «ما هو جنون لدولة الأب هو تعقل للمستعمرة» اعترف بأن عالم المستعمر هو (بكلماته) «**عالم مانوي**». وقد خشي مما تنبأ به: لقد كانت «مخاطر الوعي الوطني» متعددة ومميتة، ويمكن للفساد المحلي، والحرب العشائرية، والاستعمار الاقتصادي الجديد أن تعقب الاستقلال ـ ما لم توجد بعض الوسائل بدلاً من العنف لإحداث الحرية. ومع استمراره عبثاً في مخاطبة جمهوره المحدد (**زملائه** الجزائريين) ومع استمراره بعرض الأمل بالعلاج الخاطئ (الرجولة ثانيةً)، راح يناشد، «تعالوا، أيها الإخوة،... إن الإنسانية تنتظر شيئاً ما منا بدلاً من مثل هذا التقليد، الذي سيكون سخرية بذيئة تقريباً... علينا إيجاد مفاهيم جديدة، ومحاولة إنهاض رجل جديد على قدميه».

واستمرت الإنسانية في الانتظار.

وستنتظر الإنسانية وقتاً أطول حتى، إذا كان الأمر يتعلق بمفكر ذكر كبير آخر (غير ساذج)، الرجل الذي نال فانون عبر تفسيره المصفى

تأثيره الأكبر على الغرب. وفي مقدمة كتاب **المعذبون في الأرض** الشهيرة، لفت جان بول سارتر انتباهه وانتباهنا بشكل كامل إلى مسألة العنف كفعل مطهر، وأكثر، كفعل منتج للرجولة:

لا تخطئ في ذلك؛ بهذا الغضب المجنون، بهذه المرارة والحقد، بالرغبة المستمرة [لدى المستعمَر] لقتل [الأوروبيين]، بالتوتر الدائم للعضلات القوية التي تخشى الاسترخاء، لقد أصبحوا رجالاً؛... هذا العنف غير القابل للكبح ليس صوتاً ولا غضباً، ولا إحياء للغرائز الوحشية، ولا حتى بتأثير الاستياء: إنه رجل يمتع نفسه... ما من لطف يمكن أن يمحو علامات العنف؛ والعنف نفسه فقط يمكن أن يحطمها.

إنني أكره أن أكون ساذجة، ولكن ماذا يفعل سارتر هنا بدلاً من التأمل؟ إذا استطاع الرجل بعنف فقط أن يمتّع نفسه كي ينجو من العنف وإذا لم يكن ثمة لطف يمكن أن يمحو العنف وإذا كان العنف نفسه هو العلاج الوحيد للعنف إذاً متى وكيف ولماذا وأين يتوقع أن تنتهي الحلقة؟ و**هل** يتوقعها أن تنتهي؟ وهل يأمل **ألا** تنتهي، حتى يستمر الرجل بشكل أبدي في إمتاع نفسه؟ هذا هراء محض. وهذا أيضاً هو الفيلسوف السياسي الرئيسي في عصرنا. إنني لا أفهم لماذا لم تقم سيمون دي بوفوار، عند قراءة تلك الأسطر في المخطوطة، بنقر سارتر بحدة على رأسه بإحدى نقانقه (القاسية) المحبوبة، لإنقاذه من الإحراج العام. (ربما حاولت ـ وأهمل هو نصيحتها، كما كان يفعل غالباً). وكان عليها القول مؤخراً إن فانون قد أورد كلمات قاسية عن سارتر، الذي لامه لأنه كفّر بشكل غير كافٍ عن خطيئة كونه فرنسياً. مسكين فانون. فبين مضطهديه البيض الذكور وأصدقائه البيض الذكور، لم تكن لديه

فرصة أبداً. ولم يدرك أبداً جمهوره الأصيل، وهم المعذبون فعلاً في الأرض.

ومع اختلاف أحدهما عن الآخر، كان فانون وسارتر شريكين في أخوة، وهي تلك الممتدة عبر الدولة الموجودة والدولة المنتظرة. وهما شريكان، أيضاً، في فضيلة العمى الرجولية التي سمحت لهما بأن يرى كل منهما الآخر ويخاطبه فقط. وهما شريكان في فهم مقدار احتمال إساءة فهم أحدهما للآخر.

ومن جديد أيضاً، تبدل القوة يديها لكنها لا تعدل تعريفها. ومن جديد أيضاً، يتم عمل هذا **من أجل، باسم، بالنيابة عن، من قبل، على**، «الشعب»، «الجماهير»، «الطبقة العاملة»، «العمال»، «الفلاحين»، «عامة الناس» - لا يُفهم أن أحدهم أنثى. **إن القوة المرئية المتبادلة بين الخصوم المرئيين من أجل إنسانية خفية غير مدركة أو غير معترف بها سوف تخلد الحلقة دائماً**. ويتساءلون لماذا لم «تنجح» ثوراتهم.

يفترض العالم السياسي هاري ر. تارغ، أحد مئات الأذكياء غير الساذجين الذين يكتبون اليوم، أن الإرهاب يحدث أكثر في المجتمعات ما قبل الصناعية والمجتمعات ما بعد الصناعية أكثر مما في المجتمعات الصناعية، في تلك «الأكثر احتمالاً في أن تتعدد قوة عملها في الزراعة... [أو] أن يتعدد عمالها في وظائف الخدمة». ولا يلاحظ تارغ أن أغلب العمال الزراعيين في العالم هم من الإناث. فالنساء يشكلن أكثر من ٨٠٪ من جميع المزارعين على القارة الإفريقية وحدها. ومن هم العمال في «وظائف الخدمة» - فئة قوة العمل الرسمية، ولا يدخل في الحسبان حتى صناعة الخدمات الضخمة تلك التي تدعى «البيت» - إذا

لم يكن النساء؟ هل من المحتمل إذاً أن «المشاركة السياسية المستندة إلى الجماهير» التي يعتبرها تارغ ضرورة لإعاقة الإرهاب (والتي يعتبر أنها محتملة في المجتمعات الصناعية فقط)، هي في الحقيقة، مشاركة سياسية ذكورية مستندة إلى الجماهير؟ هل من المحتمل أن الرجال في سياق زراعي وفي سياق ما بعد الصناعي يمكن أن يتصرفوا بأسلوب إرهابي لأنهم يعملون حتى أقل من المعتاد ويملكون بذلك **وقتاً** أكثر، بالإضافة إلى التكنولوجيا، من أجل العنف؟

ومن جديد أيضاً، إن إلغاء النساء يخترق النظرية والممارسة فيما يدعى بالتغيير السياسي - تاركاً بذلك التركيب السياسي سليماً بشكل متأصل. وقد رأينا ذلك في كل ثورة (ربما يُطلق عليه بشكل أدق تعبير «دوران») حتى الآن. ونحن لا نزال نراه في نضال العالم الثالث من أجل التحرر - الذي تكمله «تنهدات» المرأة الرمز التي يمكن توقعها، ومع غالبية النساء الأخريات وهن يحاولن بشكل يائس إيجاد استراتيجيات بديلة عن العنف. ويصر على النقص المستمر في الاهتمام (أو في الاهتمام المقتصر على التملق) تجاه «قضايا النساء» كما عرفها كل من القادة أصحاب المناصب والمتمردين.

وتقدم ثلاثة أمثلة قصيرة من التاريخ الحديث دليلاً على النموذج.

بدأت حركة الحقوق المدنية في الولايات المتحدة على شكل شبكة ذات توجه نسوي وتنظيم نسوي، تستند إلى الكنائس السوداء في الجنوب الأمريكي. وقد ترسخ ذلك الانتماء البعيد المدى لمجموعات النساء، واجتماعات الشماسات، ونوادي السيدات بدوره خلال ثلاثة قرون من النشاط النسوي الأفرو أمريكي. وكان يشكل بصورة مدهشة

مقاومة شجاعة ونظام حماية لأسرهم، حتى في ظل الحرمان الخانق للعبيد. وقد أوجد، بين تكتيكات المقاومة الأخرى، الخط الحديدي تحت الأرض. إنهن الجدات حقاً. وقد كتبت ميشيل والاس، في التبجح الأسود وأسطورة المرأة المتفوقة:

لقد كان يوجد من العبودية إلى حركة الحقوق المدنية صف رقيق لكنه مستمر من النساء السوداوات اللواتي قمن بحث أخواتهن من أجل التحسين الذاتي... ويوماً بيوم، كانت تلك النساء، مثل أكثر النساء، يكرسن طاقاتهن لأزواجهن وأولادهن. وعندما يتوفر لديهن الوقت، كن يقمن بالإصلاح في التربية والطب والإسكان، وفي مجموعاتهن عبر منظماتهن وكنائسهن.

ويقال عادة إن حركة الحقوق المدنية قد ولدت عام ١٩٥٥ يوم رفضت روزا باركس، من مونتغمري، آلاباما، التحرك من مقعدها في مقدمة الحافلة ـ لأنها كانت متعبة. وفي الوقت نفسه، كانت فاني لو هامر الدينامو السياسي لحقوق المساواة في الميسيسيبي، وكانت آلاف النساء السوداوات الأخريات يقمن بالتنظيم نفسه والحث والعمل على امتداد البلاد. ومع ظهور «الحركة» ، على أي حال، كان ذلك بقيادة الذكور، مع أن تكتيكاتها السلمية قد تأثرت طوال سنوات بالنساء اللواتي أنشأنها ـ وقد وضّح تلك التكتيكات الواعظون الرجال الذين منحتهم أولئك النساء هيبتهم. وبظهور القوة السوداء جاءت «الرجولة» (التي رحب بها نورمال ميلر كثيراً). وعودة إلى والاس: «لقد تركتني العناوين الرئيسية المتعلقة بالمسلمين السود عام ١٩٦٤ بانطباع أن هانيبال المنبعث من جديد كان يزحف على نيويورك بجيش من شعب

الواتوسي الذي يبلغ طول أفراده سبعة أقدام ليأكل جميع البيض أحياء. وكانت الصحافة ـ الرجال البيض بصفتهم كائنات جنسية يتفاعلون مع الرجال السود بصفتهم كائنات جنسية ـ قد اكتُسحت بوضوح في تلك "الهستيريا الجديدة" التي وصفها ميلر». وقد شخّص دانيل باتريك موينيهان «النظام الأمومي الأسود» بأنه دمّر العائلة السوداء. وصرح ستوكلي كارمايكل بأن «الوضع الوحيد للنساء في لجنة التنسيق السلمية للطلاب مهيأ». وأعلن إلدردج كليفر، «سوف نحصل على رجولتنا وإلا فإن الأرض سوف تُسوّى بمحاولاتنا للفوز بها». وبعد اغتيال مالكولم إكس، جرى تأبينه لأنه كان «رجولتنا، رجولتنا السوداء الحية». لقد بدأ السقوط نحو العنف. وكان سينتهي في تبادل لإطلاق النار بين الشرطة والنمور السوداء، والشرطة وجيش التحرير التكافلي، والشرطة وجيش التحرير الأسود. ومنذ ذلك الحين، كانت النساء السوداوات يقمن بجمع الشمل. وفي عام ١٩٧٩، تعرضت ميشيل والاس للهجوم من قبل المثقفين الذكور السود (والبيض) بسبب كتابها «المبغض للرجال» الذي ذكر الحقيقة المجردة حول حياة النساء السود. وبعد عقد تقريباً من ذلك، كان على أليس ووكر أن تتحمل نفس الهجمات (من نفس المناطق) لأنها ذكرت قسماً آخر من الحقيقة نفسها في روايتها **اللون الأرجواني**.

لاحظوا النموذج. لقد بدأت حركة حماية البيئة في الحقيقة على يد إيلين سوالو، التي أسست النظام العلمي لعلم البيئة وكانت أول امرأة تُقبل في معهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا. وبشكل أكثر شعبية، يُعتقد أنها بدأت على يد راتشيل كارسون، مع كتابها المبدع **الربيع الصامت**.

في الوقت الذي كان فيه علم البيئة قضية «رقيقة»؛ وكان الرجال أكثر اهتماماً بالتنظيم لإنقاذ أرواحهم ـ وهم يحرقون بطاقات الخدمة العسكرية ويعارضون الحرب في فييتنام (والقيام بذلك أخيراً بأسلوب حربي مذهل، بالنسبة للمسالمين). ولكن في العقد الماضي، أصبح العمل في القضايا البيئية رجولياً. وفي الفترة الفاصلة ـ بينما قامت النساء باحتلال المسيرات والاعتصام وتزويد المكاتب الصغيرة ـ أصبحت تكتيكات الرجال قتالية بصورة متزايدة. ومع حلول عام ١٩٨٥، دخل «الإرهاب البيئي». وفي بادئ الأمر اتخذت الأفعال بشكل رئيسي طابع التخريب ضد الممتلكات، مثل تفجير خطوط الطاقة المؤدية إلى مفاعل كروميل النووي على نهر الإلب في ألمانيا الغربية. لكن تحالفاً جلياً مع ما تبقى من مجموعة الجيش الأحمر في ألمانيا الغربية سرعان ما تبع ذلك. ثم جاءت كوكتيلات مولوتوف، وعدم الاكتراث بتعريض الحياة الإنسانية للخطر. وتسبب هجوم مقاتلين معادين للحرب النووية على مكتب خدمة الزبائن في تسهيلات الطاقة النووية في هامبورغ بسد باب يؤدي إلى اثنتي عشرة شقة خاصة فوق المكتب؛ وقد هربوا عندما انطلق إنذار، لكنهم خلفوا قنبلتين محرقتين وراءهم. وتم تعطيل القنبلتين في الوقت المناسب؛ ونجا الأشخاص الموجودون في الطابق العلوي من الموت بشق النفس.

لاحظوا النموذج. لقد كانت حركة حقوق الخدمة الاجتماعية في الولايات المتحدة بوضوح منذ البداية حركة تتعلق بالنساء، وبواسطتهن، ومنهن، ولأجلهن. ومع ذلك فإن القائدات الأساسيات ـ وهن نساء كن أنفسهن أو سبق أن كن زبونات للخدمة الاجتماعية ـ قد استبدل بهن

رجال اعتبروهن عدوانيات بشكل غير كاف. وكانت النساء قادرات بما فيه الكفاية على تصعيد القضية، و«الإحساس بعمق» فيها، وأن يكن «ضحايا» لها ـ لكن **العمل** كان يجب أن يكون بتصميم ذكوري وقيادة ذكورية. وكانت تيريزا فونيتشيلو، إحدى أوائل المنظمات، قد تعرضت للنقد لأنها، على الرغم من قدرة تحليلاتها النظرية وخطاباتها العاطفية الرائعة على تحريك الناس إلى الفعل، فقد رفضت حث النساء والأطفال نحو أوضاع تكتيكية حيث يمكن أن يصابوا بأذى. وحتى هذا اليوم، تقول، «إنني لم أكن لأفعل بأطفال الناس الآخرين ما لم أكن لأفعله بأطفالي». وقد بلغت منظمة حقوق الخدمة الاجتماعية الوطنية ذروتها القتالية ـ ثم تحطمت. وبعد ذلك بسنوات، لا تزال فونيتشيلو ونساء أخريات مثلها يجمعن الشمل، ولا يزلن يقمن بالتنظيم، ولا يزلن يعملن في قضية لم تعد تُعتبر ذات سحر. وقد انتقل القادة الذكور إلى الوظائف السهلة في بيروقراطية العمل الاجتماعي.

تلك ثلاثة أمثلة فقط. ويمكن للمرء أن ينظر في أي اتجاه حيث تضرب «الثورة» على صدرها وتصرخ، ويرى العملية نفسها. وإذا أخذنا بعين الاعتبار بعض الاختلافات البسيطة، فإنني أصور تلك العملية في عشر خطوات.

١ ـ تلاحظ النساء مشكلة، ويقارنّ الملاحظات المتعلقة بها، ويحددنها، ويقررن عمل شيء ما بخصوصها.

٢ ـ تتحرك النساء من المقاومة اليومية التي تشكل حياتهن (إخفاء الأطفال عن أعين سادة العبيد أو الجيوش، إخفاء الطعام من أجل أسرهن في المجاعة، كتابة رسائل الاحتجاج، الخ.) إلى ارتباط ضعيف بالعمل

مع نساء أخريات (مجموعات الأهل، الانضمام إلى الكنيسة، جمعيات «الأعمال الخيرية»، لجان عمل للجوار، نقابات نساء السوق، الخ.). وهذا كله طوعي. والمجموعات غير رسمية، ومنظمة بشكل سلس، وممتلئة بإحساس الأمل والنية الحسنة.

٣ ـ تقوم هذه المجموعات بالحث، والمداهنة، وترصد الأخطاء («التذمر») لدى الرجال كي يستغرقوا في الأمر: الأعمال الزراعية تسود في المزارع؛ المنعطف بحاجة إلى إشارة مرور؛ تفريغ النفايات السامة يجب ألا يصل إلى الباب المجاور؛ هذه القرية بحاجة إلى بئر. وأنا أميز هذه المرحلة على أنها «أرجوك، يا هرمان، تعال **معي** إلى الاجتماع. إنه **مفيد**. صادق، وسوف **تحبه**».

٤ ـ يستغرق الرجال أخيراً في الأمر. وتصبح القضية هامة الآن لأنها لم تعد «قضية نساء». ويتولى الرجال القيادة. وتسمح النساء بهذا لابتهاجهن بأن الرجال مهتمون وناشطون الآن تماماً، ويعرفن أن الرجال سوف يُنظر إليهم بجدية، ويعرفن أن الرجال لن يعودوا إلى الاجتماعات في المستقبل إذا لم يكونوا هم القادة.

٥ ـ ولأن وقت الرجال ثمين، فإن مواقع القيادة لا يمكن أن تكون طوعية بعد؛ ويجب أن تكون هنالك رواتب للرجال. ولذلك يجب أن تُجمع الأموال. وتقوم النساء بجمع الأموال عن طريق المزيد من التطوع (صنع السلال وبيعها، بيع المعجنات، الخ.).

٦ ـ يعتبر الرجال أن النساء على تماس مع القضية لأن القضية سياسية الآن. (من حشو الكلام، إذا كانت قضية نساء، فهي ليست هامة؛ وإذا كانت قضية هامة، فهي لا تهم النساء). وبسبب تعريف

الرجال الأناني القصير النظر لقضايا النساء، فإنهم يستبعدون النساء كدائرة انتخابية سياسية. ويقول الرجال ذلك قبل هذا الوقت، إن المجموعة كانت «استمنائية ـ يتحدثون فقط مع المقتنعين مسبقاً». والآن، على أي حال، سوف يبني الرجال حركة **حقيقية**، أي أن الرجال سيواجهون رجالاً آخرين.

٧ ـ يحدث تغير حاسم في الأسلوب ـ انزلاق من النزاهة الأخلاقية والروحية (المعتبرة الآن **أنثوية** مثالية عاطفية) نحو الاستقامة الذاتية. وإذا كانت الفعالية السابقة متوجهة إلى الكنيسة، مثلاً، فمن المحتمل أن التغيير سيكون من أساس روحي إلى أساس ذي تعصب ديني. ويحدث تجزيء للجانب العملي من الجانب الغيبي ـ حيث يكون الأول مفقوداً في العصمة المادية والثاني مفقوداً في العصمة الدينية المتعددة الأنواع.

٨ ـ تكون نتيجة هذا التجزيء ظهور مغالطة «الخيّر الأسمى»، مما يؤدي إلى الموقف الذي ينص على أن الغايات تبرر الوسائل. ومع انتشار التجريد، يصبح من المحتمل أن تُنسى القضايا الأصلية تماماً. ويتم تجاهل القلق الذي تعبر عنه النساء في هذه المرحلة على أنه نزوع إلى المحافظة، أو جبن، أو ليبرالية، أو شقاق. وقبول هذه الحالة يفرق البنات (الرموز) عن النساء.

٩ ـ يقوم مزيج من الدائرة الانتخابية المحددة، والصلاح الذاتي، ومفهوم الخير المجرد الأسمى بتقديم الرجولة على أنها القضية الحقيقية. وتعتمد هوية الرجولة الآن على استخدام الكفاح. وتصبح البلاغة و«منطقة النفوذ» والأدوات والأسلحة والثياب الموحدة وثناً معبوداً لهوية

تلك الرجولة، كما في مفهوم فريزر عن السحر الذي ينقل العدوى للذهن البدائي. والنتيجة هي نهاية مسدودة: التغيير من العيش من أجل قضية - مثل القتال لتحسين نوعية الحياة - إلى **الموت** من أجل قضية مغلقة الآن في مكانها. العنف. وأولئك الذين يسألون هم خونة.

١٠ - سياسة الأمل أصبحت سياسة اليأس. والهدف الآن مجرد ومطلق أكثر من أن يكون قابلاً للتحقيق، ولا يمكن للرجولة أن ترضى بأقل من ذلك. وينطلق التهكم، مثلما تفعل استراتيجية التحريض والاستقطاب. وما كان يُسعى إليه سابقاً من أجل نصر إنساني يسعى الآن إلى هزيمة تطهيرية. الاستشهاد. والدولة تفرض ذلك.

والسياسة تحت السياسة كانت الرجولة.

وثمة طريقة واحدة لرؤية هذا السخف في وجهة النظر وهي عكس ما هو معكوس وتخيل أشخاص يتفاخرون بالقتل ويموتون في «صراعات أنثوية». والسلب الفعلي لأنوثة النساء المحددة ذاتياً يجب أن يكون واضحاً الآن، ولكن يبدو أن النساء لا يشعرن بأن الخشونة المفرطة والقتل سيكفيان لإمتاع النفس أو إحداث الهوية الأنثوية تلك. ومهما غضبنا - ومهما يمكن أن تفعل امرأة منفردة (تقليدياً) دفاعاً عن أولادها أو (مؤخراً) دفاعاً عن نفسها - **فالنساء كمجموعة لا يقمن بالتعبئة من أجل حقوقنا عبر وسائل عنيفة**. صبورات جداً؟ مترددات جداً، بعد التفكير بالكثير من المتغيرات؟ مكبوحات جداً بسبب الازدواجية؟ ثمة شيء واحد مؤكد: إن رجال الدولة الموجودة ورجال الدولة المنتظرة يتشاركون بالشكل وكذلك بالقناعة. فهو يسمح لهم بدعوة الجيوش، وربط الأقطاب الكهربائية إلى اللحم الحي، وتبرير الاختراع، والاختبار،

وتخزين الأسلحة المدمرة للعالم؛ وهو يسمح لهم أيضاً «بشل» المخبرين بالمثاقب الكهربائية، وتطهير الزملاء «الخاطئين» بالصلب الفعلي، وأخيراً اعتبار أن الأسباب السياسية لعمل هذه الأشياء ثانوية أو لا علاقة لها بأعمالهم المجردة بصفتها أعمال خلاقة. ويعاني بعضهم من نقص الازدواجية.

وفيما يلي صورة لنقص الازدواجية:

عندما مزقت قنبلة قطاراً سريعاً بين نابولي وميلانو [عام ١٩٨٥]، وقتلت خمسة عشر مسافراً وجرحت أكثر من ١٥٠، ادعى كل شخص من النظام الأسود الفاشي الجديد إلى الألوية الحمراء اليسارية إلى مجموعة حرب العصابات الإسلامية مسؤوليته عن العمل.

ويجب أن يكون نقص الازدواجية موضع رعاية
ويجب أن يحدث نقص الازدواجية بشكل يبدو فيه مبهجاً:

في سياق الإرهابي الأنيق فقط يصبح مسموحاً به، ومغرياً حتى، بالنسبة لمجلة Penthouse كي تقدم القول البارع «إن المضاجعة والقتل هما الشيء نفسه» إلى قرائها الثلاثة ملايين ونصف.

ويجب أن يحدث نقص الازدواجية بشكل يبدو فيه مشرّفاً:

إن احترام الذات الذي يمنحه الإرهاب هو إحساس مجدد بالذكورة. وقد لوحظت «الكياسة الفروسية» لدى خاطفي الطائرات على نحو واسع... ومحاولات الطيار

لمعالجة الوضع تصعد الخطر فقط، [وهي] تفسر من قبل الخاطف على أنها تحد. والأمر الأكثر احتمالاً هو أن تكون المضيفة فعالة... أكثر من المسافرين أو من أفراد الطاقم الذكور.*

ويجب أن يتباهى نقص الازدواجية بالغموض:

*أنا روح شريرة تتحرك ليلاً فقط... وسأشعل ناراً ضخمة في الشرق الأوسط... أنا أبو نضال**. وحتى ابنتي، بيسان، التي تبلغ الثامنة لا تعرف من أنا.*

ويظل نقص الازدواجية راسخاً حتى عندما يكون متناقضاً ذاتياً:

*أمضى ريجيس ديبراي، مؤلف **ثورة في الثورة**، وصديق تشي غيفارا السابق ورفيق الثورة الكوبية، فترة سجن في بوليفيا لمشاركته في تمرد قاده غيفارا. واليوم، مع قوله «إنني أحافظ على موقفي الثوري في أمريكة اللاتينية»، فهو يعمل لدى الحكومة الفرنسية سكرتيراً عاماً للمجلس الفرنسي جنوب المحيط الهادي. ويشرف على مآثر مثل تجارب فرنسة النووية (انظر الفصل الرابع) وسياستها في سحق الصراعات ضد الاستعمار في كاليدونية الجديدة وغيرها من المستعمرات والمناطق الفرنسية في المحيط الهادي. ولا يرى أي تناقض.*

---

* يكتب مؤلف هذا التصريح، أبراهام كابلان، في المقالة نفسها، «إذا كان [العقاب] سوف يخدم كرادع للإرهابي الذكر، فإن العمل هو الذي يجب أن يعتبره مذلاً، وجباناً بشكل خاص... وهنالك ردع أقل في... العمل الشاق مما يعتبره نوعاً من "العمل النسائي"،... المساعدة في المطبخ أو التمريض في المستشفى». («القوى النفسية المحركة للإرهاب»، الإرهاب: مجلة دولية، المجلد الأول، العددان ٣/٤ [1978] صفحة ٢٤٧.

** أبو نضال هو لقب صبري البنا، رئيس مجلس فتح الثوري، المنشق عن منظمة ياسر عرفات الرئيسية فتح، والذي يدعي مسؤولية أكثر «الأعمال القتالية الفلسطينية» إن لم يكن كلها. وتضمنت هذه (بحساب أبي نضال) ما يزيد عن مائة من هذه الأعمال في مختلف دول العالم. كما تضمنت قتل «المنافسين» أو «الخصوم» الفلسطينيين. ويوجد عرفات في قائمة ضرباته.

ونقص الازدواجية يعترف بأخوته عبر الخلافات السياسية:

كوزو أوكاموتو إرهابي أعلن عن نفسه وعضو في سيكيغونها (الجيش الأحمر الياباني). وفي مقابلة له بعد أن تمَّ إلقاء القبض عليه إثر مذبحة مطار اللد عام ١٩٧٢، عبّر عن إعجابه بطياري الكاميكازي الانتحاريين البطوليين في الحرب العالمية الثانية، وبانتحار الكاتب الياباني يوكيو ميشيما: «مع أن ميشيما والأبطال الانتحاريين اليابانيين الآخرين كانوا يؤمنون بالثورة المضادة أو الإيديولوجيات الرجعية، فإن عواطفهم كانت مشابهة لعواطف الثوريين».

ونقص الازدواجية هو الشكل الرجولي للطبقة المتفوقة والقومية في أخوة واحدة:

تعرض الإرهابي الإيطالي الفاشي الجديد ستافينو ديلي كياي (المعروف أيضاً باسم حشيشة العلق السوداء وقاذفة القنابل السوداء) للمحاكمة عام ١٩٨٧ بسبب دوره في مذبحة بولونيا. وكان قد عمل في إسبانية خلال عهد فرانكو (ضد القوميين الباسكيين)، وفي أنغولا (كمستشار لقوات يونيتا في عهد سافيمبي)، ومع الإرهابيين الكوبيين المناوئين لكاسترو، ولدى دكتاتور التشيلي الجنرال بينوتشيه، وفي سانتا كروز (بمشاركة النازي السابق كلاوس باربي)، وكان متورطاً في إطلاق النار على البابا يوحنا بولص الثاني عام ١٩٨١. وفي هذه «الشبكة الواسعة من العنف اليميني»، كان ديلي كياي محمياً بشكل مباشر وغير مباشر من قبل مايكل ليدين، المستشار في مجلس الأمن القومي الأمريكي والشريك المقرب للعقيد أوليفير نورث.

ونقص الازدواجية لا يجفل أبداً من المحاكمة:

في عام ١٩٧٢، قام الجيش الأحمر الياباني المتحد (رينغو سيكيغان) بتطهير نفسه. وحكم نصف المجموعة على النصف الآخر بالموت بتهمة «الانحرافات البرجوازية» و«غياب الحماس الثوري»؛ ومن بين الاتهامات كان حمل طفل ضمن نطاق الزوجية، و«الزنى»، وارتداء الأقراط. وعُثر على أربعة عشر عضواً في رينغو سيكيغان أمواتاً، وأغلبهم من النساء، وقد تعرضت أجسادهم للتعذيب والتشويه والطعن، والوضع على الخازوق بطريقة الصلب في الثلج، وتُركوا ليموتوا نتيجة التعرض للعوامل الجوية.

ونقص الازدواجية لا يمكن أن يتحمل التعقيد أو الشفقة. وهو السمة المميزة للقيادة - في الدولة الموجودة كما في الدولة المنتظرة. وفي الواقع، إن الدولة الموجودة **تدرب** أبناءها على هذا النقص. وأحياناً يناضل الأبناء من أجل الدولة وأحياناً يقاتلون ضدها، لكنهم يعززونها بكلتا الطريقتين.

وفيما يلي تاريخان مختصران لرجلين كانا يعانيان من نقص الازدواجية - وهما محاربان أمريكيان قديمان في حرب فيتنام (غير المعلنة):

يُدعى الرجل الأول دينيس جون مالفاسي. ولد عام ١٩٥٠، وهو الولد السابع لأمه. وقد أنجبت طفلها الأول وهي في الخامسة عشرة وحملت باثني عشر طفلاً من ثلاثة رجال مختلفين. وحتى سن الثانية عشرة، عاش دينيس في ملجأ كاثوليكي للأيتام؛ ثم عاد إلى وطنه في بروكلن، نيويورك، إلى منطقة حي فقير تقوم فيه حرب عنصرية بين البيض والسود والأمريكيين اللاتينيين. وتطوع في المارينز وهو في سن السابعة عشرة (يكذب حول عمره)، ونُقل إلى فيتنام، وقاد ٥٠٥ دوريات، و٢١٤ كميناً، وثماني عمليات اكتساح وتطهير شاملة حول

دانانغ. وتعرض لنيران ثقيلة واستمتع بها: «شعرت بأنني حي حقاً، ومطلوب حقاً. وأسوأ أشخاص عرفتهم كانوا في الجبهة وقد اقتربوا وهم يطلقون النار علي. وشعرت بنوع من التكريم». وبعد تسريحه عام ١٩٧٠، أصبح ممثلاً متجولاً في الجانب الشرقي الأدنى من مانهاتن، وتورط في جرائم الشارع، واتُّهم بالاعتداء، وحُكم عليه، ووُضع تحت الاختبار، واعتُقل ثانية، وانتهى بتمضية سنتين في السجن. وعندما أُطلق سراحه، انجرف في أعمال شاذة متعددة ـ مثل مسجل للبريد الصادر والوارد، ومساعد طبي، وتقني للألعاب النارية. وانضم إلى شركة المجموعة المسرحية لمحاربي فيتنام القدماء، لكنه استمر في نشاطات غير قانونية مشبوهة. وأصبح هارباً عام ١٩٨٥ من تهمة ست جرائم مسلحة. وقد قال، «إن شيئاً كهذا لا يزعجني. وفي الحقيقة، إنني لا أشعر بأنني بخير ما لم يكن ثمة من يبحث عني. إن هذا يجعلني أشعر بأنني حي. يجعلني أشعر بأنني مطلوب». وانضم إلى طائفة من الروم الكاثوليك مع تكريس خاص للقديس بنيديكت وكره متعصب للإجهاض. وفي أيار عام ١٩٨٧، بعد مطاردة لمدة سنتين تضمنت ثلاثمئة عميل اتحادي وشرطي سري ومناشدة عامة من الكاردينال أوكونور، رئيس أساقفة أبرشية نيويورك الكاثوليكية، سلم دينيس جون مالفاسي نفسه للمحاكمة بتهمة قصف مركز مانهاتن الطبي النسائي بالقنابل (١٠ كانون الأول ١٩٨٥)، ومركز النساء الشرقيات (٢٩ تشرين الأول ١٩٨٦)، ومكتب كوينز الطبي للنساء (١١ تشرين ثاني ١٩٨٦)، ومركز للأبوة المبرمجة (٤ كانون الأول ١٩٨٦). وكانت القنبلة في الهجوم الأخير ـ المصنوعة من خمسة عشر إصبعاً من

الديناميت وتجميع متطور لسدادة تفجير وموقّت وبطارية ـ قد تمَّ نزع فتيلها في الدقيقة الأخيرة، لكنها كانت فعالة بما يكفي لانهيار واجهة البناء كلها ونزع قوالب النوافذ. وكان مدسوساً مع الديناميت وسام القديس بنيديكت. وتحدث مالفاسي عن عمليات الإجهاض بأنها «عمليات قتل»، على طريقة جنود فيتنام، وكان ساخطاً «عندما عدت من فيتنام، أطلقوا عليّ اسم قاتل الأطفال». وتمحور دفاعه حول ما إذا كانت تجربته في زمن الحرب «قد أفسدته إلى حد الجنون». واعتُبر مذنباً وحُكم عليه بالسجن لمدة سبع سنوات، وكان حكماً مخففاً بسبب وعده للكاردينال أوكونور «بأن لا يشارك في قذف القنابل ثانية».

وكان الرجل الثاني أحد أبطال فيتنام الذي تمكن من عرض ستة صفوف من الأشرطة على صدره. وقد أُطلق عليه اسم «البحري الأخير [الذي] يريد التقدم وتلقي الحراب بصدره». وكان يشعر بالمرارة بعد فيتنام؛ وبصفته قائد فصيلة مرافق فقد تذكر أن «شعوره الواضح كان أننا نفوز لكن الصحافة صورت انتصاراتنا على أنها هزائم». وعاد إلى الوطن كي يدرّس الحرب في كوانتيكو، فرجينيا، في مركز تدريب هيئة الضباط البحريين، وبدأ «يؤدي عمله» ـ ودرب صفوفاً ترتدي ثياب العمل الخاصة بالغابات وتضع صباغ المعركة، وأصاب بصورة عرضية طالباً حين رش إحدى الغرف بطلقات خلبية من بندقية هجوم. وتمَّ نقله إلى أوكيناوا لقيادة معسكر تدريب بحري. وهناك عُرف بمدمن العمل الذي علق راية على مقره كُتب عليها «قُد أو طِع أو أبعد الجحيم عن الطريق». وبالعودة إلى الولايات المتحدة عام ١٩٧٤، كان يعاني بصورة جلية من أحد أنواع الانهيار وأمضى ثلاثة أسابيع لاستعادة صحته في

مستشفى البحرية في بيثيسدا. وتزعم أخبار بحرية غير مؤكدة أن ضابطاً زميلاً رآه يجري عارياً عبر شوارع منطقته في الضاحية، وهو يلوح بمسدس عيار ٤٥ ويصرخ «إنني سيئ، إنني سيئ». وفي عام ١٩٨١ مُنح تصريحاً أمنياً كاملاً بالانضمام إلى موظفي مجلس الأمن القومي للبيت الأبيض في الولايات المتحدة. واسم هذا المقدم هو أوليفر نورث.

ويجب تدريب نقص الازدواجية كي يتحول إلى رجل. وهل يمكن استخلاص ذلك منه؟ لعبة الحرب، الصواريخ المخترقة الصلبة، الديناميت وسدادة التفجير ـ إن هذه في بادئ الأمر هي مجرد رموز الرسالة التي عليه أن يتعلمها، وثمن النشوة الموعود به. لكنه يجب أن **يتحول** إليها قبل مكافأته بما يعده به نقص الازدواجية: السعار، الإثارة، البهجة ـ الرعشة الجنسية في السيطرة العنيفة التي، كما علموه، لا يمكن أن ينافسها أي فعل للحب. إنها «السمو» السادي المدرب في قلب الرجولة، ميراث الأب إلى الابن. وقد بالغ أحد «خبراء» الإرهاب في تبسيط ذلك كما يلي: «يمكن تتبع التمرد إلى شغف الإنسان [كذا] السري بالعنف، والذي غالباً ما ينكر الناس [كذا] وجوده ويميلون إلى كبته، لكنه يصبح جلياً في نشاطات متنوعة مثل الإعدام دون محاكمة، والملاكمة، وكرة القدم... ويمكن أن يصبح العنف ونشوة العنف كلاً لا يتجزأ». ونظراً للاستخدام الشائع الباعث على الأسى للاسم والضمير المذكرين الدالين على الجنس، فإنه من الممتع أن يستخدم المؤلف في هذه الحالة كلمتي «الإنسان» و«الناس» وهو يعني **الرجال** في الحقيقة.

إن الارتفاع الثوري ـ وهو تسمم الاعتقاد بأنك ستصعد إلى القمة

عن طريق النصر وإلا فسوف تصل إلى هزة الجماع القصوى للموت العنيف ـ هو الميثاق بين أفراد الدولة المنتظرة. وربما تختلف أساليبهم (تؤكد الألوية الحمراء الإيطالية عمليات الاختطاف، وتفضل الجيوش الحمراء اليابانية الهجمات المسلحة المباشرة، والألمان الغربيون متعددو المهارات متخصصون بقصف القنابل ذات التقنية العالية، ويركز متطرفو الجيش الجمهوري الإيرلندي على قصف القنابل ذات التقنية المنخفضة لكنهم لا يتورطون في الاختطاف ـ ربما لأن صناديق طبقتهم العاملة الأقل تمويلاً لا يمكنها تأمين تذاكر الطائرة*)، ولكن مهما اختلفت الأساليب، فإن ميثاق الابتهاج قد جرى التعبير عنه وإضفاء الطابع الرومنسي عليه في أوقات متعددة من قبلهم كلهم. وقد أصبحوا بشراً استثنائيين، تم تخليدهم في هلاكهم الوشيك. وهم يشعرون بأنهم قد تحولوا إلى أسلحة حية.

في **الرعب والمقاومة**، يصف يوجين ف. وولتر مجتمعاً أفريقياً حيث أُطلق على الرجال المعينين بصفة عملاء الرعب لدى الملك اسم «سكاكين الملك». **وهذا هو انتقال الهوية الذي جعل أعمال الرعب ممكنة (وحتمية)**. إن **الرجولة نفسها هي الوسيلة التي يجب بواسطتها على الأشخاص الذكور أن يقوموا (ويقومون فعلاً) بتحويل أنفسهم إلى أسلحة**. ومن اعتزاز البنتاغون الأمريكي بالقسوة النووية إلى هدير إلدردج كليفر حول الرجولة، ومن سقوط «الولد الصغير» في قذف للموت على هيروشيما إلى ترتيلة جان بول سارتر للعنف على أنه طريقة الرجل في إمتاع نفسه، يظل الاستحواذ متماسكاً.

---

* في هذا، على الأقل، يختلف الإيرلنديون.

تعني [النشوة] حرفياً «أن يقف المرء خارج نفسه»، أي، أن يقف خارج حدود الوعي العادي أو أن يقف متحرراً من الإعاقة ومن حدود السلوك اليومي. والإرهاب - سواء لدى النظام المعترف به أو لدى اليسار الثوري - يتميز بعنصر النشوة هذا... ثياب موحدة خاصة، أقنعة، نظارات شمسية في هايتي، أردية بيضاء وقلنسوات للكو كلاكس كلان - جميع هذه الأدوات تؤكد الفارق بين... العالم اليومي والنشاطات المكرسة لأولئك الذين... يبررون ويمجدون العنف المخيف.

كتب هذا النص وليم ف. ماي في مقالته «الإرهاب استراتيجية ونشوة». وهي مقالة متميزة حقاً، لأنه يقترب فيها كثيراً من صلب القضية ويظل مع ذلك بعيداً عنها. وهو يرى أن «المناوشة مع الموت تريح الرجال من ذلك الموت الآخر - السأم». وهو يدرك أنه عندما يتحرك الإرهاب من «العمل الانتقائي والمتميز» (اغتيال رموز السلطة) إلى الهجمات العشوائية على المدنيين، يكون الإرهابي قد بدأ يربط نفسه «مع تلك القوى [الاعتباطية] التي تقلق النفس وتسيطر على العناوين الرئيسية. ويبدو أن الإرهابي متحالف مع الكون [المتقلب] نفسه». كما يرى ماي أن مثل هذا العنف معبق برائحة الاحتفال الديني، التقليد المقدس الذي يتوصل للحصول على معنى فيه ومن أجله.

وما يفشل ماي في رؤيته هو أن الإله الذي يندمج الإرهابي معه بنشوة هو إله ذكوري، والنظام الذي يقتل بالسأم ثم يقدم العنف كبديل هو نظام ذكوري، وتعريف **المرء لنفسه كسلاح** يستطيع به أن يثقب، ويخترق، ويسبر، ويفجر هو تعريف ذكوري.

وقد كتب هـ. هـ. أ. كوبر، «إن المفتاح إلى الإرهاب النسوي يكمن خفياً بلا شك في مكان ما من الطبيعة الجنسية المعقدة للمرأة». إنهم

مشغولون جداً بتعريف النساء فقط ضمن تعبيرات النشاط الجنسي التي لا تحدث أبداً مع هؤلاء «الخبراء» كي يختبروا ما لديهم: **إن المفتاح إلى الإرهاب الذكوري يكمن خفياً بلا شك في مكان ما من الطبيعة الجنسية المعقدة للرجل**. إن سكاكين الملك كلها حولنا.

إذا كان المرء سلاحاً، فكيف يمكن للإله ألا يكون غاضباً؟

إذا كان المرء سلاحاً، فكيف يمكن للقوة ألا تعني السيطرة؟

إذا كان المرء سلاحاً، فماذا يمكن للمرء أن يفعل بنفسه سوى أن يَقتل أو يُقتل؟

إذا كان المرء سلاحاً، فكيف يمكن للجنس ألا يكون قاتلاً وللقتل ألا يكون جنسياً؟

إذا كان المرء سلاحاً، فكيف يمكن للنساء أن يكنّ شيئاً غير الأهداف؟

إذا كان المرء سلاحاً، فكيف يمكن للموت ألا يسبب النشوة؟

* * *

وبصورة معكوسة، إذا رأى المرء إنساناً ـ لحماً حياً سريع العطب، دماً يتدفق بدفء عبر العروق الرقيقة، عضلات تتقلص وترتخي كي تقنع الأوتار برفع العظام الهشة المعقدة استجابة لأعجوبة الدوافع الكهربائية المتقافزة عبر نقطة عصبية والمنتقلة من الدماغ إلى العصب إلى النسيج، جسماً بشرياً يمكن أن يرقص، ويمكن أن يضحك، ويمكن أن يقبّل، ويغني، وينام ويصحو، يمكن أن يَلمس ويُلمس ـ إذا رأى المرء مثل هذه المعجزة، واكتشف أن مثل هذا الإنسان يعتبر نفسه سلاحاً، فكيف يمكن للمرء ألا يحاول إيقافه؟ كيف يمكن للمرء ألا يحاول إيقافه عن طريق التفكير بأن الحب سوف يحرره من السلاح نفسه؟

لأن النساء هن الجانب الآخر من القصة.

وماذا عن النساء الأخريات إذاً - النساء اللواتي يعرفن بالحدس، ويشعرن بالارتياب، أو يدركن حتى من هو الحبيب حقاً؟

وماذا عن النساء اللواتي يراهنّ بسلامة عقلهن على قدرتهن بأن يحببنه كي يكون إنساناً؟

وماذا عن النساء اللواتي يدركن أنه وراء سلامتهن - واللواتي بشكل متعمد، في اقترابهم من نشوة موته ذات الطابع الجنسي، يرمين بحياتهن بين ذراعيه وعلى محرقته الجنائزية؟

وماذا عن النساء اللواتي يقسمن على تجسيده في أجسامهن النسوية، في محاولة لأن يصبحن السلاح الذي يرغب فيه، السلاح الذي يمثله، السلاح الذي تعريفه بالنسبة له هو «الإنسان»؟

هل هن مختلفات جداً عن بقيتنا، النساء اللواتي يغازلنه، ويرقصن له، ويقلدنه؟

هؤلاء هن النساء اللواتي يجب أن نواجههن في المرة القادمة.

الفصل السادس

الإرهابي الرمز:
امرأة عاشق الشيطان

أي شخص يعرف شيئاً عن التاريخ يدرك أن التغييرات الاجتماعية الكبرى مستحيلة بدون الثورة الأنثوية. ويمكن قياس التقدم الاجتماعي تماماً بالوضع الاجتماعي للجنس اللطيف ـ بمن فيهن القبيحات.

كارل ماركس

يجب تقسيم النساء إلى ثلاثة أنواع رئيسية: أولاً، النساء العابثات الطائشات التافهات اللواتي يمكن استغلالهن لأنهن ليبراليات مشوشات؛ ثانياً، النساء المتقدات الموهوبات المكرسات، لكنهن لا ينتمين إلينا لأنهن لم يحققن بعد فهماً ثورياً حقيقياً؛ وأخيراً هنالك النساء اللواتي هن معنا تماماً، والمطلعات كلياً ويقبلن برنامجنا برمته. ويجب اعتبار أن هؤلاء النساء هن أثمن كنوزنا، وبدون مساعدتهن لا يمكننا تدبر أمورنا.

سرجي نتشايف

قبّلني بدمك
قبلَ الحرب القادمة.
وأنا أركع أمامك
أرى أوسمة السيف تعكس
العذاب الذي سيأتي، والسجناء الذين سيطارَدون.
وسأكون حينئذ
الصمت الذي سيحل.

قبّلني، ضمني إليك بقوة
واسمح لطوفان جديد من الموت،
من الحضارات،
أن يدور.

إيزل ريفيرو

تحدثنا باتريشا هيرست وأنا معاً في غرفة الاستقبال التابعة للمعهد الإصلاحي الفيدرالي «التقدمي» في بليزانتن، كاليفورنيا. كان جو من الفورميكا والكروم يهيمن على القيّمة والحارس، ويعرض آلات البيع والمغاسل بطريقة الإعانة فقط. وكانت الهندسة المعمارية على نمط حرم الجامعة: فقد باتت الكليات والسجون الحديثة أكثر تشابهاً مع بعضها بعضاً طوال الوقت. وهناك، لمدة أربع ساعات تقريباً في صباح شتاء دافئ في كاليفورنيا عام ١٩٧٨، حاولنا باتريشا هيرست وأنا أن نرسخ إحساس الأخوات.

وإذا كنتم قد نسيتم التفاصيل، فإن باتريشا ـ وريثة ثروة هيرست الكبير ـ كان قد حُكم عليها بأن تمضي فترة سبع سنوات في السجن لأنها، في الواقع، تعرضت للخطف وهي في التاسعة عشرة من عمرها من قبل جيش التحرير التكافلي. وقد أُسرت وعُذِّبت، وفقاً لشهادتها، وأُجبرت على المشاركة في سرقة مصرف، وإطلاق النيران، والهرب لدى جيش التحرير التكافلي. وقد اعتقلها فيما بعد مكتب التحقيق الفدرالي (FBI)، واتُّهمت بأعمال تتضمن المشاركة بنشاط إرهابي، وحُلِّلت نفسيتها وأُدخلت المستشفى، واتُّهمت، وحوكمت، وأُدينت، وحُكم

عليها، وسُجنت، وأُخرجت بكفالة خلال استئناف قضيتها، ثم أُعيد سجنها عندما رُفض الاستئناف. وكانت قد أمضت سنتين تقريباً في السجن عندما قابلتها. ولم تكن قد أكملت الخامسة والعشرين من عمرها بعد.

جلست قبالتي - امرأة شابة نحيلة صغيرة، بعينيها البنيتين وشعرها البني الفاتح المألوف من ألف صورة ومشهد في الأخبار التلفزيونية، وبدت ملابسها ذات أسلوب هو مزيج من الثياب المحتشمة المخصصة للسجن والابتذال الذي يمارسه أولاد الأثرياء الذين يمكنهم شراء أزياء المصممين وبالتالي تجنبها: جينز أزرق باهت، وسترة زرقاء مخضرة ملطخة قليلاً، وما اعتادت خالتي العزيزة المتوفاة على تسميته بأحذية العاهرات، وهو حذاء منبسط إسفيني الشكل من ألياف النخل والقطن مفتوح عند أصابع القدمين وله شريط عند الكاحل. وتدلى صليب ذهبي بسيط من سلسلة ذهبية بسيطة حول عنقها، وما بدا أشبه برباط من حلي الثياب ذي زخارف مقشورة كان يطوق الإصبع الرابع من يدها اليسرى، من المفترض أنه بديل عن خاتم الخطوبة الحقيقي الذي لا يسمح لها السجن بارتدائه. وكانت كما توقعت تماماً. ولم تكن كما أملت أبداً.

وتتطلب تصوراتي السابقة عرضاً لها. كانت تشكل حقيبة من الأشياء المختلطة، حقيبة تخيلت أنني أنحني خلفاً لأحملها بإحساس من الإنصاف. لقد انطلقت للدعوة إلى تحرير المرأة من اليسار الجديد، بعد اكتشافي أن الرجال «الراديكاليين» يمكن أن يميزوا بين الجنسين مثل غيرهم، وكنت أقترب من باتريشا هيرست بتحليل مؤيد لتحرير المرأة: لقد ميزت لعبة إلقاء اللوم على الضحية، وعرفت أن البنات والزوجات

اللواتي ينتمين للرجال الأغنياء لا يملكن تقريباً القوة بحكم حقهن الشخصي. وبما أنني نجوت من العنف في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات، لم يعد لدي بعد أي وهم حول سحر الإرهاب أو الانخراط في نشاط سري، كما كنت بالذات سجينة، وتلقيت مراسلات وزيارات من عدة نساء سجينات، لذلك لم تكن لدي مواقف رومانسية حول السجن. وعرفت أن وسائل الإعلام قد شوهت العديد من الأمور المتعلقة بباتريشا. لكنني عرفت أيضاً أنه من شبه المستحيل أن أصف سان سميون، أملاك هيرست الواسعة المنتشرة على طول ساحل كاليفورنيا، أو أن أبالغ في الثروة التي بنتها. وأعترف أنني بالمصادفة قادرة على الاقتباس من الذاكرة أحاديث كاملة من فيلم أورسون ويلز **المواطن كين**.

وبشكل أكثر تحديداً، لقد عرفت بعض الأمور عن باتريشا من المراسلة التي سبقت اجتماعنا، بما فيها حقيقة أنها بدورها كانت تعرف بعض الأمور عني (قرأت بعض كتبي). وعرفت أنها كانت تكره اسم التدليل «باتي»، وأنه كان لديها إحساس ساخر بالمرح: «إذا تمكنت من قراءة خط يدي، تكونين قد وصلت إلى منتصف الطريق المؤدي إلى هناك. فمن غير المسموح لنا الحصول على آلات كاتبة هنا. ومن الواضح أن السجن يعتقد أننا قد ننتحر بها».

وعرفت أن أملها بإطلاق سراحها أصبح مركزاً على احتمال أن يمنحها الرئيس كارتر عفواً، ويخفض مدة سجنها إلى الفترة التي أمضتها. وإلى ذلك المدى، بإثارة الرأي العام لمصلحتها، كانت للمرة الأولى توافق على مقابلات منتقاة. وقد طرت إلى كاليفورنيا لمقابلتها لصالح مجلة .Ms - لكنني كنت هناك أيضاً بصفتي امرأة وداعية

لتحرير المرأة تدعم امرأة أخرى. ولا يمكنني الزعم بأنني لم أكن حذرة قليلاً: فقد عرفت بأمر حملة الالتماسات والرسائل إلى البيت الأبيض والكونغرس، والقمصان التي كُتب عليها «اصفحوا عن باتي» على جانب، وعلى الآخر «خطفك يعني دائماً أن تبدي أسفك»، والأشخاص المقربين البارزين الغرباء الذين كانوا يطالبون بإطلاق سراحها ـ من سيزار شافيز اليساري إلى اليميني وليم ف. بكلي الصغير. مع خمسين عضواً تقريباً من الكونغرس في مكان ما من الوسط. وسمعت أنها أرادت إضافة دعاة تحرير المرأة إلى تلك القائمة، ولذلك كنت حذرة، لعدم رغبتي في أن تُستغل حركة تحرير المرأة بقسوة. لكنني سمعت أيضاً أنها عبرت عن رغبة صادقة في العمل من أجل تعديل حقوق المساواة. وحملت حقيبة من التصورات المختلطة، فعلاً.

بالنسبة لمحادثتنا، لم أكن مهتمة بإفراغ التفاصيل الدموية لمحنتها السابقة في قالب جديد، فقد عرفت عبث الطلب من أي سجينة ـ وبخاصة المتعلمة أو «المتميزة» ـ كشف الكثير من تجربة السجن الحالية دون تعريض نفسها للمزيد من الخطر على يد النزلاء الآخرين وسلطات السجن. وما اهتممت به كان باتريشا كامبل هيرست المرأة ـ أفكارها، خططها، سياستها. ومع هذا، فقد استجمعت قواي استعداداً لانعدام التقييم الذاتي؛ وعلى أي حال، لقد كانت هذه كائنة بشرية تعرضت للتشكيل وإعادة التشكيل ـ من قبل عائلة هيرست، وجيش التحرير التكافلي، ومكتب التحقيق الفدرالي، والمحامين، والأطباء النفسيين، والقسس، ومحرري مقابلات وسائل الإعلام، ونظام السجن الأمريكي نفسه. وبعد عمليات غسل الدماغ العديدة تلك، فإن دماغ المرء قد يشعر قليلاً بالانقباض.

لكنني توصلت إلى الثقة بقدرة التواصل بين دعاة تحرير المرأة بحيث كنت ببساطة غير مستعدة لاستمرار نفس المنوال بيننا، أو، حتى أكثر من ذلك، لدوامة الأسلوب. وبدا المطلب الملحّ الذي يشحن العديد من المبادلات ويتجاوز العديد من الخلافات بين النساء اليوم أنه يضج بالوعود عبر رسائلنا. وفي اجتماعنا الحقيقي، على أي حال، ظل يرشح في فتور مهذب. وبقيت أفكر بأسطر ف. سكوت فتزجرالد من «الولد الغني»: «إن الأغنياء أنفسهم... مختلفون عنكم وعني. إنهم يمتلكون ويستمتعون في وقت مبكر، ويخلق هذا شيئاً ما لديهم، ويجعلهم ناعمين بينما نحن قساة، ومتهكمين بينما نحن واثقون... وحتى عندما يدخلون عميقاً في عالمنا أو يغوصون تحتنا، فإنهم يستمرون في الاعتقاد بأنهم أفضل منا. إنهم مختلفون». ذلك الأسلوب كان يتردد في صوت باتريشا هيرست حالما جلسنا للمحادثة ـ صوت رنان دون تذبذب عرقي، ولا تلهف الطبقة الوسطى، ولا حتى بحة التباهي لدى حديثي الثراء. كان، بالأحرى، تشدقاً أنفياً رقيقاً، بطبقة عالية من أبراج الثراء المتوارث. وربما كانت المربيات والتعليم في الدير قد خففت الكثير من مظاهره، حتى أصبح رتيباً تقريباً. كان صوت امرأة وُلدت لتُرضي. كما كان لدي أيضاً إحساس بأن باتريشا كانت تجد صعوبة في الإحساس بالفضول أو الشعور بعمق شديد حول أي شيء؛ وأنها كانت تكاد لا تصغي (سواء لكلماتها أو كلمات أي شخص آخر)؛ وأنها كانت مشغولة البال تماماً بنفسها ومع ذلك غير ملمة بها؛ وأنها تحولت نحو الداخل لكنها بشكل ما لم تتعدّ ذلك، وكأنها خائفة من اكتشاف عدم وجود شيء هناك. ونساء أصحاب النفوذ متدربات بدقة على مثل هذه

التفاهة. لكن الناجين من معسكرات الاعتقال يتشدقون أيضاً بأوصاف تقترب من مثل هذه الحماقة؛ وضحايا الاغتصاب لديهم أحلام متكررة عن أنفسهم وهم يذوبون مثل الشمع. وكيف يمكن معرفة أي من تجاربها، أو أي درجة من كل منها، كانت مسؤولة عن فقدان الشعور هذا؟

وحاولت بغرور، طوال ساعات، إثارة بعض العاطفة الحقيقية، بعض هزة المشاركة الثقافية. لكن مثل هذه العجرفة من جانبي تلاشت بسبب ما بدا أشبه بعجرفة عدم الاكتراث من جانبها، وبسبب الرقة حتى في أجوبتها المباشرة. وتحدثنا وكأنما من خلال شبكة كرملية، وكأننا كنا امرأتين نجري اجتماعنا ونحن نسير نائمتين في قاع المحيط، نتحدث بشكل حالم أمام طاقم شاي فضي لكننا نحجم عن الإشارة الفظة إلى المخلوقات التي تجري حولنا.

وتحدثنا عن قضيتها، عن الاستدعاءات والتحقيقات القانونية المعقدة، وعن حملة «حرروا باتي» - كان كل شيء قلناه متوقعاً وموضوعاً في صيغة محددة. ثم تحدثنا في الأمور السياسية. نعم، لقد كانت مؤيدة لتعديل حقوق المساواة، وتؤمن بحرية التوالد. لكنها لم ترغب في أن تكون النساء «صاخبات»، وكانت تعتقد بضرورة عدم مواجهة الرجال أو «قمعهم» أكثر من اللازم. وكانت ترفض العمل الإيجابي لأنه يمكن أن يصل إلى «التعصب العكسي». تلك كانت المسألة بالنسبة لتحرير المرأة. وتجاوزنا المناقشة السياسية.

ولم نخض كثيراً في موضوع فلسفتها الشخصية. فقد انحرفت تحقيقاتي إلى الدين المتعارف عليه. وكنت أحمل آمالاً أنانية عالية، وأعترف بذلك، بالنسبة للكتب باعتبارها عوامل مغرية على المحادثة.

لكن باتريشا قالت إنها لا تقرأ كثيراً، وتفضل التطريز. وإحساس الأخوات يمكن أن يكون صعباً. ثم اعترفت فعلاً وهي خجلة بإدمانها على الروايات القوطية. فقلت لها مبتسمة: «لا تعتذري!»، وأنا متشوقة للتطابق مع اهتمامها، ومتحمسة حول الأخوات برونتي. وكنت على خطأ. كانت باتريشا تعني بأنها أحبت القوطيين **الحديثين**، «كاشفي الصدور»، مع أنها لم تتمكن من تذكر أي شيء بشكل خاص. كان الأدب أبعد منالاً.

لا يمكنني التذكر إن كانت نتيجة المناقشة المختصرة حول الحملة المؤيدة لتحرير المرأة ضد أدب الدعارة، أو التحدث عن التطريز، هي التي جرفتنا إلى التحدث بأمور الزواج. كانت باتريشا مخطوبة في ذلك الوقت إلى بيرني شو، وهو ضابط شرطة أكبر منها بثماني سنوات. وقد تقابلا عندما كان أحد حراسها الشخصيين.

وهناك لمحة من الوعي النسائي التحرري في نظرتها إلى الزواج. ربما لأن بيرني مطلّق مؤخراً وأب لطفلين، فقد جرت مناقشة حول عيشهما معاً ببساطة، لكن باتريشا كانت قد اكتفت من ذلك مع ستيف ويد (خطيبها عند الاختطاف). وقالت بحدة: «كان علي إحضار المحامين لاستعادة أثاثي من ويد. فالمرأة تملك حماية أقل خارج الزواج». وذكرت الحكمة التحررية النسائية القائلة إن المرأة في الجنس الطليق مع الرجل هي التي تدفع الثمن عادة. ووافقت، بإيماءة حيوية تقريباً. وخمنت أن ذلك كان شعاراً ممكناً للتطريز.

بدا أن بيرني شو خطيب غير ملائم لامرأة مثل باتريشا هيرست. كان ملاحاً سابقاً ويحمل الحزام الأسود في الكاراتيه. وقد نُقل عنه قوله

إنه أحب باتريشا كثيراً جداً ـ لأنها كانت جذابة، وجلدها جميل، وتتذكر أعياد الميلاد. وصدمني، من جانب باتريشا، أنها انجذبت إلى بيرني لأنه كان موجوداً، مثل إفرست. لكن تلك لم تكن القصة بكاملها. وعندما سألتها عن النموذج الساخر الذي لاحظته ـ كانت بضع نساء هاربات وسجينات سياسيات سابقات ينجذبن رومانسياً نحو رجال يعملون في تطبيق القانون ـ هزت كتفيها بأنها لم تفكر بذلك من قبل: «كان أولئك هم كل ما يحيط بي، المحامون والحراس الشخصيون. أما أصدقائي القدماء فإنهم لم يستطيعوا فهم ما أمر به». وقالت إنها عرفت أيضاً أن بيرني أحبها لأنه انسجم مع كلب حراستها، أرو، وهو كلب رعاة ألماني كان يبدو أنه أغلى كائن في حياتها. وأخبرتني بأنها «كانت تعبد الحيوانات»، ويمكن أن تتخيل نفسها وقد أصبحت مدربة للحيوانات، ولكن ليس طبيبة بيطرية ـ مما يتطلب دراسة كثيرة. لكن المستقبل بدا بعيداً بالنسبة لها مثلما يبدو لأي سجين آخر. ففي السجن أنت تخطط ليوم واحد ـ أو حتى ساعة ـ في كل مرة. وقد تتعدى آمالك هذا، لكن إحساسك بالحقيقة يمنع ذلك. وتساءلت بصوت عال، بالنسبة لحب باتريشا للحيوانات، إن كان قد عززه رد فعل الحيوانات نحوها باعتبارها إنسانة وليست رمزاً. وتجمدت نظرتها من جديد وأجابت بأنها لم تكن تعرف، ولم تفكر في الموضوع.

كان هذا الاستغراق الذاتي دون نظرة عميقة مزيجاً غريباً، خصوصاً أن الموضوع الأكثر ثباتاً في محادثتنا، والذي كانت باتريشا تعود إليه بشكل استحواذي، هو العنف. وليس تفوق العنف (مثل ما لدى من دعتهن بالأخوات برونتي «الكئيبات» أولئك)، ولكن العنف نفسه:

أوصاف حية حول كيفية تدريب كلاب الحراسة مثل أرو على الهجوم والانقضاض على الوريد الوداجي، والاختراق، والتمسك؛ ومقدار قوة الارتداد في النوع المناسب من البنادق المستخدمة لقتل الغزال؛ وكم يمكن أن تصبح قاسية ضربات ألعاب كرة القدم في سان سميون؛ وكم كان ممتعاً سماع بيرني وهو يتحدث عن عمله كشرطي. وبضجر كامل الآن، تابعت ثرثرتها، وعيناها تتوهجان، كيف ذهب مؤخراً لتلبية نداء من الشرطة وتبين أن الأمر يتعلق بشخص كان ميتاً منذ بعض الوقت، وكررت بإثارة وصفه للون وقوام جلد الجثة الشاحب. ومع شحوبي بسرعة، سألتها عما إذا كان هذا لا يسبب مشكلة ـ لأن يسرد بيرني تفاصيل يومه لزوجته التي كانت هي نفسها قد نجت من مثل هذا العنف. كلا، كانت باتريشا تعتقد بأنه كان «ساحراً». وإلى جانب ذلك، كانت تشعر بأنه من الضروري أن تظهر المرأة الاهتمام بعمل رجلها، وإلا فإنه قد «يتخلى عنها».

ولمحت فجأة القوة الجنسية والعاطفية التي لا يزال العنف يؤثر بها في حياة هذه المرأة، ليس بصورة مجردة، ولكن بصورة حقيقية هددتها لفترة طويلة بحيث أصبحت ملازمة لحياتها اليومية.

وفكرت، ربما يوماً ما، بعد أن تمر فترة طويلة على خروجها من السجن ويبدو المستقبل أقل إحاطة بالحراس الشخصيين، وكلاب الحراسة، والأملاك المسيجة، وحين تصبح النزوات وأنظمة العدالة ومجموعة القوانين التي «هجرتها» واليسار الذي «خانته» أبعد من أن تصل إليها ـ ربما لا تكون آنذاك بالغة الحيوية وهي تتكلم عن الموت. لكنها في ذلك الوقت، كانت مثل روح تبرز إلى الموضوع وكأنما استدعاها سيدها

بتعويذة ما ـ وهي مسحورة وغافلة. ولم يكن من الممتع أن أشهد. كان علي تذكير نفسي بشهادة محاكمتها ـ أن تلك هي المرأة التي لم تستطع عيناها تحمل أي ضوء بعد تمضية شهرين تقريباً في زنزانة، والتي حُشرت في وعاء للقمامة للتنقل من أحد مخابئ جيش التحرير التكافلي إلى الآخر، والتي توقفت دورتها الشهرية بسبب الخوف المحض، والتي قصت نساء جيش التحرير التكافلي شعرها قسراً إلى طول يقل عن بوصة واحدة، والتي أُجبرت على التبول والتغوط بينما يراقبها مختطفوها ويسخرون منها، والتي تعرضت للاغتصاب والضرب، والتي نجت بصعوبة من الإحراق حية خلال إطلاق النار بين جيش التحرير التكافلي وشرطة لوس أنجلوس. وكانت هذه أيضاً هي المرأة التي أصدرت تصريحات عن التضامن مع جيش التحرير التكافلي، والتي رفضت أن تشهد ضد «رفاقها» بعد وقت طويل من اعتقالهم، والتي قالت إنها تحب قائدهم وأنها لم تشعر أبداً بالحرية كما تشعر مع مختطفيها، والتي رفعت قبضتها بتحد بعد أن اعتقلتها الشرطة.

تعترف ثقافتنا الآن بأن أسير الحرب يمكن أن يكون ضحية غسل للدماغ. وتلك الثقافة نفسها أقل تفهماً وحتى أقل صفحاً عندما يكون دماغ امرأة وحياتها تحت الخطر ـ سواء أكانت مثل هذه المرأة قد اختُطفت من أجل البغاء والعبودية الجنسية وتم «تعويدها» عن طريق الإدمان القسري على المخدرات وإنهاكات بيت الدعارة، أم أنها كانت باتريشا هيرست.

في ذلك السياق، كانت الأعجوبة الوحيدة هي أن باتريشا تتحدث بوعي كامل، بدلاً من الثرثرة أو الاستسلام للصمت. ولا بد للمرء من أن

يُكبر اعترافها بإرادتها المركزة على النجاة - حتى عندما يتم التعبير عن ذلك التركيز بصورة سطحية.

والاهتمام بالسطحية وتجنب الجوهر قد يكونان، مع ذلك، أدوات للبقاء على قيد الحياة. وكانت باتريشا تعتز بوضوح لأنها لم تمنح النزلاء الآخرين، وموظفي السجن، والصحافة، والجمهور، ما اعتقدت أنهم يريدونه - بالنسبة لها أن «تنهار». وفي الحقيقة، لو أنها أظهرت انفعالاً أقوى أمام هيئة المحلفين، لكان من المحتمل أن يكافئ أعضاؤها الأداء بحكم أكثر «امتناناً». وقد جعلها القناع (إن كان ثمة قناع) أقل مدعاة للحب والثقة، في عالم من العواطف الرخيصة؛ ولكن حينئذ، ماذا فعل ذلك العالم من أجلها لإثارة تأثرها أو ثقتها؟ وربما لم تعد باتريشا تعرف بعد حتى إن كانت شخصيتها قد خلقتها أم رئيسة منذ فترة طويلة أم أن رجال جيش التحرير التكافلي قد فرضوها، وإن كانت صلابة عمودها الفقري نتيجة وضع الطبقة العليا أم أنه علاج للانزواء في تلك الزنزانة المظلمة.

وبدأت أقدر ما يمكن أن تكون عليه قيمة صلابة العمود الفقري عندما وصل أبوها للانضمام إلى مجموعة المحامين والأصدقاء قرب نهاية محادثتنا يوم الزيارة. وبدا أن «راندي» كما يدعونه - وأسلوبه في مثل هذه الكبرياء، إن كانت لديه، قد تحطم. وربما كان مريضاً، لكنه بدا لي رجلاً محطماً. وكان مهذباً، وودياً حتى، عبر جمله المدغمة، التي مثلما لم تبدُ منبعثة عن الابنة، فهي لم تبدُ معبرة عن الأب أيضاً. فقد ظل يكرر الأسئلة، والأقوال، والأحاديث التافهة ذاتها. وكان أدفأ اهتمام تبادله الأب والابنة قد تم التعبير عنه في الهدية التي أحضرها - صورة

رُسمت خصيصاً لها بيد فنان للصورة المتحركة. كان هذا هو الرجل الذي سيطرت عائلته ذات يوم على غالبية الصحف في الولايات المتحدة، والذي لا يزال يقود إمبراطورية مالية ضخمة.

عندما تجتمع القوة والثروة مع الجهل واليد المتقلبة، فالنتيجة هي العنف الاجتماعي، الذي يجعل من الحتمي تقريباً ـ في النموذج البطريركي ـ وجود الجهل القسري والعنف الإرهابي لدى مجموعات مثل جيش التحرير التكافلي. وبصورة رهيبة، يتوصل الاثنان إلى استحقاق كل منهما للآخر. والناس الذين في المنتصف، وغالبيتهم من النساء والأطفال، هم الذين يُسحقون. ومن الواضح أن راندلف هيرست كان يملك قوة كافية ليبدو أنه «العدو المشترك للشعب» وبعبارة أخرى، كان ما **يملكه**، بما في ذلك نساؤه، موضع اشتهاء. وكان لدى رجال جيش التحرير التكافلي القوة الكافية لإغراء بضع نساء على مساعدتهم في ارتكاب أفعال شائنة على امرأة أخرى، بموافقة ذكورية. وكان لدى مكتب التحقيق الفدرالي وشرطة لوس أنجلوس القوة الكافية لإحراق بعضهم حتى الموت، وسجن الناجين منهم. ولم يكن للنساء مثل هذه القوة في أي مكان ـ إلا كمدمنات على الرجال الذين قاموا بدور قادة العنف بين الرجال.

أما بالنسبة إلى باتريشا هيرست، فقد بدأ «تلقينها»، و«أقلمتها»، منذ ولادتها ـ باعتبارها أنثى ومن سلالة هيرست. وقد سبق غسل الدماغ ذاك ما قام به جيش التحرير التكافلي، وكان من الممكن أن يدوم لفترة أطول مما قاموا به. وكانت باتريشا تبدو أحياناً مثل بطلة تعيش ثانية قصة رعبها القوطي مراراً وتكراراً، ولكن بشكل

صور ديزني المتحركة. وربما أثبت ذلك ببساطة أنها كانت أمريكية بشكل متأصل. وربما أثبت أنها كانت تعاني من حالة المياه الضحلة السريعة. ولكن كان من المخيف أن يعاني أحد ما تعانيه ويظل يبدو أنه يعرف القليل جداً عن القلب الإنساني.

ومع ذلك، بقيت أحاكم نفسي لأنني تجرأت وحاكمتها. وبقيت أواجه بعض الإغراءات الداخلية في تدوين المقابلة. كان الإغراء الأول أن أرعاها، كما فعل العديد من مؤيديها، كي أثير تعاطفاً سهلاً عن طريق الفشل في تصويرها بصدق وفق ما أجازته خبرتي الذاتية المعلنة، بكل النقائص والعيوب (لديها ولدي). وفاجأني الإغراء الثاني بحدة فحيحه البراغماتي: أن أذكر الأمور اللطيفة فقط، بحيث يمكن لعائلة هيرست أن تقدم بصورة يائسة الأموال اللازمة للحركة النسائية؛ فقد كنا غير قادرات على الانتقاد وخلق أعداء جدد. وكان الوقوع في ذلك الإغراء قد يصبح المكافئ الأخلاقي لاحتجاز باتريشا ثانية من أجل الفدية. وكان الإغراء الثالث مثيراً للمشاعر: كنت فقط لا أريد جرح مشاعرها (كبريائي ثانية، ربما، في الاعتقاد بأنني أستطيع ذلك؟). كما لم أرغب في إساءة فهم رمز المرأة، مع أنه كان علي بالشك في قدرتي على فصل ذلك.

لقد أردت إظهار احترامي لباتريشا بأخذها على محمل الجد، مما كان يعني إخبارها بحقيقة ما رأيته وسمعته فيها. لذلك كان أكثر ما تبقى لدي هو فراقنا. وتعانقنا ـ لكن ذلك كان طقسياً أيضاً. وهممت بالذهاب. وحينئذ وضعت يدها على ذراعي وأوقفتني. وحصل ذلك من مكان مجهول تقريباً.

وناشدتني بلطف، «كما تعرفين، هنالك مشهد في ذلك الفيلم - **لوك الهادئ**، كما أظن - حيث يضربون هذا الفتى فيسقط ويقف على قدميه ويظل يقع ويعود ليتلقى المزيد. ويتحطم ويصاب بالذهول كلياً، وهم يصيحون به، "لماذا لا تتقبل الأمر فحسب، أيها الأحمق الغبي؟ تقبّل الأمر واستسلم فقط وسوف ندعك وشأنك". إن ذلك هو ما يريدونه مني. إذا تقبلت الأمر واستسلمت، فسوف يدعوني وشأني».

لقد قالت ذلك متأخرة جداً، واستخدمت استعارة مذكرة، وأي أحمق يمكنه التخمين بأنه قد يكون وداع مناورة نموذجياً بصورة عاطفية - ولم يكن من الممكن أن يقل اهتمامي. واستدرت بصورة كاملة كي أواجهها، وأتمتم بشكل عنيف، «لا تتقبلي الأمر أبداً، يا باتريشا! لا **تحاولي** التقبل!» "

وعبر الدموع الأنثوية المربكة لشخص ما (دموعي؟ دموعها؟)، رأيت ابتسامتها.

وقالت بثبات، «لن أفعل ذلك».

وفي هذا الوقت أصبح العناق حقيقياً.

لقد مضت عشر سنوات على ذلك اللقاء. ومر زمن طويل على خروج باتريشا هيرست من السجن، بعد أن خفض الرئيس كارتر عقوبتها عام ١٩٧٩، وشكل كتابها عام ١٩٨٢، حول الخطف وآثاره، أساساً لفيلم سينمائي. إنني أتمنى الخير لها، وأشعر بالندم فقط لعدم قدرتي على الاتصال بالمرأة التي كتبت، عام ١٩٧٨، «إن ما حدث لي يحدث لكل النساء دائماً. لقد تعرضت للخطف والسجن والتهديد والضرب والإذلال والاغتصاب والمعاملة العنيفة، وقد كذبت ولم أُصدَّق. والفارق

الوحيد بين ما حدث لي وما يحدث للنساء الأخريات هو أن حالتي كانت حالة متطرفة».

وحين كتبت باتريشا هيرست تلك الكلمات، كانت قد أحست بحضور عاشق الشيطان وذكرته بالاسم. ومع ذلك فقد أحدثت تعويذته السحرية مفعولها عليها من جديد بصورة شاب وسيم كان صياداً متبجحاً، يمكنه صيد الغزلان والبشر على حد سواء، ويمكنه رواية الحكايات عن الموت.

أيها القارئ، لقد تزوجته.

ويمكن القول إن حالتها كانت متطرفة، فقد تحولت الوريثة (قسرياً؟) إلى إرهابية، وتحولت (قسرياً؟) من جديد إلى وريثة، وتحولت (قسرياً؟) إلى ربة بيت. وماذا عن النساء اللواتي يخترن التورط القتالي بملء إرادتهن كما يزعمن؟ بالتأكيد إنهن نساء إرهابيات «حقيقيات».

وكم عدد الحالات «المتطرفة» المطلوبة لجعل ذلك معياراً؟

فتشي عن الرجل

إن هذا يحدث دائماً عندما تصبح النساء في النهاية الموضوع وليس الهدف: ولتعريف النساء، أو المجموعة من النساء، أو المرأة المنفردة، على المرء أن يعرّف أولاً ما هو **بعيد الصلة** بهذا الموضوع. إن وضع النموذج دقيق جداً، إدراك الأنثى بأنها أمر آخر، سوء الفهم المتعمد للحافز، بحيث يجب أن تكون الأكاذيب مجردة قبل أن يصبح بالإمكان حتى فهم الحقيقة النسوية.

قد يكون سوء الفهم الأكثر شيوعاً هو الذي يخلط بين النساء اللواتي يشاركن في الثورات العامة والنساء «الإرهابيات». وللتسجيل، إذاً. إن النساء اللواتي يقرعن في الشوارع على القدور والأوعية المعدنية خلال أعمال الشغب ضد نقص الطعام لسن متورطات في نشاط إرهابي. والنساء اللواتي يزحفن في مظاهرة عامة ضد حكومة استعمارية لسن متورطات في نشاط إرهابي. والنساء الريفيات اللواتي يثرن من أجل حقوق الأرض، ويجثمن في مزارعهن الصغيرة ذات المحصول المشترك، لسن متورطات في نشاط إرهابي. وتتحدث مسؤولة المزارع الهندوراسية إلفيا الفارادو بسخط عن مثل عدم التصنيف المتعمد هذا:

لقد أخذ الجيش يتهمنا بـ... أننا إرهابيات الساندنيستا،... وبالعمل مع مقاتلي حرب العصابات السلفادورية... إنني لا أعرف شيئاً عن نيكاراغوا،... ولا أعرف ما يجري في السلفادور. على الهندوراسيين أن يُقلقهم ما يجري هنا... إنهم يحاولون دائماً القول إننا جزء من مؤامرة كبيرة ما، بينما نحن مجرد حفنة من المزارعين الفقراء... وعندما كنا نقوم بمحاولة استرداد الأرض سابقاً، كنا نُتّهم بتخريب الملكية الخاصة. والآن لا نزال متهمين بذلك، ولكن مع اتهامنا بأننا إرهابيون أيضاً،... إنك لا تستطيع الخروج بكفالة حتى... أين يمكن أن يكفوا عن اعتبارنا إرهابيين لمجرد أننا نحاول استعادة الأرض؟ إننا لا نريد أن نؤذي أحداً. حتى أننا لا نملك أسلحة. فلماذا يعتبروننا الإرهابيين؟

يعتمد نوع آخر من التحليل الذي يمكن توقعه على تلك العبارة القديمة الجاهزة، ضع اللوم على الضحية. من المسؤول عن العنف المكثف لدى المجموعات الإرهابية؟ إنهن النساء. ويكتب ج. ك. زاوودني:

لم يسبق عرض هذه المشكلة على الملأ خوفاً من... الاتهام بالتحيز ضد تحرر المرأة... و[النساء] يسببن التوترات ضمن المنظمات المبالغة بالقانونية... ومن الأمور التي لا يمكن تجنبها (ولو لم يُعترف بذلك رسمياً) وجود منافسة واعية أو غير واعية من أجلهن... وعلاقات مؤثرة بين الرجال. ومقدرة النساء على معالجة عضوية المنظمة على المستوى غير الرسمي هي مشكلة أخرى... والرجال الذين يتنافسون على النساء يحاولون «التفوق» على بعضهم بعضاً، وغالباً ما يستهلون بالعنف أولاً؛ ويبحثون عن عذر رسمي بعد ذلك. وحقيقة أن النساء يراقبن الأفعال بصفة مشاركات مباشرات هي أمر مثير تماماً. وفي هذا النوع من الوضع الثقافي، يُعتبر وجود النساء ضمن منظمة إرهابية حافزاً نفسياً للعنف له حضور دائم على جميع المستويات التنظيمية.

ويضيف البروفيسور (في العلاقات الدولية) زاوودني، على شكل فكرة تالية، «من جهة أخرى، في بعض الثقافات، يمكن أن يخدم حضور [النساء] على شكل كابح للأفعال العنيفة». لكنه لا يقول المزيد فيما يتعلق بذلك ـ خوفاً من اتهامه بالتحيز إلى دعاة تحرير المرأة؟

وبالتحرك مباشرة من لوم جميع النساء بشكل عام إلى لوم بعض النساء بشكل خاص (لا تنسوا أن الإرهاب الذكوري هو خطأ أمهات الإرهابيين)، فإن السلطات تستشهد على نحو متكرر بالدعوة إلى تحرير المرأة على أنها المتهمة بالإرهاب النسوي. ويعترض صوت نادر ـ ولكن لأسباب خاطئة. وتسخر فيرا برويدو، في كتابها **رواد بين الإرهابيين: النساء والحركة الثورية في روسيا ألكسندر الثاني**، «إن تخصيص النساء الثوريات بالدور الضيق لأنصار تحرير المرأة هو تشويه لموقعهن في الحركة الثورية وتقليل لمساهمتهن في التاريخ الروسي». (ذلك الدور

المناصر الضيق السخيف ثانية، يتوجه بشكل أناني إلى أغلبية الأنواع البشرية). وعلى أي حال، إن أغلب «خبراء» الإرهاب، حين يقررون اختبار مشاركة النساء بصورة كاملة، يزعمون وجود ارتباط مباشر بين التحريض على تحرير المرأة والعنف الأنثوي. ويُعتبر دانيل إ. جورجيس آبيي مفضلاً بشكل خاص لدي. وفي مقالة بعنوان «النساء كإرهابيات»، يراجع الأدب الذي يبحث في النساء والعمل الإجرامي، من سيزار لومبروزو (تُظهر النساء المجرمات خصائص بدائية، شعر كثيف في الجسم، وذكاء أدنى)، إلى فرويد (إنهن أدنى منزلة من الناحية التشريحية، ويحاولن أن يصبحن رجالاً)، وعبر أوتو بولاك (إن تصاعد نسبة الجريمة النسوية هو نتيجة التحرر الجنسي)، إلى م. رابابورت (المجرمات النساء هن نتيجة عدم تطابق نفسي)، إلى ج. كاوي، وف. كاوي، وإ. سلاتر (ثمة تفسير صبغي: إن هؤلاء النساء يحملن صفات مذكرة أكثر من الإناث الطبيعيات)، إلى هـ. س. فيدير و د. سومرفيل (إنهن يُظهرن عدم توافق مع الدور الأنثوي الطبيعي)، إلى ف. أدلر (إنهن نتاج جانبي لحركة تحرير المرأة)، إلى ر. سيمون (يحدث العنف النسوي نتيجة تبدل في أنماط عدم المساواة الجنسية وازدياد المشاركة في قوة عمل النسوي).

ولا يتفق جورجيس أبيي نفسه مع كل هذه الأفكار. ويعتبر في الحقيقة، أن بعض الاستنتاجات «مضحكة». وهو عالم حديث، عقلاني، وأحد «الرجال الشرفاء». لكنه يشعر بأن «ثمة ميزة في التفسير الأقل تطرفاً لبعض الترابط بين هذه النظريات والنظريات الأخرى حول هذا الشكل المحدد من الإجرام النسوي [الإرهاب]». كما أنه يضيف بعض

الترابط من عنده، مركزاً على مجموعات أمريكية شمالية مثل رجال الطقس وجيش التحرير التكافلي، مع «أعداد كبيرة من الكوادر النسوية [التي] تحولت إلى الشذوذ الجنسي والثنائية الجنسية النسائية، وإلى الجنسية الشاملة وإيديولوجية تحرير المرأة أيضاً». وكما يبدو لم يتضمن بحثه التجريبي التصريحات والكتابات العامة الأخيرة المتعلقة سابقاً بمثل هذه المجموعات، ليدرك، أن الضغط لرفض الزواج الأحادي والسلوك السحاقي (ولكن ليس الشذوذ الجنسي **الذكوري** أبداً) هما شكلان من «التحرر الجنسي» انبثقا من **القيادة الذكورية لتلك المجموعات كأنظمة مباشرة**. وكان رفض الزواج الأحادي سيجعل النساء متاحات لكل الرجال، وسيُعتبر السحاق (بتوجيه وسيطرة ذكوريين) لدى الرجال لعباً. ويلاحظ جورجيس أبيي مشاركة «وكالات السيطرة الاجتماعية المتنوعة» اليوم في فرضية أن للنساء الإرهابيات نفسيات وحتى أنماط جسدية مذكرة، و(بشكل متناقض) أن أغلب الأفعال التي ترتكبها هؤلاء النساء هي «انفعالية وليست عملية، أي أنها عاطفية وليست أفعالاً حصيفة وذات برنامج عمل عقلاني لا يرتبط بأمور الحب، مثل محاولة تحرير زوج أو حبيب أسير». (نفسيات ذكورية لكنها عواطف أنثوية: يُدعى هذا أن تأكل تحليلك وتحتفظ به معاً). و«وكالات السيطرة الاجتماعية المتنوعة» هذه، وفقاً لجورجيس أبيي، متأكدة بأن النساء الإرهابيات أكثر احتمالاً بكثير من الرجال في أن يرتكبن أفعال «عنف لا معنى لها أو هدف» ـ بالمقارنة مع العنف العقلاني والهادف، كما أفترض. ويعلل أننا قد نتوقع زيادة أخرى في مشاركة النساء بالإرهاب، بسبب «تغير مجموعات أدوار» النساء بشكل عام؛ وتأثير

تحرير المرأة في زيادة توقعات النساء من المجتمع؛ واحتمال أن «النساء اللواتي يفتقرن لهذه الخصائص... التي يعتبرها المجتمع ملائمة [اللطف، الإغراء، الجاذبية الجسدية، الخ.] ..قد ينشدن النجاح في عالم غير أنثوي، عن طريق إظهار العدوانية، والوجوه والأجساد الخالية من الزينة، والصلابة، أو غير ذلك من الخصائص الذكورية الأخرى».
(توجهي إلى مستحضر ريفلون التجميلي، بسرعة، قبل إطلاق النار).
ويتوقع أن النساء في هذا الازدياد سوف يُعتبرن مندمجات في التحرر الوطني والنضالات الاشتراكية، «وليس كحشود مستقلة من المحاربات ذات التوجه الأمازوني» ـ ومع ذلك فهو لا يسأل لماذا. وباعتبار أنه ليبرالي جيد، فهو يشعر بأنه من الأمور الأساسية أن يحلل في فرضيته تأثير المطالب التحررية النسوية «المنطقية واللاعقلانية على حد سواء»؛ وسيقرر الفرق بينهما.

حسن. من الصعب معرفة أين أبدأ، بمثل هذا الوابل من البلاهة. إذاً لماذا لا أبدأ بتحرير المرأة؟ هل ثمة حاجة للقول إن جورجيس أبيي (وفيرا بروبدو، أيضاً) لن يعترفا بحركة تحرير المرأة لو كانت ستظهر وتقدم نفسها شخصياً؟ والحقيقة الأكثر مأساوية حتى هي أن النساء اللواتي تورطن في أفعال إرهابية لن يعترفن بها أيضاً، على الرغم من المزاعم المنحازة إلى جانبهن بأنهن يتصرفن كنساء «متحررات». أما كيف ولماذا تتملص منهن حركة تحرير المرأة ـ أو، بالأحرى، كيف ولماذا يتملصن منها ـ فهي قصة استثنائية بالنسبة لهن مع أنها مماثلة بصورة مألوفة لقصة كل امرأة.

وكما رأينا، إن جميع النساء يشتركن في العبء الثقافي المتبادل

في اعتبارهن مستودعات المبادئ الأخلاقية (المعرّفة ذكورياً). لذلك، على النساء ألا يقترفن الخطأ أبداً. وتجاوز الحدود المعدة مسبقاً - الإثم، العصيان، الانتهاك - هو عمل عرضة للاستنكار بالنسبة للمرأة أكثر بكثير مما هو للرجل. إنها سياسة الوجهين القديمة، كما في الجنس، والسكر (الذكر الثمل هو شخص جيد مرح؛ والأنثى الثملة تثير الاشمئزاز)، وأذى المخدرات، والدعارة (في قوانين أكثر الدول، المشتري الذكر يظل حراً، بينما البائعة الأنثى تتعرض للسجن). إذاً!! إذا كان إثم المرأة سيتحول إلى فعل لا يخطر بالبال، أو على الأقل فعل تعرف أنها ستنال بسببه الازدراء أكثر بكثير من الذكر، **فهي يجب أن تأثم عن طريق رجل**. وهي تؤمن بأنها لا تستطيع الوصول إلى الإثم بنفسها ولنفسها. وعليها أن تحاول إضفاء طابع ازدواج الجنس على نفسها، وتدمج نفسها معه. وقد استعادت سوزان أتكينس، العضو في «أسرة» تشارلز مانسن، ذكرياتها وهي في السجن، «آه، يا لها من رحلة! لقد فكرت "أن أتذوق الموت، ومع ذلك أمنح الحياة"». وكما هو الأمر مع أي شيء آخر في وجودها، فإن تمردها يمكن أن يدركه المجتمع وتدركه هي فقط من خلاله، ومن خلال أنماطه، ووسائله.

لم تكن مصادفة تاريخية أن موجات القرن التاسع عشر والعشرين لتحرير المرأة في الولايات المتحدة قد نشأت نتيجة إلغاء الرق وظهور حركات الحقوق المدنية على التوالي. وكانت النساء، السوداوات والبيضاوات، في طليعة تلك الحركات، وتمردهن دائماً في سياق الكفاح الإيثاري من أجل خير الجميع، من أجل حقوق الاقتراع لرجالهن، وبعد ذلك من أجل حقوق **الرجولة**. وكل ذلك كان شرطاً أساسياً تاريخياً

لارتباطهن بأصغر ثورة لمصلحة حالتهن الأنثوية الخاصة.

وكما أن بنية العالم الذكوري المشترك هي وسيلة المرأة كي تنهض في اقتصادنا (تلعب اللعبة باتباع قواعده)، كذلك فإن بنية الثورة الذكورية هي وسيلة المرأة للتمرد (إسقاط القواعد بلعب لعبته). ومعرفة أنها تستبدل أحد أشكال القيادة والأسلوب الذكوريين بآخر ليست محتملة دائماً، وبالتأكيد ليست في المقام الأول - ومن ثم، فجأة، قد يفوت الأوان كثيراً.

وقد آمنت المرأة «الثورية» بالخط «الراديكالي» الذكري، كما تبين منذ نيتشايف وحتى كاسترو. وتعلمت أنها كي تكون ثورية **حقيقية**، عليها أن تنفصل عن أنوثتها، وطموحاتها، وحقيقتها - وأكثر من أي شيء، عن النساء الأخريات. وعليها أن توحد في نفسها الرعب والاشمئزاز الذي ينظر به مثل هؤلاء الرجال إلى «قضايا النساء». وثمة حالتان تتعلقان بالموضوع: كانت ناديجدا كروبسكايا، زوجة لينين، في عصرها وأسلوبها داعية لتحرير المرأة ومدافعة عن حرية النساء الجنسية - مثلما كانت عشيقته، إنيسا أرماند. وقد جرى إلغاؤهما كلتاهما عملياً من القوائم الرسمية، مع أن هاتين الاثنتين، إلى جانب كلارا زيتكين، قد أوجدتا فكرة يوم النساء العالمي (٨ آذار). وقد شعر لينين بالرعب عندما أرادت أرماند أن تؤلف كتيّباً عن التحرر الجنسي النسوي؛ وأحس بالقلق لأنها كانت تنشر فكرة «الزنا» و«التحرر من إنجاب الأطفال».

وهكذا فإن المرأة التي ترغب في التمرد تتعلم أيضاً حقيقة أخرى من حقائق الرجل. لقد تحدثت، كزوجة وأخت وأم، عن وطنيته خلال الحروب القومية، وحملت راياته، ولوحت في استعراضاته، وقادت

سيارات إسعافه. وحاولت طوال آلاف السنين إظهار ولائها، والفوز بقبوله؛ وقد وثّقت جين بيثكه إلشتاين ذلك الولاء بدقة في كتابها **المرأة والحرب**. ومع ذلك، كانت طوال الوقت تطالب وتدافع وتنظم ـ من أجل السلام. (هل يُعتبر هذا أحد أسباب عدم دنو موافقته؟) وعندما يصل غضبها أمام تجاهله إلى مرحلة معينة من التعبير الضروري، تكتشف من جديد أن النموذج الوحيد له هو نموذج ذكوري: ثورته.

«سوف أتجاوز جنسي، وحق اللّه»، إنها كلمات نُسبت إلى جان دارك. وهي الكلمات المطلوبة من المرأة التي يمكن أن «تنجح» في عالم الرجل (دولته أو دولته المنتظرة). **وهي قد لا تنهض مع قومها**. وعليها أن تتخلى عنهم، وتتخلى عن تجربتها الخاصة، والأكثر أهمية، عن تحولها الحدسي الممكن، المتخيل. وإذا رغبت في القوة، عليها أن تعرف بأن القوة هي مرادفة **لقوته ـ ووسائله** للحصول عليها. وإذا أرادت الحرية عليها أن تعرف أن هذه أيضاً مرادفة **لتعريفه** لها وكفاحه من أجلها. ولن ينقذها أي من هذين. وسوف يدمرانها كلاهما. **لكنها وجدت طريقة مقبولة للتجاوز**. لقد دخلت حريم عاشق الشيطان.

إن نفسيتها، وأخلاقها، ورغباتها، وحقائقها، تغوص في روحها. وعليها أن تتنكر وتتنكر وتتنكر لها. ولنستمع إلى شهادة المحكمة التي أدلت بها فيرا زاسوليتش، التي أطلقت النار عام ١٨٧٨ على ديمتري تريبوف، حاكم سانت بيترسبيرغ، وأصابته بجروح رداً على سماعها عن تعذيب السجناء السياسيين: «يجب ألا يُسمح بحدوث مثل هذا الإذلال للشخصية الإنسانية... **لم أستطع العثور على طريقة أخرى** كي ألفت الانتباه إلى ما حدث... **لكنه أمر رهيب أن يرفع المرء يده ضد إنسان**

آخر... لقد أطلقت النار بدون تسديد [ألقت البندقية فوراً]... وخشيت أنها قد تنطلق ثانية... **لم أكن أريد هذا**». (التأكيد لي). (وبالمناسبة، لقد وصفت صحافة ذلك الوقت زاسوليتش بأنها «عانس» من منشأ نبيل، في الثامنة والعشرين من عمرها ـ وذات مظهر بسيط). وفي فترة متقدمة من حياتها كتبت زاسوليتش عام ١٨٩٢ تنقد لينين، إن «الأفعال الإرهابية لا يمكن أن تجعل حركة أكثر قوة، مهما يكن مقدار شعبيتها. والإرهاب هو شكل مَرَضي للنضال. ومهما تكن البهجة التي يثيرها عظيمة أحياناً، فإن طاقات المرء يجب تبديدها كلها من أجل تنفيذ الأفعال الإرهابية، مما ينجم عنه إطار ذهني خاص دائماً تقريباً: إما إطار من الزهو الشديد أو إطار تكون الحياة فيه قد فقدت كل جاذبيتها».

إن الزهو واليأس يمكن أن يشكلا وصفاً ممتازاً للنظام البطريركي.

والمرأة التي تقع في شرك هذا الموقع يجب ألا تقتصر على التعهد بولائها بل عليها أن تدافع عن التزامها ـ وتدافع عن إنكارها لنفسها ـ مع اتقاد كاف لإقناع روحها القلقة بالإضافة إلى زملائها الذكور اليقظين. وهكذا فقد عانت روزا لكسمبرغ العظيمة من إساءات حبيبها ليو جوغيتشز الطويلة الأمد، وإهاناته بأنها «الرجل الأخير في الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني». وكانت لكسمبرغ ممزقة طوال حياتها بين الفعالية السياسية الصارمة وحنينها لحياة تأملية في الكتابة والتفكير والعناية بنباتاتها وحيواناتها؛ وممزقة بين نزوعها الشديد إلى السلم والموقف البارز الشكاك لحزبها؛ وممزقة بين ما اعتبرته هي نفسها أنه حاجتها المعتمدة على الرجال ومعرفتها بأن تلك الحاجة كانت مدمرة للذات؛ وممزقة بين تأثير صديقتها كلارا زتكين الداعية لتحرير المرأة

وقرارها في معارضة تصويت النساء باعتبار أنه يحول الانتباه عن قضية العمال. ومع أن شجاعتها لم تخذلها أبداً (اتهمت لينين بأنه يمارس «همجية تترية مغولية»)، فإن تصميمها على استخدام تلك الشجاعة لمصلحتها ومصلحة النساء الأخريات قد خذلتها. وبصورة مشابهة، اتهمت إيما غولدمان تصويت النساء بأنه نكتة وانحراف، وصعّدت ذنوبها الأساسية تحت رايات السياسة الذكورية. وعندما أعطتنا غولدمان العبارة الجريئة «إذا لم أستطع الرقص من أجلها، فهي ليست ثورتي» هل فكرت بأنها قد تتجاوز جنسها وترقص مع إخوتها فقط؟

إن ما نلمحه في مزاج حب الحياة الشخصي لدى لكسمبرغ وغولدمان - الحنين للسلام وللمتعة - يلمع مثل الفضة التي توشّي كهوف ما يُدعى بالسياسة الثورية الذكورية المتسخة بالكراهية والانتقام، بالتلاعب والطموح التافه والعنف. لكنهما ورّثتا حياتهما المعذبة للنساء اللواتي لا يزلن يرقصن في دولة عاشق الشيطان الثورية المنتظرة.

«إننا نصبح الرجال الذين أردنا الزواج بهم» هي عبارة لرفع الوعي صاغها بعضنا في أوائل السبعينيات، عندما بدأت النساء ينظرن إلى إمكانيتهم الخاصة بدلاً من التحديق بصورة بديلة إلى الحياة عبر الستار المفروض من الذكور، وبدأن يتدفقن إلى كليات الحقوق والطب، وبدأن يعثرن على أعمال صغيرة، وينشئن المجلات، ويقتحمن الأعمال غير التقليدية. وكانت العبارة مفيدة في حينها. وفي استعادة للأحداث الماضية، كان ذلك يحمل خطراً داخلياً: فشروط أن «نصبح» تظل محددة بالرجال الذين قد (أو قد لا) نرغب في الزواج منهم. وبالنسبة للمرأة المتمردة، التي «تصبح» الرجل الذي تتبعه من خلال الثورة، لا مجال

للشك في أن الدور الذي تتخذه كان مفصلاً بصورة زي موحد له، وليس لها. وباتخاذه، لم تكن تؤخر ثورتها فحسب، لكنها في الحقيقة كانت **تعرقلها**: بتعزيز كل من أولوياته ووسائله.

ومن المفهوم بالتأكيد لماذا اعتبر نتشايف مثل هؤلاء نساء «كنوزاً». فهن سوف يكنّ أكثر جرأة، ويقاتلن بشكل أشد، ويعملن لفترة أطول، ويحاولن إثبات أنفسهن لرفاقهن أكثر مما سيفعل أي رجل (وأكثر مما يحتاج أي رجل). وسوف يستغلهن الرجال بقسوة ـ باسم القضية التي حددها **الرجال**.

خلال الثورة الصينية، كانت القضية الأكثر جدلاً هي حق النساء في الطلاق؛ وكانت المجموعات الأكثر تعرضاً للاضطهاد هي النساء وهن يحاولن التنظيم ضد تقييد القدمين وضرب الزوجة والاغتصاب. وفي عملية التخلص من الشيوعيين بين عامي ١٩٢٧ ـ ١٩٣٠ من قبل أفراد الكومنتانغ التابعين لتشانغ كاي شيك، كانت آلاف النساء الشابات يُصنَّفن بأنهن «راديكاليات» بسبب شعرهن المعقوص، واتُّهمن بسياسة «الفجور الجنسي والحب المشاع». وجرى لف العديدات بحشوة قطنية، وتغطيسهن في الزيت، وإحراقهن وهن على قيد الحياة.

لم يكنّ جميعهن شيوعيات، وبعضهن كن برجوازيات، وكان هناك العديد من الطالبات... وأعتقد أن وحشية القتل لم يعادلها شيء في العالم كله... وعندما كان يجري اعتقال البنات [كذا] في هونان كانت تتم تعريتهن تماماً، وتثبيتهن على الصلبان، ثم تُفصل أنوفهن وأثداؤهن قبل قتلهن... [بعد قطع رؤوسهن] كانت توضع رؤوسهن في توابيت للرجال ويقول أفراد الشرطة «لديك الآن حبك المشاع»...

وماذا بعد التضحية بكوادر النساء؟ في عام ١٩٤٢، أطلقت دنغ لنغ، الثورية، وأعظم روائية في الصين، نقداً قاسياً لخيانة الحزب الشيوعي للنساء في مقالتها المشهورة «أفكار في ٨ آذار، يوم المرأة العالمي». وأعلنت أن النساء لا يزلن خاضعات للإجراءات الظالمة القديمة، كما أضيفت إجراءات جديدة، فمن أجل طرد النساء كان يتم إخبارهن بأنهن قد أُعتقن الآن. وبسبب صرخة الحقيقة هذه، تعرضت للهجوم علناً من قبل ماو، واتُّهمت بأنها رجعية، وحُكم عليها بتمضية سنتين في «الإصلاح الفكري». ومع التأييد الرسمي وبدونه حتى نهاية حياتها، استمرت دنغ لنغ في التعبير عن رأيها والدعوة لتحرير المرأة. وفي عام ١٩٥٦، جرى اتهامها ثانية، وفي هذه المرة بجريمة رفض قبول الإشراف على الحزب؛ وكانت تحارب الرقابة الأدبية وتتحدث علناً عن اضطهاد النساء. وفي السنة التالية، تعرضت للاتهام من اتحاد الكتاب الرسمي، وحرمانها من حقها كمواطنة، وطردها من الحزب، والحكم عليها بفترة أشغال شاقة في منشوريا ـ حيث ظلت حوالي عشرين سنة. وبعد «إعادة تأهيلها» واكتسابها التأييد العام بعد موت ماو (حين كانت في السابعة والسبعين) عاشت سنواتها الأخيرة دون مرارة ـ ظلت تكتب، وظلت تطالب النساء الشابات بتحرير أنفسهن ـ حتى موتها عام ١٩٨٦.

إن «الثورة في الثورة» ـ باستعارة عبارة ريجيس ديبراي وإعطائها معنى جديداً ـ لا تتخذ دائماً مثل هذا الشكل المبدئي أو الطويل الأمد. وهي أحياناً مجرد صرخة من أجل المساعدة الفورية.

في ٨ أيار عام ١٩٧٢، جرى اختطاف طائرة تابعة لشركة سابينا فوق يوغسلافيا بواسطة مجموعة من أربعة أشخاص فلسطينيين، فيما

يمكن اعتباره محاولة فاشلة لتحرير بعض السجناء المعتقلين في سجن إسرائيلي في رام الله داخل الضفة الغربية المحتلة. وبعد إحضارهم للمحاكمة في إسرائيل، اتُّهموا بالقيام بأعمال إرهابية بالإضافة إلى جريمة أنهم أعضاء في منظمة فتح المحظورة. وكانت اثنتان من المجموعة امرأتين شابتين، والتمست كلتاهما «الدفاع الاضطراري»، تحت قانون بريطاني موروث كان لا يزال موجوداً آنذاك في القوانين الإسرائيلية. وناقش محاميهما بأنهما أُجبرتا على حمل الأسلحة تحت تهديد الموت، وأنهما تورطتا بالاختطاف ضد إرادتهما. وكانت إحدى المرأتين مدمنة على المخدرات وقد استُخدم إدمانها لإجبارها على المشاركة؛ وتذرعت الأخرى بأن مقاتلي حرب العصابات اختطفوها ولم تكن قادرة على الهرب. وفي المحاكمة، وبعد ذلك في الاستئناف، رُفضت هذه الدفاعات واعتُبرت المرأتان كلتاهما مذنبتين.

والإجبار ليس مباشراً جداً دائماً. واستخدام الجنس و«الحب» لإيقاع النساء في الشرك عمل خبيث وأكثر شيوعاً على حد سواء - وبالتالي، استخدام النشاط الجنسي لدى النساء لتعزيز القضية. وهذا الشكل من الإجبار - التجنيد عن طريق العاطفة - هو، بعد كل شيء، ما تدور حوله رسالة عاشق الشيطان.

تُعتبر سيرة كولن سميث عن إليتش راميريز سانتشيز، **كارلوس: صورة إرهابي**، قصة بطولية طويلة حول إغواءات كارلوس المغرورة للنساء ضمن مجموعته الثورية:

كانت إحدى مباهج كارلوس الكبرى أنه قادر على اعتبار أن الحياة الجنسية النشطة هي نفقة شرعية للعمل، وجزء من الجهد الهام في إقامة غطاء ومخابئ...

وكان قادراً تماماً على استغلال فتوحاته الجنسية بقسوة، . . . [فمن جانب] كانت لديه أربع صديقات دائمات، اثنتان على كل جانب من القنال [الإنكليزية] ، وكان يستخدم منازلهن أحياناً كمخابئ لإخفاء الأسلحة والمتفجرات والوثائق المزورة. وكانت أيضاً أماكن للجوء، حيث يستطيع أن يضمن، دون خطر، الحصول على سرير لليلته ـ والأفضل أن يكون دافئاً.

وانتهى أمر غالبية هؤلاء النساء إلى تمضية أحكام بالسجن، بينما لم يتم القبض على من أغواهن. وقد يبدو لبعض القراء أمراً مضحكاً أن يكون كارلوس سيئ السمعة بين هؤلاء النساء لموقفه الذكوري الحاد نحو الطبخ والعمل المنزلي (لم يكن يساعد أبداً)، مع أخذ الظروف بعين الاعتبار. وقد يبدو أكثر مدعاة للاشمئزاز أنه عاش حياة مترفة ـ وهو يتمتع بما لذ وطاب من الطعام، وبراندي نابليون، والسيغار المستورد، والملابس المصممة ـ مدعوماً غالباً من هؤلاء النساء. وفي النهاية يبدو أمراً خطيراً أن يكون في دولة إثر دولة ـ في الشرق الأوسط وتركية واليونان وألمانيا وإيطاليا وفرنسا وإنكلترا واسكندنافية ـ قد جند النساء فعلاً من سريره إلى جبهة المعركة. (مع أن المراحل الثلاث كلها شائعة، وذات صلة). وقد حضر العديد من النساء في الوقت المناسب ليس لإخفاء الوثائق فقط ولكن لتهريبها، وليس لتخبئة الأسلحة فقط ولكن لإطلاق النار بها، وليس لتخزين القنابل فقط ولكن لزرعها. وبعض هؤلاء النساء ميتات. وبعضهن في السجن مدى الحياة. وبعضهن لا يزلن مختبئات. وأخريات لا يزلن يرقصن على ألحانه.

وكل واحدة منهن كانت متأكدة من أنها حبه الحقيقي.

وأحياناً يعمل عاشق الشيطان قواداً من أجل القضية. واستخدام

النساء بصورة طعم جنسي على غرار «ماتا هاري» أصبح الآن فكرة مبتذلة. (كان الشكل الرقيق لهذا هو شعار «البنات يقلن نعم للشباب الذين يقولون لا» خلال حملة اليسار الجديد في الستينيات لتشجيع مقاومة الخدمة العسكرية. بدلوا الحرف A إلى R ولونوه باللون القرمزي للدلالة على الثورة).

قد تكون أشهر حالة لامرأة كطعم جنسي هي حالة المرحومة نورا أستورغا، المحامية النيكاراغوية الجميلة الشابة التي كانت متعاطفة مع متمردي ساندنيستا ضد دكتاتورية سوموزا الاستبدادية. وكان الجنرال رينالدو بيريز فيغا ـ المدعو باسم «إلبيرو» («الكلب») ـ وهو ضابط عالي الرتبة في حرس سوموزا الوطني المشهور بانتهاك حقوق الإنسان، يلاحقها. وأخيراً، في آذار ١٩٧٨، دعت بيريز إلى بيتها، وصرفت حارسه الشخصي، وأدخلته غرفة نومها، ونزعت ملابسه وسلاحه. وعندئذ قفز رجال حرب العصابات، المختبئين في غرفتها، خارجاً وقطعوا عنقه. وعند فرارهم تركوا جثته مغطاة بعلم ساندنيستا. واختفت أستورغا في الصفوف الثورية، تاركة وراءها رسالة «أريد أن يُعرف بأنني شاركت في عملية تقديم هذا العميل السياسي الدموي إلى العدالة». وفي وقت لاحق، سوف تراجع روايتها عن الحادث، وتدعي أن الخطة ـ مجرد خطف بيريز فيغا والاحتفاظ به من أجل الفدية ـ قد انحرفت عندما هجم عليٍّ رجال حرب العصابات. ومهما تكن القصة الحقيقية، فإن الدولة المنتظرة في هذه الحالة هي التي فازت. وشكّل الساندنيستا حكومة ثورية. وربما لأنه كان هنالك تذمر ساخط من عدة نساء في صفوف العالم الثالث الثورية، فقد تقرر ألا تلاقي أستورغا

مصير بعض من سبقنها مثل هايدي سانتاماريا الكوبية، وهي بطلة تحرير تمَّ نفيها إلى وظيفة «ثقافية» بسيطة ثم أقدمت على الانتحار بعد ذلك؛ أو نغويين ثي بينه من فيتنام الموحدة، التي تسلمت المنصب النسائي التقليدي كوزيرة للتعليم والشباب. وكانت النساء قد بدأن يشعرن بالقلق. وقد كوفئت أستورغا بمنصب رمزي نادر للسلطة: السفيرة النيكاراغوية إلى الأمم المتحدة، الوظيفة التي مارستها بذكاء وشرف، وهي تقدم نفسها بعناية، مع ذلك، كامرأة جميلة وأنيقة. وعندما التقيتها عام ١٩٨٧، لم أتمالك نفسي من ملاحظة كيف طغى انضباطها الذاتي على الإعياء الكبير الواضح. ولم أكن أعرف في ذلك الوقت أنها مريضة إلى درجة خطرة بالسرطان، لكنها ظلت في منصبها مثل «الجندي الصالح»؛ واحتفظت بأمر مرضها سراً حتى قبل موتها ببضعة شهور، في ربيع عام ١٩٨٨. وهكذا فقد اكتفيت، شخصياً، بالتعبير عن تضامني مع النساء النيكاراغويات. وقد أثار ذلك رد فعل حاداً: «أليس تضامناً مع الشعب النيكاراغوي؟» وأجبت بتهذيب، وربما بضجر قليلاً، «النساء هن أولويتي». ولم يكن ثمة طريقة كي أسأل لماذا كان التضامن مع غالبية الشعب النيكاراغوي ـ النساء ـ غير كاف، ولماذا يجب التعبير عن تضامن محدد مع الأقلية ـ الرجال ـ لإثبات حماس المرء الثوري. ولم يكن ثمة طريقة كي أسأل عن الإشاعات التي تدور حول الرجل الخاص، فقد كان ثمة واحد، وهو الذي أحبته والذي جعلت من تمرده تمردها الخاص.

فتشي عن الرجل. إنه موجود، بشكل أو بآخر. وفي دراسة عن النساء الإرهابيات الإيطاليات قام بها ليونارد فاينبرغ ووليم لي

يوبانك، أظهر أكثر من ثلثي الحالات وجود نساء تورطن لأنهن كنّ متزوجات برجال إرهابيين، وفي أغلب الحالات الأخرى كن قد تورطن عن طريق قريب ذكر. وكان لدى عدد من النساء أعلى بكثير من الرجال روابط دم أو علاقات حب مع إرهابيين؛ وبالنسبة للرجال القليلين الذين تورطوا بسبب روابط عائلية، كانت الروابط أخوية أو أبوية أكثر مما كانت زوجية أو عاطفية. وعلاوة على ذلك، كان لدى الرجال تاريخ من التورط السياسي سابق لنشاطاتهم الإرهابية؛ ولم تكن غالبية النساء كذلك. وفي الواقع، لقد تورط الرجال بسبب السياسة وتورطت النساء بسبب الرجال. وذلك أمر «سياسي» أيضاً.

لقد تورطت النساء لأن الرجال كانوا يشكلون الطريق الوحيد للتجاوز المتوفر ضد نظام كانت النساء يعرفنه بما يكفي لمعارضته (ولكن ليس لمعارضته بصورة كافية). وأظهر ذلك التمرد نفسه في الأرقام. وتفحصت الدراسة مجموعات إرهابية من اليمين الفاشي الجديد ومن اليسار أيضاً: كان الأول يحمل «قليلاً من الإغراء للنساء»، اللواتي انجذبن بدرجة أكبر بكثير إلى اليسار الثوري. وفي مسح آخر للإرهاب الإيطالي، وجد فيتورفرانكو بيسانو أن «المقدرة التنظيمية» لدى النساء كانت مطلوبة جداً بين المجموعات الإرهابية اليسارية، وبصورة خاصة الألوية الحمراء. وكانت مارغريتا («مارا») كاغول كما يُعتقد نموذجاً لهذه المقدرة. ويُعتبر زوجها، ريناتو كورتشيو، مؤسس الألوية الحمراء.

فتشي عن الرجل.

إن مارا كاغول وريناتو كورتشيو مجرد ثنائي بين العديدين الذين يمكن أن أطلق عليهم اسم «الإرهاب الثنائي». والثنائي الآخر هو جان

مارك رويلان وناثالي منينيون من العمل المباشر، وهما ثنائي عُرف باسم بوني وكلايد الإرهاب الفرنسي. وهناك ألكسندر ينيكومتشيان وسوزي ماسردجيان من ASALA (الجيش السري الأرمني لتحرير أرمينية) وكذلك مع ASALA، هراتش كوزيوكيان وزوجته سيرانوتش كوزيوكيان. وفي الولايات المتحدة، كان هناك سام ملفيل وجين ألبرت، وفي قمة اللجنة المركزية لمنظمة الطقس السرية، برناردين دورن وبيل أيرس. وأمكن لمنظمة الطقس السرية أن تتفاخر أيضاً بوجود كاثي بودين وديفيد غلبرت، بين الثنائيات الأخرى، ولكن في تلك الحالة كانت المرأة كما يبدو تشكل ثنائياً مع الرجل الخطأ. وغلبرت لم يصعد أبداً إلى موقع السلطة مع جماعة الطقس، كما اتهم أحد أفراد زمرة منظمة الطقس السرية لاحقاً، «في منظمة محكومة بالسيادة الذكورية، كأن توصل امرأة لأن تصبح قائدة يُعتبر تراصفاً مع رجال اللجنة المركزية، على ظهور النساء». ونتيجة لذلك، فإن «علاقة بودين مع غلبرت أبقتها في الأسفل». وربما شعرت لذلك بالحاجة لإثبات نفسها بصورة أكثر حدة: إنها تمضي حالياً حكماً بالسجن من عشرين سنة إلى المؤبد لجريمة قتل من الدرجة الثانية وسرقة من الدرجة الأولى في هجوم عام ١٩٨١ على شاحنة لشركة بريك.

ربما تكون هؤلاء النساء قد متن ـ كما جرى مع بعضهن ـ بدلاً من الاعتراف بأنهن قمن بما فعلن من أجل استحسان الذكور وحبهم. ويتطلب الأمر وقتاً ووجهة نظر وشجاعة للمخاطرة بمثل هذا القبول. وفي عام ١٩٨٧، بعد ثلاث عشرة سنة من النفي الجبري عن وطنها التشيلي، مُنحت كارمن كاستيلو إذناً بالعودة إلى الوطن لزيارة أبيها المريض. وعندما أُرسلت إلى المنفى، كانت تتعافى من جروح رصاصة وحاملاً في

الشهر السابع بطفل من حبيبها، ميغيل إنريكيز؛ الذي مات بجانبها في تبادل لإطلاق النار مع قوات المخابرات العسكرية للجنرال بينوشيه. واستغرقت كاستيلو أكثر من عقد من المعاناة، والتعلم كيف تحيا ثانية، وتصبح قادرة على القول كما تفعل الآن بأنها على الرغم من استمرارها في معارضة نظام بينوشيه الدموي، فهي لن تخضع للوسائل الدموية في النضال. وتقول ببساطة، «إن كل ما فعلته سابقاً آنذاك كان من أجل الحب، كان منطقياً، وكان منطقه هو الحب».

وتُعتبر كارمن كاستيلو إحدى المحظوظات. وبطريقة مختلفة، كانت آنا كارين لندغرين كذلك. فهي خريجة جامعية، التقت نوربرت كروتشر في حفلة رأس السنة الجديدة عام ١٩٧٢ في السويد. كان متزوجاً، ومتورطاً كذلك مع امرأتين أخريين في موطنه بمدينة برلين، لكنها لم تكن تعرف ذلك. أحبته. وانتقل للسكن معها. ولم يكن يعمل، فكانت تعيله معها من عملها كمعلمة. وكان يأتي ويذهب أحياناً بدون أي تفسير. وكما شهدت صديقة لندغرين، بيا لاسكر، في محاكمتها التالية، «كان كروتشر شوفينياً ذكورياً حقيقياً لا يعمل شيئاً في البيت سوى استخدام آنا كارين... وكان يستغرق في النوم غالباً حتى وقت متأخر بعد الظهر. وفي غرفة خاصة تحت تصرفه في شقة آنا كارين». كما كان «يغضب بسهولة وغالباً ما يعض [آنا كارين]. ومن المحتمل أنه وجدها مثيرة للغضب. وأحد أسباب هذا بالتأكيد هو أنه كان يعتمد عليها كثيراً... وأما آنا كارين نفسها فكانت غير مرتبطة سياسياً بأي حركة خاصة وكانت علاقتها مع كروتشر لا تتميز بأي إرادة أو فكرة سياسية، بل على العكس كانت ذات طابع عاطفي حصراً».

كان كروتشر هارباً من ألمانيا الغربية وعضواً هامشياً سابقاً في حلقة

المحيطين بمجموعة بادر ماينهوف، وحركة ٢ حزيران، وجماعة المرضى الاشتراكيين الألمان*. والآن، في السويد، كان كروتشر يؤسس مجموعة إرهابية جديدة. وخلال السنوات الخمس التالية، قامت عصابته بالسطو على المصارف من أجل التمويل، وخطط لبضع عمليات لرمي القنابل، وخطط لعملية ليو، وهي محاولة فاشلة لخطف وزيرة سويدية. وتورط عدد من الرجال السويديين ـ وكلهم بصحبة صديقاتهم. وبالتدريج، ظهر بعض أصدقاء كروتشر الألمان وأصبحوا ناشطين (إلى جانب **صديقاتهم**)، كما فعل أرماندو كاريلو، من المكسيك (**وزوجته**، ماريا). ولكن في وسط نشاطهم ـ بعد خمس سنوات من دفع ثمن ذلك وارتكاب جرائم لم تفهمها ـ تمَّ التخلص من لنغرين، لأسباب سياسية ظاهرياً. وفي الواقع، كان كروتشر قد وجد لنفسه امرأة جديدة. «لم يكن كروتشر راضياً عن آنا كارين، التي أظهرت مقاومة سلبية لخططه... وكانت علاقتهما تسوء باستمرار... [وفي الاجتماع] قيل إن آنا كارين كانت غير جديرة بالثقة وغير سياسية... وجرى نوع من التصويت. ولم يعارض القرار أحد. وتساءلت آنا كارين عما كانوا يفعلون لكنها لم تطرح السؤال لإحساسها بعدم الفائدة من طرحه».

---

* كانت جماعة المرضى الاشتراكيين الألمان من بنات أفكار الدكتور ولفغانغ هوبير الغريبة، والذي حوّل عام ١٩٦٩ نظريات ر. د. لينغ وديفيد كوبر إلى أحلام سياسية خاصة به. وبدأ ينظم مرضاه في عيادة الطب النفسي العصبي التابعة لجامعة هايدلبرغ ضمن «حلقات عمل» ـ أحدهم على جهاز إرسال إذاعي، وأحدهم على الجودو/الكاراتيه، وأحدهم على المتفجرات. وترأست زوجته، أورسولا هوبر، مجموعة المتفجرات. وكانت غاية جماعة المرضى الاشتراكيين هي أن «النظام قد جعلنا مرضى... ومن الضروري ألا يتم أي عمل علاجي لم يثبت سابقاً بوضوح وبصورة فذة أنه عمل ثوري... دعونا نوجه ضربة قاضية للنظام المريض». («أخبار المرضى رقم ١» كُتيِّب من إصدار جماعة المرضى الاشتراكيين، اقتبس قول جيكب و. ف. سندبرغ، «عملية ليو: وصف وتحليل لعملية إرهابية أوروبية»، الإرهاب: مجلة عالمية، المجلد ٥، العدد ٣ [1981]، صفحة ٢٠٣). وفي عام ١٩٧١، شنت الشرطة غارة على جماعة المرضى الاشتراكيين، بعد قليل من إعلان اندماجها مع بادر ماينهوف.

إن النساء اللواتي يعترفن بضعفهن في مثل هذا السياق «بسذاجة» أكثر ذكاء من اللواتي يتعلقن بوهم أنهن يتفوقن على جنسهن. إن آنا كارين لنغرين المقاومة السلبية «غير السياسية»، لا تزال حية على الأقل.

أما أولريكه ماينهوف فليست كذلك..

ويرد ذكر مجموعة بادر ماينهوف/زمرة الجيش الأحمر أحياناً على أنها غير عادية سواء في عدد النساء المرتبطات أو لوجودهن في مواقع القيادة. وكانت الحقائق الأكثر دقة تُمنح انتباهاً أقل. وقد بدأت المجموعة فعلاً برجلين ـ هورست مالر وأندرياس بادر. وكان بادر وامرأته، غودرون إنسلن، عضوين في اتحاد الطلاب الاشتراكيين الألماني. وبعد محاولة للاعتداء على حياة زميلتهم، وهي مسؤولة التنظيم الراديكالية رودي دوتشك، بدأ بادر بالدعوة للقيام بعمل عنيف ضد الدولة، واتخذ هو وإنسلن لهما اسم ويترلوت (جماعة الطقس) تقليداً للمجموعة الأمريكية. وكانت إنسلن تطلق على نفسها سابقاً اسم داعية السلام الإنجيلية. وكانت أولريكه ماينهوف، الداعية العلنية للسلام أيضاً، حبيبة دوتشك. وقد عملا سوية في **كونكريت**، وهي مجلة «أدب الدعارة الثورية» التي يملكها زوج ماينهوف. وبعد إطلاق النار، تخلى دوتشك عن السياسة كلياً وهجر البلاد ـ وماينهوف. وبعد ذلك انضمت إلى إنسلن وبادر، لتشكيل مجموعة «حرب عصابات» ستقوم، وفقاً لدعايتهم، بفضح تناقضات جمهورية ألمانيا الاتحادية وإجبار الدولة على إظهار فاشيتها بشكل علني. ودعت زمرة الجيش الحمراء للقيام بالإرهاب لتحقيق هذه الغاية. وأصبحت إنسلن القائدة العملياتية

للمجموعة (بسبب «قدراتها التنظيمية»)، لكن ماينهوف قادت محاولة ناجحة اشتهرت كثيراً لتحرير بادر بعد توقيفه عام ١٩٧٠، وجرت تسمية زمرة الجيش الأحمر بشكل غير رسمي على اسمهما. ومنذ تأسيسها في عامي ١٩٦٨ - ١٩٦٩ وحتى عام ١٩٧٢، حيث كان غالبية أعضائها الأصليين قد قُتلوا أو اعتُقلوا خلال ذلك، نفذت المجموعة عمليات إلقاء قنابل وحرائق واختطاف أشخاص وطائرات واغتيالات. وكانت تعمل أحياناً مع كارلوس (في عنتبة وفي الاعتداء على وزراء أوبك)، ويُعتقد أيضاً أن لها صلات مع الجيش الأحمر الياباني، والألوية الحمراء الإيطالية، وخلايا المساعدة الحمراء الهولندية، وزمرة أيلول الأسود الفلسطينية، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين المنشقة بقيادة وديع حداد. وفي عنتبة، قُتلت بريجيت كولمان عضو زمرة الجيش الأحمر، مع رجلها وزميلها ولفريد بوز، على يد الكوماندوس الإسرائيليين. وانتحرت أولريكه ماينهوف في زنزانة سجنها، كما فعلت إنسلن (ادعت بعض زمر اليسار في ألمانيا أن الانتحارين كانا عمليتي قتل نفذتهما سلطات السجن). وقد تفككت المجموعة اليوم، ولكن يُعتقد أن بعض أفراد «الجيل الثاني» لا يزالون يعملون في أنحاء أوروبة، بمعزل عن المجموعات الإرهابية المعلنة الأخرى أو ضمن اتصال دوري معها. ويزعم أحد الأعضاء السابقين، وهو بيت ستورم، في استعادة للأحداث الماضية، أن أعضاء زمرة الجيش الأحمر كانوا «ساذجين ورومنسيين بصورة لا شفاء منها» بالنسبة للدور الذي لعبته أعمالهم الإرهابية في تعزيز الثورة العالمية. وتُبدي آنا مندلسن، من الفرقة الغاضبة في المملكة المتحدة سابقاً، وجهة نظر مشابهة: «إنها لم تغير أي شيء. إنها لم تغير أي شيء على الإطلاق». وتجاهل مثل هذه

التصريحات على أنها إقرار قياسي بالخطأ من قبل الراديكاليين الكبار في السن سيكون سهلاً، باستثناء أنها تحمل مسحة خيبة الأمل التي عبّرت عنها بصورة فريدة النساء المخدوعات في الحب.

كانت هؤلاء النساء تابعات، سواء كأفراد أو «قائدات». و«تمردهن» من أجل الحب هو سلوك أنثوي كلاسيكي - وليس دعوة لتحرير المرأة. ولم تكن أولريكه ماينهوف أكثر تمرداً من شيلا ب. سيلفرمان، التي اتخذت اسم ما أناند شيلا في الجماعة التي ترأسها الهندي غورو باغوان شري راجنيشم. وكان غورو، المشهور بمزرعته الكبيرة في أوريغون والتي مساحتها ٦٤٠٠٠ فدان وثمنها ثلاثون مليون دولار وأسطوله المؤلف من خمس وثمانين سيارة رولز رويس، قد اتُّهم عام ١٩٨٤ بتزوير الانتخاب: فقد استورد آلاف التابعين إلى المنطقة في محاولة لتولي السلطة في المقاطعة. وهو يعيش الآن مرتاحاً في معتزله الديني في بونا، بالهند، بعد أن دفع غرامة. أما شيلا سيلفرمان فإنها تمضي فترة حكم اتحادية في السجن بتهمة التنصت على الاتصالات ومحاولة القتل و«التسبب في وباء السالمونيلا بتلويث مطاعم لتقديم السَّلَطة، وتسميم أكثر من ٧٥٠ شخصاً في مقاطعة واكو». وقالت سيلفيرمان إنها كانت «ضحية خداع» لمكائد غورو - لكنها لا تزال تحترمه. كما أن ساندرا غود، إحدى أفراد «عائلة» مانسون، لا تزال تحترم بصورة واضحة غوروها (الذي رأت اسمه على شكل تورية في «Man's Son») حتى بعد تمضية عشر سنوات في السجن. وفي آذار ١٩٨٦، رفضت تعهدها الأول لأنه كان مشروطاً بألا تزور مانسون، الذي لا يزال يمضي حكماً مؤبداً.

ومن بين اللواتي يُزعم أنهن مستقلات - النساء اللواتي يظهرن غير

مرتبطات بالرجال. ربما تكون الاثنتان الأكثر شهرة هما فوساكو شيجنوبو وليلى خالد.

تترأس شيجنوبو كما يُزعم «اللجنة العربية» في) JRA الجيش الأحمر الياباني، زمرة سيكيغون)؛ وقد عملت عن قرب مع كارلوس ومع وديع حداد زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وكانت تنتقل ذهاباً وإياباً إلى بيروت منذ عام ١٩٧١. وقد وُلدت في طوكيو قبل بضعة أسابيع فقط من القصف الذري لمدينتي ناغاساكي وهيروشيما، وهي ابنة صاحب محل تجاري كان، في شبابه، عضواً في عصبة قسم الدم، وهي مجموعة يمينية متطرفة تعهدت بأن «تطهر» اليابان من السياسيين الفاسدين عن طريق اغتيالهم بصورة انتقائية. وقد أرادت شيجنوبو أن تكتب الشعر والقصة لكنها اضطرت أن توقف تعليمها بعد المرحلة الثانوية لأن أسرتها لم تتمكن من دفع مصاريف دراستها الجامعية. وتزوجت من يساري راديكالي وهو مؤسس الجيش الأحمر الياباني، تسنيوشي أوكوديرا، ودعمته في إحدى المراحل بالعمل كراقصة عارية الصدر في منطقة جينزا التي تكثر فيها بيوت الدعارة. وكتبت عن هذه الفترة، «لقد كرهت الرجال الذين نهشوني واستغلوا جسدي لإرضاء شهوتهم... كان القتل يعتمل في قلبي. لكنني ابتسمت، فقد رأيت كل قبلة تتحول إلى كرة من الأرز للجيش الأحمر». وعندما أقدم أوكوديرا، أحد إرهابيي الجيش الأحمر الياباني المتورطين في هجوم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين عام ١٩٧٢ على مطار اللد، على قتل نفسه برصاصته الأخيرة بدلاً من الاستسلام إلى الإسرائيليين، ارتقت أرملته درجات القيادة في الجيش الأحمر الياباني.

تصدرت ليلى خالد العناوين العالمية الرئيسية في ٢٩ آب عام

١٩٦٩، عندما قادت فريق الاختطاف الفلسطيني الذي استولى على طائرة TWA وأجبرها على الهبوط في دمشق. وقد كانت شابة، وتشبه أودري هيبورن، وهي أول «إرهابية أنثى» تتصدر الأخبار في وسط العمل؛ وكان أمام الصحافة يوم عمل ميداني. انحدرت خالد من طبقة متوسطة؛ فعائلتها هربت من حيفا عام ١٩٤٨ واستقرت أخيراً في مدينة صور، بلبنان. ودرست في الجامعة الأمريكية ببيروت وعلّمت بعد ذلك في مدرسة ابتدائية في الكويت. وانضمت إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وهي توشك على الانشقاق عن منظمة فتح الأكثر نشاطاً بقيادة عرفات، في عام ,١٩٦٧ وقد كتب سيرتها الذاتية عام ١٩٧٥، **شعبي سوف يعيش**، جورج حجار، عضو الحلقة السياسية في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، مما يمكن أن يوضح السبب في تجنب الكتاب لتفاصيل حياتها الخاصة ويلتزم أكثر بخط البلاغة السياسية. وفي مقابلات سابقة، أيضاً، كانت تكتفي بالقول، «إنني منشغلة بالثورة». ولم يكن هذا حقيقياً تماماً: فقد كانت مخطوبة أيضاً إلى رجل، وهو مقاتل فلسطيني عراقي، تزوجته لاحقاً ثم طلقت منه. وفي مؤتمر الأمم المتحدة العالمي حول النساء الذي عُقد في منتصف الثمانينيات في كوبنهاغن، قوبلت خالد بحفاوة من الصحافة، مما أثار رعب الوفد الفلسطيني بكامله. وشعر الرجال، الذين ترأسوا الوفد مع أنه كان مؤتمراً للنساء، بالسخط لأن الكثير من الاهتمام قد مُنح إلى امرأة. وعبّرت النساء عن غضبهن (بعيداً عن الأنظار وبشكل غير رسمي في المحادثات الخاصة) لأن خالد لم تتكلم عن **النساء**.

لكن أسبابها ظهرت بعد سنة من ذلك في مقابلة مع صحيفة ألمانية

مؤيدة لتحرير المرأة. وكشفت عن احتقار النخبة الذي اشتُهر به كوماندوس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - ازدراء الفدائيين الذين يقومون بغارات حدودية متواضعة على الكيبوتسات الإسرائيلية - والمركب من رسالة مزدوجة حول صفتها الأنثوية:

*عندما أتحدث في مؤتمر دولي، كما في كوبنهاغن، **فإنني أمثل الفلسطينيين، وليس النساء**... ومع أنه أمر هام جداً في المجتمع العربي أن أتزوج وأنجب الأطفال، ففي حالتي، لا أحد يتساءل عن ذلك. والمرأة التي تقاتل سياسياً تحظى بالاحترام... **إن المنظمات والمسؤولين عن التنظيم لن ينظروا إلينا بشكل جدي إذا كان علينا أن نبدأ بالحديث عن ذلك** [حقوق النساء]. قد يقولون إننا نريد أن نكون مثل النساء الأوروبيات... **وسوف يرفضوننا**. لذلك فنحن نحاول القول بدلاً من هذا إن الشرف يعني أكثر من العذرية، وأن ثمة شرفاً في استعادة وطننا (التأكيد لي).*

لقد ظلت خالد على قيد الحياة بعد محاولات اغتيال دبرها جهاز الأمن الإسرائيلي، وحتى بعد سجنها وإطلاق سراحها (في مبادلة للرهائن)، وحتى بعد زواجها وطلاقها. ويبدو مؤخراً أنها قد اختفت في بيروقراطية الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ووجهها الذي جرى تصويره كثيراً يجعلها الآن مسؤولة عن المهمات الإرهابية. ويتساءل المرء عما يعنيه ذلك لها. فهي لم تنجُ من كونها أنثى. ومن الواضح في المقابلة: حتى بالنسبة للنساء غير المرتبطات، أن إيماءات الاحترام، واحتجاجات الإنكار، يجب أن تؤدى. والمرأة التي تثور على الطريقة الذكورية تستطيع القيام بذلك فقط حتى المرحلة التي يمكن أن يبدأ فيها تمردها الخاص.

والكاتبة الداعية لتحرير المرأة، أندريا دوركين، امرأة خاضت ذلك التمرد في وسط ما اعتقدت أنه سوف يتحول إلى «الثورة»:

تزوجت من فوضوي، كان سابقاً في بروفو، وهو مقاتل متمرس بحرب عصابات المدن. واستيقظت بعد ثلاث سنوات وكان جوهر اهتمامي الكلي هو العمل المنزلي. وقد أُصبت بالإغماء التخشبي فعلاً؛ ولم أعرف من أنا بعد ذلك. وتحول «الحب» إلى عنف وانتهاك. وبعض الثوريين، مع ذلك، عليهم أن يقاتلوا طوال الوقت - إن لم يكن في الشوارع، فليكن في البيت. وعندما يفقد المرء كل أمل في تغيير أي شيء (قام به هو)، فعليه أن يعيش خارج اليأس بطريقة ما. إن البعض منهم ينتحر، وبعضهم يقومون باعتداء. وقد اعترفت أخيراً بنفسي كامرأة: ... لقد كنت ضحية، لرجل معين، لنظام جنسي كامل، لأوهامي الخاصة... وقد علمني زواجي، مثلما فعل السجن، طبيعة الظلم وأبعاده - في جسدي، حيث أتعلم بصورة أفضل.*

لقد أتت تلك الفكرة الثاقبة في بداية ما يمكن أن يكون رحلة طويلة نحو اكتشاف الذات، وإبداع الذات، وإثبات الذات. وعودة إلى عام ١٩٧٢، مع ذلك، كان صوتها لا يزال متردداً؛ وكانت لا تزال تحاول فهمه، ولا تزال تدرك دافعه ويأسه أكثر من إدراكها لدافعها ويأسها.

كم من الوقت يجب أن تحوم أصواتنا مترددة في تلك الفكرة الثاقبة؟

---

* كانت بروفو حركة مفككة في هولندة في أواخر الستينيات، وهي مزيج من الأسلوب الحياتي المضاد للثقافة ومن التكتيكات القتالية «الثورية». وكان الإصدار الأول لمجلة نشروها قد صودر لأنه حمل وصفة لصنع القنابل. وكما كتب دوركين، «كانت الفكرة هي توفير المعلومات؛ وكانت الفكرة هي إثارة الشرطة». («كل ما جرى مع بروفو أو أكثر قصة حُكيت مدعاة للحزن»، مقالة غير منشورة كُتبت عام ١٩٦٨، مقتبسة بإذن من المؤلف).

إننا نضع الفكرة الثاقبة، مثلما فعل الصوت الجماعي للكاتبات البرتغاليات «الماريات الثلاث»، في التأمل:

أتساءل إن كانت المقاتلة التي تحارب جنباً إلى جنب مع إخوتها... إنما تحارب جنباً إلى جنب مع إخوتها الحقيقيين، أو إذا كان هؤلاء الإخوة لا يزالون يحملون في داخلهم جذور الخيانة، سواء في حوار الكفاح الحالي وفي المدينة المستقبلية.

إننا نضع الفكرة الثاقبة، مثلما تفعل الجمعية المتمردة للنساء السالفادوريات، على شكل سؤال:

إن الأحزاب والحركات... اليسارية لم تتعامل، بشكل عام، مع مشاكل النساء بنفس التناغم الذي تواجه به المشاكل الاجتماعية الأخرى،... [لكنها] فهمت تحرير النساء... على أنه أمر تقني وخاص،... ويصبح تعاونياً واجتماعياً بعد أن تتحرر القطاعات المستغلة فقط، أي في مستقبل بعيد ولا يمكن التنبؤ به... هل ستتمكن منظمات الشعب من التركيز على تفاصيل الحياة اليومية، أم أنها ستترك هذا تحت رحمة الأيديولوجية المهيمنة؟

أكثر فأكثر، نتجرأ على وضع الفكرة الثاقبة على أنها حقيقة. ولا بد أن هذه الجرأة قد أتت من نساء العالم الثالث اللواتي هن أنفسهن مقاتلات قديمات في الصراعات من أجل التحرير. وقد أطلقت ماري أنجيليك سافاني من السنيغال على جميع الحكومات المعاصرة ـ من اليمين واليسار ـ تعبير «حكومات القضيب». وكتبت فاطمة المرنيسي المغربية أن القومية قد خانت النساء بصورة متكررة. وكشفت ليديا فالكون كيف أن الحزب الشيوعي الإسباني قد استفاد أولاً من حركة

تحرير المرأة ثم تخلى عنها. وتكتب آما آتا أيدو من غانا، «إذا حاولت، كامرأة، أن تثني عضلاتك باعتبارك كادراً ثورياً بينما رفاقك هم من الذكور بشكل سائد، فبإمكانك أن تضربي حائطاً صلباً بمثل هذه القوة بحيث قد لا تستردين ذاتك الأصلية... ولا تصابي بالصدمة ـ عند الفوز بالنصر ـ إذا هم أعادوك إلى الحجاب كجزء من عملية تعزيز الثورة».

إن وضع الفكرة الثاقبة بصورة **عمل** هو أصعب شيء على الإطلاق.

في مكان آخر وبصورة مفصلة قمت بتنظيم شكل متناظر مفصل بين النساء والشعوب المستعمَرة، مبينة أن الاستعمار يتطلب ثلاثة عناصر على الأقل: أولاً، السيطرة على الأرض، كي يتمكن من التنقيب عن مصادرها الطبيعية ـ في حالة النساء، «المصادر الطبيعية» لأجسادنا، في الجنس وفي التوالد؛ ثانياً، العزل المفروض على المستعمَرين عن مناطقهم بواسطة نظام يستند إلى الإقصاء والغموض ـ في حالة النساء، العزل عن الجسد الخاص للمرء (الافتقار إلى حرية التوالد وحرية التفضيل الجنسي) والعزل عن وجود المرء المحدد ذاتياً؛ وثالثاً، الاستعداد لدى الجانب المستعمِر لمقابلة جميع مطالب القرار الذاتي بذخيرة من القمع، من السخرية عبر الرمزية إلى الوحشية ـ في حالة النساء، تمتد الذخيرة عبر السخرية، والاختيار الفردي، والأشكال الأكثر صخباً في الرد: الاغتصاب، الاعتداء، **الساتي**، الحجاب، الإلغاء، البغاء، ووسائل مشابهة أخرى من الاستعباد.

وسأضيف الآن عنصراً رابعاً. إن المستعمَرين هم مصدر ثمين («كنوز حقيقية») في حروب المستعمِرين **ضد بعضهم بعضاً**: إن هذا، في الحقيقة، هو أحد الأسباب في وجود الإمبراطورية والملائمة لها. والأمثلة عديدة على ذلك: الفرقة العسكرية السوداء كلها (في جيش

معزول) التي تحارب من أجل الولايات المتحدة في الحرب العالمية الأولى؛ رجال المستعمرات في جزر المحيط الهادي الفرنسية الذين يحاربون من أجل فرنسا في حرب الهند الصينية؛ آلاف «الغونغا دين» الذين يدعمون الإمبراطورية البريطانية؛ جنود غورخا النيباليون الضواري المشهورون جداً في الجيش الهندي - تحت قيادة ضباط بريطانيين - الذين يقاتلون في حروب بريطانية؛ الجنود النيوزيلندون والأستراليون الذين ذُبحوا في غاليبولي، من أجل الإمبراطورية البريطانية؛ مواطنو المستعمرات والكومنولث الذين استخدمتهم تلك الإمبراطورية في حرب البوير... ويمكن للمرء أن يستمر ويستمر.

وقد خدم بعض المستعمَرين في جيوش سادتهم على مضض. كما سيق بعضهم ولم يكن أمامه خيار. وسُجلت أسماء بعضهم طوعاً. وخدم بعضهم كي يتعلم كيف يقوم السيد بشن الحروب، خوفاً من أن يشنها ضده يوماً ما. وحارب بعضهم بدافع ساخر لكنه قوي بصورة لا تُنكر **من أجل التماثل** معه، لأن مماثلته تعني أنهم بشر. (كانوا يأملون في مماثلته، على أي حال، بما أنهم رجال). وقد ظهرت الأمنية المسعورة في إثبات الولاء للمستعمِر مثل لازمة حزينة. فالرجال الملونون قاتلوا وقُتلوا وماتوا من أجل الرجل الأبيض على أمل الفوز باستحسانه واحترامه - وحريتهم.

هل من العجيب، إذاً، أن تُعرِّف النساء اهتمامات الرجال على أنها اهتماماتهن الخاصة؟ إن جميع النساء، في وقت أو آخر، بشكل أو آخر، مجبرات على القيام بذلك. والمرأة المتمردة في الدولة الذكورية المنتظرة إنما تتصرف عبر شكل آخر للمرأة الحزبية التي تسعى من أجل منصب

في الدولة الموجودة. والمرأة الإرهابية تفعل الشيء نفسه، تكتب الكثير بأحرف من نار.

يمكنني سماعها الآن، في دفاع غاضب: «إن اعتبار نضالي الثوري نضالاً يحدده الذكور يعني جعلي تافهة بالطريقة نفسها التي تزعمن فيها يا دعاة تحرير المرأة أن الرجال يجعلون النساء تافهات. إنك ترفضين أن تنظري إلي، وإلى سياستي، وإلى نضالي بجدية على أنها خاصة بي. إنك تعاملينني مثل بيدق في لعبة بين الرجال. هل هذه هي مساندتك؟ هل هذا ما تعتبرينه شعور الأخوات»؟

وسأجيب: «**نعم**. فمحاولة تبادل ذكر الحقيقة بيننا، مهما تكن مؤلمة، هي أعلى درجات الاحترام التي يمكن أن يقدمها إحساس الأخوات. والرقص مع عاشق الشيطان هو مجرد مراقصة الذات باتجاه التحرر المزيف بالموت. والتمرد على شروطه هو مجرد تمرد ضد تحدي العيش وفق شروطك الخاصة».

يخبرها (ويخبرنا كلنا) كيف تُعتبر قضايا النساء ضيقة وهامشية. ويخبرنا أحياناً بأن هذه القضايا قد تمَّ حلها وأننا جشعات وفاسدات في شكوانا. وأن هذه القضايا لا يمكن حلها أبداً وأننا نقاوم «الطبيعة». ويخبرنا أحياناً بالأكذوبتين كلتيهما في آن واحد. كما يخبرنا دائماً بأن حريتنا تعتمد على حريته. وما دامت هي (ونحن) تؤمن بأن الدعوة لتحرير المرأة تتعلق فقط بما يحدده هو على أنه قضايا النساء ـ التوالد، تطبيق الإنصاف، العناية بالطفل (مهما يكن حيوياً كل من هذه بحد ذاته) وستبقى هي (ونحن) في صراع. وليس قبل أن تتمكن هي، وأنتن، وأنا، من فهم فداحة الأمر ـ بأن جميع القضايا هي قضايا للنساء

ويجب تحديدها على طريقة النساء ومواجهتها على طريقة النساء أيضاً ـ ليصبح باستطاعة أي منا أن تتحرر وترفض قبول التمرد ضمن سياقه المميت.

إن المرأة التي تستلقي بين ذراعي الرعب إنما تُحتضَن في عبودية عاطفية معقدة. وثمة حبل، يلتف حول ذهنها، وهو سخطها الإنساني المبرر من ألم شعبها، أو بلادها، أو كوكبها. وهذا الغضب لم يسبق أن نُظر إليه بجدية، وبما أنها أنثى، فمن المتوقع منها أن تكون إيثارية، وهي، إلى جانب ذلك، أقل من الإنسان على أي حال. وهكذا يتسلل قيد آخر ليأخذ مكانه ـ غضبها لكونها امرأة فيما يبدو أنه عالم ذكوري من الإدراك والتفكير والعمل. وهناك، أيضاً، الحبل الحريري الذي أطلق عليه نتشايف اسم «الاستهلال»، وهو قيد لهفتها إلى الاستحسان والاحترام والقبول والذي قد يعني (كما كان يعني بالنسبة إلى ليلى خالد) الحرية والقوة النسبيتين؛ ويلتف حول عمودها الفقري. وفي عالمه، النخبة هم أولئك الذين يدعون أنهم يقاتلون ويضحون لمصلحة من هم **دونهم**؛ والمواجهة لمصلحتك **الخاصة** تعني إذلال الاعتراف بظلمك، وكذلك المخاطرة باتهامك بالأنانية. ولذلك فإن من تستلقي بين ذراعي الرعب تحاول التعلق بقيد آخر لإعادة الطمأنينة، وهو ينتظر كي يلتف وينعقد حول خاصرتها: إنه الهيبة. وسوف يلقنها الرجال وستكون (تقريباً) واحدة منهم؛ وسوف تنظر النساء الأخريات نحوها برهبة. وتتلازم الهيبة بسبب اقترابها الحاد من الموت: وتصبح أكثر حتى من كنز بالنسبة له، بما أنه سيفقدها وبما أنه يحب فقط ما يمكن أن يفقده أو يقتله. وتلتقي الآن هذه الخيوط حول عنقها بصورة كاملة مع خيوط أخرى ـ «غريزة رعاية الأمومة» المعززة جيداً لديها، التي تتوق إلى

إقحامها بين الموت والآخرين. وهي تعتقد في أحسن الأحوال، إذاً، أنه يستطيع تحريرها بالقضاء على الشخصية النسوية الأدنى من البشر التي حملتها. وفي أسوأ الأحوال، سوف تظل متحررة من تلك الغيرية القديمة. وإذا كان عليها أن تتبدد في نيرانه فإنهم سيمنحونها صيغتها من تعريفه للنشوة - «موقف خارج» الذات لن يسمح لها أبداً بالحصول عليه. وفي هذا كله يُسمح لها بالإحساس بأنها بطولية وإيثارية ونبيلة - وتشكل استثناء لجنسها. والقيد النهائي، وهو فولاذ حريري صاف بلون الياقوت الدموي، ينعقد بشدة حول قلبها: وهو، في كل حالة تقريباً، عاطفتها الشخصية تجاه رجل محدد.

وهل ستناضل الآن؟ لا يُحتمل ذلك. فمجموعة الجوائز الموعودة - من التمرد عبر الاحترام، والهيبة، والحرية والقوة النسبيتين، والحب التعويضي، والتحول إلى الطابع البشري وفق مصطلحاته - هو أمر تجده غير قابل للمقاومة.

لقد قاموا باستغلالها، منذ ماركس وعبر نتشايف إلى أورتيغا، واعترفوا بذلك. وصرحوا علناً باستغلالهم لها، وطبعوا ذلك، وأنكروه ثم أعادوا تأكيده، ومارسوه، ولا يزالون يمارسونه. وقد جعلوه أمراً بسيطاً: **إنهم بحاجة إلى النساء. ولا يمكنهم عمل ذلك بدون النساء**. والدولة المنتظرة لن تصبح الدولة الموجودة بدون مساعدتنا. والدولة الموجودة لا يمكنها تأكيد نفسها بدون مساندتنا.

إذا كانوا لا يستطيعون القيام بذلك دوننا، إذاً ماذا سيحصل إذا تحولنا عنهم، تحولنا إلى تعريفنا، ووسائلنا، وطاقاتنا؟

إن مثل هذه الرسالة من الذاتية والإحساس بالأخوات أكثر من مرعبة. وسوف يستغرق زمناً كي ترشح تلك الرسالة عبر الستائر الثخينة

التي تغطي سرير الرعب، وهو زمن يتناقص لدينا كل يوم. والنساء هناك في رعب فعلي لسماع ذلك. النساء يستلقين هناك، لسن على قيد الحياة كلياً ومع ذلك لسن ميتات مثل حشود دراكولا من العرائس، في عناق مع عاشق الشيطان، يثقن به، يثقن بحبه، يثقن بوعده بالخلود، يثقن بأكاذيبهن بأنهن قد اخترن ذلك. وفي مكان ما، في أعماق روحها الداخلية، كل شخص يشتبه بصورة مختلفة.

إنني أعرف هؤلاء النساء.

فقد كنت واحدة منهن.

الفصل السابع

الحنين إلى الكارثة:
رحلة شخصية

إنني حبلى بالقتل.
والآلام تأتي أسرع الآن،
ولا تستطيع كل مخدراتك
ولا حتى صرخاتي
إيقافها.

روبن مورغان، "إعلان" (١٩٦٩)

وأنا سأتكلم...
أكثر فأكثر بهراء مجنون لا يمكنك أن تفهمه:
تعويذات الساحرات، الشعر، همهمات العجائز،
رمز شيزوفريني، لهجات، عويل، قنابل نارية،
سم، سكاكين، رصاصات، وأي شيء آخر سوف تخترعه
هذه الحرية.

روبن مورغان، "الوحش" (١٩٧٢)

لم يكن أفضل الأوقات ولا أسوأ الأوقات، برغم المزاعم حول النقيضين. كان الوقت بين أواخر الستينات حتى أواسط السبعينات. وكان الاضطراب السياسي في الولايات المتحدة يمتد نحو الغليان. وكانت عقود من النشاط السلمي المؤيد للحقوق المدنية تنفجر في

الغـضب الأسـود، فـي الرجـولـة السـوداء، فـي النمـور السـوداء. وكـانت شاشات التلفزيون تنزف بألوانها الكاملة بمجازر فيتنام كل مساء في أخبار المساء. وكانت الحكومة الأمريكية تقصف قنابل النابالم وترش المبيد البرتقالي على امتداد فيتنام فيما دُعي بالعمل الشرعي لإنقاذ الحياة، ومع ذلك فعندما أضرم طلاب الجامعة في الوطن النار بعلم الولايات المتحدة احتجاجاً على الحرب، اعتُبر ذلك «عنفاً». وكان راب براون يعلن أن العنف أمريكي مثل فطيرة الكرز، وكانت الأمة لا تزال تترنح في أعقاب اغتيال جون ف. كندي، ثامن ضحية رئاسية لمثل هذا الهجوم ورابع من يموت فيه. وكانت أحياء الغيتو مشتعلة بالفاقة والضعف، والجامعات مشتعلة بالذنب والمثالية. وحتى **مراجعة نيويورك للكتب** الرصينة قدمت وصفة لصنع قنابل مولوتوف، واستضاف ليونارد برنشتاين حفلة كوكتيل لجمع الأموال من أجل النمور السوداء، وهو العمل الذي عُرف باسم «الأناقة الراديكالية».

لم يكن يبدو أنيقاً بالنسبة لبعضنا. وكنت إحدى العديدات من النساء اللواتي انطلقن خلال سنوات من الفعالية في حركة الحقوق المدنية والحركة المناهضة للحرب، وإحدى النساء اللواتي حملن الكدمات من عصي الشرطة الليلية، والتواءات وأربطة ممزقة من دعسات الضباط الفرسان في TPF (قوة الشرطة التكتيكية). وتظهر صوري التي التقطها رجال الشرطة في ذلك اليوم امرأة شابة تومض عيناها بإعياء ويتصلب فكها بتحد. وكانت أيامي ممتلئة بحشد من أعمال التحرير، والعمل المنزلي، والمظاهرات في الشارع التي انتهت بغيوم لاذعة من الغاز المسيل للدموع؛ وكانت لياليّ ممتلئة بالاجتماعات، والمزيد من

المظاهرات، ولحظات مسروقة من الكتابة ـ والخوف من أن يُقرع الباب. وكان جسدي، بطوله الذي لا يتجاوز الأقدام الخمسة، مشحوذاً بتدريب الكاراتيه، ولغتي مملحة بحشو الكلام، روحي ثائرة من الظلم الممارس على الآخرين. وكنت قد وقعت على التماسات، ونظمت سجلات للناخبين، وقمت بالحراسة، وشاركت بالمسيرات، وكتبت الكراسات والبيانات الصحفية والنشرات والمناشدات، وقمت بالمكالمات الهاتفية، وجمعت الأموال، والكفالات، والجحيم، وتعرضت للضرب، والاعتقال، والسجن، وإطلاق السراح، والخوف ـ طوال سنوات. وكنت بيضاء، ومتعلمة، ومتزوجة في ذلك الوقت. وعشت مع زوجي ـ وهو كاتب وراديكالي أيضاً ـ في الجانب الشرقي المنخفض من نيويورك، الذي كان آنذاك منطقة هامشية لأحياء الفقراء ومرتع الاضطراب السياسي. وكنت في أواخر العشرينات، ولم أكن الوحيدة المقتنعة بأنني يمكن أن أتعرض للقتل قبل بلوغي الخامسة والثلاثين. ولم أكن الوحيدة أيضاً المقتنعة بأن الثورة الأمريكية الثانية كانت وشيكة، ولم أكن الوحيدة التي أقسمت على إحداث تلك الثورة ـ بكل الوسائل اللازمة.

دعوني أطلق العنان لنفسي بتحذير مختصر ثم أنتهي من ذلك. مع أن اليسار الجديد كان مريضاً بشكل متطرف بالتمييز الجنسي ومسمماً بالتكبر ونفاد الصبر الأمريكيين، فإن هنالك أموراً أؤكدها فيما يتعلق بتلك الفترة التي دُعيت بشكل غير دقيق بفترة «الستينات». واليوم، عندما أصادف أشخاصاً ـ نساء أو رجالاً ـ من جيلي ممن تدبروا أمرهم بطريقة ما للبقاء طوال تلك السنوات من غير أن يتأثروا، أتعجب من نقص حيويتهم الأخلاقية. وعندما أصادف الذين كانوا في الشوارع

وعلى الحواجز ضد الحرب، والعرقية، والفاقة، لكنهم الآن مستقرون بارتياح في المواضع اللائقة من المؤسسة الأمريكية الريغانية، فإنني أتعجب أيضاً. ويسألني هؤلاء الآخرون أحياناً، بابتسامة مرتبكة، «كيف جرى أنك لا تزالين تحاولين إنقاذ العالم؟» ولا يمكنني الإجابة على ذلك، إلا بسؤال «كيف جرى أنكم لستم كذلك؟» وبالنسبة لي، كناقدة حادة لليسار الجديد، لم تكن المشكلة تتعلق أبداً بتخفيض التحليل الراديكالي أو القتال لإيقاف المعاناة التي سببتها الدولة الموجودة. بل كانت، بالأحرى، أن اليسار لم ينجح **بصورة كافية**، في التحليل، أو الرؤيا، أو الممارسة. وهو ما يجيب عليه، طبعاً، إخوتي الثوريون السابقون بأني تجاوزت الحد المعقول إلى درجة بالغة **جداً**. وما يمكنني تأكيده حول تلك الأيام، على أي حال، هو مثاليتنا وبراءتنا، وغضبنا المبرر، ونشاطنا. وكان ذلك النشاط يعبر عن نفسه أحياناً بمرح لا مبالٍ، وأحياناً بتكتيكات تنظيمية مبدعة، وأحياناً بالعنف - ضمن الزوال الوشيك لإحساسنا الساذج والمتلهف بالأمل.

بعد عدة سنوات، كنت واحدة من الناشطين الراديكاليين الذين تقدموا بطلبات للحصول على الملفات التي حفظتها الحكومة حول نشاطاتنا* ولا تزال بعض ملفاتي محتجزة حتى اليوم، بحجة أنها مصنفة. أما بالنسبة للبقية، حسن، لقد كان أمراً إرشادياً (ومزعجاً لي، كدافعة للضرائب) أن يروا كم كانوا مخطئين. وكان مكتب التحقيق

* أصبح هذا ممكناً بواسطة بيلا س. أبزوغ، التي كانت آنذاك عضواً في الكونغرس، والتي، بصفتها رئيسة اللجنة الفرعية في المجلس المتعلقة بالمعلومات الحكومية وحقوق الأفراد، تابعت أمر التغييرات في مرسوم حرية المعلومات.

الفدرالي ووكالة المخابرات المركزية بعيدين عن الموضوع بشكل مفرح إلى درجة أن أفرادهما كانوا يستحقون الطرد ليس بسبب انتهاك الحريات المدنية فحسب بل وبسبب عجزهم أيضاً. أولاً، لقد صنفوني (باسم a.k.a.، «معروفة أيضاً باسم») تحت كل من كنيتي وكنية زوجي، وكأن أحد الإسمين كان اسماً رمزياً. لكنني لم أكن أستخدم اسم زوجي، داخل الحركة أو خارجها. وقد أربكهم هذا كلياً. ثانياً، تمكنت مراقبتهم من وضعي بصورة متكررة حيث لم أكن أبداً ونادراً حيث كنت فعلاً. ثالثاً، كانوا متأكدين بأن المحادثات الهاتفية (المتعلقة بأعمال التحرير، أو الكتب التي كنت أقرأها أو أكتبها، أو المهمات المنفذة) كلها إشارات سرية لأعمال قتالية. وكأنني كنت غبية إلى درجة أن أناقش مثل هذه الأمور، حتى بالرمز، عبر هاتف منزلي متصل بفروع بحيث أن عوامل التشويش كانت تسبب طقطقة كثيرة مثل حبات الكستناء في النار يوم العطلة؛ وكانت نكتة عائلية أن علينا أن نسأل بشكل متكرر، «هل يمكن الحصول على خط خارجي، من فضلكم؟» عبر دندنة مسجلاتهم. وكان أمراً إرشادياً أيضاً أن الملفات قد جُمعت عني ليس بواسطة مكتب التحقيق الفدرالي ووكالة المخابرات المركزية فقط ولكن بواسطة جهاز الأمن السري للبيت الأبيض أيضاً. وكنت كما يبدو على قائمة الراديكاليين الخطرين لدى جهاز الأمن السري كي تتم ملاحقتي كلما سافر الرئيس إلى نيويورك، وعلى قائمة الأشخاص المؤهلين للتوقيف بدون تهمة والاعتقال في «الحجز الوقائي» - الذي لم يكن قانونياً. والأمر الأكثر سخفاً، أن القوة الجوية كان لديها ملف لي. وحتى هذا اليوم، يمكنني أن أتصور ذلك الملف. ربما شعروا بأنني كنت أجمع

أسطولاً جوياً أمازونياً، وأن آلاف النساء سوف يغطين السماء، ويراقبن البنتاغون بالعدسات المكبرة وهن يركبن مكانسهن بتشكيل كامل. وأعترف أنني وجدت الفكرة ساحرة. ولكن مهما كانت فرضياتهم سريالية، فقد كان هناك رجال حقيقيون قرأوا وقصوا، وتنصتوا وسجلوا، وجلسوا في سيارات غير مميزة وهم يراقبون، ولاحقوني أنا وغيري من أمثالي عبر شوارع حياتنا، وتسللوا إلى اجتماعاتنا، وقاموا بدور العملاء المحرضين، وقدموا التقارير والتحليلات. وكانوا يخطئون في أغلب الأوقات.

خلال بحثي من أجل الكتاب الذي تمسكونه الآن بين أيديكم. قمت بمسح لمختارات أدبية عنوانها **النساء العنيفات**، إعداد نورمان هيل. وكانت مصدر تسلية لي في ذلك اليوم. كان هيل قد طرح شبكة واسعة تماماً من أجل موضوعه. وتضمنت مقالات عن بعض النساء العنيفات مثل شارلوت كوردي (التي اغتالت مارات خلال الثورة الفرنسية)، والقائدة المعتدلة في القرن التاسع عشر كاري نيشن، والنازية إلسي كوتش، وبعض المعاصرات مثل أنجيلا ديفس، وعضوات جماعة الطقس برناردين دورن، وكاثي ولكرسن، وكاثي بودين، وديانا أوتون، ونصيرات مانسن سوزان أتكنز وباتريشا كرنوينكل ـ وأنا. ومن الواضح أنني كنت بينهن لأنني نصحت النساء بتعلم تقنيات الدفاع عن النفس ضد المغتصبين، ولأنني كتبت بيانات «متطرفة» تدعو إلى «تخريب إداري ضد القوة الذكورية البيضاء التي جُنت». ليبارك الله الرأس المدبب الصغير لجامع المختارات الأدبية ذاك. فلو كانت لدى هيل أي فكرة عما فعلته غير ذلك، لانطلق وهو يصرخ في الليل مثلما فعل

بايرون عندما حكت له ماري شيلي للمرة الأولى ملخص قصة ستضع لها فيما بعد عنوان **فرانكنشتاين**.

كانت الدعوة لتحرير النساء قد بدأت تتسلل إلى حياتي مع منتصف الستينات. لكنني بقيت ممزقة طوال عقد تقريباً بين أولوياتي الناشئة الداعية لتحرير المرأة وولائي لليسار الذكوري، حتى في فترته العنيفة. ولم أكن طالبة جامعية آنذاك، ولم أكن عضواً أبداً في تنظيم SDS (الطلاب من أجل مجتمع ديموقراطي) أو فرعه، جماعه الطقس السرية. لكنني كنت منشغلة، على أي حال، في مجموعات صغيرة بلا اسم سابقة لجماعة الطقس والتي كانت تؤمن «بالدعاية المسلحة». وقد انقضت الآن الفترة المحددة بقانون قيود الاتهام بالنسبة لبعض الأعمال، كما لم تنقضِ بالنسبة لبعضها الآخر. وأنا لا أثق كثيراً «بحكومتي». ولذلك، لا يمكنني كتابة هذا الفصل بالطريقة التي ربما كنت سأكتبه فيها قبل سنوات ـ إذا كان الكوكب، وأقل من ذلك أنا، لا يزال قريباً آنذاك. بالإضافة إلى ذلك، خلافاً لبعض الناشطين في ذلك الوقت الذين انحرفوا في شجبهم السياسي المتلهف بعيداً إلى اليمين الذي اختاروه كي يقدموا طوعاً أسماء أشخاص آخرين في عربدة كتابة الاعترافات، إنني لا أنوي أن أعرض للخطر حتى الأشخاص الذين لم أعد أثق بهم أو أحترمهم. على الأقل إن الكتابة تحتاج إلى عناية مثل التعامل مع المواد المتفجرة. ومع ذلك فإن القاعدة في كل أيديولوجية هي المنظور التجريبي. وكداعية لتحرير المرأة، أعرف أن الشخصي **هو** سياسي، وأن تأكيد الذاتية هو دليل على السياسة الصادقة والإنسانية. ولذلك يبدو هاماً هنا استكشاف بعض ما عملت ـ ولماذا ـ عندما كنت امرأة عاشق الشيطان.

إن السياق مهم. فالنساء كنّ يشكلن القاعدة في حركة الحقوق المدنية، وقد تابعن القيام بذلك في الحركة المناهضة للحرب. وطوال سنوات، كنا ندير آلات النسخ وليس الاجتماعات، ونصنع القهوة وليس السياسة. وفي حركة الحقوق المدنية، أحدث التقاء التمييز الجنسي والعرقية أعراض «أعطني بعض حقوقي المدنية الليلة، يا حبيبتي»، لدى بعض الرجال السود - مع إذعان بعض النساء البيضاوات نتيجة الشعور بالذنب وتلك الرغبة القديمة في القبول؛ وخلال ذلك، حصلت النساء السوداوات على أسوأ ما في العالمين كليهما*. وعبارة «انتبهي أيتها البيضاء، فالقوة السوداء سوف تنال أمك» كانت تهديداً من إحدى مجموعات الرجال إلى مجموعة أخرى، رسالة تتضمن تحولاً في ملكية الكائنات البشرية الأنثوية. وبالنسبة لليسار الذكر الأبيض، كانت بعض القضايا، مثل الاغتصاب والإجهاض والنشاط الجنسي والعناية بالطفل، وحتى الفقر والسلام، ضيقة وبرجوازية عند مقارنتها بالقضايا التي كانت تعتبر «عالمية» - مثل مسودة حقوق المحاربين القدماء. وكان ما يُدعى بالثقافة المضادة أسوأ حتى بالنسبة للنساء. وفي احتفال وودستوك المبجل، كان يُقدَّم للنساء المطمئنات مادة LSD المخدرة في المشروبات غير الكحولية، ثم يتعرضن للاغتصاب الجماعي. كانت كراهية النساء تعلن بهذا الأسلوب: دعت إحدى عصابات «مقاتلي الشارع» في نيويورك نفسها باسم مضاجعي الأمهات؛ دُعيت مجموعة مقاتلة سياسية بورتو ريكية باسم اللوردات الصغار؛ وبعد ذلك بقليل،

* **لكن بعضنا شجاعات**، إعداد باربرا سميث وغلوريا هال وباتريشا بيل سكوت (نيويورك: المطبعة النسائية، ١٩٨٢) توثيق لاذع وجريء لتجربة النساء السوداوات في تلك الفترة.

كان رجال الطقس ـ على الرغم من تغيير لاحق لاسمهم في محاولة لاختيار نقادهم ـ قد ظلوا في أعماقهم **رجال** الطقس.

كانت النساء الراديكاليات مثلي لا يزلن بعيدات جداً عن تصنيفهن **كنساء**: كنا فراخاً أو طيوراً، وكنا نخاطب بعضنا بعضاً «هيه، يا رجل»، تقليداً لنداءات الشارع، وقد صُنِّفنا بشكل عام ضمن ثلاث فئات. كانت هناك أمهات الأرض، اللواتي نشرن التربية السلبية البالغة اللطف والمنتمية إلى عامة الشعب؛ وقد طبخن قدوراً لا تنتهي من الطعام للمظاهرات الجماعية، ولففن لفافات الماريجوانا لرجالهن، ولم يتفوهن بشيء. ثم كانت هناك النساء الثوريات المتماشيات مع العصر، اللواتي سرن أميالاً طويلة في المظاهرات، ولففن لفافات الماريجوانا لرجالهن، ولم يتفوهن بشيء. وأخيراً، كانت هناك الرصينات الرمزيات القلائل، اللواتي عن طريق المثابرة المطلقة والقيام ببعض المساهمات الفريدة تمكنّ من إقحام أنفسهن في اللجان المركزية المتعددة فيما اتخذ صفة المجموعات البعيدة عن التسلسل الهرمي. وربما كانت مثل هذه المساهمة تتخذ شكل المهارة شبه القانونية أو شبه الطبية، أو قد تستغرق ببساطة في تأمين الأموال لتمويل أحد المشاريع. وعلى الأغلب، كانت المرأة تدخل الحلقة الداخلية بالأسلوب التقليدي: عن طريق ارتباطها برجل موجود هناك. لتحل علي اللعنة إذا كنت سأطبخ الحساء، وأسير أميالاً، ولا أقول شيئاً، وألف عن عمد لفافات الماريجوانا المهلهلة. ولتحل علي اللعنة إذا لم أكن سأفوز بالقبول بحكم حقي الشخصي. إن المهارة التي ساومت عليها كانت الاتصال، الكلمة المحكية والمكتوبة.

وكان علي أن أدرس بعض المهارات تباعاً، وقد أتمنى ذات يوم لو أنني لم أتعلم ذلك أبداً.

تبدو لي تلك السنوات تدريباً على **عدم** الارتباط المتعمد. دوامة الأحداث، نقص التحليل، الرعب المزمن، الوهم الذاتي والمتبادل بأننا كنا على حافة إسقاط الدولة، في تأمل كشف النقص ليس في الإستراتيجية فقط ولكن في الجوهر. وبعد أكثر من خمس عشرة سنة فاصلة من مواجهة التعقيد والصبر في الحركة النسائية، أجد أنه من الصعب أن ألقي بنفسي عائدة إلى مجموعة العقل السابقة تلك. وعندما أحاول الوصول إلى تبرير لبعض أفعالي، فإن ما يظهر ليس نموذجاً واضحاً ولكن ذكرى إحساس، سلسلة من اللحظات الحيوية المتفرقة.

* * *

إنني إحدى سبع نساء ـ ثلاث منا بيضاوات ـ في مكتب مؤتمر المساواة العنصرية؛ في لقاء مشترك مع لجنة التنسيق الطلابية السلمية. وهناك أكثر من عشرين رجلاً، أسود وأبيض، ويديرون الاجتماع. وكان ثلاثة عاملين في الحقوق المدنية ـ رجل أسود ورجلان أبيضان ـ قد اختفيا في الميسيسيبي، والتقت المجموعات من أجل هذه الأزمة. (عُثر على جثث الرجال الثلاثة الذين أعدموا بدون محاكمة ـ جيمز إ. تشاني وأندرو غودمان ومايكل شويرنر ـ بعد ذلك، وقد عُذبوا حتى الموت). وخلال ذلك، كان مكتب التحقيق الفدرالي والشرطة المحلية والحرس الوطني يجرفون البحيرات والأنهار بحثاً عن الجثث. وخلال البحث، تمَّ العثور على الأجزاء الممزقة لحوالي سبع عشرة جثة بشرية مختلفة. ونصاب كلنا في مكتب نيويورك بحالة ذعر. ومع تسرب الكلام حول صعوبة تمييز الأجساد الممزقة والمتفسخة منذ وقت طويل، نعرف أيضاً أن جميع الجثث غير المميزة ما عدا واحدة هي لإناث. ويدمدم أحد القادة

الذكور في مؤتمر المساواة العنصرية، وهو بحالة غضب، «كان ثمة حالة إعدام لعينة كاملة لم **نسمع** عنها. وقد اختفى أخ حتى أنه لم يُبلَّغ **عنه**».

ويُصاب ذهني بالدوار. هل سمعت بشكل صحيح؟ هل كان يعني ما اعتقدت أنه يعنيه؟ إذا كان الأمر كذلك، فهل تتكشف عرقيتي في إحساسي بالرعب؟ وأخيراً، أخاطر بسؤال تجريبي. لماذا كان إعداماً **واحداً**؟ ماذا عن الجثث النسائية الست عشرة غير المميزة ؟ ماذا عن...

ويعم الصمت المطبق. ويحدق الرجال الموجودون في الغرفة، السود والبيض، نحوي. وتحدق النساء الموجودات في الغرفة، السوداوات والبيضاوات، نحو الأرض. ثم يأتي الجواب، بأسلوب نافد الصبر، وكأنني معاقة سياسياً. «من الواضح أن تلك كانت جرائم **جنسية**. إنها لم تكن **سياسية**».

وأقع صامتة.

* * *

يدفعني جلدي الأبيض إلى الاشمئزاز. ويدفعني جواز سفري إلى الاشمئزاز. إنهما علامتا امتياز لا تُحتملان وثمنهما هو معاناة الآخرين. لو كنت أستطيع سلخ نفسي وقلب باطني لظاهري لشعرت بالسرور. لو كنت أستطيع أن أصبح جزءاً من المضطهَدين لأصبحت حرة.

علي أن أقوم بشيء ما، شيء ما أكثر مجابهة للنظام مما فعلت حتى الآن. كما أنني أؤمن بأن المضطهَدين سوف يفوزون ـ وأريد أن أكون في الجانب الفائز.

لا أفهم بعد أن سياسة الذنب هي حالة شلل ملائمة، انتحار أخلاقي، تناقض في المصطلحات.

لا أفهم بعد أنني الآن جزء من المضطهَدين.

لا أفهم بعد أنني الآن في الجانب الفائز.

* * *

مع تزايد الطابع القتالي للحركة السوداء، يُطلب من البيض أن يذهبوا ويتنظموا في مجتمعاتهم الخاصة. وهذا ما يبدأ بعضنا بعمله. لكن الرجال البيض يريدون تقليد أسلوب الرجال السود، والنساء البيضاوات يردن تقليد ما يريد تقليده الرجال البيض. (لا أحد يريد تقليد النساء السوداوات، الموجودات في قاع الكومة، وهن يحاولن تقليد الرجال السود والمحافظة على ذلك في الوقت نفسه). إن الضغط المقابل في الحركة البيضاء حاد. ويتجه الزخم نحو الكفاح المسلح. وصرخة جمع الشمل الجديدة لحركة السلام هي «أعيدوا الحرب إلى الوطن». ولا يجرؤ الكثيرون على إظهار السخرية في ذلك. إن النساء القليلات والرجل النادر يناقشون ضد هذا الاتجاه ويتعرضون للسخرية على أنهم جبناء، أو ليبراليون، أو أنهم في ذروة الأمور المرعبة ـ **برجوازيون**. (في استعادة للأحداث الماضية، يعتبر هذا الضغط من أجل التوافق من النوعية نفسها التي وصفها مستشار الأمن القومي السابق روبرت ماكفارلين في جلسات الكونغرس عام ١٩٨٧ حين شهد بأن التحدث ضد المخططات العدوانية، مهما تكن رعناء ـ مخططات مثل صفقة إيران كونترا ـ كان المجازفة بأن ينهض شخص ما في اجتماع مجلس الأمن القومي ويصنفك بأنك شيوعي)*.

* انظر الفصل الخامس من أجل أمثلة رتشارد بارنت حول هذا الضغط كما تأسس في محافل السلطة التابعة للدولة الموجودة.

قيل لي إن بيان «نحن فعلنا ذلك» الذي أُرسل بعد العمل الأخير كان خاطئاً. وكان متقداً جداً، وانفعالياً جداً، وممتلئاً بشكل قاصر بالكلمات الطنانة المقبولة من نوع: **مذاهب** «الإمبريالية»، «الفاشية»، «الرأسمالية». وطُلب مني أيضاً ألا أكتب وبالتأكيد ألا أنشر أي شيء خاص بي لفترة معينة. وقيل لي إن أسلوبي يتميز بالطابع الفردي إلى حد كبير. وهذا سيجعل مني خطراً أمنياً. وأحاول جعل البيان التالي عاصفاً بالكلمات الطنانة المقبولة بقدر الإمكان. وحصلت على المديح في ذلك.

أستمر في كتابة القصائد. ولا أخبرهم بذلك.

* * *

ينخرط الأصدقاء في العمل السري - بعضهم باختيارهم، «لبناء الجيش الشعبي»، وبعضهم كهاربين من القانون ومتهمين بأفعال ربما ارتُكبت وربما لا. أجلس على ربوة معشوشبة معزولة في الحديقة العامة، ومعي أربعة رجال وامرأة أخرى. وأشعر بالابتهاج لأنني بينهم. ونحن، وفق المحادثة، «مجموعة اتصال» أو «كادر» أو «خلية» - ولو أنها ليست خلية في منظمة أكبر. وتستمر المناقشة ساخنة بأصوات منخفضة: هل سنجري أم لا اتصالاً تحذيرياً مع البناء - مصرف أو مكتب هيئة التجنيد - حيث يُحتمل أن توضع قنبلة صغيرة تلك الليلة. وأصرّت المرأتان كلتاهما على الاتصال، وعارضه الرجال الأربعة جميعهم. ويناقش الرجال بأن الأمر يحمل مجازفة غير ضرورية حتى من غرفة هاتف عمومي؛ والبناء سيكون فارغاً على أي حال، والحارس الليلي يقوم باستراحته مع توقيت انفجار الأداة تماماً، ولا أحد يمكن أن يصاب

بأذى. وتتحدث المرأة الأخرى عن المبدأ في الأمر. ولا يُكترث بها. وبما أنني براغماتية، أثير موضوع نساء التنظيف اللواتي ربما يكنّ في البناء آنذاك. ويسكتني الرجال بذلك التحديق المحتقر المألوف.

يقول أحدهم، «إذا كنت مشغولة البال بإنقاذ الحياة، اشتغلي عاملة إنقاذ»..

وأضيف، بحدة، «من المحتمل أن تكون نساء التنظيف سوداوات أو لاتينيات».

وفجأة، يتغير موقفهم. إن نساء التنظيف، كإناث، لا علاقة لهن بالموضوع. أما كسوداوت أو لاتينيات فإن من حقهن أن يُحذَّرن ـ **لأن السلالة والعرق هما مساواة تشترك فيها النساء مع الرجال..**

وتتم الموافقة على القيام باتصال تحذيري. وأشعر بالارتياح..

وسط ابتهاجي لأنني بينهم، أشعر بسعادة فائقة تتعلق بسياسة مختلفة، سياسة لا يمكنني تسميتها حتى الآن..

* * *

حاول بعض الرجال تعليمي إطلاق النار من البندقية. وتخلوا عن ذلك باشمئزاز. يقولون أن جسمي صغير جداً، وإنني أظل أضغط على الزناد وعيناي مغمضتين في الوقت نفسه، وأن الارتداد يجعلني أقع عن قدمي فعلاً.

وأصمم على التعلم.

وبعد ظهر أحد الأيام، تعلمني امرأة إطلاق النار. وأكتشف أنني أستطيع مباشرة التعلم حالما تقول، «انظري، مهما قال لك الشباب، إنها تؤذي. وثقيلة الحمل جداً وصعبة في التسديد. وأيضاً مثل انفجار عند

أذنك وضربة مفاجئة لكتفك. أعني، لا أدري لماذا يصرّون على ذلك. إنه ليس لهواً. ولكن علينا أن نتعلم».

علينا أن نتعلم، أيضاً.

أصدقها. لم أعد أشعر بالفشل لعجزي عن تحديد مرح ذلك كله. إنني ممتنة لها.

وأتعلم كيف.

* * *

تعرضنا، زوجي آنذاك وأنا، للانتقاد لرفضنا طرح كتبنا وآلاتنا الكاتبة القديمة المعطوبة. تلقينا إنذاراً كي نكون حذرين من ميولنا البرجوازية. تتذمر إحدى مجموعات اتصالنا بأن الاستخدام الثوري الوحيد للآلة الكاتبة هو قذفها من النافذة على جمجمة شرطي. ونستمر في رفضنا.

* * *

«هذا سلك الدارة الكهربائية، وهذه البطارية. وهذا الموقت. هل تفهمين؟»

أفهم. أريد أن أفهم. لا أريد أن أفهم.

«هل تعرفين كيف تستخدمين مسدس اللحام؟»

أومئ برأسي.

يداي ترتعدان. أجبرهما بقوة إرادتي على التوقف.

وأومئ برأسي.

* * *

أسمع نفسي أتحدث طوال الوقت. في الخطابات، في الاجتماعات، في البيانات. أتحدث لنفسي. إذا كانت مهارتي تكمن في الاتصال، فماذا تفعل هذه الأسلاك في يدي، ما هذه الأعواد الغريبة المثبتة إلى بعضها بعضاً مثل الشموع الملفوفة بالورق في توهجها المظلم النهائي؟

أكرر لنفسي، إنها أحد أشكال الاتصال.

وأجيب نفسي، إنها تنهي الاتصال. هذه الأعواد يمكن أن تفتح الحنجرة ليس من أجل الكلام أو الغناء. هذه الأعواد يمكن أن تفتح الحنجرة في ألياف العضلة، في رذاذ الدم، في قطع اللحم المفحمة.

أحاول التحدث مع الآخرين حول هذا.

لا أحد يتكلم لغتي هنا.

لا بد أنني على خطأ. لا بد أنني قد جننت..

* * *

لا أحب أياً من هؤلاء الرجال. إنني أحتقرهم سراً. وأهنئ نفسي سراً بأني فعلاً «مأخوذة»، متزوجة، آمنة ـ وأن رجلي، مع أنه ثوري، ينجذب إلى اضطرابات الشارع أكثر من هذا النوع من النشاط الخليوي. وبعض ما أقوم به لا يعرف بشأنه حتى والعكس بالعكس؛ وهذا أفضل من أجل الأمن.

أراقب كيف تتم مقايضة النساء بين هؤلاء الرجال. الرجال أنفسهم لا يجذبونني. إن ما **يفعلونه**، وما **يشكلونه**، وما **يمثلونه** هو الذي يجذبني.

المجازفة. المهارة. القوة.

إنني لا أريد هؤلاء الرجال. لا أريد أن أكون هؤلاء الرجال. أريد

فعلاً أن أكون ما هم عليه هؤلاء الرجال. لكنني لا أحب ما هم عليه هؤلاء الرجال.

اجتماع إثر اجتماع، وعند مرحلة معينة أذهب إلى الحمام وأتقيأ - بهدوء، ويجري ماء المغسلة ، يتدفق ماء المرحاض باستمرار، وهكذا لا أحد يمكن أن يسمع. ثم أشطف فمي، وأغسل وجهي، وأعود إلى الاجتماع بمظهر هادئ مدروس.

إنني أحتقر هؤلاء الرجال. ولكن ثمة شيء يتعلق بهم أريده. أريد ثقتهم بحقهم في الاستيلاء على السلطة.

* * *

أحب هؤلاء النساء. لكنني أشفق عليهن، أيضاً. بسبب رجالهن. وأظن نفسي أفضل حالاً، وآمن. أرفض الارتباط بإحدى الخلايا بسبب القاعدة التي تسير عليها بأن على كل امرأة جديدة أن تذهب إلى السرير مع كل رجل من المجموعة، من أجل «التماسك الأمني». ويقولون ثانية إنني برجوازية. أخرج. وأقول لنفسي إنني مختلفة عن هؤلاء النساء، إنني آمنة. ويجعلني هذا أتمسك بالزواج. إذا كانت هناك معاناة في زواجي، فهناك حب أيضاً، هناك التزام. على الأقل لدى كل منا الآخر في مواجهة العالم. لكن هؤلاء النساء - إنني أشفق عليهن.

إنني أحترمهن أيضاً. وأخشاهن. أحب أن أجعلهن يخشينني ويحترمنني. أحب طريقة عدم وجودي هنا بصفة تابعة للرجل، بل بصفتي الخاصة. هذا يدعو للنشوة.

* * *

ليكن ذلك. الآن. نهائياً. لينته ذلك. ليقبضوا علي، ليقتلوني. لينته ذلك..

إنني خائفة بشكل رهيب، كل دقيقة، كل يوم.

لا يمكنني العيش في هذا الخوف. اللهفة المحمومة للعمل هي لهفة لانتهائه، والتخلص منه، ببساطة.

إنها صفقة عادلة: إذا كنت سأتدبر أمر قتلهم للآخرين، فليتدبر الآخرون أمر حياتي.

أرى العالم حولي مفتقراً إلى سلامة العقل، والرقة، والمرح. وأعتقد أن الذين سيتدبرون أمر حياتي ينالون أسوأ ما في هذه الصفقة.

أريد أن ينتهي ذلك.

* * *

أدرك بأني لا أريد نساء أخريات هنا. أريد أن أنقذهن من هذا.

أريد أيضاً أن أكون الرمز.

أريد أن أكون الوحيدة.

اجتماع إثر اجتماع، أذهب إلى الحمام وأتقيأ. أقول لنفسي إنه إجهاد الثورة.

* * *

حتى هذه المرحلة من حياتي كان الجنس أمراً تافهاً، وفي أحسن الأحوال تعبيراً عن الرقة، وفي أسوأ الأحوال عملاً رتيباً. ولم أستطع فهم السخط المتعلق به.

لكن **هذا** ـ الأيدي ترتجف، الحنجرة تجف، القلب يدق، العقل في ضباب من الإثارة، الجسد متوازن، مبتهج، خطر الانجراف نحو الزوال، شهوة المطالبة بالسلطة ـ لا بد أن هذا يفوق أي شيء يعنونه بالمتعة الجنسية.

* * *

هنالك امرأة محددة. أتخيل أننا نتشارك بلغة ما. أخمن أنها نظيرة في الطاقة والذكاء والقدرة على المجازفة. لكنني تمردت وهي تقلص هذه الميزات في حضور رجلها. أجده أبلهاً في غروره، طلق اللسان فيما يتعلق بأمنه، مهملاً في انضباطه. لا أستطيع فهم علاقتهما. وأعتقد أن زواجي مختلف.

إنها **هي** التي أحبها قليلاً، وليس أي من هؤلاء الرجال. وهذا لا يخطر لي في ذلك الوقت. لا يخطر لي أن حبها هو طريقة لحب نفسي من أجل ما أقوم به.

* * *

تتراكم أوراق الاعتماد بتصعيد من التفوق الذكوري إلى الاستشهاد. من الأفضل أن يتعرض المرء للضرب من أن يتعرض للقنابل المسيلة للدموع. ومن الأفضل أن يتعرضء للاعتقال من أن يتعرض للضرب. من الأفضل أن يتعرض المرء للمحاكمة والسجن من أن يفر وينطلق حراً. وكذلك من الأفضل أن يشاغب في السجن من أن ينظم في الجوار. والأفضل أن يموت ـ في شغب بالسجن، في إطلاق للنار، في انفجار سيئ التوقيت.

أن يكون ميتاً هو الطريقة النهائية كي يكون لائقاً سياسياً. وعندئذ فقط يكون المرء فوق الانتقاد.

ذات يوم انفجرت ضد صديقة لي، «ولكن يا إلهي، ألسنا نريد أن نفوز بهذا الأمر؟ **أليس علينا أن نعيش كي نقوم بذلك**؟»

* * *

أصبح حبلى. إنه قرار واعٍ اتخذناه بشكل مشترك زوجي وأنا، إنه

طفل مرغوب به. يقول الأصدقاء إننا مجنونان. أستمر في صف الكاراتيه حتى الشهر الخامس، ولكن دون التعرض إلى سقوط أمامي. إنني مستغرقة في مجموعة نسائية، لكنني لا أزال أعتبر «تحرير النساء» جناحاً يسارياً، نوعاً من المساعدة للسيدات الراديكاليات. ومع أن أغلبهن يساريات مثلي، فإن النساء في مجموعتي لا يعرفن شيئاً عن نشاطاتي الأخرى. ومع ذلك فإنني أعدي المجموعة بأسلوبي المستورد. وقد باشرن جميعهن بأخذ دروس الكاراتيه. أحاول تنظيم «معسكر مهارات للنساء». ستة أسابيع من التدريب الأساسي على الأسلحة النارية، والدفاع الذاتي، والسيارات (كيفية قيادتها وإصلاحها)، التقنيات الأساسية للطوارئ الطبية، الاتصالات اللاسلكية للهواة، «الكيمياء التكتيكية» الأساسية (الروائح، السموم، الترياقات)، رموز مورس وإشارات السيمافور والكتابة بالشيفرة، أساسيات المعسكرات الموقتة وتقنيات المحافظة على الحياة، المهارات الكهربائية الأساسية (كيفية وصل المصابيح الكهربائية والأدوات...)، «الإلكترونيات التكتيكية» الأساسية (كيفية وصل «الأشياء الأخرى»، وكيفية فحص وفك أعطال الأجهزة...). وفي لحظة تأكيد ضالة للحياة، أضيف إلى المنهاج أساسيات النجارة والتمديدات الصحية، وتقنيات الإجهاض شبه المحترفة، والتحدث بالإسبانية، ومهارات الطباعة الأساسية.

وعندما أعرض الفكرة على إحدى المشاركات الأوليات في المؤتمر، تفقد النساء الأخريات حماسهن بعد نحو ستة أسابيع من التدريب الأساسي.

في ذلك الوقت، لا يمكنني تصور سبب عدم اهتمام النساء.

* * *

«أرفض زرع الأداة في غرفة السيدات».

«أنت المرأة الوحيدة في المجموعة، أنت صغيرة الجسم، ويمكن أن تظهري بريئة، وستكونين أقل مدعاة للشك من أي منا».

«ولكن لماذا يجب أن تكون في غرفة السيدات؟»

«لأنك لا تستطيعين دخول غرفة الرجال، أيتها البلهاء. ولأن المرحاض أفضل مكان لعدم كشفها».

«لكن السكرتيرات هن اللواتي سيتعرضن للأذى أو حتى القتل عندما تنفجر في غرفة السيدات! **إنهن** لا يملكن أي سلطة!»

«إنها سوف تنفجر **بعد** ساعات، وحق المسيح!»

«وماذا إذا كان ثمة واحدة تعمل متأخرة وذهبت إلى غرفة السيدات؟»

«اسمعي، اللعنة! إنها شركة متعددة الجنسيات! ومن يقوم هناك بعمل ما يستحق ما يصيبه. لا تكوني موسوسة لعينة!»

«إنني لن أضع الأداة في غرفة السيدات».

* * *

ينشق تنظيم SDS (الطلاب من أجل مجتمع ديمقراطي) إلى فئات متعادية؛ وتنشأ RYM (حركة الشباب الثوريين)، ثم RYM-I، ثم RYM-II، وأخيراً جماعة الطقس. وسرعان ما يهيمن جماعة الطقس (ومعهن النساء اللواتي دعون أنفسهم هكذا) على حركة اليسار الجديد كلها بهيبة تفوق الحياة، باعتبارهم «ثوريين» بيض يدعون إلى الحرب

المحلية. ويسيطر جماعة الطقس بزهوهم واختيالهم على الاجتماعات، ويحددون الأولويات، ويعتبرون كل كفاح غير مسلح خارجاً عن الموضوع أو رجعياً حتى. وتوضع النساء في مناصب قيادية مزيفة عالية السمعة لإبعاد النقد عن حركة تحرير المرأة المتنامية بسرعة. وأنا إحدى العديدات من النساء اللواتي لا يؤمنّ بقوة النساء في منظمة الطقس؛ فقد جرى اتهامنا بأننا صاخبات ومسببات للخلاف. وتتكاثف بلاغة العنف. وتتمجد «أسرة» تشارلز مانسن وجرائم القتل التي ارتكبوها. وفي بيان عام في «مجلس الحزب الوطني»، يُظهر جماعة الطقس إعجابهم بقتل مانسون للممثلة السينمائية الحبلى شارون تيت: «لاحظوا ذلك: لقد قتلوا الخنازير أولاً، ثم تناولوا العشاء معهم في نفس الغرفة، حتى أنهم أقحموا شوكة في بطن الضحية. الوحوش». وتسألني إحدى نساء جماعة الطقس، عند ملاحظة حملي، إن كان الأب أسود. وأجيب بالنفي، لقد اتفق أن الأب أبيض، وهو زوجي. ويقال لي إنني أحمل طفل خنزير. وأغادر الاجتماع.

* * *

شيء ما يتكتك، بصوت عالٍ يغطي على كل صوت آخر. إنها الساعة.

شيء ما يتكتك، بقسوة تقلص كل صمت بين حواجز إيقاعه.

إنه الموقت.

شيء ما يتكتك، أحن إلى الأصوات التي أتذكرها، وأخطئها، وليس لدي وقت لها. صيحة نورس. مواء قطة. طقطقة مفاتيح البيانو القيثاري المضغوطة قبل الموسيقى. طقطقة مفاتيح الآلة الكاتبة المضغوطة قبل قصيدة.

شيء ما يتكتك، **الساعة؟ الموقت؟**

أحن إلى الأصوات التي لم أسمعها من قبل. الصرخة الأولى للطفل الذي أحمله. كلماتي التي أغمغمها لنفسي بشكل رمزي خلال نومي. ضحكتي المبتهجة بصورة لا يمكن تمييزها خلال ممارسة الحب.

شيء ما يتكتك.

هل هو قلبي؟

* * *

تأتي المرأة الهامة إلي بعرض مغرٍ. لقد حصلت هي ورجلها على بعض «مواد التفجير الجميلة الشديدة التأثير». يريدان ضرب هيئة التجنيد أو مركز التجنيد. إنهما بحاجة إلي. هل أنضم إليهما؟

لا أزال منجذبة بقوة إلى هذه المرأة - مزيج مضطرب من الحنين إلى تبنيها أو **رعشة** جنسية مدغدغة من الخوف. أرغب كثيراً جداً في العمل معها. لكنني أرتاب في رجلها، وقد بدأت أرتاب في سياستها.

أفتقر إلى الشجاعة كي أقول لا صريحة.

أقدم عرضاً مضاداً، عرضاً لا يمكن أن أخسر معه. إذا رفضت، أكون آمنة خارج ذلك. وإذا قبلت، تقع هي ورجلها في شرك الالتزام - وفق مصطلحاتهما التكتيكية - بجدية الدعوة لتحرير المرأة.

«سأعمل معكما على هدف من اختياركما، ولكن فقط إذا احتفظتما ببعض المادة وعملتما معي لضرب هدف من اختياري».

وتبتسم قائلة، «رائع».

فأضيف، «نادي البلاي بوي».

تنظر إلي وكأنني امرأة مجنونة. أعرف أنها تعرف أنها لا تستطيع

أبداً عرض ذلك الطلب على رجلها. إنه سوف يزمجر، «يا له من تبذير مجنون للبضاعة!»

وأخرج بأمان.

* * *

هنالك نحو عشرين منا في غرفة الحجز، ننتظر الاستدعاء. نتشارك في اللفائف، والفوط الصحية، والقصص.

تعمل جيدي عاهرة. وابنها الذي يبلغ التاسعة له شفة أرنبية ويحتاج إلى عملية جراحية تكلف أموالاً كثيرة. قال قوادها إنها كانت تسرق منه ولذلك جرحها بآلة حلاقة. تحمل ندبة بيضاء شاحبة فوق البريق الأسود المزرق لوجهها، من الصدغ إلى خط الفك. هل حاولت أن تثأر، أن تجرحه بالمقابل، أن تفعل أي شيء؟ تضحك وتنعتني بأنني طفلة. تقول بحنان، «يا طفلتي، تلك هي الطريقة كي أصبح ميتة. إنني لا أريد أن أتعرض للقتل. إنني ميتة بصورة كافية كما أنا. ولو استطعت حتى أن أكون مكانه، لما أردت ذلك. أريد أن أعيش أنا وطفلي. لذلك فإنني أتسلل حوله فقط، أخبئ بضعة دولارات هنا، وبضعة دولارات هناك. إنني أجد طريقي. هل فهمتِ؟ إنني أتسلل حوله».

تبلغ السيدة أوميرا الثالثة والسبعين من عمرها. وتقول إنها كانت تتعرض للضرب «مثل انتظام الساعة تماماً» كل ليلة جمعة طوال خمسين سنة. ويوم الجمعة هو اليوم الذي يستلم فيه زوجها شيك أجرته، ويصبح ثملاً، ويصبح وضيعاً. وفي العيد الذهبي لزواجها، التقطت المقلاة وضربته بها. ثم سارت إلى أقرب منطقة وقدمت تقريراً بما فعلت. وأُدخل

المستشفى مصاباً بارتجاج في الدماغ، وأُدخلت هي غرفة الحجز بتهمة الاعتداء. لماذا سلمت نفسها؟ «لم أكن أريد لابن الحرام أن يموت، كما تعرفين. لم أرد أن أقتل أحداً. أردت فقط أن أوقفه. وقد أوقفته، حسن. لم أرد أن أؤذيه، مع ذلك. إنها **طريقته، جنونه**».

* * *

في ٦ آذار ١٩٧٠، انفجر منزل في مانهاتن كان بعض أفراد جماعة الطقس يستخدمونه للاختباء، بسبب الإهمال في صنع قنبلة. وقُتل بعض أفراد جماعة الطقس، واختفى آخرون تحت الأرض. أفكر بجميع الأوقات عندما كان الرجال مهملين في أمور الذخيرة، وعندما كانوا يتهمون النساء بأنهن «متشددات» و«فزعات»، وحذرات جداً - بشأن الديناميت.

واستغرق الأمر فترة تسعة أشهر حتى أعلنت اللجنة المركزية السرية لجماعة الطقس بأن انفجار المنزل كان ناجماً عن مجازفة وعن «خطأ عسكري». ومع حلول عام ١٩٧٣، كانت جماعة الطقس قد تغيرت ثانية، مع تنازل عن «الدعاية المسلحة» وتأكيد جديد على «تنظيم الطبقة العاملة». وبحلول عام ١٩٧٧، قدمت برناردين دورن، التي لا تزال تعمل سراً، نقداً ذاتياً علنياً: «طوال سبع سنوات، كنت أؤيد سياسة التفوق الذكوري».

في ذلك الوقت، كان قد مضى وقت طويل على خروجي من اليسار وعودتي إلى حركة تحرير المرأة.

* * *

تتعرض المرأة الهامة للاتهام، وكذلك رجلها وبعض أصدقائهما.

ويبدو أن رجلها كان يتفاخر بمواهبه في إلقاء القنابل ـ أمام مخبر من مكتب التحقيق الفدرالي. ويُرفض خروجه بكفالة، لكنها تحصل على ذلك. وتقفز منطلقة إلى العمل السري. وتطلب مساعدتي.

خلال السنوات الأربع التالية، أشعر بالسمو الجنسي عندما أسمعها، وأراها، وأتحدث معها. ولأنني متزوجة ولأنها تميل إلى الجنس الآخر، أشعر بالأمان من التفكير بأنني عاشقة، والأمان في المحافظة على زواجي. يمكنني أن أحبها وأعزو دقات قلبي المتسارعة إلى حالة الخطر. وعندما أزورها، بشكل دوري، في ملجئها أشعر بالرعب من التراخي في مسألة أمنها، وكشف نفسها المتكرر، وبخاصة أمام أي رجل يستحوذ على إعجابها. وتفضي إلي بحزن أنها «مدمنة على الرجال»، وكلما كان الرجل مسيطراً وخطراً أكثر كان ذلك أفضل. لكنني، أنا بغماليون الداعية لتحرير المرأة التي أعمتها العاطفة، أؤمن بنمو تأييدها لتحرير المرأة، وأؤمن بإحساسها المتزايد بنفسها، وأؤمن بأن تدميرها الذاتي سوف ينتهي.

وأخيراً تظهر علناً، وتلتمس إجراء مساومات، ويُحكم عليها، وتمضي فترة سجنها. أقف بجانبها، وأعثر على محاميها، وأثير مساندة الحركة النسائية، وأذهب في زيارات منتظمة إلى السجن، وأكتب العديد من الرسائل، وأساعد في مناورة نقلها إلى سجن مختلط ذي حد أدنى من الإجراءات الأمنية. وننجو من حالة خوف مريع: فهي تظن أنها قد تكون حبلى ـ من سجين استطاعت أن تمارس الجنس معه في السجن. ويتبين أنها ليست حبلى. وأخيراً تنال حريتها. ونحتفل بذلك.

والآن تجد نفسها منجذبة إلى عميل مكتب التحقيق الفدرالي الذي

اعتقلها قبل بضع سنوات. ولأول مرة ألاحظ نموذج عاشق الشيطان. وهي تقول الآن إنها ليست مهتمة كثيراً بالحركة النسائية على أي حال. وتعتبر نفسها الآن أنها «ليست سياسية» مع ذلك.

هل كنت أتخيلها، أتخيل اتقادها، وإيمانها بتحرير المرأة؟

لقد أصبحت علاقتنا، التي كانت متحدية ذات يوم، ثم مزهوة، ثم فاجعة، مملة فحسب. وافترقنا.

سوف يستغرقني الأمر بضع سنوات كي أفهم **أنها** كانت تقوم بدور العاشق شيطان **لي**، وأن محاصرتي لها بتلك الخصائص قد سمح لي بالمحافظة على زواجي بعيداً عنها - لبعض الوقت.

* * *

في عام ١٩٦٨، كنت إحدى المؤسسات لمجموعة نسائية أطلقنا عليها اسم WITCH- وهو اختصار للمؤامرة النسائية الإرهابية الدولية من الجحيم. والاسم نصفه هازل (لمسرح حرب العصابات) ونصفه جدي (لأعمال مقاتلي حرب العصابات). وما زلت أحاول إيجاد تسوية بين إدراكي النسائي التحرري المتزايد (وتكتيكاتي) وحاجتي للفوز بقبول الرجال اليساريين عن طريق إظهاري لهم كيف يمكنني أن أكون صلبة وفق مصطلحاتهم وتكتيكاتهم. وبحلول عام ١٩٧٧، أصبحت قادرة على تسمية ذلك الصراع والكتابة عنه. وفي غضون ذلك، قمت بدراسة حياة النساء اللواتي أطلق عليهن اسم الساحرات فعلاً، واللواتي قُتلن بوحشية لأنهن يتعبدن الدين القديم.

وكانت بعضهن مجرد معالجات وقابلات.

مرغريت جونز، قابلة، شُنقت عام ١٦٤٨.

جوان بيترسن، طبيبة بيطرية، شُنقت عام ١٦٥٢.
إيزوبيل إنش تايلر، معالجة بالأعشاب، أُحرقت عام ١٦١٨.
الأم ليكلاند، معالجة، أُحرقت عام ١٦٤٥.

وتمَّ توجيه الاتهام إلى بعضهن بأنهن نشيطات جنسياً.

نيكريفين، أُدينت بالفسق، أُحرقت عام ١٥٦٩.

باربرا غوبل، اعتبرها سجانوها «أحلى فتاة في ويرزبرغ» أُحرقت عام ١٦٢٩، وهي في التاسعة عشرة من عمرها.

إلسي دوملر، سُلقت حتى الموت في زيت حار، وهي حبلى، عام ١٦٣٠.

الأخت ماريا ريناتا سانغر، نائبة رئيسة دير الثالوث المقدس في أنتر زيل، اتُّهمت بأنها سحاقية؛ مُهرت الوثيقة التي تشهد بأنها تعرضت للتعذيب بختم اليسوعيين والكلمات Ad Majorem Dei Gloriam «من أجل المجد الأعظم لله».

لم تكن هؤلاء النساء إرهابيات. لقد حاربن من أجل الحياة، وليس الموت.

وبدأت المؤامرة النسائية الإرهابية الدولية من الجحيم تُظهر استجابة سطحية.

* * *

تعلق برناردين دورن، على لسان جماعة الطقس السرية، باستحسان على خطف باتريشا هيرست من قبل SLA في رسالة إلى Berkeley Barb مؤرخة في ١ آذار عام ١٩٧٤: «لقد خطف أفراد حرب العصابات ابنة رجل غني وقوي... [و] أطلقوا... نقلة مفاجئة في وعي كل شخص».

* * *

بعد مرور سنة على ذلك، نشرت سوزان ستيرن، العضو السابقة في جماعة الطقس، قصة سنواتها في تلك المنظمة. وهي تؤكد أسوأ الشكوك والإشاعات حول التمييز الجنسي القاسي: وجود «ضرورة سياسية للأشكال الجماعية» من حوادث الاغتصاب التي تمارسها القيادة الذكورية، والقيام بضرب النساء اللواتي يرفضن والتخلص منهن، ومنح الترقيات السريعة والمناصب نصف القيادية للنساء اللواتي يوافقن أو حتى يقدمن نساء أخريات للرجال. وتصف ستيرن نفسها بأنها إنسانة تعرضت للتخريب. وتتضمن شهادتها الشخصية التعاطي الثقيل للمخدرات، والخدع الموجهة، ومحاولات الانتحار.

لكنها في نهاية الكتاب، تظل تنظر في الاتجاه نفسه بحثاً عن نفس الخصائص في الرجل المناسب.

وبعد بضع سنوات، يُعثر عليها ميتة في حمام جاكوزي، كما يقال نتيجة مزيج قاتل من الكحول والمخدرات.

* * *

أتوقف أمام ملصق معلق في الشارع، طفلي متوازن على أحد وركيّ. يُظهر الملصق صورة مكبرة لوجه أحد الرفاق السابقين. والنص اقتباس يعلن فيه نفسه أنه آخر قائد نقي، ويعلن أنه تعرض للخيانة من الجميع، ويعلن عن الكوارث القادمة بفرح مخيف إلى درجة تلطيخ الطبعة: المجاعة العالمية والحرب العالمية، الخراب، الدمار، الرؤيا. **إن الكراهية التي تحترق الآن في قلوب الملايين سوف تنشر وتتعمق،** ويبتهج نصه، **لذلك هيا نخرج ولا نكتفي بالموت فحسب...**

وأتمتم إلى الملصق، «ولكن لنبقَ أحياء؟»

... ولكن لنقتل كي نصنع الثورة.

طفلي يمرغ أنفه بأذني، وهو يضحك. أنا في طريقي إلى اجتماع نسائي. لدي كتب عليَّ قراءتها، لا تزال على الرفوف، لم أطرحها أبداً. ولدي كتب عليَّ أن أكتبها، لا تزال داخل رأسي، لم أطرحها أبداً. أعبر الملصق وأتابع طريقي.

* * *

مع ازدياد شعبية حركتي لتحرير المرأة، يزداد بحث الخطر عني دون أن أبحث عنه مطلقاً. إنني مطرودة من عملي في التحرير. يتزايد بريد الحقد. تتعرض صورتي للحرق. يحاول رجل أن يقذف حامضاً في وجهي. تصل تهديدات تتعلق بطفلي، وبزوجي. القنابل توضع في الصالات حيث يتم الاتفاق معي كي أتحدث. فرسان الأخوة يحملون مشاعل ملتهبة تطوقني بعد خطاب في جامعة في الوسط الغربي. تُرتكب محاولتا اغتيال منفصلتان على حياتي، بواسطة سكين ومسدس. اليمين يتهمني بأنني شيوعية. واليسار يتهمني بخيانة الثورة.

الزواج يتعرض للتوتر.

* * *

أقرأ عن نساء بانغهيرست في حركة الانتخابات البريطانية. أفعال حذرة لتخريب انتقائي ضد الممتلكات فقط. لا تتعرض أي حياة للأذى. مظاهرات جماعية. هزل (قذف «قنابل» الفليفلة الحمراء على الملك في موكبه). إضراب عن الطعام خلال السجن. قتال دون اللهفة إلى الموت. أقرأ عن أليس بول والإصدار الأمريكي لتكتيكات بانغهيرست. أقرأ، أسمع، أتحدث، أكتب، أحلم بحياة عادية لنساء عاديات، ثورات عادية.

وتتضح لي فداحة هذه السياسة، هذه المهمة. إنها صعبة، ذات هيئة متبدلة، دون أي تخطيط أو نموذج. تتطلب صبراً أعمق وعناداً، ومجازفة أعلى من أي محاولة عرفتها حتى الآن. أدرك أنني لن أعيش حتى أرى نتيجتها. إنها بلا نتيجة. إنها تتعلق بكل شيء. هذه السياسة رهيبة، لكنها غير مروعة. وهذه غبطة مختلفة تماماً.

أبدأ في مواجهة ما كنت، بكل وسيلة لازمة، أقاومه ـ بحيث كنت أبقي جميع الأخطار خارجية بكل حذر. النضال يعاد إلى الوطن. تتشكل الدعوة لتحرير المرأة أولاً وتقوى، ثم تُكشف، وترق، وتضعف، وتتعذب، وتُنهك، وأخيراً تفجر الزواج.

لا أريد أن أموت، مع ذلك.

* * *

بحلول عام ١٩٧٩، تمكنت من كتابة ذلك فعلاً في قصيدة:

لقد تخلصت بالتأكيد، هذه المرة، من محترفي الحب
خلال البحث عن هدف، تخلصت بالتأكيد
من جمال الخطيئة، الاحتضار، الموت. آه، دعني
أتخلص من كل الثورات التي تتوق إلى
الكارثة، أتخلص من هذا الزحف
على امتداد سطح الصخرة، من تدريب
قلبي على العيش في الحب، والقتل من أجله،
حتى الخراب.

* * *

تتألف وحدة الأمن النسوية العالية للسجن الاتحادي في بلدة

لكسنغتن، بولاية كنتكي، من سلسلة زنزانات تحت الأرض. ولا يصل إلى هناك ضوء النهار. والسجينات لا يصلهن الهواء النقي إلا لمدة ساعة واحدة فقط من التدريب اليومي، في ساحة السجن المحاطة بالأسلاك الحادة، وهن مكبلات بالأصفاد والسلاسل التي تطوق الخصر. ويتم استخدام التقنيات التي تتعلق بتعديل السلوك والحرمان الحسي. ولا يُسمح للسجينات بأن يضعن أي صور أو رسوم على الجدران البيضاء العالية المصقولة جداً، ولا يُسمح لهن بأن يدخلن مكتبة السجن، ويمكنهن أن يقرأن الكتب والنشرات الدورية التي تتم الموافقة عليها فقط. وتقتصر الزيارات على أفراد العائلة، لمرة واحدة في الشهر، وعبر لوح زجاجي؛ ويُسمح بإجراء اتصال هاتفي لمدة خمس عشرة دقيقة مع المحامي مرة واحدة في الأسبوع. وفي حزيران عام ١٩٨٨، كانت سبع نساء سجينات في FHSU، الذي يمكن أن «يُسكن» عدداً يصل إلى ست عشرة سجينة. وكان محامو الحريات المدنية ومنظمة العفو الدولية يحاولون أن يفضحوا هذه الوحدة وأثر العقاب القاسي والوحشي على النساء الموجودات هناك. ويزعم مكتب السجون أنه سوف يغلق أخيراً هذه التسهيلات «التجريبية»، عندما ينتهي بناء سجن جديد للنساء، مجهز بترتيبات أمنية عالية. ولا أحد يستطيع القول متى سوف يتم ذلك. وخلال هذا، تنتظر النساء. وكلهن مسجونات لأنهن قد ارتكبن، كما يُفترض، جرائم عنيفة. وثلاث منهن «سياسيات» بالمعنى التقليدي: أليجاندرينا توريس حُكم عليها بالسجن لمدة خمس وثلاثين سنة بسبب التورط مع جماعة FALN من بورتو ريكو، والتهم الموجهة إليها هي التآمر بإثارة الفتن وحيازة المتفجرات؛ سوزان روزنبرغ تنفذ حكماً يصل

إلى ثمان وخمسين سنة بتهمة حيازة أسلحة ومتفجرات، وعلاقة، لم يتم إثباتها، بسرقة المصرف عام ١٩٨١ (لم تجرِ إدانتها بارتكاب أعمال عنف فعلاً، كما لم يكن لدى توريس أو روزنبرغ أي سجل إجرامي)؛ وأدينت سيلفيا بارالديني بتهمة الابتزاز والتآمر المرتبطين بسرقة المصرف، ضمن تحالف مزعوم مع جماعة الطقس السرية.

هنالك أكثر من طريقة للانتقال من سيطرة الدولة المنتظرة إلى سيطرة الدولة الموجودة. في عام ١٩٨٠، بعد أكثر من عشر سنوات من الهروب، سلمت برناردين دورن نفسها، وظهرت في شيكاغو مع رجلها، الذي أصبح زوجها بعد ذلك، بيل أيرس، العضو السابق أيضاً في اللجنة المركزية لجماعة الطقس السرية. وبسبب نقاط فنية قانونية، سقطت التهم الفدرالية الموجهة ضدها؛ واعترفت بذنبها في فقرتين اتهاميتين من مجموعة فقرات مشددة للحكم وفقرتين حول خرق لشروط الكفالة يعود تاريخه إلى مظاهرات «أيام الغضب» عام ١٩٦٩. وحُكم عليها بغرامة ١٥٠٠ دولار ووضعها تحت الاختبار لمدة ثلاث سنوات. ولم توجه أي اتهامات على الإطلاق ضد أيرس ـ وهي ابنة رئيس سابق لشركة كومنولث إديسون وأحد أقوى الرجال في إلينوي. واستأنفت دورن دراستها للقانون، وكرست نفسها ظاهرياً لأصدقاء عمها، ثم ـ بدعم من القاضي الاتحادي السابق هارولد ر. تايلر الأصغر، نائب المدعي العام في إدارة فورد ـ أصبحت عام ١٩٨٦ كاتبة في فرع نيويورك لشركة قانونية رفيعة المستوى في شيكاغو. وسياسة الرياء في النظام الذكوري هي متعة قابلة للتحريك كما يبدو. إنها الآن أم لولدين، وتربي أيضاً ابن كاثي بودين وديفيد غلبرت، اللذين لا يزالان كلاهما في السجن. وكانت

قد اجتازت امتحاناً لممارسة مهنة المحاماة في نيويورك ولكن رُفض قبولها بسبب نشاطها السابق. وتمَّ تنظيم جمع الأموال، والمساندات، والصحافة لمناقشة قرار المحامين.

النساء ينتظرن في FHSU.

يمكن للنخبة على جانبي الحواجز أن يميز بعضهم بعضاً بصورة كافية. وقد قال براين جنكنز، خبير شركة راند حول الإرهاب، إن المجموعات أمثال جماعة الطقس لم تستمر بسبب «القدرة الاختيارية الهائلة» للنظام الأمريكي. ولكن لا جنكنز ولا دورن فهما حتى الآن سبب إخفاق الإرهاب المحلي، أو أين ذهبت الطاقة السياسية الأصيلة. ولم يستطع أحدهما أن يدرك لماذا وكيف غيرت حركة النساء الديمغرافية، وقوة العمل، وبنية الأسرة نفسها بطرق أكثر راديكالية مما حلم به اليسار ومما خشيه اليمين.

ومع ذلك، إنهن يظهرن في كوابيسي، أولئك النساء اللواتي يسرن مطوقات بأسلاك حادة. هل افتقدت كوني واحدة منهن بأي لحظة، بأي سلسلة من التغيرات المتزايدة وغير المتجاورة؟

لقد كان التوقيت العرضي لولادة طفلي بالتأكيد أحد العوامل. وكان العامل الآخر هو رقية سحرية أكثر معافاة، وفي حالتي، أقدم من عاشق الشيطان ـ ولع نحو الكلمات المكتوبة. لكن الدعوة لتحرير المرأة كانت هي التي قدمت السياسة والطريقة.

هذا لا يعني أن عاشق الشيطان لا يطارد الدعوة لتحرير المرأة وهو في حالة تنكر أحياناً. وكلما رأيت خدع القوة والنقاء، واستبدادات تصحيح المسار، والتسلسلات الصارمة، والهيبة المكتسبة بتسفيه

الآخرين، ونظام «قسوة» خضوع الضعيف للقوي، أو النظريات السادية ـ الماسوشية الجنسية المتنكرة بصورة تحرير المرأة، أعرف أي طراز من القوة يعمل. وهو ليس نوعية القوة التي تريدها أكثرية النساء في العالم، أو تحتاج إليها، أو تتخيلها. وهو بالتأكيد ليس نوعية القوة التي يمكن أن تحول المجتمع. ومع ذلك فإن تحت تلك الألعاب، عندما يتم لعبها بين النساء، يكمن الاعتماد الحاد الذي لا يزال يتذبذب، وكذلك الجاذبية الجنسية المنكرة أو المعترف بها بين النساء، الجاذبية التي يمكن أن تتعلق بالذكاء، أو الروح، أو الثقة بقدر ما تتعلق بالنشاط الجنسي المحدد بشكل خاص.

بالنسبة لي، على الرغم من تلك الألعاب الدورية، فإن النساء ـ في بلادي ودولياً على حد سواء ـ لا يزلن يرتبطن بالسياسة الأكثر رسوخاً وتأكيداً للحياة التي واجهتها في أي حركة. وتلك السياسة هي التي جذبتني خارج مدار عاشق الشيطان.

وطوال سنوات، بقيت لاأدريّة حول تورط النساء الأخريات في أعمال العنف، وبصورة خاصة عندما تتعلق بنضالات العالم الثالث أو (رغم من اشمئزازي من القومية) بمعارك التحرير الوطني. ولأنني بيضاء ومواطنة في قوة عظمى لا تقدم للمرء منظوراً صحيحاً يمكنه من تقدير، أو أقل من ذلك بكثير من محاكمة، الأوضاع الأخرى بدقة، فإنه لا يهم كم يصعب عمل المرء ضد التمركز العرقي.

لذلك فإن عقداً آخر كان يجب أن يمر قبل أن تتغير حتى تلك اللاأدرية، وذلك في عام ١٩٨٦. وهذا التحول، أيضاً، كان عليه أن ينتظر حتى تعلمني النساء غير ذلك. وفي هذه الحالة كانت هؤلاء النساء

آخر نساء في العالم قد يتوقع المرء أن يتعلم منهن بعمق نوعاً جديداً من الدعوة لتحرير المرأة ضد العنف.

كانت هؤلاء النساء هنّ النساء الفلسطينيات في مخيمات اللاجئين في الشرق الأوسط.

الفصل الثامن

«ماذا يعرف الرجال عن الحياة»: الشرق الأوسط

ضع إسرائيليّين معاً يحدث نقاش. ضع ثلاثة إسرائيليين معاً يحدث قتال. ضع أربعة إسرائيليين معاً يحدث شغب. ضع خمسة إسرائيليين معاً يحدث الكنيست.

قول مأثور لدى الرجال الإسرائيليين

بمن أستغيث عندما يكون جلادي هو قاضيّ.

قول مأثور لدى نساء الشرق الأوسط

يجثم قطاع غزة بجانب المياه اللازوردية والرمال البيضاء الناعمة للبحر الأبيض المتوسط ـ وهو شريط من البر عرضه عشرة أميال وطوله أقل من تسعة وعشرين ميلاً. ويعيش هنا ألفان وأربعمئة إسرائيلي في تسع عشرة مستوطنة تتلقى عوناً مالياً ضخماً وتُسقى بسخاء مع استخدام ٩٦٪ من الماء وثلث الأرض. وعلى الرغم من ذلك ففي عام ١٩٨٥، فاقت غزة هونغ كونغ باعتبارها المكان الأكثر كثافة سكانية، والأفقر على سطح الأرض. وثمة أكثر من ٦٥٠٠٠٠ فلسطيني، بعضهم نازحون للمرة الثالثة أو الرابعة، يسكنون هنا أيضاً؛ ٤٦٠٠٠٠ منهم مسجلون رسمياً كلاجئين.

من بين مخيمات اللاجئين الواحد والستين التي تؤمن احتياجاتها UNRWA (وكالة الإغاثة والتشغيل التابعة للأمم المتحدة للاجئين

الفلسطينيين في الشرق الأدنى)، يُعترف بأن مخيم رفح في غزة هو الأكثر سوءاً. فالملاجئ متراصة بجانب بعضها بعضاً، مع ممرات صغيرة جداً بينها. لا شوارع هناك، ولا عناوين حقيقية. في أوائل حزيران، ترسل الشمس أشعتها الحادة منذ الساعة السادسة والنصف صباحاً. الرائحة الكريهة ـ للعرق والقمامة المتعفنة، ومواقد الطبخ المكشوفة، وازدحام البشر ـ تصفع مثل قبضة في الوجه؛ وخلال ساعات، يكف المرء عن ملاحظة ذلك. والأصوات ـ مؤذنون يدعون للصلاة، رجال يصيحون، نساء تنادي إحداهن الأخرى، أطفال يبكون، هدير السكان مكثف بعنف ـ تُحدث ضجة أعلى من صوت الأمواج على بعد بضعة أميال؛ وخلال ساعات، يكف المرء عن ملاحظة ذلك أيضاً. والملجأ العادي في مخيم رفح هو كوخ إسمنتي بعرض نحو تسعة أقدام وطول ثلاثة عشر قدماً: وتسكن فيه عائلة متوسطة من خمسة عشر فرداً. وتشن النساء معركة يومية ضد القذارة. فهن يكنسن الأرض الرملية الوسخة. ويتنقلن ذهاباً وإياباً إلى أقرب حنفيات عامة للمياه، وهن يوازنّ القدور على رؤوسهن. ويحاولن عبثاً إبعاد أطفالهن عن أقنية المجاري المكشوفة التي تخترق طرقات المخيم. ويجلس الأطفال في المجاري، ويلعبون فيها. ويعتاد الزائر على غيوم الذباب الدائمة، ويعتاد على تحريك إحدى يديه باستمرار كي يبعدها عن عينيه وأنفه وفمه.

ترحب زهرة* بي في بيتها الملجأ. ونجلس على الأرض الرملية ـ هي ومترجمتي وأنا ـ بينما يحوم أولاد زهرة الاثنا عشر ويتعثرون حولنا. يرتدون ثياباً متجانسة بالية رخيصة لكنها نظيفة، وتتدرّج أعمارهم مثل

* غيّرت أسماء المقيمين في المخيم لحمايتهم.

درجات السلم ـ واحد في سنة، نزولاً حتى الرضيع في حضنها. والكبرى، وهي بنت في الرابعة عشرة تقريباً، تبدو في الثامنة أو التاسعة، تعاني من سوء تغذية شديد. يجلس زوج زهرة في وسط الغرفة الوحيدة، على قطعة السجادة الرثة الوحيدة. ننحني نحن النساء الثلاث معاً، ونهمس، في الركن. ويرتدي زوج زهرة قفطاناً أبيض اللون رخيصاً ونظيفاً، ويضع ساعة في معصمه، ويدخن اللفافة إثر اللفافة. وهو حاصل على شهادة رسمية طبية بأنه عاجز عن العمل؛ وتمَّ تشخيص حالته بأنها حالة اكتئاب. وبما أنها بلا معيل، فقد صُنفت زهرة بأنها حالة حرمان خاصة، وهذا يعني أنها تستحق مخصصات طعام كل شهرين (أربع علب لحم صغيرة وبعض الطحين والقمح وبعض السكر)، وثياباً مستعملة إذا توفرت، وبطانيات، وما يعادل دولارين أمريكيين لكل شخص في السنة. زهرة في منتصف ثلاثيناتها ـ أصغر مني بعشر سنوات ـ وتبدو وكأنها تكبرني بعشر سنوات. وهي حبلى.

بشقة عالية أدهشتني، لكنني عرفت في الوقت المناسب أنها من الخصائص التراثية لدى النساء العربيات، تتحدث زهرة طوعاً بأنها لم تعد تعرف أين تتوجه بيأسها. فزوجها لم يحصل على عمل خلال سبع سنوات. كلا، إنه لا يساعد في أمور الأولاد، مع أنه في البيت طوال الوقت. وبدلاً من ذلك فهو يضربهم. وعندما تتدخل، يضربها، وبقسوة. إنه يضربها حتى وهي حامل، وهو ما يحدث في أغلب الأوقات. وهي لا تريد المزيد من الأطفال، لكنه لا يصغي إلى ذلك. وبخاصة لأنه لا يعمل، فإن رجولته تكمن في إنجاب العديد من الأولاد. وتهمس بصورة مسعورة، وهي تومئ إلى الأولاد الذين يلتصقون بثلاثتنا حيث نجلس،

وأصابعهم تشد أكمامنا بلا هدف، وعيونهم السوداء الواسعة تترقرق بالجوع: «انظري إليهم! إنهم لا يكفون عن المجيء. ماذا يمكنني أن أفعل؟ لا يمكنني عمل شيء».

نعم، لقد ذهبت إلى عيادة وكالة UNRWA - سراً - كي تسأل عن «المباعدة». (باعتبار أن الإجهاض ومنع الحمل بحد ذاتهما موضع معارضة من قبل الهيئات الدينية - المشايخ المحليين في تفسيرهم للإسلام ومحاكم الحاخامات في سلطة الاحتلال الإسرائيلية - ووكالة UNRWA لا تستطيع القيام بعمليات الإجهاض ولا الدعوة إلى تحديد النسل. وأكثر ما تستطيع عمله هو الحث على «المباعدة» بين الأولاد، بواسطة الحبوب أو اللولب، من أجل صحة الأم والطفل. وربط الأنبوب محرَّم، وقطع القناة الدافقة اختيار مضحك في هذه الشروط الحضارية). وقد أصيبت زهرة بنزف ثاقب بسبب اللولب ولم تستطع تناول الحبوب لأنها مصابة بفقر حاد في الدم. وقد وصف لها طبيب العيادة تناول الحديد لتقويتها بحيث ربما تتمكن فيما بعد من تناول الحبوب - لكن زهرة لم ترجع إلى العيادة لأن زوجها اكتشف أنها كانت تذهب وضربها بقسوة.

ونهض الزوج فجأة، كأنه سمع أسرارنا الهامسة. وكان رد الفعل لدى النساء الثلاث متطابقاً نتيجة غريزة متبادلة: زهرة، اللاجئة غير المتعلمة؛ كريستيان، المترجمة، وهي فلسطينية مسيحية تحملت فترة طويلة من الانتهاك الثلاثي، كامرأة، وكفلسطينية، وكواحدة من الأقلية الدينية بين شعبها؛ وأنا، الداعية لتحرير المرأة، الصحفية، الغربية. كان رد فعل النساء الثلاث لنهوضه هو الرعب. وامتدت أيدي النساء الثلاث فوراً إلى الأولاد - لمعانقتهم، وتغطيتهم، وحمايتهم. وفي النظرة التي تبادلناها لم نكن بحاجة إلى ترجمة.

لكنه نهض فقط لأنه رأى آلة التصوير التي معي. إنه يريد أن أصوره مع أولاده. ومن الأفضل أن أذعن. ويتخذ وضعيته، مبتسماً، وذراعاه ممتدان برقة حول ذرية من الأولاد ذوي الخدود الغائرة وزوجة ذات بطن منتفخ وعيون كليلة. ثم يعود، متجهماً، إلى مكانه في وسط الغرفة. تلحق زهرة بكريستيان وبي إلى الخارج، والأولاد يتعقبوننا. وفجأة تمسكني من كتفي. وتنفجر جملها بصورة متلاحقة، تتخللها أصوات نشيج حاولت كريستيان متابعتها خلالها: «أنت من الغرب. وتعرفين هذه الأمور. أخبريني، **أخبريني** كيف أكف عن إنجاب طفل آخر. هذا يقتلني. سوف أموت. سوف أموت من هذا. سأفعل أي شيء. إنني لا أبالي بما يقولون. ماذا يعرف الرجال عن الحياة؟

تقف ثلاث نساء باكيات متعانقات، وسط سحابة الذباب وحشد الأطفال.

كان هذا أول مشهد فقط من مئات المشاهد المماثلة فعلاً والتي كنا أنا والمترجمة المحلية نترنح مذهولات منها. لم يكن أحد قد تحدث مع النساء بهذه الطريقة من قبل، أو عمل مع نساء مترجمات، أو انتزع هذه الإجابات. وفي حالة زهرة، كنا نستطيع ترتيب زيارة منزلية خاصة من العيادة، لمتابعة نظام تناول الحديد ومعالجة فقر دمها. وربما، بعد ذلك، وبصورة سرية، تتناول الحبة. كان الوقت متأخراً جداً لإنقاذها من هذا الحمل، ولكن ربما من التالي...

لقد قيل لي إن النساء الفلسطينيات لا يفهمن قضية تحرير المرأة ولا يكترثن بها.

«ماذا يعرف الرجال عن الحياة؟»

* * *

استغرق الأمر سنة من المفاوضات الدقيقة مع وكالة UNRWA بعد دعوتهم الأولية لي كي أسافر إلى المخيمات. وبشكل تدريجي وبصورة لبقة تمت الموافقة على بعض طلباتي غير التقليدية، التي قوبلت في بادئ الأمر بنوع من الصدمة: سوف أذهب وحدي، وليس ضمن مجموعة صحفيين يتنقلون من مخيم إلى مخيم وكأنهم يتجولون في حدائق الحيوانات؛ وسوف أركز بشكل محدد على النساء والأطفال؛ وسوف أشاهد الحد الأدنى من الأبنية أو التجهيزات الصحية والتعليمية لكنني سأكون حرة في التجول بين المخيمات والتحدث مع النساء؛ ولن أكون ملتزمة بوكالة UNRWA أو أي اتصالات أو برامج رسمية أخرى، ويمكنني الاستفادة من الاتصالات والمراجع الرسمية الخاصة المكتسبة عبر شبكة مع الناشطات الداعيات لتحرير المرأة في العالم العربي. والأكثر أهمية، كان إصراري على مترجمات نساء، لمعرفتي بأن نوعية الاتصال الحميم التي أملت في إجرائها ستكون مستحيلة عن طريق مترجمين ذكور. وبدا تحقيق هذا الطلب الأخير مستحيلاً: فوكالة UNRWA ليس لديها مترجمات نساء. وبدت الرحلة عقيمة في مثل هذه الظروف. وفي الوقت المناسب، على أي حال، تمكنت وكالة UNRWA من إيجاد نساء فلسطينيات بين موظفيها واللواتي كنّ، رغم توظيفهن كمعلمات، أو موظفات طبيات، أو عاملات اجتماعيات، قادرات على الترجمة ومتشوقات لها، لعدم حصولهن على هذه الفرصة من قبل.

تأسست وكالة UNRWA عام ١٩٤٩ بمهمة إنسانية مجردة (و«مؤقتة»). وهي الآن أكبر رب عمل منفرد، باستثناء الحكومات، في الشرق الأوسط. وموظفوها الذين يزيدون على سبعة عشر ألف شخص،

وأغلبهم موظفون ميدانيون، يقاربون في ضخامة عددهم عدد موظفي كل وكالات الأمم المتحدة الأخرى مجتمعة. ومع ذلك فإن ميزانيتها أخفض، وتعتمد على المساهمات الطوعية من الحكومات والمجموعة الأوروبية في ٩٤٪ من دخلها السنوي تقريباً؛ وتأتي ٤٪ تقريباً فقط من ميزانية الأمم المتحدة، وتؤمن المنظمات الطوعية والوكالات الرسمية المصادر الباقية. وهي تقدم العون إلى ٣,٢ مليون لاجئ فلسطيني مسجل، منهم ٣٤٩٣٨٨ تلميذاً؛ وتدير وتوظف ٦٣٣ مدرسة ابتدائية وإعدادية (أكثرها بفترات دوام مزدوجة) وثمانية مراكز تدريب مهنية وتعليمية، وثمانية وتسعين مركزاً صحياً، واثنين وتسعين مركز تغذية إضافي. وتستقبل نحو ستة ملايين مريض سنوياً، وتقدم خدمات لمرحلة ما قبل الولادة، والولادة، وبعد الولادة وطب الأطفال، وخدمات طب الأسنان وبرامج التلقيح، وتقدم العون إلى ٨٨٢ سرير مستشفى. وتدير ستة وخمسين مركزاً للخياطة والنشاطات النسائية. ولديها أكثر من عشرة آلاف معلم في ميدان العمل. وتمنح نحو أربعمائة منحة جامعية سنوياً. وتقدم تدريباً خاصاً للاجئين المعاقين، وتنظم التعاونيات، وجمعيات المساعدة الذاتية، ومراكز نشاط الشباب، وتقدم العون إلى نحو خمسين مركزاً خاصاً لرياض الأطفال تدار طوعياً. وتقدم العون إلى ١٣٥٣٧٥ حالة حرمان خاصة. وتقدم وجبات غداء ستة أيام في الأسبوع إلى نحو ٢٩٠٠٠ طفل، وتؤمن غذاء إضافياً بشكل منتظم إلى ١٢٠٠٠٠ والدة وطفل لاجئين. وتقدم أيضاً ماء صالحاً للشرب وخدمات صحية أساسية ضمن واحد وستين مخيماً. لكنها لا تدير أو «تشغل» المخيمات على أي حال؛ وتسيطر على هذه الصلاحية أما «الدولة المضيفة» (الأردن،

ســورية، لبنان) أو «السلطة المحــتلة» (إســرائيل في المناطق المحــتلة والضـفة الغربية وغزة). ويجب أن يتبع المنهاج التعليمي في مدارس UNRWA المنهاج المحلي (الأردني في الضفة الغربية، والمصري في غزة)، ومع ذلك يخضع طلاب UNRWA لامتحانات أعلى من مواطني الدول المقيمين فيها. ولدى النساء الفلسطينيات أسرع نسبة نمو تعليمي بين جميع النساء في العالم العربي*. ويرأس الوكالة هيئة من الموظفين «العالميين»، نحو ١٥٠ محترفاً. لكن مجموعة الموظفين الميدانيين (تقترب الآن من ١٧٥٠٠شخص) تتألف من اللاجئين الفلسطينيين. يبدو أن معظمهم من النساء. وإحصائياً، تشكل الإناث ٣٦٪ فقط من موظفي UNRWA، ومع ذلك فحيثما نظر المرء في ميدان العمل - في عيادات صحة الأم والمرافق الصحية الأخرى، في مراكز التغذية، في المجال الكهنوتي، في المدارس الابتدائية، والمدارس الإعدادية، ومراكز التدريب المهني، ومراكز تدريب المعلمين - يرى النساء. وقد أدهشني أنهن يشكلن الحكومة الحقيقية للشعب الفلسطيني - ليس بالإحساس المرئي، مثل منظمة التحرير الفلسطينية، ولكن في أن هؤلاء النساء يقمن بإعداد البنية التحتية لما يثقن بأنه سيكون مستقبل شعبهن: تدريب العمال والتقنيين، والمعلمين، والمحترفين، والفنانين، والسياسيين. وهن يقمن بهذا ضد تحيز لا يُقهر تقريباً. ويواجهن، كنساء، التمييز الجنسي المعتاد، داخل الوكالة وخارجها. كما يسهمن كموظفات لدى

* صادفت لدى الأمهات والعمات اليهوديات الغربيات اللواتي من جيلي الأول فقط مثل هذا التوق والتوقير للتعلم الذي وجدته بين النساء الفلسطينيات. وفي شعب الشتات حيث لا شيء متأصل، تكون المعرفة هي الثروة الوحيدة القابلة للانتقال. وهي أيضاً وسيلة سليمة لإثبات الهوية. إنه هاجس فلسطيني - إن سجل التعليم موضع فخر UNRWA الخاص والمبرر.

UNRWA في الإضعاف الدبلوماسي للوكالة: تتعرض UNRWA أحياناً إلى حالة سوء حظ من قبل إسرائيل (لمساعدة الفلسطينيين «أكثر من اللازم»)، ومن قبل الفلسطينيين (لعدم كونها مناصرة و«سياسية»)، ومن قبل الدول العربية (لهذين السببين كليهما، معاً أو بالتناوب).

هناك لافتة في مكتب القدس لمنظمة UNTSO (منظمة الإشراف على الهدنة التابعة للأمم المتحدة) كُتب فيها: **إذا ظننت أنك تفهم الشرق الأوسط، فأنت غير مطلع بدقة.** وهذا صحيح.

نصحني أحد مسؤولي UNTSO - وهو خبير من الشرق الأوسط - بأن أتجاهل الإحصائيات، والتحليلات، ووابل الدعاية المعقدة الذي ينهال من كل جانب، وأن أثق بانطباعاتي الخاصة. وهو رجل إنكليزي بدا وكأنه يتجسد مباشرة من صفحات رواية غراهام غرين، مصدراً غنياً للقصص. واستطاع، بفطنته وسخريته، أن يبرهن مع ذلك على اهتمام مستمر ومتقد، سواء بموظفيه، أو بمكائد الدول العربية في خياناتها المتكررة للفلسطينيين، أو بتآكل المبادئ الأخلاقية لدى الحكومة الإسرائيلية. وهو الذي أخبرني بأن «الشعبين الأعلى تعليماً، والأكثر علمانية في المنطقة هما الإسرائيليون والفلسطينيون. ولو أنهما تصالحا، لاستطاعا السيطرة على الشرق الأوسط بكامله. والدول العربية تعرف ذلك، والاتحاد السوفيتي يعرف ذلك، والولايات المتحدة تعرف ذلك. هل تفهمين الآن؟»

كان علي أن آخذ بنصيحته حول الثقة بانطباعاتي الخاصة، وتلك الانطباعات هي التي أدونها هنا. توجد علبة كرتونية كبيرة بجانب

طاولتي، ممتلئة بمواد الخلفية، والإحصائيات، والصور، والاتهامات الرسمية والدفاعات الرسمية، والوثائق الوافرة التي تؤكد الأعمال الوحشية من الجانبين ـ كلاهما، من جميع الجوانب. تاريخ الصهيونية. تصريح بلفور. تخلي الغرب عن اليهود الأوروبيين خلال المحرقة وبعد الحرب العالمية الثانية. تاريخ فلسطين. تخلي الشرق والغرب عن الفلسطينيين. قانون تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية. خلق القوى العظمى للبنان واصطناع الأردن، فرض صيغة الدولة الغربية على الأراضي المتهمة بالخلافات العرقية والعداوات العشائرية. حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧، حرب يوم الغفران عام ١٩٧٣، تقارير ميرون بنفينيستي المفصلة عن **مشروع قاعدة البيانات في الضفة الغربية**. النفط. محاصيل الحمضيات. السياحة. الحكم الديني. التعصب الديني ـ الإسلامي واليهودي والمسيحي. النسب البطريركي.

البيانات الموجودة في العلبة الكرتونية متوفرة في مكان آخر، في المكتبات العامة والسفارات. ومهما تكن مغرية محاولة رواية «القصة الكاملة» لما لا يمكن أن يكون قد حُكي من قبل بكامله، فإنني سأتجاهل تلك العلبة الكرتونة الآن. فهناك قصة أخرى تتوجب روايتها، قصة أكثر أهمية، القصة التي احتفظت بها دفاتر ملاحظاتي ومقابلاتي المسجلة؛ القصة التي عهدت بها نساء تلك المنطقة إلي. إنها قصة لم تُحكَ حتى الآن في أي مكان.

هذه القصة، أيضاً، هي عبارة عن مونتاج للصور والعواطف التي جرى تركيزها وحفظها في العقل والقلب. ولكن، خلافاً للصور التي تعود إلى الستينيات، فإن هذه تفيض بالدم الطازج في كل مكان.

وخلافاً للأخرى، فإن هذه اللحظات المتباينة على ما يبدو تشكل نموذجاً متميزاً، نموذجاً ليس من تجربتي السابقة ولا من افتراضي. لقد ذهبت إلى الشرق الأوسط ليس من أجل نشر الدعوة لتحرير المرأة ولكن كي أتعلم، ليس لأتحدث ولكن لأستمع. ذهبت وأنا أتوقع أن أتعرض للكراهية باعتباري أمريكية، ولعدم الثقة بما أنني «داعية غربية لتحرير المرأة»، وللاستخفاف بي لأنني امرأة. تلك النماذج يمكن توقعها: إن جزءاً من مسؤوليتي بصفتي داعية عالمية لتحرير المرأة هو أن أتلقى ردوداً مختلفة. لقد ذهبت وأنا أتوقع أنني ربما لا أجد دعوة محلية لتحرير المرأة بين هؤلاء النساء، وبخاصة بين النساء غير المتعلمات اللواتي يكافحن للبقاء على قيد الحياة في المخيمات.

كان علي معرفة أنني في منطقة تفتخر بأن تطلق على نفسها حرفياً اسم أرض الأنبياء سوف أجد غير ذلك. يصدح هذا الجزء من العالم بالتاريخ الذكوري ربما أكثر من أي جزء آخر: قبر يوسف، قبر إبراهيم، قبور داود والياس والمسيح. الله ونبيه. وفي مصر، شعرت أنني مخنوقة بذلك التاريخ، فالقاهرة مطوقة بالمقبرة الكبرى، وهي مدينة قديمة للموتى، حيث يسكن نحو مليون شخص، الموتى الأحياء، ويحتلون القبور. إن المتاحف والمعارض وأطلال الأقصر وكل الأفاريز المتمتمة تكرر رسالة واحدة: كيف اكتسح الآشوريون الهاشميين، وضرب العبرانيون قدماء الفلسطينيين، وزحف الفراعنة، وسلبوا، وأخذوا الأسرى، ونهض الفرس وسقطوا*. إن ذلك التاريخ حي بصورة حاقدة اليوم. سورية مقابل

* قبر حتشبسوت، المرأة الفرعونية الوحيدة، استثناء مذهل. يلهث المرء كي يجد سياسته مؤكدة هكذا. لا أعمدة شاهقة أو تماثيل هائلة هنا، بل خطوط مقوسة منخفضة محفورة ومُمتزجة في التلال، منحدرات ومعابد صغيرة. وصور جدارية تصور نساء في موكب بهيج، ورقصة الأسرى المحررين، واحتفال افتتاح تجارة مع الأعداء السابقين. وقد شوه الفراعنة اللاحقون صور حتشبسوت نفسها.

المملكة الأردنية الهاشمية. إسرائيل مقابل فلسطين. إنه حي على كل طريق عام في إسرائيل، حيث يرى المرء بصورة دورية دبابة مصرية محترقة بجانب الطريق، أو طائرة أردنية أُسقطت - متروكة عن عمد قرب مقر الحكومة لإحياء انتصاراتها وتذكير المهزومين بمن انتصر. إن السياسة ليست مجرد سياسة الدولة المنتظرة ضد الدولة الموجودة، لكنها أيضاً سياسة القبائل التي كانت موجودة ضد القبائل التي لا تزال موجودة. السياسة هي سياسة عداوة قديمة أبدية. السياسة هي جوهر النظام البطريركي. إنها كما لو أن المنطقة كانت مكرسة لعاشق الشيطان. كان علي معرفة أنه في مكان كهذا، لن أجد مجرد معاناة وتحمل نسائيين ولكن مقاومة وتمرد نسائيين.

يختلف ما يسمعه المرء من النساء في هذه المنطقة، بشكل مثير، عما تريد القيادة الذكورية لجميع الفرقاء (والنساء الرمزيات لتلك القيادة الذكورية) أن نعتقده.

هنالك نموذجان معززان جيداً للمرأة الفلسطينية: إنها ليلى خالد المحملة بالقنابل، أو هي اللاجئة غير المتعلمة التي تنجب بصورة طوعية أولاداً من أجل الثورة. ومع ذلك كان علي مقابلة فلسطينيات طبيبات، وممرضات، وطبيبات أسنان، وقابلات، وعاملات اجتماعيات، ومربيات، وباحثات، وأستاذات، ومهندسات معماريات، ومهندسات، ومحاميات. وكان علي أن أجلس طوال أصيل مميز مع صباح عرفات في شقتها الصغيرة داخل مدينة نابلس القديمة في الضفة الغربية، حيث تمتلئ الغرف بكنوز فنية رائعة. كانت هي التي أسست مركز تدريب النساء في رام الله في الضفة الغربية، أول مركز تدريب مهني للنساء في الشرق

الأوسط كله. وتمتمت، «كنت أظن أحياناً أنني سأصاب بالجنون، وأنا أتجول في جميع أنحاء البلاد، وأحاول ترويج الفكرة - لدى وكالة UNR-WA، والأردن، وإسرائيل، والرجال الفلسطينيين». والآن أصبحت في ستيناتها وتقاعدت من عملها كمسؤولة تعليم ميدانية في UNRWA، وغمزتني قائلة، «كنت مشغولة جداً، ونسيت أن أتزوج».

هل كانت النساء الفلسطينيات لا يكترثن إلى هذا الحد بدعوة تحرير المرأة؟

كان علي أن أقابل الضحايا والناجيات، نساء أصبحن جدات لجدات وهنّ في منتصف خمسيناتهن، نساء يحملن الندوب الاجتماعية لرفضهن الزواج كلياً، نساء تجرأن على حب نساء أخريات. وكان علي أن أقابل نساء فلسطينيات وسيلتهن الوحيدة في المقاومة هي وضع مفاتيح في خيوط أو سلاسل حول رقابهن، مفاتيح بيوت قُصفت أو دُمِّرت قبل أربعين سنة. وكان علي أن أقابل نساء فلسطينيات ذوات تعليم عالٍ، وخبيرات في أساليب السياسة البطريركية، التي برزت إلى أقصى حد ممكن مع منظمة التحرير الفلسطينية، لمجرد ضرب السقف الزجاجي للسيادة الذكورية.

لكن التركيز في هذه الرحلة كان على النساء في مخيمات اللاجئين، اللواتي يعانين من النشاط الجنسي للإرهاب مع كل تنفس. رأيت وسمعت في حياتهن وأصواتهن الروح الإنسانية التي لا تقهر للأمل والعزيمة، السياسة التي أدعوها دعوة لتحرير المرأة. وهذه هي قصتهن.

* * *

عند أقصى الحدود الجنوبية لقطاع غزة، تقطع «الحدود» مع مصر ضواحي مخيم رفح. وفي هذه المناطق، التي أطلق عليها اسم مخيم البرازيل ومخيم كندا باسم جنود الأمم المتحدة المتمركزين هناك، كان كل ما يبدو أنه ينمو في الأراضي شبه الصحراوية هو الأسلاك الشائكة. فقد امتدت بين أبراج المراقبة حيث يجلس الجنود الإسرائيليون المسلحون بالرشاشات. وكان المخيم، بسكانه البالغين واحداً وخمسين ألفاً، مشطوراً عملياً من منتصفه نتيجة اتفاقية كامب ديفيد بين إسرائيل ومصر. كانت الأسر مفصولة بصورة اعتباطية. ولم يكن لدى اللاجئين على جانبي الحدود نقود أو أوراق لعبور المائة ياردة أو نحوها للزيارات. (في عام ١٩٨٦، كان سكان غزة لا يزالون بلا أوراق رسمية. وكان بإمكان الفلسطينيين المقيمين في الأردن الحصول على جوازات سفر أردنية، بينما كان الفلسطينيون في سورية ولبنان يحصلون على وثائق سفر سورية أو لبنانية، سجلت جنسيتهم بأنهم «فلسطينيون». أما إسرائيل ومصر فتزعم كل منهما أن وثائق سكان غزة هي مشكلة الجانب الآخر، مع إصدار إسرائيل لبطاقات هوية خاصة بسكان غزة سجلت أن جنسيتهم «غير محددة»).

تأتي النساء إلى الحدود كل أصيل. وبينما يحملن أطفالهن ويسحبنهم، ويجرجرن أقدامهن عبر الرمل بنعال مطاطية رخيصة، يقتربن من الأسلاك الشائكة. وخلفها بضعة ياردات من الرمل، وراءها طريق الدوريات الإسرائيلية المهدة. وبعدها أسلاك أخرى، ثم رمال أخرى، ثم طريق قذرة للدوريات المصرية يملؤها الحصى، ثم أسلاك أخرى، ثم مصر - ونساء وأطفال على الجانب الآخر. تضغط النساء بأجسامهن على

الأسلاك، ويحدقن تحت الشمس، ويميزن أقرباءهن. ثم يلوحن، ويناديـن عبر الصحراء وجدران الأسلاك، عبر الجنود وأبراج المراقبة. ويتم تبادل الأخبار. ويأخذن بالصياح عند توقف الريح وإلا فإن أصواتهن قد تنطلق دون أن يتمَّ سماعها. ويرفعن أطفالهن ليراهم الآخرون. ويطلبن من الأطفال أن يلوحوا بأيديهم. ويكررن العبارات نفسها مراراً وتكراراً. «اشتقنا لك»، وتقوم المترجمة بنقل كل جملة لي. «أحبك». «كيف حال أمنا؟»، «ألم تحصلوا على تموينكم بعد؟»، «لم أكن في حال جيدة».

تترنح إحدى النساء فجأة بعيداً عن الأسلاك، تُنزل الطفل الذي كانت تحمله، وتنهار على ركبتيها، وتبكي. ينزاح حجابها وتلفه مثل الحبل بين يديها. تضرب الرمل بقبضتيها. ثم ترفع وجهها نحو سماء الصحراء البيضاء وتبدأ بالعويل. تمد المترجمة يدها إلى يدي، وتمسكها بقوة. «لقد علمت لتوها أن ابنتها على الجانب المصري قد ماتت ليلة أمس، خلال الولادة».

* * *

عند الجزء الواقع في أقصى شمال غزة توجد «الحدود» مع إسرائيل. وهنا، مع كل فجر، يعبر أربعون ألف لاجئ شمالاً للعمل في إسرائيل. بعضهم يحملون رخص عمل رسمية، وأكثرهم لا يحملونها. ثلث الذين يعبرون هم من النساء. ويقوم كل من النساء والرجال بأي عمل يستطيعون الحصول عليه. ويعمل الرجال بصورة أولية كعمال يوميين في أعمال الإنشاء، وأحياناً لبناء المستوطنات الإسرائيلية وراء الخط الأخضر في الضفة الغربية، أو يعملون في المعامل، وأحياناً في مصانع التسليح

الإسرائيلية. وتعمل النساء خادمات أو، الأكثر تكراراً، في الحقول ـ غالباً في حقول نشأن فيها عندما كانت أسرهن تمتلك الأرض كمزارعين. وكان على بعضهن أن يبحثن عن عمل مختلف كل يوم.

نذهب بينما لا يزال يعم الظلام كي نراقب هذا الخروج. يتضمن اللاجئون حرفيين فلسطينيين لا يستطيعون الحصول على عمل في غزة؛ أحد الذين أتحدث معهم طبيب صحة، ويعمل بصفة عامل يدوي. ينتظر النساء والرجال، وهم يجلسون منفصلين. يسافر الرجال في حافلات الأجرة، أو يتكومون في السيارات والشاحنات. والذين لا يحملون رخص عمل يُسمح لهم بالعبور على أي حال: لأنهم، باعتبارهم عمالاً غير قانونيين، يزودون الإسرائيليين بقوة عمل أرخص حتى ممن يحملون رخص العمل. وبسبب قانون يُذكّر بجنوب أفريقيا، على العمال، سواء الذين يحملون رخصاً أم لا ـ إلا إذا حملوا إذناً خاصاً ـ أن يكونوا خارج إسرائيل مع حلول المساء وإلا فإنهم يتعرضون للسجن. وأغلب النساء لا يحملن وثائق وليست لديهن وسائل للانتقال سوى التطفل أو المساومة على أي مسافة ممكنة مقابل أجر في حافلات الرجال أو شاحناتهم.

تقول إن اسمها نجاة. وهي في الخامسة والثلاثين، ولها عشرة أولاد. وقد هجرها زوجها. وتعيش في معسكر خان يونس جنوبي غزة، مع ستة وثلاثين ألف لاجئ آخر. تقوم أمها برعاية أولادها هناك. وتنهض نجاة كل صباح في الساعة الثانية وتسافر إلى الحدود الشمالية كي تصل إلى هناك في الرابعة. ثم تسافر ثلاث ساعات أخرى لتعمل في الحقول قرب يافا ـ حيث ولدت. ثم تكرر الرحلة بصورة معكوسة، وتصل إلى بيتها بعد العاشرة ليلاً. ومقابل هذا، تكسب ما يعادل

خمسة دولارات أمريكية يومياً. وتنفق اثنين من تلك الدولارات للسفر. وكانت تقوم بذلك، ستة أيام في الأسبوع، طوال ست سنوات.

وهذه ليست أول دولة ولا أول حالة حيث قيل لي إن «النساء لا تعمل هنا». إنني أشاهدهن وهنّ يعملن في كل مكان وطوال الوقت. أشاهدهن وهنّ يعملن في الحقول بينما يجلس الرجال بكسل في مقهى القرية. أشاهدهن وهنّ يقمن بالأعمال ذات أدنى الأجور، ودائماً، كذلك، يقمن بالعمل الذي لا أجر له والذي لا يُعتبر «عملاً» حتى: عمل مساندة الحياة في حمل الأطفال، وإطعامهم، ورعايتهم، العناية بالبيوت حتى عندما لا يكون ثمة بيوت حقيقية للعناية بها. أراهن وهنّ يسحبن الماء ويوازنّ الرزم على رؤوسهن؛ ويفركن الثياب تحت تدفق رقيق من حنفية ماء عامة؛ يرفعن، ويسحبن، ويحملن، ويقطعن، ويطبخن، ويخطن. أشاهدهن في معامل القطاع السيئة، حيث يتم تفصيل القماش الإسرائيلي، الذي تستورده سلطات الاحتلال لهذه الغاية، وخياطته وتحويله إلى ثياب بجهد رخيص، ثم نقله ثانية إلى إسرائيل كي يُباع بأسعار تفوق قدرة سكان غزة على الشراء.

أرى النساء في صفوف التدريب على المهارات التي تديرها نساء أخريات من وكالة UNRWA: تعليم الخياطة، والحياكة، والتطريز، والطباعة. وقد تبدو مثل هذه المهارات للعين الغربية «أنثوية» بصورة كئيبة، لكنها تُعتبر في هذا السياق مفاتيح لاستمرار اقتصاد صغير. وعلى نساء UNRWA أن يقنعن الرجال اللاجئين بالسماح «لنسائهم» بتعلم هذه المهارات - ثم استخدامها - وهن يخضن معارك يومية ضد السيطرة الذكورية التقليدية. (تقدم الوكالة للنساء أيضاً تدريباً على

مهارات غير تقليدية: كعاملات في مسح الأراضي، ورسامات معماريات وهندسيات، وتقنيات بناء، وتقنيات راديو وتلفزيون، وتقنيات مخابر، الخ.) وتمثل السياسة الإسرائيلية حول مثل هذا التعليم التزاماً ذكورياً تقليدياً صارخاً عبر الحضارات:

كانت سياسة إسرائيل تجاه عمل النساء العربيات وتدريبهن حساسة فيما يتعلق بالتزامهن التقليدي والاجتماعي. وتقدم وزارة العمل البرامج ومواضيع التدريب المهنية المطلوبة من السكان وفي سوق العمالة. وتقدم هذه المقررات مجاناً، ولا تلتزم الخريجات باستخدام مهاراتهن المكتسبة حديثاً لتولي أي عمل، إذا تعارض ذلك مع رغبات والد المرأة، أو خطيبها، أو زوجها... أو لأسباب تتعلق بالتقاليد... وتفضل عدة أسر إرسال نسائها للعمل في إسرائيل عن طريق ريّس (مقاول محلي)، تُعهد إليه مسؤولة شرف البنت. ويتصل الريّس بأرباب العمل مباشرة ويدفع عادة أجور النساء إلى الأفراد الذكور في أسرتها.

ليس مما يدعو للدهشة أن تفضّل النساء تعلم مهاراتهن على يد نساء فلسطينيات أخريات في UNRWA، ثم استخدام تلك المهارات في كسب بعض الكرامة في حياتهن. وكأنما كان الأمر تجاوباً مع الاحتلال الإسرائيلي، فقد نشرت حكومة الأردن عام ١٩٦٨ مسحاً للسكان وقوة العمل يتضمن التصريح التالي: «إن الوضع الاجتماعي التقليدي للناس [كذا] يعتبر الزوجة التي تساعد زوجها في عمله الزراعي غير ناشطة اقتصادياً ويؤدي، بالتالي، إلى استثنائها من أفراد قوة العمل في الزراعة. وينطبق الموقف نفسه على كل الأفراد النساء في الأسرة اللواتي يساعدن الرجال في العمل الزراعي».

إذاً فالنساء الفلسطينيات لا يعملن؟

* * *

سميحة واحدة من ٢٧٠٠٠ مقيم في مخيم النصيرات، في القطاع. وهي لاجئة، وقابلة تقليدية تعلمت أيضاً التمريض العملي الحديث عبر وكالة UNRWA، وتعمل الآن في مركزها الصحي المحلي. وهي تقوم بالعديد من الزيارات المنزلية. وتفيض بقدرات هائلة. «سنة بعد سنة، تحاول بعض النساء منا الوصول إلى مجلس المخيم*. إن الرجال خائفون منا، ولن يتركونا وشأننا. ولكن على أحد ما أن يفعل شيئاً. أن يحقق سياسات أفضل، ويطالب بشروط صحية أفضل. إن وكالة UNRWA لا تستطيع عمل ذلك كله. على سلطات الاحتلال أن تقوم بالمزيد. كذلك على **الرجال** أن يقوموا بالمزيد. إن المخدرات تأتي الآن إلى القطاع؛ ويومياً يصاب المزيد من شبابنا بالذهول من المخدرات. هل تعرفين كيف تأتي المخدرات؟ من البحر، مهربة. وتساعد ثلاث مجموعات من الرجال في هذا، بالدعم المباشر أو بغضّ نظرهم: المهربون، والإسرائيليون، والمشايخ. المهربون يكسبون النقود، والإسرائيليون يكسبون سكاناً ذكوراً مخدرين، والمشايخ يكسبون القوة والتبعية في كونهم عناصر الارتباط. يجب أن يتوقف هذا! والنساء هن اللواتي سيوقفنه!»

هذا واحد من مئات اللقاءات التي تنتهي بالدموع والضحك، بالمعانقة، بتبادل العناوين، بالعبارة العربية «**بحبك يا أختي**»

* * *

* تسوي مجالس المخيم النزاعات الداخلية في المخيمات وتحاول مفاوضة سلطات الاحتلال. لكنها لا تملك سلطة موضوعية. وهي تملك مكانة ضمن مجتمع المخيم، على أي حال.

إن منطقة «أرض الحليب والعسل» هذه جرداء. إنها ليست قطعة من العقارات التي تبرر هذا النزاع. والأرض ذات لون بيج وترابي مطرد، مبقعة بالصخور والحجارة الصفراء المتجهمة. والأخضر القليل هناك ـ الصبار المحلي وأشجار الزيتون ـ هو أخضر فولاذي جاف. وتتعطش العين إلى اللون. وتتشبت نظرة الزائر على اللون الدراقي الناعم النادر لإحدى زهور الصبار، أو اللون الأبيض والأزرق والذهبي لأحد الجوامع، تلك الظلال التي تهدئ العين وتنعشها.

في مخيم إثر مخيم، مثل أعلام السيمافور أو رايات استمرار الحياة، يتدلى الغسيل كي يجف ـ أميال منه مشدودة فوق الملاجئ وبينها، تنصع بياضاً تحت شمس البحر الأبيض المتوسط. في مخيم إثر مخيم، مما أثار دهشتي، هنالك محاولات لإحداث حدائق. في مربع طوله قدمان أو ثلاثة أقدام من الرمل الصخري بجانب الملجأ ـ توجد حديقة. تزرع النساء طعاماً كمورد رزق في هذه المساحة الصغيرة جداً: قصبة أو اثنتان من الذرة، بعض شجيرات القرع أو الكوسا، شتلة بندورة، بضع ملفوفات. وأحياناً عريشة مؤقتة تتسلق عليها كرمة عنب. ودائماً زهرة واحدة على الأقل ـ خبيزة قرمزية، نبتة فوشية، أو بوغنفيليا.

تريني عزيزة حديقتها في مخيم على الشاطئ. شيء رائع ما استطاعت زراعته، بهذه الكثافة، في هذه المساحة الضئيلة والتربة القاسية حيث يحتشد أربعون ألف شخص. وهي لا تملك أدوات، والماء سلعة ثمينة في المخيمات. وأحياناً، عندما يحصل اضطراب في المخيم، كان الجنود الإسرائيليون يتبولون عمداً في مصادر المياه للانتقام. لماذا، في مثل هذه الظروف، يخصص جزء من المساحة والمياه الثمينة من أجل

الزهور؟ تبتسم عزيزة وتدفعني بيدها وكأنني أضايقها، «لأن...» ثم تضحك متابعة، «أنت تعرفين السبب. إنها الروح ـ فهي بحاجة إلى غذاء أيضاً».

* * *

إن عبقرية التواطؤ الذكوري التي تتظاهر بالعداوة مثيرة للدهشة. فالمقاومة العلمانية الفلسطينية محظورة (العلم الفلسطيني غير قانوني، ويُعتبر رفع رايات ذلك العلم عملاً استفزازياً، واستخدام كلمة «فلسطين» نفسها تعتبره الحكومة الإسرائيلية إهانة للدولة). لكن «الحرية الدينية» تُمتدح كثيراً. وهل يدهش، في مثل هذه الشروط، أن تبدأ المقاومة الفلسطينية العلمانية الآن بالاندماج مع التشدد الإسلامي؟ هنالك جامعة واحدة فقط للفلسطينيين في قطاع غزة. وقد أسستها عام ١٩٧٨ حكومة المملكة العربية السعودية المتشددة؛ وترفض جامعة الأزهر في القاهرة ـ أكبر مقر للتعليم العربي والإسلامي في العالم ـ الاعتراف بها. وقد رحب الإسرائيليون بهذه الجامعة المتشددة. ولكن عندما أرادت مجموعة من المثقفين الفلسطينيين في غزة تأسيس جامعة هناك، لم يُسمح لهم بذلك. والنساء اللواتي يذهبن إلى الجامعة المتشددة عليهن ارتداء **الحجاب** الكامل، وليس غطاء الرأس فقط بل الغطاء الكامل للجسم، وعليهن تغطية وجوههن وارتداء القفازات. ولا يوجد مصدر آخر للتعليم العالي في القطاع. ولذلك فإن النساء يذهبن، مثل لفافات قماشية متحركة، وحالما يغادرن كل يوم، ينزعن الحجب والقفازات.

* * *

استقبلتني رابطة الخريجات الجامعيات النساء في غزة ـ العضوات الخمس كلهن. وهن لاجئات في أواخر ثلاثيناتهن أو أكبر، نساء حصلن على درجاتهن العلمية في مصر قبل اتفاقيات كامب ديفيد. ومنذ ذلك الوقت، خفضت مصر منحها التعليمية لسكان غزة من ١٥٠٠ سنوياً إلى أربعين تقريباً ـ وهي تُمنح الآن كلها تقريباً للرجال. هؤلاء النساء الفلسطينيات، المتعلمات عالياً، بلغتهم الإنكليزية الممتازة، هن ما تبقى من الرابطة ذات الأربعمائة عضو. وقبل بضع سنوات، كانت الأعلام الفلسطينية قد استخدمت كرايات تزيينية في حفلة عيد الميلاد الأربعين ـ احتفال خاص ـ لإحدى العضوات. وسيقت اثنتان من النساء تحت «الحجز الإداري» مدة ستة أشهر لكل منهما. وعانت العضوية من إنهاك كبير، بتأثير مقصود. والآن لا تزال العضوات الجريئات الخمس الباقيات يلتقين في مكتبهن البالغ الصغر والمكتظ بالكتب العربية والإنكليزية المتعلقة بالنساء. وترتدي واحدة فقط حجاباً وثوباً؛ وترتدي الباقيات بناطيل فضفاضة. واثنتان منهن مؤرخات؛ وواحدة خبيرة في الأدب العربي، وخاصة الشعر؛ وواحدة صيدلانية؛ وأخرى عالمة آثار.

والصيدلانية طلقها زوجها لأنها رفضت السماح له بمراقبة ما تقرأ. وتقول، «إنك تتعرضين للاكتئاب طوال حياتك. الإسرائيليون يقولون لا. والداك يقولان لا. زوجك يقول لا». وهي الوحيدة في المجموعة التي تقوم بعمل مأجور يتعلق بما تعلمته؛ والبطالة في القطاع ترتفع عالياً ـ وتصل إلى حدها الأعلى لدى صاحبات الحرف من النساء الفلسطينيات. والصيدلانية هي المعيلة الوحيدة لأمها وأحد عشر أخاً وأختاً.

لكن عالمة الآثار هي الأكثر إثارة للمشاعر. إن زينب هي نوعية

المثقفة المتقدة بهاجس دائم يتعلق بعملها. وعندما تتكلم عن الأطلال أو تتحدث عن تاريخ كاربوني خاص للحجارة، ترقص عيناها بالإثارة. والافتراض بأن زينب ـ عالمة الآثار الفلسطينية الأنثى في قطاع غزة دون وثائق رسمية ـ تستطيع العثور على عمل تدربت عليه، هو نكتة سمجة. ولكن لا يهم؛ فهي ستفعل أي شيء قريب من براعتها اليدوية الثمينة، أن تعلّمها للأخريات ـ إنها حتى، رغم ثلاث درجات تعليمية، قد تعمل دليلة سياحية.

وهذا غير مسموح: فربما تشير إلى تاريخ فلسطين.

تتكلم بهدوء، وهي تكبح دموعها: «لقد كنت مميزة في حصولي على التعليم. لا أريد أن أشتكي أو أن أبدو جاحدة. ولكن لا توجد طريقة لاستخدام ذلك التعليم. هنالك نساء في المخيمات لا يزلن يجهلن القراءة أو الكتابة، ونساء أكبر سناً لم يتعلمن أبداً ولا يرغبن في ذلك الآن. وأنا، بالمقارنة، محظوظة. ولكن...» ويتهدج صوتها، «إنني طير في قفص. وهذا أصعب، بشكل ما. أن يجري فتح الباب أمامي، وأنظر إلى الخارج. ثم أعيش بقية حياتي أحدق نحو الباب المغلق ثانية في وجهي».

* * *

التشويه البطريركي للغة: تخضع المناطق المحتلة لسيطرة السلطة المدنية الإسرائيلية للمناطق المدارة. ويرى المرء إشارات السلطة المدنية الإسرائيلية في كل مكان، على أبراج المراقبة، والمنشآت العسكرية، والسجون. وتحت الكلمات الكبيرة التي تُظهر «السلطة المدنية» توجد الأحرف الصغيرة IDF أي «قوة الدفاع الإسرائيلية».

النكات البطريركية للتاريخ: كثيراً ما يرى المرء فلسطينيين بعيون زرقاء أو رمادية أو خضراء، وشعر أحمر. وتقوم ختام بتفسير ذلك، في أحد مراكز رياض الأطفال في الضفة الغربية. وتهز كتفيها قائلة، «إنها الحملات الصليبية. جميع أولئك الملوك الإنكليز وجنودهم. ربما بضع زيجات ـ ولكن أغلبها حالات اغتصاب». وتضيف عائشة، المتخصصة بالتغذية والتي تعمل معها، بابتسامة مريرة، «ربما يكون هذا أحد الأسباب في أن العرب الآخرين يمتعضون منا كثيراً ـ عيون فاتحة، وشعر فاتح. إنها العرقية، أو العرقية بصورة معكوسة، لا يهم. فالأمر يتلخص بالاغتصاب».

* * *

تمنحني يسرى بربري زيارة. إنها الآن في ثمانيناتها، امرأة بالغة النحول، هشة، قوية، ذات شعر أبيض، وعيني نسر. وكانت قائدة للنساء الفلسطينيات طوال سنوات ولا تزال ترأس شبكة مجموعات النساء في القطاع. وهي من الحرس القديم، تنظم النساء لتغليف الضمادات وإرسال الثياب إلى الرجال في السجن. وتتحدث عن الشباب الفلسطينيين باهتمام، ولدهشتي، بقليل من الاضطراب (أكثر من نصف السكان الفلسطينيين في غزة والضفة الغربية تحت التاسعة عشرة). وتعبر عن استنكارها لتفكير النساء الشابات كثيراً بحريتهن كنساء وليس كثيراً بالشعب الفلسطيني كله. ومع ذلك فعندما سألتها عما تعتبره نجاحها الأكبر طوال عقود، تجيب بلا تردد، «معرفة القراءة والكتابة المتزايدة لدى نسائنا». وأكبر عقبة؟ ولدهشتي، إنها ليست العقبة الواضحة ـ الاحتلال. بل هي: «تفكك القيادة الفلسطينية.

السباق من أجل السلطة. وكأن لدينا الوقت لذلك. القتال. القتل. إنهم حمقى! كل هؤلاء الرجال حمقى». هل ستكون النساء مختلفات إذا تولين القيادة؟ تغمز بعينيها، وتنظر نحوي وكأنني حمقاء أخرى. وتجيب بحدة، «طبعاً! إن الأمر واضح. ولهذا لن يدعنا الرجال نحصل على ذلك».

عندما أغادرها، تعانقني، وتعطيني قطعة مطرزة، وتنظر في عينيّ، وتضحك، «تذكري الآن، إنني لست داعية لتحرير المرأة».

* * *

كانت الجرافة قد أزالت الملجأ خلال الساعة السابقة. فقد اتجه الظن إلى ابن إنعام الذي يبلغ التاسعة من عمره بأنه أحد الأولاد الذين رموا الحجارة على قافلة إسرائيلية عابرة من الشاحنات والدبابات. وكان الرد غالباً، في مثل هذه الحالة، هو معاقبة الأسرة: بإنذار لمدة ساعة، ثم يتم تدمير ملجئهم. وإنعام أرملة، تربي خمسة عشر ولداً. وكانت قد تمكنت من استكمال خمس سنوات فقط من الدراسة لكنها تمنت أن تعود إلى صفوف تعليم البالغين. وهي تقف الآن جافة العينين وسط أنقاض ما كان بيتها. ويتجمع الجيران، وهم يحدقون، ويتهامسون. لقد أصبحت الحديقة كومة من الكروم والأوراق والبتلات التالفة، التي سُحقت تحت الكتل الإسمنتية. وتبعثرت قدورها، وتناثر غسيلها، ممزقاً ومتسخاً، على الرمل. وتحاول إحدى بناتها إنقاذ بيت للدمى مبني بعلب الكوكا كولا وعلب الثقاب المطروحة. والأولاد الأصغر يصيحون، وهم يتمسكون بتنورتها. عليها أن تفرق الأسرة الآن، وتؤوي بعض الأولاد لدى أقارب لها في هذا المخيم والمخيمات الأخرى. وتفرض السياسة الإسرائيلية ألا

تعيد وكالة UNRWA بناء الملجأ، لأن المخيمات مكتظة على أي حال وبحاجة إلى «فسحة» أكبر. وإنعام ليس لديها مكان تذهب إليه. تقوم بالتنقيب بين الأنقاض، وتلتقط لوحة بلاستيكية صغيرة كُتب عليها شيء ما باللغة العربية. أطلب ترجمة ذلك: **إذا لم تستطع أن تكون نجمة في السماء، فكن شمعة في غرفة**. تنفض الغبار عن اللافتة وتأخذ بوضع حاجياتها في أكوام.

* * *

حيثما أذهب، تنشر النساء الدفء، والكرم، وحسن الضيافة، وثقة غير متوقعة. ومع الافتقار إلى خدمات الهاتف والبريد، يبدو أن لدى النساء خطاً غامضاً سريعاً للاتصال من مخيم إلى مخيم. تقيم أخت صديق ابن عم شخص ما هنا لكنها تعمل هناك أو تعرف أحداً ما أو قابلت شخصاً ما. كل ما أعرفه هو أن الكلمة تنتشر ـ من أقصى الطرف الجنوبي لغزة، خلال يوم واحد، إلى أقصى الطرف الشمالي للضفة الغربية، حيث تقترب امرأة مني وتقول: «تطلب جميلة في رفح أن نثق بك. وتقول إنك امرأة أمريكية بقلب امرأة عربية. وتطلب أن نتحدث إليك».

حيثما أذهب، في الملاجئ حيث توزيع المؤن صارم والقهوة رفاهية نادرة، يظهر الكأس الصغير المتصدع للقهوة القوية. أعاني في هذا الوقت من البراغيث، والقمل، والدورة الشهرية المضاعفة، والزحار. وآخر شيء أريده هو القهوة العربية. أود أن أرفضها، وأن أقول إن القهوة ثمينة وعلى المرأة أن تحافظ عليها، وألا تبددها على ضيفة تعتبرها كارثة الآن. لكن رفضها يُعتبر تجاهلاً لتقاليد الكرم. ومنذ زمن بعيد،

كان تقديم شراب للمسافر من الواحة يعني ثقة ترحيبية؛ وقبوله يعني ثقة مقابلة بأن الشراب ليس مسموماً. وهكذا تقوم بتبديد قهوتها الثمينة تعبيراً عن منزلتها وأقبلها بامتنان محترم، وأنا أروض نفسي سراً على حقيقة أن جزءاً من دماغي متخصص الآن بالسيطرة على العضلة العاصرة فقط. وتشعر بالسرور حين أمتدح قهوتها. ويستحق الأمر أن أرى اعتزازها.

* * *

يجب على طبيب العيادة العادي لدى وكالة UNRWA في قطاع غزة أن يقوم بمعالجة نحو ١٥٠ مريضاً في اليوم. وفي الوقت نفسه، لا يتمكن مئتا طبيب فلسطيني مدرب في القطاع من العثور على عمل، ولا تملك وكالة UNRWA النقود اللازمة من أجل توظيفهم. وتصل ميزانية وكالة UNRWA المخصصة للصحة بكاملها إلى نسبة عشرة دولارات أمريكية لكل شخص في السنة. ومع ذلك فقد انخفضت وفيات الأطفال، نتيجة عمل الوكالة، من ٩٠ في الألف عام ١٩٧٥ إلى ٣٠ بالألف عام ١٩٨٧.

وأغلب المرضى من النساء. وثلث أمراضهن سببها الفقر (سوء تغذية، طفيليات، سكري، فقر الدم، زحار مزمن)؛ وثلثها بسبب الحمل المتعدد؛ وثلثها (بخاصة العمى) أمراض وراثية، بسبب الزواج التقليدي من ابن العم.

جميع المرافق الصحية نظيفة، مع أن بعضها يوجد في أبنية متداعية. والنساء بالمئات ينتظرن معاينتهن. ويجلسن القرفصاء في الساحات، وقد التصق أطفالهن بهن. وفي الداخل، تنادي الموظفات

الصحيات عبر ثرثرة أصوات الأطفال. وبطريقة ما، يبتسمن ـ كل منهن للأخرى، لمرضاهن، لزائرة ـ عبر إعياء بالغ.

* * *

صدمة إثر صدمة. هذا أول مكان أوجد فيه حيث لا تعتبر أي امرأة أنه من الغريب لأحد أن يكون سياسياً وشاعراً في الوقت نفسه. وهناك تقليد نسائي متوارث طويل في العالم العربي لشاعرات كبيرات ـ ملحميات ـ أثّرن على سياسة عصرهن.

صدمة إثر صدمة. فاطمة في أواخر أربعيناتها، لاجئة، معلمة في مدرسة ابتدائية لدى UNRWA في أحد مخيمات الضفة الغربية، سأغفل ذكر اسمها. ودون خوف أو إحراج، تذكر طوعاً بأنها غير متزوجة، ولن تتزوج، وليس لديها أولاد، ولا تنوي ذلك، وأن لها عشيقة امرأة. كان هذا هو السؤال الوحيد الذي حذرتني مترجمتي الفلسطينية من طرحه. في مخيم إثر مخيم، كنت أستفسر، بواسطة الأسئلة المصاغة بدقة، عن الاغتصاب، والضرب، والتحرش بالأطفال، والتفاصيل الصحية الحميمة، ومواقف النساء نحو رجالهن. وهذه كلها مواضيع لم يسبق لنساء المخيمات أن طرحها عليهن شخص أجنبي، وربما أي شخص آخر، مع أنهن يناقشن مثل هذه الأمور بصراحة فيما بينهن. لكن هذا السؤال، كما جرى تحذيري، مثير جداً.

تبتسم فاطمة. وتتحدث بلغة إنكليزية مترددة لكنها سليمة. وتقول: «أعترف أنه موضوع غير شائع، لكننا موجودات. إنني لا أتخيل نفسي». وتحكي لي قولاً مأثوراً عربياً كنت قد سمعته من قبل: «عندما تحب المرأة امرأة أخرى، فإنها لا تسبب عاراً لأبيها ولا انتفاخاً

لبطنها». وتضيف بطريقة جافة، «إن هذا ليس القول المأثور المفضل لدى الرجال العرب». وتطلب بشكل خاص أن أخبر النساء اللواتي أكتب لهن وعنهن بأنها موجودة. وتهمس، ليس بالصراحة التي كانت ترغبها، ثم ترمقني بنظرة طويلة. «لكنني كنت محظوظة في الدراسة لمدة سنة واحدة، حين كنت أصغر سناً، في إحدى جامعات ولايتك، كولورادو. لم يكن الأمر مكشوفاً أو مقبولاً جداً هناك، أيضاً. هل يختلف الأمر كثيراً بالنسبة لامرأة سحاقية في أي مكان؟»

إنني لا أتخيل نفسي.

بحبك يا أختي.

أخبريهن بأنني موجودة.

* * *

مراكز الخياطة. مراكز التلقيح. رياض الأطفال ودور الحضانة. مراكز الأمومة. مراكز التطريز. أول تعاونيات نسائية تبيع هذا العمل الرائع، في قلندية بالضفة الغربية.

التطريز هو الفن الفلسطيني العظيم - وهو فن نسائي. وبواسطة الرسم، ونوع الغرزة، وتراصف الأشكال الهندسية أو الزهور، يمكن فوراً معرفة إن كانت الفنانة من الخليل أو حيفا، من جنين أو غزة. ويصبح هذا رمزاً قماشياً، واتصالاً واضحاً صامتاً. وهنالك الحصر، والقطع الأمامية للفساتين الطويلة، وستائر الجدران، وأغطية المساند، ومفارش المائدة. وقد اتفق أن تكون الخيوط المفضلة خضراء وحمراء وسوداء على أرضية بيضاء - المتطابقة مع ألوان العلم الفلسطيني المحظور. ولم تعد القدرة الشرائية لدى أغلب النساء في المخيمات تسمح لهن بارتداء تطريزهن،

حتى ولو كان لباسهن الوطني. وهن يرتدين ـ تحت الحجاب أحياناً ـ ملابس من نسيج صناعي رديء النوعية ذي رقع تكشف أنه صُنع في تايوان. وتايوان سيئة السمعة في صناعتها للثياب. والمحلات الرخيصة الأخرى تزدحم بنساء أخريات.

* * *

إن القدس، المدينة المقدسة، بالنسبة لي هي عبارة عن جحيم غير متمدن. فضمن الجماهير المكبوتة، تتعايش الفئات عن طريق مجرد تجاهل بعضها بعضاً، أو عن طريق اضطهاد بعضها بعضاً، أو الانتقام من بعضها بعضاً. وهناك ثلاث عملات مختلفة يجري استخدامها، وثمة قطاعات كاملة من المدينة تغلق في أيام مختلفة كل أسبوع (في العطل الدينية المتعددة)، وتحاول لهجات كل لغة يمكن تصورها **عدم** الاتصال مع أي واحدة أخرى.

وتحدث أعمال الشغب الصغيرة والصدامات وتفجير السيارات والتفتيش عن الأسلحة في الشارع كل يوم كأمور عادية.

يخوض الإسرائيليون العلمانيون حرباً أهلية مع **الهاريديين**، وهم اليهود التقليديين جداً. وكان الهارديون يقومون بإشعال مظلات مواقف الحافلات التي ألصقت عليها إعلانات «إباحية» تعرض ثياب السباحة. كما كانوا يقومون أيضاً بقذف القنابل الحارقة على صالات السينما التي تفتح أيام السبت، ويقومون بالهجوم وقذف الحجارة على النساء الإسرائيليات اللواتي يرتدين البناطيل الفضفاضة، ويكسبون المقاعد في الكنيست. وقد رد بعض الإسرائيليين العلمانيين برمي القنابل على كنيس تقليدي.

والمسيحيون على عداء مع المسيحيين. وكل يوم جمعة، يقوم ممثلو الطوائف المسيحية الرئيسية (الروم الكاثوليك، الأرثوذكس الشرقيين، الأرمن الأرثوذكس، الأرثوذكس الروس) بتفاخر طقسي حول شمعة من ستوضع أقرب لفتحة الضريح المقدس التي يُفترض أن جسد المسيح قد وضع فيها.

والإصلاحيون الليبراليون ضد المتشددين، أنصار حداد ضد أنصار عرفات.

لا بد أن هناك شيئاً ما وراء ذلك.

الجميع يحضون على «الأخوة».

تبدو المدينة بشكل كئيب مليئة بالنساء المحجبات.

نساء **الهاريدين** يتبعن رجالهن عبر الشوارع، بخطوة موقرة خلفهم. ونساء **الهاريدين** حوامل دائماً، وفي أعقابهن قافلة من الأولاد المتدرجين في أعمارهم. وعلى نساء **الهاريدين** أن يرتدين طرازهن الخاص من الحجاب: فرؤوسهن الحليقة المغطاة بالشعر المستعار يجب تغطيتها بالكامل أمام الناس، وتنانيرهن الطويلة وأكمامهن يجب أن تخفي الأرساغ والكواحل الفاجرة المغوية الفاسقة.

وأسراب الراهبات المسيحيات يسرن محجبات أيضاً.

والنساء المسلمات غالباً ما يرتدين الأسود، وترتدي نساء الهاريدين ألواناً داكنة، والراهبات مثل البطاريق في توزع الأبيض والأسود. والأطفال الملتصقون بأجساد النساء اليهوديات والمسلمات هم أطفالهن؛ والمتمسكون بالراهبات هم تلاميذهن أو الذين يقمن برعايتهم من الميتم.

لا أحد من الرجال أو الأطفال يضع حجاباً.

الرجال يضعون المسدسات.

والسياح يرتدون بناطيل البرمودا ويعلقون آلات التصوير.

وهذا يُسهّل تمييزهم كل على حدة.

القدس هي المكان الوحيد في المنطقة حيث أواجه التحرش الجنسي في الشارع - وهو من الجنود الإسرائيليين، مثل صيحات الاستهجان والقيام بتعليقات وأصوات الامتصاص المألوفة بصورة قابضة للصدر في شوارع نيويورك. وربما يبدو أن التحرش الجنسي ينخفض بنسبة طردية مع تزايد التشدد الديني: فالمجتمع البطريركي الممتاز يقدم النساء.

لم أكن أشعر بالخوف في المخيمات، مع أنني كنت خائفة في القدس. المدينة شبكة من الأقسام المنفصلة. يشعرني الجنود الإسرائيليون بالمرح. ويحملق بي الرجال العرب. والتجول قريباً جداً من القسم اليهودي التقليدي يُعتبر تشجيعاً للتعرض للقذف بالحجارة أو الضرب. وتتفاخر الضواحي بمنازل تتألف من مجمعات مسورة. والقدس الغربية إسرائيلية، وهي مزيج من فينا العالم القديم وسان فرانسيسكو العصرية. وتعرض محلات بيع القمصان بضاعتها التي كُتب عليها: «لا تقلقي، يا أمريكا: فالإسرائيليون وراءك»، و«السلام من خلال القوة العسكرية المتفوقة»، و«فتية فتح». وعلى مقدمة أحد القمصان: «السلام مع العرب فكرة فات أوانها» وعلى ظهره: «مثل مضاجعة عذراء».

في المدينة القديمة، يكمن عالمي فرعي مع عوالم أكثر فرعية خلف الجدران. المنطقة اليهودية. المنطقة العربية و**السوق**. المنطقة المسيحية. المنطقة الأفريقية. ملصقات أفلام كوداك تنتشر على طريق الآلام،

ولافتات كولا التاج الملكي ترفرف حول قبة الصخرة. وعند حائط المبكى، النساء ينفصلن عن الرجال. وتزدحم جهة النساء (ربع مساحة جهة الرجال) بعربات الأطفال، والنساء المتجولات. تقترب النساء من الحائط، ويصلين، ثم يحدقن عبر الحاجز الشبكي نحو القسم الأكبر حيث يصلي الرجال، ويتحدثون، ويرقصون في حلقة واسعة احتفالاً بأنفسهم وإلههم.

المدينة محاطة بمستوطنات كبيرة أطلق عليها اسم «قلعة القدس». ويمكن لكل من توسعات الإسكان التعاوني الحديث (حيث لا يستطيع أي فلسطيني الشراء قانونياً) أن تُسكن حتى ٤٠٠٠٠٠ شخص. وقد بُنيت هذه كلها وراء الخط الأخضر وهي بذلك غير قانونية. والدولة تشجب رسمياً مثل هذه الممارسات ـ مع أنها تقدم الإسكان المدعوم مالياً في هذه المستوطنات للمواطنين الإسرائيليين. ويطالب بعض أعضاء الحكومة صراحة بالضم الرسمي والدائم للضفة الغربية.

سماحة في الستينات من عمرها، وقد ربت سبعة عشر طفلاً، وهي أرملة. وقد رفضت التخلي عن مزرعتها الصغيرة قرب القدس مقابل «تعويض». وهي تقيم الآن في مقطورة على تلك الأرض. لقد تمَّ تدمير بيتها بعد مصادرة الأرض بالقوة. وبناء المستوطنة مستمر حولها من جميع الجهات. وتساعد بعض المحاميات الإسرائيليات في مناقشة قضيتها في المحاكم. وفي الوقت نفسه، تقوم الدولة بإيواء اليهود السود ـ القادمين حديثاً من إثيوبيا، الجائعين، الأبرياء، والسعداء ببساطة لأنهم هنا ـ على نحو قاس في بعض المستوطنات الأبعد؛ ويعانون يومياً من هجمات بالسكاكين على أيدي رجال فلسطينيين وهم

يجهلون أنهم يقيمون على أرضهم. ميعنا يهودية سوداء، لا تزال هزيلة من الجوع. وتقول، «إنني خائفة من وجودي هنا، وكنت خائفة من وجودي حيث كنت. أين يمكن أن أوجد حيث لا أشعر بالخوف؟»

تحمل صحيفة Jerusalem Post مقالة على الصفحة الأولى تتساءل بجد عن سبب تزايد الخوف من الأماكن العامة (الخوف من أن يغادر المرء منزله) بين سكان القدس.

تخبرني أكاديمية فلسطينية من جامعة بير زيت بأنها تتخصص الآن بالتواريخ الشفهية، لأننا «بعد عشر سنوات أخرى، لن تبقى لدينا حتى جدات يستطعن إخبارنا ما هو طعم السلام».

* * *

تستقبلني عضو الكنيست شولاميت ألوني في المجلس النيابي الإسرائيلي. وهي مؤسِّسة حزب الحقوق المدنية وحركة السلام، الذي يضم أربعة مقاعد برلمانية. إنها داعية لتحرير المرأة، وتقوم بحملة إصلاحية ضد سيطرة محاكم الحاخامات على حياة النساء، كما أنها ناشطة علمانية، وقائدة داعية للسلام والتسوية، وهي في أواخر الخمسينات من عمرها. وتعاني من قرحة مزمنة ونجت من نوبتين قلبيتين. إنها تستمر لأن «على أحد ما أن ينهض ويقول هذه الأمور». وعندما يحذر رئيس الوزراء بأن إسرائيل تزدحم بالسكان الفلسطينيين ويحث كل امرأة إسرائيلية كي تنجب أربعة أولاد على الأقل، فإن ألوني هي التي تثب على قدميها في الكنيست، صائحة بأنه بدلاً من الحل السياسي العقلاني، مثل التخلي عن المناطق المحتلة، فإن الحكومة تريد أن «تؤمم النساء». إن شولاميت تعرف أن النساء الإسرائيليات لسن محور زيارتي الآن، لكنها تلخص الأمر لي على أي حال.

«إننا نتراجع فيما يتعلق بالتشريع، لكننا نتقدم فيما يتعلق بالوعي. لقد أصبح اللوبي الديني التقليدي أخيراً عنيفاً جداً بحيث سبب رد فعل ليبرالياً وبعض الدعم لما كنا نحن دعاة تحرير المرأة نقوله دائماً. إن إسرائيل عند نقطة انعطاف فيما يتعلق بالديمقراطية. ويمكنها أن تتبع العملية المريضة المملة للعديد من الدول المستقلة حديثاً - التحرير، ثم الفساد، ثم الفاشية، ثم التحرير، ثم الحالة الطبيعية أخيراً - أو تنفيذ رؤياها المزعومة في بلد اشتراكي ديموقراطي إنساني. وحل الدولتين **قد** يكون ممكناً إذا قامت إسرائيل بإشارة ما - حول الضفة الغربية، مثلاً - بخاصة الآن، بينما يشعر الفلسطينيون بأنهم يتعرضون لخيانة كبيرة من الدول العربية. لكن رجال هذه الحكومة لن يقوموا بتلك الإشارة. بل على العكس، يتحدث بعضهم عن الضم الرسمي الدائم. لديهم عقلية الحصار. حتى الكنيس هنا في الكنيست هو تحت الأرض - وفي افتتاحه، كان علي الجلوس وراء **الميهيتسا** [الحاجز]. حسن، إن النساء لديهن طاقة أكثر. إننا أشد رغبة في القتال بصورة مسالمة وإبداعية، مهما استغرق ذلك، بدلاً من إرضاء طموحنا وغرورنا. أريد بشكل ما الوصول إلى النساء اليهوديات في جميع أنحاء العالم، سواء أكنّ متدينات أم لا، وحثهن على **ممارسة اقتراع أخلاقي**: استخدام النفوذ، التأثير، كتابة رسائل إلى هذه الحكومة وإلى حكوماتهن، الضغط لتغيير الدولة الإسرائيلية وتهذيبها - حول العرقية، حول السلام، حول النساء، حول التقليدية. **أريدهن أن يقمن بإفهام هذه الحكومة أنها لا يمكن، ولا يجب، أن تفعل هذه الأمور باسم اليهود**».

دموع. ضحك. معانقة. وتخبرني بأنني شديدة النحول، وعلي أن

آكل جيداً. وتسألني، «زحار؟» أومئ. وتتنهد، «كنت خائفة من ذلك. حاولي أن ترتاحي قليلاً». فأجيب، «انظروا من تتحدث». مزيد من الدموع. مزيد من الضحك. مزيد من العناق.

* * *

يقع مخيم الدهيشة، بسكانه السبعة آلاف تقريباً، جنوب القدس في الضفة الغربية، قرب بيت لحم. ويحمل تاريخاً من الثورات - قذف الحجارة على الدوريات الإسرائيلية، الإضرابات، مسيرات الاحتجاج. ونتيجة لذلك، إنه الآن مخيم مغلق. وكل المخارج والمداخل مسدودة إلا واحداً من قبل سلطات الاحتلال: كتل إسمنتية وأسلاك شائكة تحيط بالمخيم، وأنوار كاشفة قوية تضيء من الغسق حتى الفجر. ويشرف برج مراقبة مسلح على المخيم. وقد أوقفت الدولة أعمالاً طال الوعد بها في المجاري كنوع من العقاب؛ وتصدأ الأنابيب الجديدة غير الموصولة داخل القنوات المكشوفة التي لا تزال طافحة وفي محاذاتها. وفي دهيشة منعتني السلطات من التقاط الصور. إنها ليست المرة الأولى أو الأخيرة التي أتعرض فيها للتحقيق والمضايقة بصفتي صحفية تزور المخيمات. ولكن في هذه المرة هناك جنود مظلات على المسرح وهم أكثر عداء. إنني أحمل الترخيص المناسب، وترافقني مترجمة، وأنا هنا بدعوة من وكالة UNRWA. وعلى النقيب، الذي يتباهى مرحاً بقبعة المظليين الحمراء، أن يتصل بمقر القيادة لمعرفة ماذا يفعل معي، لأنني أرفض السماح له بمصادرة الفيلم.

وخلال غيابه، أخوض في حديث مع أحد الجنود الشبان. وهو **سابرا**، إسرائيلي المولد، خجول من إنكليزيته. أعرف أنه في الثامنة عشرة

فقط. وأخبره بأن ابني يوشك على بلوغ الثامنة عشرة، في الولايات. يسألني عن ابني. موسيقي؟ يريد أن يصبح مؤلفاً موسيقياً؟ عيناه متعطشتان، متلهفتان. ويقول لي، لقد أراد دائماً أن يكون فناناً، رساماً. ربما بعد انتهاء خدمته العسكرية... إذاً فهو لن يعيد تسجيل نفسه كمحترف؟ يهز رأسه. ينظر حوله ليتأكد من أن رؤساءه لا يمكن أن يسمعوا.

«لا أحب ما أنا... ما نحن... ما يحدث. إنني... إنني...»

ابني بعمره تقريباً. لا أستطيع منع نفسي من مد يدي للمس يده، برقة، يده المراهقة المضطربة المستقرة على عقب بندقيته من طراز الجليل. تمتلئ عيناه الداكنتان. ويهمس، «إنني... إننا نقوم... بأمور سيئة، يا سيدتي، أمور سيئة. ونحن... إنني خائف. خائف طوال الوقت».

يتجسس علينا ضابطه المشرف، ويقترب بخطوات واسعة، ويوبخه لتحدثه مع صحفية. أتدخل، محاولة وضع اللوم على نفسي. يظهر صاحب القبعة الحمراء ثانية، بتجهم: يريدني أن أذهب. ويسألني صاحب القبعة الحمراء، بفضول مفاجئ، «هل أنت يهودية؟» أجيب، «نعم، لكنني لست متدينة». «وإن يكن، يهودية وأمريكية، لماذا تهتمين بدخول المخيمات؟ عليك أن تكوني بجانب إسرائيل!» لا أستطيع التحدث إليه، لا يمكنني استمالته، وهو لن يدعني أتحدث مع الفتى الذي يقارب ابني. لا يمكنني أن أسأل هؤلاء الرجال عن رأيهم بحركة المقاومة الإسرائيلية المتزايدة، أولاد يقاربون أولادي يرفضون الخدمة العسكرية كلياً أو يوافقون على الخدمة في جيش الدفاع لكنهم يرفضون الخدمة في جيش الاحتلال.

الآن، وأنا أتقدم عبر مخيم دهيشة، يبتعد السكان عني. إما لأنهم يرتابون بي لتحدثي مع الجنود أو لأنهم عرفوا أنني كنت محتجزة ويخشون الآن أن يشاهَدوا معي، لا أدري. لكن الأولاد لا يزالون يركضون بجانبي، وهم يبتسمون، ويشيرون إلى آلة التصوير ويومئون لي كي ألتقط صورهم. في كل مكان يفعل الأولاد هذا. تريد بنت صغيرة في الثامنة تقريباً أن تمارس القليل من الإنكليزية التي تتعلمها في مدرسة UNRWA. اسمها افتكار. وهي جميلة، ذات عينين سوداوين وابتسامة تبهج النفس. تخبرني بأنها تريد أن تصبح طبيبة عندما تكبر. لا، إنها لن تتزوج؛ تهز رأسها بوقاحة، ويداها على وركيها. لديها اثنا عشر أخاً وأختاً. ولدى أبيها زوجتان. هي **لن** تتزوج. **إنها** ستصبح **طبيبة**.

بحبك يا أختي.

تقهقه وتصحح لفظي.

يركض الأولاد الذين من عمرها مبتعدين. أدور عند منعطف وأراهم ثانية. إنهم يحملون مسدسات خشبية غير متقنة ويلعبون لعبة مختلفة.

* * *

طوال أيام أقطع الضفة الغربية. شمالاً إلى نابلس، إلى جنين. وفي جنين وعربة خلال ربيع عام ١٩٨٣ عانت ٢٥٠ تلميذة في خمس مدارس مختلفة من الدوار، والصداع، وصعوبات في التنفس، والرجفة، ونوبات الإغماء، والتشنجات الحادة. ونسبت سلطات الاحتلال الحادثة إلى «هستيريا جماعية». وانتشر الوباء. في ثلاث مناطق شمالية أخرى من

الضفة الغربية وفي يطّا (جنوب الخليل)، تم الإعلان عن ٩٤٣ حالة. كانت ٧٠٪ منها حالات بنات مراهقات. لم تحدث أي وفاة. واتهمت مجموعات الحريات المدنية الإسرائيلية والمنظمات الفلسطينية الدولة بمحاولة التسميم، مقدمة الدليل - توالي «تسرب» الغاز و«تناثر» المواد الكيميائية في المدارس. وعينت المراكز الأمريكية للسيطرة على المرض ومنظمة الصحة العالمية فرقاً للتحقيق. وعند تأليف هذا الكتاب، كانت التحقيقات قد وُضعت على الرف لأسباب دبلوماسية. ويستمر مركز القدس لدراسات التطوير في متابعة الحالة، زاعماً وجود معلومات جديدة حول عملاء إسرائيليين زرعوا المواد الكيميائية السامة. وفي الوقت نفسه، فإن البنات والنساء الشابات «يواجهن مأساة اجتماعية. فالزواج منهن مرفوض على أساس أنهن تعرضن للتسمم. كما انتشرت الإشاعات زاعمة أن البنات قد فقدن خصوبتهن». وفي حضارة حيث الزواج قد يعني المحافظة على الاقتصاد، فإن هذا يمكن أن يكون حكماً بالموت.

في الشمال ثانية، إلى مركز تدريب نساء رام الله، واحة الأمل وسلامة العقل. وهنا يجري كل من التدريب المهني والتعليمي. المهاجع وقاعات الدراسة نظيفة، الأبنية جميلة، الساحات واسعة. تنتشر النساء الشابات (٢٨٨ طالبة مهنية، ٣٥٠ طالبة تتدرب على التعليم) على العشب بكتبهن، وهن يقرأن، ويتنزهن، ويتحدثن بحيوية. وقد يصبحن نساء جامعيات في نيو إنغلند. ومن هذا المكان سوف ينطلق الجيل القادم من النساء الفلسطينيات، للقيام بتعليم الأخريات، وتربيتهن، وتطبيبهن، وإخبارهن عن «الانفراج»، ومنحهن رؤى الحياة وراء المخيمات. لقد كان هذا حلم صباح عرفات.

الطالبات يمشين باعتزاز وجمال، يداً بيد، بعضهن بحجاب كامل، وبعضهن بقمصان وبناطيل جينز، يتحدثن ويضحكن. وفي المكتبة الجيدة التجهيز (المحتوية على كتب باللغات العربية والإنكليزية والعبرية) لافتة واضحة: الجهل ليس نعمة. ترحب بي المديرة وقد توهجت بالاعتزاز وأنا أظهر سعادتي بمدرستها. ثم تقول بحزن، «إن المأساة الوحيدة هي حين يأتي وقت مغادرتهن، وعودتهن إلى أسرهن في الملاجئ، إلى آبائهن وأخوتهن الذين يغيظهم ما تعلمن. لو أننا نستطيع إعدادهن بطريقة ما لذلك...»

أجلس على العشب تحت الشمس وأتحدث مع الطالبات، مثلما تحدثت مع طالبات المدارس الأدنى في كل مخيم. وتتكرر اللازمة:

لا أريد أن أتزوج قبل مرور وقت طويل.

لا أريد إنجاب أكثر من طفلين.

لا أريد أن أتزوج مطلقاً.

لا أريد إنجاب أي أطفال.

كل الأطفال لي، لماذا أحتاج إلى أطفال خاصين بي؟

وتتكرر الأسئلة التي سمعتها بصورة حرفية تقريباً في صفوف البنات ومراكز النشاط الاجتماعي وساحات المخيمات طوال أسابيع حتى الآن:

من تعطي أكثر، من تستطيع المساهمة أكثر، لشعبها؟ المرأة التي أنجبت عشرة أولاد أو اثني عشر ولداً ولا تستطيع وضع خطة ساعة واحدة خارج نطاق استمرار حياتهم؟ أم المرأة التي تلد نفسها وتكون حرة في مساعدة شعبها والعالم؟

بصورة حرفية تقريباً. وكأن شبكة خفية تقريباً من المعلمات قد أوصلت هذه الرسالة إلى جيل كامل من النساء الأكثر شباباً.

* * *

تتعلم فدوى الطباعة في مخيم قلندية، في الضفة الغربية. وهي في السادسة عشرة وتشع بذكاء حاد. كما تتعلم النساء الشابات الأخريات هذا المهارة على أمل أن يسمح لهن آباؤهن وأخوتهن بتولي أعمال كتابية. لكن فدوى تقول إنها تتعلم لسبب إضافي، لأنها تريد أن تكون كاتبة، أو شاعرة حتى. وتقول إحدى البنات الأخريات إن الشاعرة لا تفيد أسرتها، ولا تفيد شعبها. وتتوهج فدوى مجيبة، «إنها فائدة لي. إذا لم يحتو الشعب على فنانين فإنه لا يملك روحاً».

* * *

يستغرق العبور إلى الأردن يوماً كاملاً. إنه رحلة تمتد بضعة أميال فقط، على جسر متداع عبر مجرى هزيل لنهر الأردن، وهاوية من الخلاف. إنه أيضاً تجربة سريالية في الإنكار. الإسرائيليون يدعون الجسر جسر اللنبي، ويدعوه الأردنيون جسر الحسين. يلزم جوازا سفر، لأن الأردن لا تعترف بوجود إسرائيل ولن تسمح بالدخول إذا خُتم جواز السفر في إسرائيل. ومع ذلك فإن الجنود على كلا الجانبين يتحدثون مع بعضهم بعضاً، ويناقشون أمور الرياضة ويتبادلون النكات حول النساء.

نقاط تفتيش متعددة. أذون خاصة. تفتيش للعربات. لا تصوير. يحذرني موظفو وكالة UNRWA، الذين يجرون هذا العبور بصورة منتظمة، بأن لا أحد يستطيع توقع كم سيستغرق ذلك. أي شيء أو لا شيء يمكن أن يحدث. مزيد من نقاط التفتيش. مزيد من الأسلاك

الشائكة، طوال أميال. امتداد لأراض جافة كثيرة التلال بنفس ذلك اللون الرمادي المخضر المعدني الهش والأصفر الشاحب. تتوزع اللافتات على جانبي الطريق، بالإنكليزية والعربية: **منطقة ألغام خطرة.**

* * *

تستضيف الأردن عشرة مخيمات، بعضها يعود إلى عام ١٩٤٨. وهذه مدن صغيرة حقيقية؛ يضم أحدها ٥٧٠٠٠ شخص. وفي الحقيقة إن مخيم بقعة هو ثاني أكبر مدينة في الأردن، بعد عمان، العاصمة. لكن نحو ثلثي سكان الأردن البالغين ٢,٨ مليون شخص هم فلسطينيون* وأربعون بالمئة من عمليات UNRWA تتم في الأردن؛ ١٧٪ من الطلاب هم في مدارس UNRWA. وتحتوي مخيمات ثابتة مثل صوف، وإربد، والمخيم الجديد على طرق ممهدة غير متقنة (أعدها السكان أنفسهم)، وبعض البالوعات وبعض الكهرباء. وتوجد محلات تجارية قليلة ذات واجهات زجاجية بسيطة. وهناك مقابر. فقد عاش جيلان من اللاجئين وماتا حتى الآن هنا.

أنجبت دينا ثمانية وعشرين ولداً، منهم خمسة وعشرون أحياء. وقد

* في ٣١ تموز ١٩٨٨، أعلن الملك حسين قطع روابط الأردن القانونية والإدارية مع الضفة الغربية (التي حكمها الأردن منذ عام ١٩٤٨ حتى احتلال إسرائيل لها عام ١٩٦٧)؛ ثم ألغى الحسين وزارة المناطق المحتلة الأردنية وفصل أكثر من خمسة آلاف فلسطيني يعملون بصفة موظفين مدنيين أردنيين في الضفة الغربية. وزعم أن هذه الخطوة قد اتُخذت احتراماً لمنظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها «الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني» ولدعم ٩٠٠٠٠٠ فلسطيني من الضفة الغربية في مطالبتهم بالحكم الذاتي والدولة المستقلة. («مقتطفات من خطاب الحسين حول التخلي عن المطالبة بالضفة الغربية»، New York Times، ١ آب ١٩٨٨). بالنسبة لهذا الكتاب، من المستحيل معرفة إن كانت هذه الحركة التكتيكية من جانب الأردن حقيقية أم ظاهرية، وإن كانت عملاً بقصد الدعم والتحدي، أم التخلي، وإلى أي مدى سيكون تأثيرها السياسي. ثمة أمر واحد مؤكد فقط: إنها ستزيد الاضطراب ومشقات الحياة اليومية لدى العديد من اللاجئين.

أرادت أن تتوقف بعد الخامس كما تقول. لكن زوجها غضب من هذه الفكرة. وظلت تخطط سراً طوال سنوات. وأخيراً وجدت طبيباً رضي أن يكذب، ويؤكد إصابتها بسرطان الرحم، ويقوم باستئصال رحمها. وعندما علم زوجها بما جرى وبخها وضربها. ولم يهمها الأمر آنذاك، كما أخبرتني. وأخذت المترجمة تبكي وهي تروي الأسباب في أنه: «كان يستطيع ضربي، وكان يستطيع حتى قتلي. لكنه لم يعد يستطيع إجباري على القيام بما لم أرغب في عمله. لقد قُتل ولداي الكبيران، وهما صبيان، كما ترين. كانا غاضبين، لقد كانا دائماً غاضبين. وأنا غاضبة، أيضاً، لكنني لا أقتل. لقد جعلهما غضبهما قاتلين. وقُتلا تباعاً. وفكرت، لا مزيد من الأبناء. لكنه لم يدعني أتوقف. لقد أجبرته الآن على جعلي أتوقف. لن أنجب لمجرد أن أرى أولادي يُقتلون ويموتون. **إن جسدي ليس مصنع أسلحة**. إنه جسدي **أنا**».

* * *

منحني الإصرار على العمل مع مترجمة كسباً غير متوقع: لقد تبين أنه طريقة جديدة كاملة للتنظيم. فكل مترجمة جديدة تشعر بتوتر الأعصاب حين تبدأ ـ تتوتر أعصابها بشأن الترجمة، وبشأن الجرأة في التركيز على النساء، وبشأن العمل مع هذه الداعية الغربية لتحرير المرأة. ومع نهاية اليوم الأول، ترغب كل مترجمة جديدة في التحدث سراً ـ في منزلها، في مقري، عند تناول القهوة، أو حتى في السيارة الصغيرة أو سيارة الجيب الخاصة بوكالة UNRWA ـ حول ما سمعته وترجمته، وحول حياتها الخاصة كامرأة فلسطينية. فمن المستحيل كما يبدو تمضية هذه الساعات والأيام، في طرح هذه الأنواع من الأسئلة، وسماع هذه

الأنواع من الأجوبة والاضطرار إلى تكرارها، دون إحداث تفاعلات كبيرة في وعي المرء. وكل مترجمة تنتهي إلى الإفضاء باستيائها وتمردها على أبيها **هي**، وزوجها **هي**، وإخوتها **هي**. تتحسن مفرداتي في اللغة العربية، وإن تكن انتقائية. أتعلم عدة مرادفات لكلمة «غضب». ويصبح لفظي لعبارة **بحبك يا أختي** صحيحاً تقريباً.

* * *

ألتقي في عمان عصام عبد الهادي، رئيسة الاتحاد العام للنساء الفلسطينيات، المنظمة «الرسمية» لنساء منظمة التحرير الفلسطينية. وألتقي هيفاء البشير، رئيسة اتحاد النساء الأردنيات وهي فلسطينية. وألتقي سها عيد، مسؤولة الارتباط مع جامعة بير زيت الفلسطينية في الضفة الغربية. كلهن ودودات كثيراً. وكلهن، بطرق مختلفة، نساء مصقولات جداً، وغربيات التعليم، وحكيمات وواضحات سياسياً. وكلما تحركت أعلى داخل القيادة النسوية ـ أي النساء اللواتي وافقت عليهن القيادة الذكورية ـ أسمع بصورة أعلى صدى بلاغة الرجال بأن النساء الفلسطينيات يمكنهن خدمة القضية على أفضل شكل عن طريق إنجاب المزيد والمزيد من الأولاد. وهي تتطابق مع بلاغة رئيس الوزراء الإسرائيلي التي شجبتها شولاميت ألوني.

أؤكد، باحترام، لإحدى هؤلاء النساء أن أمنية إنجاب المزيد من الأولاد لم تكن ما سمعته من غالبية النساء في المخيمات. ويأتي الجواب، نعم، هنالك مقاومة، خصوصاً من النساء الأصغر سناً، لكن هذا يجب أن يمر. ربما النساء الأفضل تعلماً، أولئك اللواتي استطعن التدرب على مهن احترافية، يمكنهن المساهمة عن طريق العقل أكثر من الرحم،

لكن المرأة اللاجئة العادية يجب أن تساهم بواسطة الأولاد. وبأقصى تهذيب ممكن، أسأل إن لم يكن ذلك نوعاً من التفرقة الطبقية المألوفة والغريبة بحيث تتبناها الثوريات. نعم، يقال لي بصدق كاف، لكنها ضرورية لتحرير فلسطين. ومع ذلك فعندما أسأل هذه المرأة القيادية نفسها إذا كانت تعتقد أنها ـ القريبة والبعيدة جداً في آن واحد من اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية ـ ستطرح ذلك أمام اللجنة، تخفض نظرها، وتتمتم، «أبداً». ثم، وكأنها تتوقع سؤالي التالي، «نعم، يا عزيزتي، نعم. إن هذا يُشعرني بالمرارة».

* * *

تبلغ رضا الثلاثين من عمرها. وتعيش الآن في مخيم ثابت لن أذكر اسمه، في الأردن. لقد فقدت ذراعها اليمنى؛ نسفتها قنبلة. وكانت فدائية سابقاً، كما تقول. وهي تعرف القليل من الإنكليزية، ونتحدث وحدنا، بدون المترجمة، بناء على طلب رضا. إنها تعمل الآن عاملة صحية في مرفق طبي، وتتمنى أن تتابع دراستها يوماً ما وتنتقل إلى التدريب الطبي الرسمي. تريد أن تعالج الناس. قصتها بسيطة وتحكيها بأسلوب مقتضب.

«كنت في الثامنة عشرة. مات ثلاثة من أخوتي، وهم فدائيون، في غارات حدودية. وكان أخ آخر سجيناً هنا في الأردن. ترتدي أمي ثياب الحداد طوال الوقت. رتب أبي زواجاً لي، لكنني لم أحب الرجل. كنت أحب أحد أصدقاء أخي، وهو فدائي أيضاً. عندما قمت بما قمت به، كنت... كان ذلك طريقة كي أنتقم لإخوتي، وأقاتل من أجل شعبي، وأتحدى أبي، كل ذلك في وقت واحد. ثم رأيت أن العمل الذي كنت

أقوم به قد تسبب بجرح طفل. لكنه كان دوري كي... لقد صاح الرجل الذي أحببته بي كي أقذفها، كي أقذف القنبلة، **اقذفيها**. كنت أحبه أكثر من حياتي. ولكن ربما ليس أكثر من حياة ذلك الطفل، كما أفترض. ولم أتمكن من قذفها. وانفجرت. وهربنا، لكنه لم يتحدث معي ثانية. لقد سببت له العار أمام رفاقه. وهكذا فقدته. هناك بعض النساء الأخريات، كما يبدو، يمكنهن عمل ذلك، لكنني... إنني الأكثر احتمالاً بين اللواتي يجب أن تجدن طريقاً مختلفاً. أريد أن أصبح جرّاحة». وتضحك متابعة. «جرّاحة لاجئة فلسطينية بذراع وحيدة، من سمع عن مثل هذا الأمر؟ لذلك علي أن أجد طريقاً آخر. أريد أن أعالج قومي، أن أعالج أي قوم. أريد أن أعالج».

* * *

زهيرة كمال واحدة من الجيل الجديد لقائدات القاعدة النسوية الفلسطينية. لم يعينها أي رجل في منصب رسمي يسرها ألا تتولاه. وهي فخورة بأن تكون داعية لتحرير المرأة، وفخورة أيضاً بأن عملها ليس من النوع الذي تقوم به الجمعيات النسوية الخيرية، مثل التي ترأسها يسرا بربري ـ التي تتحدث عنها مع ذلك باحترام. فعملها مختلف بصورة متميزة. لقد بدأت WWC (لجنة عمل النساء) قبل أقل من عقد بواسطتها هي وخمس صديقات، وكلهن نساء متعلمات. وببطء، أنشأن شبكة تضم أكثر من تسعة آلاف امرأة في أكثر من سبعين مجموعة على امتداد الضفة الغربية وقطاع غزة. وعلى عكس نساء جمعية الهلال الأحمر، لا يملكن أموال تبرعات عربية. وليس لديهن مركز يمكن أن تأتي النساء إليه: «كما ترين، إن نسبة صغيرة حقاً يمكنها

الحضور. إن آباءهن وإخوتهن وأزواجهن يمنعونهن ويضربونهن إذا عصين. والشرطة تستخدم تقاليدنا ضدنا؛ إنهم يمرون على الزوج أو الأب، ويقدمون تقريراً عن المرأة، ويقولون له، "ابقها في البيت". والرجال يتعاونون مع بعضهم بعضاً. وهكذا فإننا نخرج إلى المخيمات، إلى القرى، إلى النساء». كما يعقدن اجتماعات صغيرة غير رسمية. «في حضارة معزولة، هذا الجانب ليس صعباً». إنهن يسألن النساء عن أكثر احتياجات هذا المخيم، هذه القرية: صفوف لتعليم القراءة والكتابة؟ صفوف للخياطة؟ الحياكة؟ التطريز؟ الطباعة؟ «على النساء أن يتولين مسؤولية تنظيم أنفسهن. إننا لن نفعل ذلك بالنيابة عنهن. عليهن أن يجدن بينهن المرأة التي تعرف القراءة، أو الخياطة بصورة كافية، أو التي تعرف كيف تستخدم آلة حياكة، ويقنعنها بأن تعلمهن. ثم نقوم بتأمين الكتب، أو آلات الخياطة أو آلات الحياكة، والقماش، والغزل. وبدورهن، عليهن أن ينتشرن ويعلمن النساء الأخريات».

لا «اتكال» على أي فئة سياسية، أو ممول، أو رجل: بل اكتفاء ذاتي. لا وجود لمنظمة أو مكتب مركزي تستهدفه السلطات وتغلقه. بل مجرد شبكة فعالة مرنة نصف مرئية. وتقنيات التنظيم الأكثر جدية وألفة فحسب: «إذا لم تحضر امرأة إلى اجتماع، فإننا نزورها حيث تقيم. ونحثها، بلطف، لمعرفة السبب. وعادة ما تكون قد تعرضت للضرب وتشعر بالخجل من إخبارنا. لكن ذلك يتم اكتشافه. ونتحدث سوية مع كل نساء أسرتها، لبناء دعم لها ـ ونقترح طرقاً تمكّن النساء من مناقشة الرجال بلباقة. وعلى سبيل المثال، إذا استخدم الرجال نصوصاً قرآنية تقليدية لتبرير ضرب النساء، فإننا نقترح أن تبدأ النساء بالسؤال عما

إذا كانت التعليمات قد فُسرت بشكل صحيح. ولا نحاول مطلقاً أن نضغط على النساء كي يرفضن الإسلام أو الأسرة، لأن ذلك سوف يسبب رد فعل ويعطي عكس النتائج المرجوة. لكننا نحاول دفع النساء إلى تحدي بنية السلطة في الأسرة. **وهن يقمن بذلك**».

مرة في الشهر أو نحو ذلك، تقوم WWC باستئجار حافلات وجمع نساء من عدة قرى أو مخيمات مختلفة لتمضية يوم على شاطئ البحر. «هذا اليوم، بالنسبة لغالبية هؤلاء النساء، هو اليوم الأول الذي يخرجن به في حياتهن. ونحن نفعل ذلك بعناية في يوم عطلة عندما نعرف أن الرجال سيكونون مع أصدقائهم الذكور، ولذلك لن يشعروا بالغيرة. إننا نحضر النساء وأولادهن إلى الشاطئ في نزهة. ونؤمن العناية بالطفل بعيداً في أحد الجوانب، وهكذا فإن النساء يمكنهن رؤية أطفالهن ولكن ليس عليهن العناية بهم. كل ما عليهن عمله هو أن يجلسن. ويتحدثن». وتتقد عيناها غضباً من الأذى. «إنهن يتحدثن. **ويتبادلن وجهات النظر**. ولأول مرة، ربما، يقابلن نساء من خارج قريتهن أو مخيمهن. ربما تكون مجموعة قد أنهت تعلم القراءة والكتابة وتشعر بالرضا. ولكن عندئذ تعرف نساء تلك المجموعة أن النساء في المجموعة الأخرى يتعلمن كيفية الطباعة، أو كيفية إنشاء تعاونية للتطريز، أو تعاونية لإعداد الطعام وبيعه. التدريب على التسويق. ورفع مهارات النساء يتم عرضه مجاناً دائماً ضمن الأسرة في العالم العام المرئي خارجاً. والنقود التي يتم كسبها من ذلك ـ لهن، لأطفالهن. لاستقلالهن. وفجأة يصبحن غير مكتفيات بتعلم القراءة والكتابة أو المشاركة في النشاطات الاجتماعية. إنهن الآن يتشوقن إلى المزيد». وتشع عيناها

بالبهجة. «إنه يوم واحد فقط على الشاطئ، وهذا كل شيء. إننا نجمعهن ونتركهن يتبادلن وجهات النظر. وهن يقمن بالباقي. إننا نؤمن الآلات والمواد. وهن يقمن بالباقي كله».

كانت زهيرة كمال تحت الإقامة الجبرية طوال ست سنوات متواصلة، بتهمة غامضة بأنها «تعمل ضد الدولة». لم يكن باستطاعتها مغادرة القدس بين غروب الشمس وشروقها وعليها أن توقع مرتين كل يوم لدى السلطات العسكرية. وهي لا تزال محرومة من وثائق السفر ولا يمكنها الحصول على إذن بمغادرة البلاد لحضور المؤتمرات الدولية للنساء.

هذه امرأة، في منتصف ثلاثيناتها الآن، والكبرى بين سبع أخوات وأخوين. وكان أبوها يكبر أمها بسبع وعشرين سنة، وهذا ليس نادر الحدوث في حضارة الزيجات المرتبة. «كان أبي ليبرالياً إلى حد ما، لكنني مع ذلك... رأيت حالة أمي ورفضت تكرارها». في سن السادسة عشرة، استمرت في إضراب عن الطعام طوال أربعة أيام عندما رفض أبوها السماح لها بالذهاب إلى الجامعة في مصر. وانتصرت، ودرست الفيزياء في جامعة عين شمس. وبعد موت أبيها، أعالت أسرتها بالتعليم وإعطاء دروس خصوصية إضافية ـ كما خيطت أيضاً كل ثياب الأسرة. هذه امرأة تمكنت من تعليم جميع أخواتها الأصغر منها في المدرسة والجامعة. وهي تقيم مع أمها، لكنها تقول إنها، عندما تموت أمها، سوف تقيم وحيدة، وهي خطوة مثيرة بالنسبة لامرأة فلسطينية في المنطقة.

«لا تزال أمي تتمنى أن أتزوج، لكنني لن أتزوج. فالرجال يخشون النساء القويات، وعملي وذاتي أكثر أهمية لدي من أن أتخلى عنهما

الآن. على كل امرأة أن تواجه ذلك، عليها أن تكافح لتحقيق هدفها. إنها بلا فائدة لأي شخص أو أي قضية إن لم تكن مخلصة لذاتها أولاً. نحن النساء هنا نكافح من أجل تقرير المصير، من أجل أنفسنا ومن أجل جميع الناس أيضاً. لكن كفاح النساء في جميع أنحاء العالم، كل من أجل ذاتها، هو الذي يمنحنا معاً القوة لتحرير النساء».

ضحك. دموع. معانقة. **لا أتخيل نفسي.**

وأثيرها، «إذاً ليس هناك داعيات فلسطينيات لتحرير المرأة، هه؟».

تجيبني، «هذا أكيد، صدقي ذلك وسوف تصدقين أن النساء الإسرائيليات هن اللواتي يقدن الكنيست».

* * *

ثلاثة أجيال من النساء يجلسن على الأريكة الرثة في ملجئهن في مخيم صوف. البنات الصغيرات، من الجيل الرابع، يجلبن صواني القهوة المرّة الموجودة دائماً. تعبر والدة الجدة عما يجول في ذهنها بحديث غاضب عبر المترجمة.

«إنني ألوم نفسي. فأنا لم أتعلم القراءة أبداً. ولم أدافع عن حقوقي كامرأة، وكأم. ولم أعلّم أولادي بشكل صحيح كي يحترموا النساء كبشر. إنني ألوم نفسي. والآن تدفع حفيدتي الثمن. لديها سجل رائع، ودرجات ممتازة، ومنحة تعليمية. وقد عملت لمدة سنتين معلمة في الخليج. براتب مقبول. إنه تحرر من المخيمات. والآن لا تستطيع العودة. ولا تستطيع الحصول على عمل هنا. انظري إليها، إنها تجلس وتضيع نفسها. إنه خطأ أولادي - وكيف يربون **أولادهم**. لأنها كي تعود إلى

الخليج، يجب أن يرافقها أخوها. فالمملكة العربية السعودية لن تسمح لامرأة بدخول البلاد للعمل ما لم يرافقها قريب ذكر. وأخوها لا يريد العودة إلى الخليج. إنه رجل كسول، أحمق، يريد أن يظل هنا. يريد أن يضيع فرصها لأنها حصلت على عمل أفضل من عمله في الخليج. جميعنا هنا...» وتشير إلى بناتها، وزوجات أولادها، وحفيداتها، وبنات حفيداتها... «إننا نفهم، ونريدها أن تذهب. إنني سأدعها تذهب **وحدها**، إذا سمح السعوديون بذلك. إنها بنت صالحة، وأنا أثق بها. إنها تشعر بالمسؤولية وحسنة الأخلاق. وهي تقدر نفسها. لكن أخاها لن يذهب معها، وأبوه، ابني، لن يجبره على ذلك. إنني أصيح بهما...» ويرتفع صوتها بانفعال... «إنني **أصيح**، وأضربه، ابني، إنني **أصفعه على وجهه**. لكنه لن يأمر حفيدي بالذهاب. إنني ألوم نفسي». وتضرب صدرها بقبضة يدها النحيلة الممتلئة بالعروق، «إنني ألوم نفسي».

* * *

لطيفة في الخامسة والعشرين وعندها ثلاثة أولاد من زواجها الأول. وهي أرملة، وكانت آنذاك قد خُطبت بواسطة إخوتها إلى أرمل في الثانية والسبعين لا أولاد له. وتشتكي الآن، فهو يقول إنها عاقر لأنها لم تنجب له أولاداً. وهو يضربها كل يوم من أجل هذا، ويغتصبها كل ليلة من أجل هذا. وتقول ذلك بكل صراحة، ودون خجل. ثم تتمتم عبر المترجمة ونحن ننهض للذهاب، «لا تقلقي علي، يا أختي الأمريكية، لا تبكي. إنه عجوز. ويمكنني الانتظار أكثر منه. فهو سوف يموت، وسأعيش أنا. ولا يهم ما يقوله إخوتي أو يفعلونه معي، فأنا لن أتزوج ثانية، أبداً، أبداً».

* * *

لبنان يصعب وصفه، إنه رؤيا حية، عالم تخيله هيرونيموس بوش مهلوساً. على جانبي الحدود، منازل، ومزارع، وحقول تحولت إلى رماد، بعد أن دمرتها قنابل أطلقتها قاذفات قنابل أمريكية الصنع من أحد الجانبين، وقاذفات قنابل كاليشنيكوف سوفيتية الصنع من الجانب الآخر. ثمة جدران مانعة من كتل إسمنتية. قوافل جنود. أبراج مراقبة.

هنا يتعلم المرء ألا يثق بكل شيء سمعه، كل شيء ذكرته الصحافة، كل شيء يدعي أن الفوضى ليست المعيار. وجيش أمل له قادته، ولباسه الموحد، وأسلحته ـ مع أنه غير موجود فعلاً بصورة كيان: وقرب صور وصيدا، تكون بعض مجموعات أمل فلسطينية حتى، مع أن أمل يقاتل في مكان آخر ضد الفلسطينيين. وأحياناً يتفق رجال أمل مع القوات المسيحية أو يقاتلون لمصلحة مشايخ مستقلين يبدو الخميني معتدلاً أمام تعصبهم. كما يختلف حزب اللّه من مكان إلى مكان، من دافع إلى مدفوع له في هذه اللعبة الجشعة، من ملاّ إلى إمام. تحمل راية أحد الشوارع في مدينة صور أعلام أمل وشعاراته في أحد جانبيها وأعلام حزب اللّه وشعاراته المعارضة في الجانب الآخر. وزمرة عرفات السائدة من منظمة التحرير الفلسطينية هي الشيء الوحيد الذي يقترب من وجود بنية له، والذي يتطلب الولاء الدائم؛ ويكشف هذا عن عبقرية في وضع حيث يُعتبر مجرد الاكتفاء الذاتي انتصاراً. وضمن هذا كله، ينتظر الرجال الدروز فرصتهم المناسبة. فهم أقلية، ومع شهرتهم بضراوة قتالهم فإنهم أفضل في الحرب الريفية. ويساعدون أحياناً فتح/منظمة التحرير الفلسطينية ببيع «مرور حر» عبر بعض الممرات التي يسيطرون عليها، لكن الممرات تتغير يومياً. ويبدو أن الكتائب المسيحية تسيطر

على بيروت الشرقية وجبل لبنان، والجيش السوري على الكثير من الجنوب الغربي، وتقوم إسرائيل بموجات برية وجوية وبحرية دورية من امتداد الجليل الجنوبي، وكأنها إشارة متصدقة متفضلة لتذكير جميع هؤلاء الناس بمن يُفترض أنه العدو الحقيقي.

المخيمات هنا مخربة، مدمرة، مقصوفة، مغزوة. وفي عام ١٩٨٢، عندما اجتاحت إسرائيل لبنان، تسببت المجزرة بما يقدر باثنين وعشرين ألف قتيل، بالإضافة إلى ثلاثين ألف جريح وأكثر من نصف مليون شخص مُهجَّر. وخلال حصار عام ١٩٨٥ لمخيمات منطقة بيروت، تكبد مخيم شاتيلا وحده أضراراً في ٥٢٩ منزلاً، بينما فُقد ٣٦٤ كلياً - بنسبة تدمير مئوية تبلغ ٩٥٪* وتكبد مخيم برج البراجنة (يسكنه خمسة عشر ألفاً) نسبة ٧٥٪: ١٤١٦ منزلاً تضررت أو دُمرت. كما تكبد مخيم مار الياس أضراراً أيضاً؛ وبالإضافة إلى ذلك، فقدت مخيمات منطقة طرابلس ٩٧ ملجأ خلال غارات جوية إسرائيلية في تموز من تلك السنة. وفي مخيم الميه ميه، قرب صيدا، تضرر ١٨٤ منزلاً وتعرض ٨٠ للتدمير؛ وفي نفس المنطقة، في عين الحلوة، فُقد ١٨١ منزلاً. وتتقدم إعادة البناء بخطوات بطيئة، بسبب نقص الأموال.

تواجه UNRWA هنا مهمة عبثية إلى حد مذهل. فبين عامي ١٩٨٢ و١٩٨٥ فقط، قُتل واحد وعشرون موظفاً من UNRWA في لبنان، وجُرح خمسة عشر، واختفى ثمانية، واعتُقل أو اختُطف ٤٢٢. كما اختُطف أليك كوليت، مستشار UNRWA الإعلامي، في آذار

* تعرَّض شاتيلا مسبقاً إلى مذبحة عام ١٩٨٢ على يد الكتائب المسيحية والعدوان الإسرائيلي؛ وفي عام ١٩٨٦ كان عدد سكانه سبعة آلاف تقريباً.

١٩٨٥ ولم يُسمع عنه شيئاً منذ ذلك الوقت. وتم فتح مكتب مساندة لوكالة UNRWA عام ١٩٨٥ في قبرص، بحيث تتمكن المكاتب الإدارية والمالية الخاصة بلبنان من الاستمرار في عملياتها رغم شروط الأمن المتغيرة في بيروت. لكن الموظفين الميدانيين باقون، ويرتدون سترات واقية للعمل. وخلال شتاء ١٩٨٦ ـ ١٩٨٧، كانت UNRWA تعالج مسألة نحو خمسين ألف لاجئ مُهجَّر. وفي عام ١٩٨٧، بعد مفاوضات طويلة في بيروت ودمشق، وبعد إعادة بضع قوافل لوكالة UNRWA وشل واحدة بإطلاق النار، تمكن موظفو الوكالة أخيراً من إحضار إمدادات غذائية وطبية إلى لاجئي أمل المحاصرين في مخيمات منطقة بيروت. وفي ذلك الوقت، كانت النساء والأطفال في شاتيلا يمسكون بالجرذان ويأكلونها، كما طلب اللاجئون البالغ عددهم عشرين ألفاً في مخيم الرشيدية، قرب صور، من الزعماء الدينيين إباحة أكل اللحم البشري لأن الناس كانوا يموتون من الجوع.

تعمل وكالات الأمم المتحدة هنا جميعها جنباً إلى جنب على أفضل نحو ممكن، وتتداخل وظائفها عند الضرورة، متجاوزة الروتين لإنقاذ الأرواح. وتمضي UNIFIL (قوة الأمم المتحدة المؤقتة في لبنان) وموظفو UNTSO أياماً في مفاوضات غير ثابتة مع إحدى الفئات أو الأخرى لمجرد التأثير على تبادل الأشخاص. كما تنهي UNICEF تزويد ملاجئ الأيتام الطارئة بالموظفين بالإضافة إلى محاولة الاستمرار في برنامج التلقيح. ويقوم موظفو التعليم في وكالة UNRWAبتوزيع حصص الطعام عند التمكن من إدخالها، كما يهربون المياه الصالحة للشرب. وينتقل فريق UNIFELالطبي من الممرضات السويديات في

طائرات مروحية إلى المخيمات، متعرضاً للقصف خلال الهبوط.

«طريق الموت» هو الاسم الذي أطلقه اللاجئون على الطريق القادم من برج البراجنة. ففي آذار عام ١٩٨٧، تعرضت ست وعشرون امرأة للقتل وهن يمضين مسرعات على ذلك الطريق من أجل إحضار الطعام إلى أسرهم المحاصرة. كما توفيت ثلاث نساء أخريات داخل المخيم. وخلال الأشهر الخمسة الأخرى من الحصار، كانت النساء يتعرضن للموت بمعدل ست نساء في الشهر. ومع نهاية نيسان، كانت سبع وخمسون قد قُتلن، وأُصيبت سبع وعشرون غيرهن على الأقل بعجز دائم خلال القتال حول المخيم.

لا يوجد بنزين، ولا توجد سيارات يمكن الهرب بواسطتها، ولا يوجد مكان يمكن الهرب إليه. الشوارع مسدودة، والممرات تتعرض للنيران، والطرقات تحت السيطرة المتبدلة لمختلف الجيوش أو الفئات أو المرتزقة.

وهكذا تصيح النساء، ويركضن، ويختبئن، وينُحن، ويمتن. النساء ينتحبن، طوال الوقت. ويظن المرء في بادئ الأمر أنه صوت البحر، أو من صفارات إنذار بعيدة. لكن هذه الموسيقى الجافة الغريبة تصدر عن النساء. إنه عويل لا تعبر عنه الكلمات وكأن الحياة الوحيدة المتبقية فيهن قد سكنت في الحنجرة، عاجزة عن الإفصاح، يائسة، في حشرجة احتضار الروح.

في صيف عام ١٩٨٦، مر لبنان بتجربة ظاهرة غريبة، لم يستطع أحد أن يفهمها في بادئ الأمر. فقد بدأ وقف تلقائي لإطلاق النار في حوالي الساعة التاسعة مساء واستمر حتى الثالثة صباحاً تقريباً. لم يكن الناس يتعرضون للقتل ـ وكان الصمت بحد ذاته ترفاً مدهشاً

للأذن. هل كانت هذه معجزة حققها أي من زعماء العالم المنادين عالياً بالسلام في لبنان؟ كلا.

لقد كان كأس العالم.

كانت تجري المباريات النهائية لكأس العالم في كرة القدم. وكانت المباريات المتلفزة تُبثّ حية بين التاسعة مساء والثانية صباحاً. وبالإضافة إلى ذلك، كان فريق عربي، المغرب، يلعب جيداً. وتوقف الرجال من كل الفئات عن إطلاق النار للالتقاء والتجمع حول أجهزة التلفزيون. واستغلت النساء هذه الساعات الحيوية للتفتيش عن أولادهن، والبحث عن الطعام، ودفن موتاهن.

أخبرتني معلمة لدى UNRWA، وهي فلسطينية، فيما بعد بأنها لم تُفاجأ. وأضافت، بمرح كئيب تحرري شامل، «ربما تكون طريقة حل عذاب الشرق الأوسط هي تقديم برامج رياضية حية ذكورية للرجال على مدار الساعة. إن الرجال مجانين، أليسوا كذلك؟ لكنهم يتوهمون أنهم بالغون. ويطلقون النار. ويديرون العالم».

* * *

غنيمة امرأة بدينة. تملأ الخطوط وجهها المترهل. وقد فقدت العديد من أسنانها. وكنت سأخمن أنها في ستيناتها، لكنني عرفت أنها في أواخر أربعيناتها فقط. لقد فرت هي وأولادها السبعة الباقون من الجنوب ثلاث مرات والآن تهرب من القتال ـ من مخيم البداوي قرب طرابلس إلى مخيم الضبيّة شمال بيروت إلى عين الحلوة قرب صيدا إلى الرشيدية جنوب صور، قرب الحدود. بقية أسرتها، بمن فيهم ثمانية أولاد آخرون، قد اختفوا أو قُتلوا. اثنان من أولادها «يعتبران أنهما فدائيان،

قالا إنهما يناضلان من أجل فلسطين». وهي لا تعرف مع أي فئة قاتلا، أو أي مجموعة. «هذا لا يهم الآن على أي حال»: فكلاهما ميت. يتدخل رجل فلسطيني كان يسترق السمع إلى حديثنا ليقدم لها احترامه بصفتها «أم الشهيدين». وتلتفت نحوه وهي تصيح، «ماذا أنجبت أنت؟ ماذا أرضعت على ثدييك؟ وحق اللّه، أقسم إنني لن أقدم لكم المزيد من الشهداء! **لقد أرهقني أن أكون أماً للشهداء!»**

* * *

تحرير (اسمها الحقيقي) في الخامسة عشرة من عمرها فقط، وهي لاجئة هربت من برج البراجنة. وتفتخر بلغتها الإنكليزية وسجل تفوقها كطالبة في مدرسة تابعة لوكالة UNRWA وتعتبر نفسها مرشحة جيدة لمنحة UNRWA إلى الجامعة. وتقول، «أريد أن أُعلِّم، وأن أؤلّف الكتب أيضاً، وأن أسافر أيضاً». وهي جميلة، ويزهر برعم الأنوثة الشابة في حيويتها.

«سأساعد على إنهاء القتل وبدء الحياة. إنني أكره الموت. أكره أن يكون الناس قساة». عندما أسألها، كما سألت العديد جداً من الآخرين، ما هي أكثر رسالة ترغب في إرسالها إلى النساء في بقية العالم، تستغرق في تفكير صامت طويل.

لقد شكلت هذه الأجوبة نموذجاً. تقول النساء في القيادة المعينة من الذكور، «دولة فلسطينية». وتقول النساء في قيادة القاعدة، «حرية تقرير المصير». وتقول النساء في مرافق UNRWA، «ساعدونا. إننا لا نريد دفع أحد في البحر. كل ما نحتاج إليه هو مكان نتنفس فيه، وبعض الطعام، بعض العلاج، والتعليم، **والكرامة**». وتقول اللاجئات في

المخيمات، «ساعدونا في عدم إنجاب المزيد من الأطفال؛ ساعدونا في حماية أنفسنا والأطفال الذين أنجبناهم».

بشكل أو بآخر، يقلن جميعاً، **أخبروهم بأننا موجودون.**

وتحرير، بعينيها اللامعتين بالذكاء، وابتسامتها المتألقة بالتفاؤل، لها ردها الخاص. تقول بعناية، «أخبروهم، ما أخبرتني به جدتي وأمي دائماً - أن مهمة النساء هي إنقاذ العالم. بطريقتنا **الخاصة**، وهي ليست طريقة الرجال». وتقول، «أخبروهم أنه كلما وحيثما قاتلت امرأة لأجل نفسها، فهي تقاتل لأجلي. واسمي، تحرير، يعني "الحرية"».

بحبك يا أختي.

أعلم لاحقاً أنه في اليوم التالي لائتماني على رسالتها، قُتلت تحرير بقذيفة.

* * *

هنالك العديد من الأمور التي لم أكتب عنها هنا. فأنا لم أكتب عن لقاء النساء البدويات، وسماع حكمتهن الفطرية، ومراقبة وجوههن الموشومة بشدة. لم أكتب عن النساء الدرزيات اللواتي يصرحن بخوفهن من رجالهن. لم أكتب عن غالية جولان وغيرها من النساء الإسرائيليات المكرسات اللواتي ينظمن المسيرات بانتظام، عشرة آلاف شخص قوي، في حركة سلام إسرائيلية عامة للمطالبة بإنهاء الاحتلال. لم أكتب عن مركز الدراسات النسوية في العالم العربي، الذي لا يزال يصدر مجلته الداعية لتحرير المرأة، **الرائدة**، فيما تبقى من بيروت. لم أكتب عن حركة النساء الأردنيات الكبيرة والناشطة. لم أكتب عن المحاولات الشجاعة للنساء السوريات ومجموعات النساء للحصول على إذن بدخولي تلك البلاد، التي رفضت في النهاية منحي تأشيرة.

بشكل ما، سوف أكتب عن جميع هؤلاء النساء حتى آخر حياتي.

ولكن الآن، ثمة شكلان إنسانيان مشوهان بصورة غريبة يبرزان ويلازمان تفكيري، كل منهما مألوف جداً لعيني خلال ذلك الصيف بحيث كان علي إعادة تنظيم مداركي وأنا أغادر الشرق الأوسط.

أحدهما ذو جذع منتفخ وناتئ بالأشياء: بندقية معلقة على الكتف، رشاش يتأرجح في الذراعين، أحزمة ذخيرة وأقربة مسدسات تجعل من الصعب تحريك الخصر. إنه في كل مكان - في الشوارع، في المدن والقرى، في المخيمات، على الطرق، عند الحدود. وهو عادة يرتدي زياً موحداً، لكنه يستطيع ويقوم بتغيير أزيائه مع تغيير انحيازه. وأحياناً، مثلما حين يقيم في مستوطنة بالضفة الغربية، يكون مدنياً يُسمح له بحمل بندقية في أي مكان. عيناه قاسيتان، لكنهما يمكن أن تمتلئا أحياناً بالدموع. وهو سيؤدي عمله، مع ذلك، مهما يكن. إنه عاشق الشيطان. وهو بعمر ابني تقريباً.

والشكل الآخر مشوه بصورة ضخمة أيضاً. هذا الشبح له بطن ناتئ، ويوازن سطلاً أو سلة على رأسه. ثمة ثياب داكنة ورخيصة تغطي الجسد، وأشكال أصغر تتشبث كالعلق بكل طرف مثل الأورام على اللحم - أطفال عند الورك، والفخذ، وربلة الساق، والخصر، والصدر، والظهر، والرقبة. تحاول رفض العمل الذي يطلبه منها. إنها تحتضر تقريباً، إنها تنجو تقريباً.

جسدي ليس مصنعاً للأسلحة.

لقد أرهقني أن أكون أماً للشهداء.

أريد أن أعالج.

المرأة التي تلد نفسها حرة في مساعدة العالم.

ماذا يعرف الرجال عن الحياة؟

إنني لا أتخيل نفسي.

كلما قاتلت امرأة لأجل نفسها، فهي تقاتل لأجلي.

اسمي يعني الحرية.

أخبريهن بأنني موجودة.

بحبك يا أختي. إنها أنفسنا.

الفصل التاسع

تطبيع الرعب:
مذكرة متداولة بين الرهائن

كان البقاء على قيد الحياة هو الجزء الصعب.

توني موريسون، الحبيب

لا أملك طريقة لمعرفة إن كانت ستصلك هذه. عليَّ المحاولة على أي حال. عليَّ المجازفة في أن يمنعوا هذا، المجازفة في أن يكتشفوا ما أحاول حقاً إيصاله، المجازفة بأي شيء سيفعلونه معي حينئذ.

إذا وصلتك هذه، فربما تساعدك في تخفيف شعورك بالوحدة. إنني أذكر هذا الإحساس. أعني، حين أدركت للمرة الأولى أنني هنا. حين توقفت للمرة الأولى عن إنكاره، وعدم تصديقه. الأيام المذهلة، ساعة بعد ساعة، عقلي يدور، محاولاً أن يتصور لماذا أخذوني، لماذا كانوا يحتجزونني. الليالي البطيئة، وأنا أحدق في الظلام، محاولة معرفة من هم، ماذا أرادوا مني. لو كنت أستحق الفدية، فلماذا عاملوني على أنني عديمة القيمة؟ لو كنت موضع مساومة، في أي صفقة؟ لو كنت ذات قيمة لدى عدوهم وهم يكرهون عدوهم، فلماذا يزعجون أنفسهم في إبقائي على قيد الحياة، إلا إذا كانوا يشاركون عدوهم القيم نفسها؟ ولكن إذا كانوا كذلك، فكيف يمكن وجود أي خلافات حقيقية بينهم ـ وماذا يتضمن ذلك بشأن آمالي بالإنقاذ؟ لقد جعلني هذا رهينة لدى الجانبين ـ لدى جميع الجوانب في الحقيقة، على الأقل لدى جميع الجوانب التي يمكن

أن أراها. لكنني آنذاك، بطبيعة الحال، أفتقر إلى موقع امتياز. كانوا يذكرونني بهذا في كل مناسبة. ومع ذلك، فإن افتقاري إلى موقع امتيازهم جعلني أعتبره في الوقت المناسب موقع امتياز بحد ذاته. لكنني من جديد بقيت أتساءل عن الأمور الأساسية: كيف يمكن أن أكون رهينة لدى الحياة نفسها، وماذا كانت شروط التفاوض؟ أي فدية لا يمكن تخيلها قد تشتري حريتي؟ كيف يمكن أن يكون الإحساس بالحرية؟ هل سبق أن عرفته؟ هل يمكنني أن أتذكر إحساساً بالحرية يمكنني مقارنة هذا به؟ ماذا كانت أو ستكون الحرية؟

آه نعم، إنني أتذكر الظهور التدريجي لذلك الألم الغامض الضخم. الإدراك بأنني سأكون دائماً داخلاً هنا، أشعر بهذا، جاهلة أنني كنت هنا، غير مصدقة أنني كنت أشعر بهذا. لهذا يجب أن أحاول ضد كل الأمور الشاذة كي أوصل إليك هذه الرسالة: فربما تساعدك لتخفيف شعورك بالوحدة.

تعتقدين أحياناً أنك سوف تجنّين. إنني أفهم ذلك. حاولي أن تثقي بكلماتي الناقصة. يمكنك أن تثقي بي أيضاً، لأن تبدئين في رؤية فداحة ما لا يمكنك أن تثقي به بعد - جميع الأوهام المألوفة التي جعلتك تعتقدين أنك كنت خارجاً هناك بينما أنت هنا منذ البداية. ومع ذلك، فالأفضل أن تثقي بنفسك. حاولي أن تفهمي: هذا هو إحساس من يوشك أن يصبح عاقلاً.

أنت أيضاً كنت رهينة طوال حياتك. أعرف أنه من الصعب فهم ذلك. الإذلال. إنه أمر مضحك. الإغضاب. كيف توصلت إلى فهمه بنفسي - حسن، كان ذلك بصورة تدريجية. بدأت أدرك أولاً أنني كنت

لاجئة طوال حياتي. كان ذلك حين بدأت أطابق نفسي **معهم**، كما ترين - ليس لأنهم كانوا لاجئين. لكنني كنت أحاول فهمهم، أحاول أن أدرك لماذا كانوا يحتجزونني، أحاول التعاطف مع ألمهم، الذي، كما أخبروني، منحهم حقهم في السلطة علي. وكان تعاطفي كذبة، طبعاً. في الأسفل، كنت آمل أنهم قد يلاحظونني، يتبنونني، أن يجعلني تعاطفي واحدة منهم. لكنهم أوضحوا ذلك: إنني لا يمكن أبداً أن أكون واحدة منهم. ومما يدعو للغرابة، أنني لم أكن أبداً واحدة منهم حتى على الجانب الآخر، حتى حين اعتقدت أنني حرة. ربما تظنين أنني مجنونة، تظنين أنني غير مفهومة. تظنين أن هذه «خربشات» امرأة ظلت أسيرة لفترة طويلة حتى فقدت عقلها في التمتمة الأنانية حول الحرية.

ربما تكونين على صواب. فأنا لا يهمني ما يظنه الآخرون بي، مطلقاً. وتلك اللامبالاة الخاصة قد استحوذت علي طوال حياتي. أعني، أن أصل. إنه مكان أبسط مما يمكن أن تتخيلي.

ومع ذلك، إنني أهتم بما تظنينه حول نفسك. على الأقل يجب أن يثير هذا اهتمامك. إنني أقول هذا ليس لأنه قد يشبع غرورك في اعتباري أقل جنوناً ولكن لأنه قد يباغتك في تفحص ما تعتبرينه عاقلاً لديك. وأنا أقول هذا لأنه حقيقي.

علي أن أتوقف الآن وأخفي هذه تحت الحجر في الأرض. فسرعان ما يأتون بالخبز والأسئلة. فيما بعد. إذا استطعت.

* * *

إنه بالغ الصعوبة تحت هذه الشروط. النور يأتي ويذهب في هذا الوقت المذهل، الهواء فاسد وقذر جداً. بالغ الصعوبة مع الوضوح الذي

يأتي ويذهب داخل وعيي المشوش، الأوكسجين في روحي هزيل ونتن جداً أحياناً. ولكن علي أن أحاول. إذا وصلتك هذه، قد تتمكنين من استخدامها، ونقل هذه الشظايا الضعيفة من الأفكار أبعد مما أستطيع، وبناء شيء ما منها بصورة أفضل مما أستطيع أنا.

فكري بنفسك. ليس بتلك الطريقة القديمة المستحوذة - ماذا فعلت أنا كي أستحق هذا الأسر؟ أين فشلت؟ كيف ألام على استعبادي؟ ليس بتلك الطرق. تلك هي الطرق التي تجعلك تظنين نفسك عاقلة بينما في الحقيقة أنت مجنونة؛ تلك هي الطرق التي تجعلك تجنّين خوفاً من أن تظهري مجنونة حين تصبحين عاقلة في النهاية. ليس بتلك الطرق، صدقيني، لقد قمت بتلك الطرق حتى الموت في معظم أيام حياتي. وفري الجهد على نفسك. فكري بنفسك - بأسلوبك الفردي الخاص طبعاً، الذي سيكون مختلفاً عن أسلوبي أو أي أسلوب يمكن أن أقترحه - بطرق أخرى. فكري بحياتك. أي، ما دعوته حتى الآن «حياتي».

فكري بما خفت منه:

دعي المخاوف المزمنة جانباً الآن، المخاوف التي نألفها جميعاً بحيث لم نعد نلاحظ كيف كنا نحدب أكتافنا طوال اليوم أو نثبت قبضاتنا خلال النوم طوال الليل. دعي جانباً الهجوم النووي - الإعصار المفاجئ غير الطبيعي، الرعب الساطع العقيم. دعي جانباً الاغتصاب - التسرب الرقيق للأدرينالين عبر دمائك وأنت تعبرين شوارع مدينتك أو بلدتك، وجزء ما منك دائماً بحالة إنذار. دعي جانباً المخاوف التي انطبقت عليك بحيث أصبحت ترتدينها مثل القفاز والحذاء.

ماذا تخشين غير ذلك؟

الصحة؟ هل كان الاعتلال، المرض؟ ربما السرطان، أو الإيدز؟ ربما لم تستطيعي تجنب معرفة كم باتت عالية ميزة تقصيرك لمرض مميت؟ أو هل حاولت عدم ملاحظة أو إحصاء المواد المسرطنة ـ في طعامك، مائك، لفافتك، غاز الرادون المنبعث عبر أرضك، الحرير الصخري الذي تفرزه جدرانك، السم في مستحضرات تجميل خديك وتخطيط عينيك، الغاز المنطلق من سيارتك؟ هل حاولت عدم ملاحظة كيف بدأ العديد من الأمريكيين الشماليين يتحدثون عَرَضاً عن إزالة أورام سرطانية جلدية صغيرة؟ هل ألغيت موعد الذهاب لتصوير الثدي، بحجة الكسل، وأنت تعرفين أنك كنت خائفة؟ أو هل تفاخرت بنظام طعامك وتمريناتك، مؤكدة لنفسك أنك بطريقة ما يمكن تدبير أمرك دون تنفس الهواء، واثقة بكلمة منتجي الماء المعبأ بالزجاجات، هل تظنين أنه بإمكانك تجنب أشعة شمس لم ترققها طبقة أوزون؟ هل كان ذلك ما خشيته؟ مرض قاتل بالشكل الذي قد ينتهي به؟ وهل تساءلت لماذا لم تكن أموال البحث كافية أبداً، لماذا لم يقم شخص ما **بعمل** شيء؟ هل فكرت: من يدير الأعمال الزراعية التي تنتج الطعام؟ من يصنع ويبيع مبيدات الحشرات، المواد العازلة، اللفافات، مستحضرات التجميل؟ ثم من يخترع ويسوّق منقيات الماء المنزلي، كاشفات غاز الرادون، الأدوية، المحاليل؟ من؟ لقد تركت نفسك تنعطفين بأجوبة مضللة («إنه خطأ الرأسماليين»، أو «إنه خطأ الشيوعيين»، أو «إنه خطأ تجارة الحرب لدى اليابانيين»، أو «إنه الجشع الإنساني فحسب»)؟ هل وجدت التفكير خارج ذلك مخيفاً جداً، منهكاً جداً، محزناً جداً؟

حاولي الآن. على أي حال، ليس لديك أي شيء آخر تقومين به،

الآن وقد بدأت تدركين أين أنت وما هي خياراتك؟ ومع ذلك، أبعدي الفكرة هذه المرة بقدر ما تستطيعين. **إنها القوة الوحيدة التي لديك**. وهم لا يستطيعون نزعها منك، حالما تبدئين باستخدامها. لذلك حاولي.

حاولي تصور العملية، حاولي تصور الأشخاص الذين يقتلوننا جميعاً ـ وحتى أنفسهم. ليس مجرد الناس الأخيار البسطاء العاديين الذين يتعاونون طوال الوقت، بل المنشئين والمؤيدين، المالكين والقادة. صوريهم. هناك.

هل ترين نساء في الصورة؟

انتظري، الآن. عودي إلى البداية من جديد.

هل هو أمر النقود الذي كنت تخشينه ـ عدم إيجاد عمل، أو فقدان العمل الذي لديك؟ الديون؟ أن تُطردي لعدم دفع الإيجار؟ فقدان المنزل المرهون الغالي جداً لديك؟ من كان الرئيس ـ ليس مجرد الرئيس المباشر، بل **الرئيس**؟ الذي سيطر على صناعتك؟ من كان المصرفي، صاحب الملك؟ من امتلك الرهون؟ لمن كان عليك أن تلجئي؟

أم ربما الأطفال؟ هل خفت على أطفالك؟ أن تتعرض البنات للهجوم، أو يحملن وهن مراهقات؟ أن يتورط الصبيان في مشاكل، أو ينتهون في حرب ما؟ هل أقلقك أن المواد المسببة للإدمان، بما فيها الكحول، ربما تتلف أجسادهم وعقولهم؟ أنهم قد يموتوا في حادثة سيارة ثم تسحبها شركة السيارات بعد سنتين لأنها تحمل عيباً؟ من ارتكب الاعتداءات؟ من قاد الجيوش؟ من صمّم وسوّق السيارات؟ من أشرف على زراعة المخدرات وتكريرها وتوضيبها وشحنها وبيعها؟ من روج المخدرات؟ هل ترينهم؟

هل هناك نساء في الصورة؟

هل تقدُّم العمر هو الذي خشيته؟ رؤية المسنين في فاقتهم ووحدتهم المروعتين وهم يجلسون على مقاعد الحدائق العامة تحت شمس الشتاء الشاحبة، محنيين، مهملين، بانتظار الموت؟ من حدد وعيّن العمر؟ من أوصى بتوقير المسنين لكنه استبعد الفوائد، والعناية الطبية، والاحترام؟ من بنى وامتلك بيوت تمريض؟ من عيّن، وموّل، واستخدم أبحاث التسويق على المسنين كمستهلكين؟ من قرر أن البشر الأكبر سناً ليس لديهم نشاط جنسي، وأنهم لا يحتاجون إلى عمل هادف، ولا يحتاجون إلى صوت؟

أو هل كان خوفك أكثر تحديداً، وأكثر مباشرة؟ أنّ زوجك أو حبيبك كان غاضباً منك، ربما؟ لأنك ضيعت الكثير من الوقت مؤخراً في القراءة؟ هل كان التهديد ضئيلاً جداً بحيث قلت لنفسك إنك حمقاء، تافهة، مرتابة ـ أصغر رعشة في فكه، ربما، أو كيف يستغرق في الصمت ثم في المزيد من الصمت؟ أم أنه لم يكن الصمت بل الضجيج هو الذي أخافك، القتال، الصراخ، الإهانات، الطاقة اللاعقلانية في كراهية من تحبين؟ هل خفت من أنه ربما يتركك، مع ذلك؟ فقد عرفت أن الرجل البعيد عن الرفاهية لا يزال أكثر ما يمنح الأمان لامرأة متزوجة من الطبقة المتوسطة. أم كنت تخافين مما سيحل بك إذا هجرته؟ هل خفت أن الهجر قد يعني الفشل، أم أنك لم تعودي قادرة أن تحبي، وتكوني محبوبة؟

أم هل كان خوفاً مختلفاً ـ أنك إذا نزلت مع من تحبين من البناء يداً بيد، وبريق العينين مثبت ببريق العينين ببهجة جامحة لأنك عاشقة، ومتألقة بالحياة، قد يغتاظ أحد ما وهو ينظر مباشرة إليكما، أو يتمتم

بكلام بذيء نحوكما، أو ينهال عليكما بقبضة يده، لأنك أنت ومن تحبين لا تتشاركان بنفس الحب فقط بل وبنفس الجنس؟ من حدد هكذا شريعة أشكال الحب؟

من هو الذي كنت تخافينه؟ تتبعي أثره، تتبعي أثر الخوف حتى مصدره. وليس المشاركين في منتصف الإدارة، تذكري. ليس الذين يطيعون الأوامر فقط؛ ومجرد أن المسؤولية موجودة في كل مكان لا يعني أنها ليست في مكان ما. تتبعي أثره أكثر، إلى أبعد ما تستطيعين. تفحصي بدقة من يسيطرون وراء الخوف. تخيليهم. هناك.

هل النساء في الصورة؟

علي أن أتوقف. ثمة أحد ما يقترب. حتى وقت آخر. كما آمل.

* * *

هنالك مثل هذه الضغوط، طوال الوقت، أليس كذلك؟ تعرفين ما أعني - أو ستعرفين. لا أدري أبداً متى سيقررون نقلي. من أجل الأمن، كما يقولون. في بعض الأيام يبقون يديّ مقيدتين والعصابة على عينيّ، ولا أستطيع كتابة أي شيء هنا. وفي أيام أخرى لا يتركوني وحدي، ولا لثانية، ولا أستطيع العودة إلى هذه الرسالة أيضاً. ثم هنالك الأوقات الأخرى. أنت تعرفينها. عندما لا يقتربون طوال عدة أيام. ويجوع المرء - للطعام، لوجه إنساني، حتى لهم.

مثل هذا الضغط كي أكتب هذه الأشياء لك عندما أستطيع.

هل تبدئين في إدراك ذلك؟ أعني، بأنك كنت أسيرة قبل أن تعرفي أنك أسيرة؟ هل تبدئين في تذكر كم ابتعدت عن أي شيء كنت أصلاً تحلمين به، وتفكرين، وتؤكدين أن حياتك ستكون عليه؟ الأصل الذي

تكادين ألا تتذكريه سوى في حلم ما غير مدرك مثل مفتاح معلق حول رقبتك، مفتاح لباب لم يعد مغلقاً أو مفتوحاً، لم يعد موجوداً على الإطلاق؟ هل كنت لاجئة في حياتك نفسها؟

مم كنت تخافين غير ذلك، حينذاك عندما كنت حرة تماماً؟ هل شكرت آلهتك لأنك لم تتعرضي للاغتصاب أبداً - لكنك لم تحسبي المرات التي أراد فيها ولم ترغبي وكنت خائفة أن لا...؟ هل هنأت نفسك لأنك لم تجوعي أبداً - لكنك لم تحسبي الوجبات التي حرمت نفسك منها من أجل المحافظة على مظهر ظننت أنك لا تصلينه وكنت خائفة من...؟ هل شعرت بأنك مميزة لأنك كنت تتمتعين بحرية دينية - لكنك لم تحسبي المرات التي قال لك القس فيها إنك ستكونين ملعونة ما لم... قال لك الحاخام إنك غير طاهرة إذا لم... قال لك الكاهن إنك ستذهبين إلى الجحيم لأنك... وضحكت أنت من ذلك طبعاً لكن تصببت عرقاً خوفاً من...؟ هل امتنعت عن تناول الطعام المحرم، ولمس نفسك حيث لا يجب ذلك، والتفكير بأفكار سيئة؟ هل كنت تخافين الإله؟

ألم تخافي أبداً أن إلهك قد يعاقبك، أن والديك قد يعاقبانك، أن مدرسيك قد يعاقبونك؟ ألم تخافي أبداً أن يستاء إخوتك منك، ويخونك أصدقاؤك، ويطردك رئيسك، ويهجرك حبيبك، ويضربك زوجك، ويكرهك أولادك؟

أعني، حينذاك عندما كنت حرة.

ألم تراودك خيالات أبداً حول قتل شخص ما؟ أكثر من شخص؟ كلهم؟ تشويه، جريمة؟ ماذا منعك؟ ما الذي أوقف تلك الأفكار؟ ما الذي أوقف تلك الأفكار من أن تصبح حقيقتك؟

هل كان مجالك ملكاً لك دائماً؟ هل عرفت دائماً أين انتهيت وبدأ الآخرون أو أين انتهى الآخرون وبدأت أنت؟ هل تبدو زنزانتك الصغيرة واسعة إلى حد ما حقاً؟

ما الذي منعك من تمييز أنك كنت هنا طوال الوقت؟

لأن كلاً منا مختلفة. لقد فكرت في أن آلف الاعتراف بأجزاء من الكل، وأقيد معاناة الضمير شيئاً فشيئاً، يوماً بعد يوم. مثل الأمل بتحطيم البقية عن طريق الاعتراف بالأجزاء، كما تعرفين؟ قد أحاول تعزيز التحمل في نفسي، أحاول جعل نفسي منيعة برشف بضع قطرات سم من كأس كل يوم. افتخرت بنفسي، أيضاً، لأنني تمكنت من اكتشاف طريقة لخروجي من هنا (أعني «هنا» الذي أنكرت أنني فيه). وأنا واثقة من أنك تميزين ذلك. كيف لا يرغب المرء أن يبدو غير عاقل! ويبدو التوقف غير معقول جداً حتى من أجل لحظة خطرة ويتخيل من الذي يحدد ما هو معقول، أليس كذلك؟

في حالتي، بدأت ألاحظ التفاصيل. فمثلاً، كنت أذكّر نفسي كيف زعم الرجال غالباً أنهم يتوقون إلى تجاوز القومية. وكنت أحاول تأمل كم كان توقهم رائعاً، لكنني أكتشف آنذاك أنني أتسائل لماذا لم يفعلوا شيئاً حيال ذلك. ثم أدرك أن الرجال لم يبتكروا في الحقيقة طريقة واحدة بل طريقتين لإنجاز هذا الهدف، وقد وضعا الطريقتين كلتيهما قيد العمل فعلاً. اتخذت الطريقة الفلسفية شكل الدين المتشدد الذي ينتشر مع الحماس التبشيري، كما في انتشار الإسلام المتشدد أو المسيحية المتزمتة. واتخذت الطريقة العلمانية شكل الشركات المتعددة الجنسيات، حكومة العالم الواحد المستقبلية. ولم أجد أي شكل مطمئناً ـ مع أنني

وجدت شيئاً مثيراً للاهتمام وهو أن الرجال الأقوى، وهم يخططون جيداً لما بعد القومية من أجل أنفسهم، كانوا لا يزالون يبيعون ذلك المفهوم القديم المنهك إلى الرجال الأضعف في العالم الثالث. ومع ذلك، ثابرت، غير هيابة، في محاولة اكتشاف طريقي. وأثبت بعض الأمور. رتبت قوائم ونظمت فئات. وحفظت مقاطع من أشياء كنت قد قرأتها. كان بعضها مروعاً، وبعضها مضحكاً بصورة لا تصدق. كانت هذه إحدى الطرق التي حفظت بها نفسي من أن أصبح عاقلة متحمسة تماماً. كانت هذه إحدى الطرق التي أبقيت بها الرعب **بعيداً هناك**. أن يُنظر إلي، وأُدرس، وأُحلَّل، ولم يكن صعباً جداً أن أفعل ذلك، لكنها كانت محفوفة بالمخاطر في حد ذاتها لأنني أحسست أنها تؤدي إلى السخف، إلى هذا المكان، أن أكون هنا وأعرف ذلك. وسأعطيك بعض الأمثلة. إذا كان علي أن أتوقف فجأة فسوف تعرفين لماذا، ولكن حتى يعترضوني، حسن، هذه هي أنواع الأمور التي بدأت ألاحظها.

* * *

الفئة: الرعب

ثمة كتاب صغير ذو غلاف ورقي عنوانه **دليل استمرار الإرهاب**، كتبه سيد اسمه أندي لايتبادي. (لم أخترع هذا. غالباً ما يعتقد الناس أنني أخترع أشياء خلافاً للواقع). السيد لايتبادي أيضاً رئيس تحرير International Combat Arms، التي تدعو نفسها «صحيفة تقنية الدفاع». يعد **دليل استمرار الإرهاب** بأن «يبعد الخوف ويعيد البهجة في سفرك». ويحتوي على ١٠١ فكرة مفيدة، ويعلّم القارئ العديد من

الأمور. فمثلاً، يحذر المسافر من افتراض، «هذا لا يمكن أن يحدث لي». ويدرج أنواع الثياب وقصّات الشعر التي يجب عدم استخدامها: بذّات «أصحاب النفوذ» المؤلفة من ثلاث قطع، حذاء رعاة البقر، قمصان هاواي، قصّات الشعر القصيرة، (قد تعني أنك في الجيش). ويطلب منك تجديد آخر وصية لك قبل ذهابك إلى أي مكان وحمل صور أطفال - حتى لو لم يكن لديك - في محفظتك، بحيث قد يشفق عليك بعض الإرهابيين باعتبار أن لديك أطفال. ويطلب عدم جلوسك قرب نوافذ المطار أو المحطات الأخيرة، واستئجار غرفة فندق خلفية وفي طابق عال، وترك التلفزيون أو المذياع مفتوحاً عند مغادرة غرفتك. ويرشدك بضرورة «تنظيف» أوراقك، وعدم حمل تعريف شخصية «مُورّط» - مثلاً، **إبقاء عملك الحقيقي خفياً**، بخاصة إذا كنت في منصب مدير تنفيذي أو في وظيفة دبلوماسية أو في وكالة فضاء أو في الجيش. ويخبرك بعدم وضع ملصقات على أمتعتك مثل «انطلقي، أيتها البحرية!» أو «شركة طيران بوينغ»، وعدم رؤيتك خلال قراءة مواد «مثيرة للجدل» مثل «مجلات المسدسات أو الكتب الدينية أو الكتب المضادة للشيوعية، أو Play-boy». ويذكر أموراً كثيرة أيضاً، من بينها أن العديد من الإرهابيين «مبتدئون» وخائفون ومتوترون مثلك ويجب أن يريحك ذلك. وبشكل عام، إنه كتاب صغير رائع، حتى ولو أنه موجه كلياً إلى رجال الأعمال ولا يحمل أي أفكار مفيدة لامرأة تسافر وحدها أو لأم تسافر مع ثلاثة أطفال صغار أو لمسافر مسنّ أو لعشاق من الجنس نفسه أو لشخص معاق أو لأي شخص ذي جلد بلون غير الأبيض؛ ولا يذكر شيئاً عما يجب أن يفعلوه كي «يبعدوا الخوف ويعيدوا البهجة» في السفر. ومع ذلك، فهو يعد ببيع جيد.

ولكن حينئذ، كما علق براين جنكنز، يظهر «تراث شبه دائم من الإرهاب». وهو خبير، لذلك لا بد أن يعرف. فثمة مصادر عامة من التمويل والتزويد بالأسلحة وتداخل الموظفين تسهم في هذا، حسب قوله، كما تفعل «بنية تحتية عالمية» تقوم «بتأسيس الرعب». ومع ملاحظة أن المزيد والمزيد من الحكومات تعين وكالة خاصة كي تدرس وتقاوم (أو تقيم علاقات مع) الإرهابيين، يعلق بأنها «مثل أي بيروقراطية، ستنافس تلك الوكالة من أجل التأثير والميزانية، وتعد بالنتائج، وتقاوم التفكك... وإجراءات الأمن المتخذة ضد إرادة الإرهاب... تصبح جزءاً دائماً من المشهد [الذي] قد يكون التطور الأكثر غدراً... في السنوات القادمة. وسيصبح الإرهاب حقيقة مقبولة في الحياة المعاصرة ـ مألوفاً، عادياً، بديهياً، وبالتالي «محتملاً» بشكل ما».

حينئذ ثانيةً، لا يكون شيء من هذا جديداً. وقد دعته عالمة اجتماع بعملية «التحول إلى كركدن». «تتزايد ثخانة جلدك فحسب أكثر فأكثر، سنة بعد سنة، حتى تتوقف عن ملاحظة الأمور. فمنذ عشرين سنة كان إطلاق النار على طالب فلسطيني أو قذف قنبلة على مستوطن يضرم النار في كل شخص هنا. والآن معظم الناس يتقبلونه ببساطة. الأحداث تجري. إنها مدونة في ذاكرتك لكنك لا تتركين المشاعر تضعف. إنه تناظر وظيفي رهيب، لكنني لا أستطيع الامتناع عن التفكير بما قالوه عن الأشخاص الذين عاشوا قرب أوشفيتس. فهم لم يعودوا يشمون الدخان بعد. وكذلك نحن».

لقد اعتدت على قراءة مثل هذه الأمور، واعتدت على قص مثل هذه الأشياء وحفظها ـ قبل أن أعرف أنني كنت هنا. كانت طريقة، كما

تعـرفين، لمحـاولة التـعـامل مع الرعب. لكن المشكلة هي مع الفئـات ـ حسـن، إنها تواصل التـوسع. ولم تكن حروفـها محددة بقدر ما أعـرف أن عليها ذلك كي تبرهن...

الفئة: الحالة السوية

يكتب الدكتور مارتي سيرالا من جامعة هلسنكي، مخاطباً خبراء الإرهاب:

سيقوم الإرهاب كموضوع بجعل كامل طيفه المتعلق بالظواهر يتردد صداه داخل جميع المشاركين منا وكذلك في عملية العلاقة بين أنفسنا... دون أن نهتم بوعي مع بعضنا بعضاً من أجل تمييز مثل هذه عملية، ونحن [نخاطر بإنتاج] تفاهات خطرة ـ خطرة، لأنها تأتي من الخبراء. ويمكن أن تكون اليد العليا للتعلق بالطقوس العلمية التقليدية في دلالات الإلزام بالتكرار... وستوجد المساحات الداخلية من المجموعة الإرهابية في كل رجل، كما أن هنالك ظاهرة الإرهاب الأسري بشكل ما، أكثر أو أقل شدة، في كل عائلة، إذا تمت معاينتها بإحكام أكثر.

وعبّر روبرت كندي عن ذلك ببلاغة أكبر: «باستثناء الحرب، لا شيء في الحياة الأمريكية، لا شيء، يدرب الفتى مدى الحياة بصورة أفضل من كرة القدم».

إلا أن كرة القدم بدأت تبدو عقيمة بالمقارنة مع إحدى الرياضات الأسرع نمواً في الولايات المتحدة، وهي «لعبة البقاء الوطني». ويطلق عليها أحياناً أيضاً اسم كرة العارضة، وهي تحرض فرقاً من الرجال الذين يرتدون ثياباً مموهة ضد بعضهم بعضاً في سلسلة معارك وهمية مدة كل

معركة خمس وأربعون دقيقة. ويحاول كل فريق الاستيلاء على علم الخصم وهو في كمين ويتخلص من جنود الخصم ببنادق هوائية تطلق كبسولات هلامية مملوءة بطلاء مائي. وتمنح المباراة الوطنية السنوية جائزة أربعة عشر ألف دولار وتجتذب الفرق من جميع أنحاء الولايات المتحدة، وهي فرق تحمل أسماء مثل الأمهات والحصادات الضارية وآس البستوني. ويزعم مؤيدو هذه الرياضة أنها تُخرج اللاعبين إلى الريف في نهاية كل أسبوع، وتعزز التدريب والتفكير الاستراتيجي، «مثل الشطرنج للنشاط البدني». والمختصون في السلوك العدواني، ومنهم ليونارد بركويتس من جامعة وسكونسن (ماديسون)، يستهجنون هذه الرياضة، معلقين أنها تسبب تخفيضاً في الموانع المضادة للعنف، وتضفي طابع التفاهة على الحرب، وتعوّد أنصارها على القتل، وهي «بذيئة أخلاقياً». لكن أربعين ألف شخص يمارسون اللعبة الآن كل نهاية أسبوع في الولايات المتحدة، وهي شعبية بالقدر نفسه في اليابان. وقد قامت بإصدار ثلاث مجلات، بالإضافة إلى إصدارات داخلية متعددة للأطفال، مثل «لعبة مطاردة الليزر». وتستخدم الشركات اللعبة في تراجعات الشركة من أجل «تعزيز الاتصال» و«بناء روح الرفاق» بين المستخدمين الذين يفتقرون إلى العمل الجماعي. وتقوم الرياضة مؤخراً بتجربة سباق تسلح خاص بها: تحظى الدبابات وشراك المغفلين وقنابل الطلاء وألغام الطلاء بإقبال حماسي، وقدمت Tippman Pneumatics، المنتجة السابقة للرشاشات، بندقية SM-60، وهي بندقية آلية تطلق ستمائة طلقة من كرات الطلاء في الدقيقة. (يحتقر المتشددون مواد التحايل هذه كلها لأنها تقلل المنافسة والمهارة الفردية للعبة - التتبع، التكتيكات،

الخداع). وقد جذبت بعض النساء لها، وبشكل أولي زوجات المتحمسين وصديقاتهم. لكن أكثر من ٨٥٪ من اللاعبين هم رجال، وأغلبهم في أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات من عمرهم؛ والعديد منهم في الجيش حالياً، لكن الأغلبية هم رجال أعمال متوسطون. ويتحدث هؤلاء الرجال عن «عشقهم للعبة»، و«احتياجهم إلى اللعبة»، و«إدمانهم على اندفاع الأدرينالين في نهاية كل أسبوع». وقد فسر أحد اللاعبين (وهو رئيس فريق) مشاركته بهذه الطريقة: «أوه، إنها مرحة وغير عنيفة. إنني لم أستطع المشاركة في حرب حقيقية. إنني من أنصار السلام».

وكان آخرون من أمثال «أنصار السلام» هؤلاء يمارسون حريتهم في التعبير على طرق ولاية كاليفورنيا مؤخراً. ومنذ منتصف حزيران حتى أواخر آب عام ١٩٨٧، خلفت ١١٩ حادثة عنف على الطريق العام في تلك الولاية أربعة قتلى وتسعة عشر مصاباً فيما دعاه الحاكم «عنفاً متصاعداً أرهب الملايين من السائقين في كاليفورنيا». وقال المحللون إن حالة المرور كانت سيئة جداً، وبخاصة عند مداخل منحدرات الطريق الحرة، حيث اعتاد السائقون ببساطة على إنزال نوافذهم وإطلاق النار على بعضهم بعضاً. وتبدو كاليفورنيا ولاية مرهقة، رغم عصير الجزر والغرانولا. وفي تموز من العام نفسه، حُكم على جو هنت، الذي يبلغ السابعة والعشرين ورئيس نادي فتية المليارديرِ، لذبحه زميل سابق اعتقد هنت أنه خدعه في صفقة استثمارية. وجميع أعضاء نادي فتية المليارديرِ تحت سن الخامسة والثلاثين، وجميعهم متخرجون من مدرسة هارفارد الإعدادية الراقية في وادي سان فرناندو، وجميعهم أبناء أسر غنية وبارزة اجتماعياً. وهنت نفسه شاب وسيم مشهور بسحره وتهذيبه.

وكان تيد بندي وأنجيلو بونو الصغير، مشهورين أيضاً بسحرهما - قبل وخلال وبعد إدانتهم بتهمة القتل الجماعي للنساء.

في عام ١٩٨٤، وفي فيلم وثائقي تلفزيوني بريطاني عنوانه «دون دافع ظاهر»، ناقش عميل لمكتب التحقيق الفدرالي صعوبة التحقق ممن هو قاتل جنسي متسلسل ومن هو ليس كذلك:

بالنسبة لحالة العديد من هؤلاء الأفراد، فإنهم يعيشون نوعاً من الحياة السرية، بإحساس أنهم وحدهم يعرفون ما قد يفعلون ومع ذلك يعيشون حياة عادية ظاهرياً إلى حد ما عندما لا يقومون بالنشاط الإجرامي... والشخص [كذا] الذي يرتكب سلسلة من عشرين أو ثلاثين جريمة قتل بصورة متكررة سيصبح شخصاً لطيفاً جداً، في التحدث معه، والتعامل معه، وهم لن يصبحوا شواذاً.

ويوافق طبيب نفساني على ذلك:

إن غالبية [القتلة الجنسيين المتسلسلين] طبيعيون جداً وودودون جداً... قد تدخل حانة لتناول شراب وتجلس هناك وتتحدث معه ويصبح فجأة أحد أصدقائك الطيبين، ولا يمكنك أن تنظر إليه وتقول إن ثمة أمراً غريباً يتعلق به، إنهم طبيعيون جداً.

توصلت دراسات حديثة عديدة على المضطربين عقلياً إلى نتيجة أنهم يظهرون نمطاً غير عادي في تنظيم الدماغ، ويبدون عفويين في اللغة، وبارعين في اللياقة الاجتماعية، ويظهرون عاجزين عن إحساس أي عاطفة بعمق، ولا يستطيعون القيام بارتباطات مع الناس الآخرين،

ولا يمكنهم فهم كونهم محبطين في أي من رغباتهم الخاصة. وهم نادراً ما يُعتقلون ما لم يكن السلوك الإجرامي الذي يمارسونه حاداً: يقدر الباحثون أن أقل من ١٠٪ قد اتهموا بأي جريمة على الإطلاق. ويقدر الباحثون أيضاً أن أكثر من ٨٠٪ من جميع المضطربين عقلياً هم ذكور.

أتذكر حين كنت أقل حرية مما أنا الآن لأنني لم أدرك أنني هنا بعد، أتذكر حين كنت أهتم بأن أكون معقولة وأبرهن على الأمور بجدية، كانت تقلقني معلومات مثل تلك. كنت أجلس طوال ساعات مع وثيقة كالتي تتعلق بالمضطربين عقلياً ومقالة كالتي أشارت فيها مارثا كرينشاو بأن «الميزة البارزة للإرهابيين هي حالتهم الطبيعية». أفكر في ذلك وأقاومه ثم أفكر في ذلك وأقاومه. أنت تعرفين كيف هو. والمرء لا يريد أن يصدق الأسوأ. فهذا يبدو، حسن، ساذجاً جداً. يبدو مجنوناً. ثم أفكر، من يحدد الجنون؟ ثم أتوقف من جديد. ذلك النوع من التفكير يجعلك متوترة الأعصاب. لأنك تشكين بأنه قد يجعلك عاقلة.

ثم أقرأ النتائج التي توصل إليها أطباء نفس الطفل الذين يدرسون الأطفال في حالات الحرب - أمور مثل «يتعامل الجسم والعقل مع الرعب بالطريقة نفسها، سواء إن كنت قد تعرضت للضرب من أبيك أو من جنود بول بوت» - وأفكر بالإحصائيات المتزايدة حول سوء معاملة الطفل والقول «إن كنت لا تستطيع ضربهم، انضم إليهم»، وأتساءل كيف عرّف الأطباء النفسيون حالة الحرب. وكان هذا أمراً غير منطقي مني. ومع ذلك، كانوا يتحدثون عن الأطفال في إيرلندة الشمالية أو كمبوديا، «أطفال بعمر الثامنة أو التاسعة... يتم تجنيدهم وتدريبهم كجنود في أمريكا الوسطى، وإفريقيا، والشرق الأوسط». كانوا يتحدثون عن

أطفال «ارتكبوا الكثير من القتل وهم صغار لا يتجاوزون الثامنة واستمروا في اغتيال الناس حتى أصبحوا في الرابعة عشرة تقريباً». كان أمثال هؤلاء الأطفال «سليمين نفسياً طوال وجودهم مع الخمير الحمر. لكنهم عندما أتوا أخيراً إلى معسكر للاجئين يمتلئ بضحايا بول بوت، انهاروا».

أفكر في ذلك وأقاومه. كانت طريقتي للبقاء خارجاً هناك هي إنكار أنني داخلاً هنا، أو بالأحرى إنكار أن «خارجاً هناك» **كان** «داخلاً هنا» وأنني لم أعرف حتى أي مكان آخر. آه، لقد درست الكثير من الأمور آنذاك. وجعلت من واجبي معرفة أكثر ما باستطاعتي عن هذا الموضوع بكامله. وزاد ذلك من التشويش، الذي ساعد على الإنكار. فمثلاً، عرفت أن التعبير عن العاطفة كان مقبولاً من النساء في جميع حضارات العالم، لكنه لم يكن مقبولاً هكذا في أي مكان بالنسبة للذكور - ما لم يتم التعبير عن العاطفة بعنف. كان ذلك مريحاً، لأنه وضع اللوم في العنف على «المجتمع». ثم أتذكر ما هو «المجتمع» ومن حدده وسيطر عليه، وأشعر بالقلق ثانية.

أشعر بالدهشة أحياناً، الآن، وهنا، كيف عشت طويلاً هكذا مع كل التشويش والقلق الذي يسببه كوني منطقية. وباستعادة الماضي، يبدو **ذلك** لي ساذجاً. لكن المرء لا يستطيع دفع هذه المدارك. وأكثر ما يستطيعه المرء هو عدم مقاومتها، وأن ذلك في حد ذاته هو عمل يستغرق الوقت كله.

مثل بساطة هذه الزنزانة. ليس لدي ما أجمعه أو أحفظه هنا. أعرف كل الأحجار - كم يوجد منها، الترتيب الخاص، القوام، والظلال المتغيرة

لكل لوح من كل حجر منفرد في هذه الزنزانة. أعرف الطريق الذي يتسرب منه الضوء عبر النافذة الصغيرة العالية ليشكل خطوطاً بين قضبان الظل عبر الجدار ثم عبر الأرض، وكيف يتغير وفقاً للفصول. يمكنني تمييز الخطوات المختلفة لكل من حراسي. حتى حين يعينون حراساً جديدين - ستعرفين ذلك في حينه، كيف يتناوب الموظفون، وفي بادئ الأمر يزعجك هذا حقاً - يستغرقني الأمر بضع ساعات فقط كي أميز الخطوات الجديدة والقديمة أيضاً. يمكنني دائماً تقريباً توقع مزاجهم في لحظة معينة: حين يقررون معاقبتي أو مكافأتي، وكم هي اعتباطية تلك القرارات، وحين يأتون لي بالبيان المألوف المكتوب مسبقاً كي أقرأه أمام كاميرا الفيديو، حين يحاولون رفع معنوياتي بقولهم إن إطلاق السراح يبدو قريباً، وحين يحاولون إقلاقي بقولهم إنني سأتعفن هنا حتى أموت. لا تسيئي فهمي، فلن أكون ساذجة إلى درجة القول إنهم فعلوا بي كل ما باستطاعتهم وإنني تجاوزت الخوف مهما استطاعوا ابتكار أمور غير هذه، آه، كلا. لكنني أراهم فعلاً بوضوح أكثر طوال الوقت. حتى أنه خطر لي أنك غير موجودة، هناك في الزنزانة المجاورة، وأنهم لمّحوا لي بأنك هناك للتحايل علي كي أكتب هذا. لكنني أستطيع القسم إنني سمعتك تتحركين، وتتمشين، وتبكين بصمت. إنني لا أتخيلك. ويستحق الأمر مخاطرة أن يتحايلوا عليَّ ويكتشفوا ما أفكر فيه حقاً، إذا كان هذا سيصلك ويجعلك تشعرين بوحشة أقل. في الليل ظننت أنني سمعتك تغنين برقة لنفسك هناك للإحساس بالرفقة، أعرف ذلك. وقلت لنفسي، «تلك امرأة أخرى هناك، تغني خوفاً من أن تصبح عاقلة». كان ذلك عندما قررت أن أكتب لك هذه الرسالة.

لكنني يقظة. ويمكنني أن أعرف من طريقة مجاورة الضوء الآن للحجر الثامن والسبعين فوق الأرض، والذي هو أيضاً الحجر الثاني عشر اعتباراً من الجدار البعيد، أنهم سيأتون قريباً للمحاضرة اليومية حول سلامة قضيتهم، حول الإنسانية والأخوة وكيف أننا جميعاً أشخاص عادلون، وكيف هي حقاً الطبيعة البشرية أو طريقة العالم أو طبقة الأرض أو اصطفاف النجوم أو القدر، وكيف أن الألم كله أمر خيالي ولا ضرورة لإحساسي به وأنني أخطئ إذا فعلت ذلك وأنني السبب في بقائي هنا وكيف يمكنني أن أظل غير منطقية جداً. وهكذا تعود هذه تحت الحجارة الآن.

* * *

قد تتساءلين كيف استطعت الحصول على ورق ومواد للكتابة، وبخاصة أنه لا يوجد مخزن هنا ولا يُسمح داخلاً بأي بريد أو رزم. لأسباب أمنية، كما هي العادة. لقد كتب بعض الناس في هذه الظروف كلمات مجهرية مستخدمين دمهم حبراً على قطع من ورق المرحاض. وحفر آخرون حرفاً معذباً إثر حرف على قطع الحجارة. ولن أفشي طريقتي. ولا ضرورة لأن تعرفي ـ من أجل حمايتك. وسأخبرك، مع ذلك، بأنني قمت بأمور لا أفتخر بها بشكل خاص، كي أحصل على هذه المواد. ومع ذلك، فالأمر يستحق ذلك، حتى الآن على الأقل. مع أنني أعترف بأن ثمة أيام كنت أشعر فيها كما يجب أن تشعر شجرة تطرح أوراقها في الخريف. تلتهب ورقة إثر ورقة، وتتجعد ـ ثم تتحرر وتسقط. وبعضها تتشبث حتى آخر لحظة ممكنة، رغم اصطدامها بأقسى هبات الريح ـ ثم تنطلق فجأة حين يكون الهواء ساكناً تماماً. قد تكون الكتابة شبيهة بذلك. في هذا التعري الغريب للنفس.

أما الآن، فإليك هذه الرسالة. لأنك بحاجة إلى سماعها، بحاجة إلى معرفة أنك لست وحيدة جداً كما قد تخشين. سامحيني، فقد تهت عن غايتي - هذا سهل جداً عندما لا يكون لديك، كما يذكّرونك، أي غاية مفضلة للبدء بها. وكانت غايتي المفقودة حول المشكلة التي بدأت ألاحظها مع هذه الفئات وكوني منطقية/أثبت الأمور/ أحافظ على التصنيف مرتباً. وعلى سبيل المثال، كانت فئة أخرى:

الفئة: الاقتصاد

في هذه الفئة جمّعت المواد كما يلي:

- في عام ١٩٨٧ أكمل الحاخام مئير كاهان جولة محاضرات في الولايات المتحدة جمع خلالها أكثر من خمسين ألف دولار (أقل من حصيلته السنوية المعتادة) في مساندة لحزبه «كاخ» ذي الميول القتالية المغالية في إسرائيل. وكانت بعض الأرباح مشتركة مع عصبة الدفاع اليهودية الأمريكية، لتمويل الدفاع القانوني عن أعضاء العصبة الذين اتُّهموا بموجة من قذف القنابل في مدينة نيويورك. ويحاضر كاهان غالباً في المعابد وأماكن العبادة. ويتضمن مؤيدوه أشخاصاً مثل المحامي باري سلوتنيك، الذي دافع بنجاح عن عضو العصابة الإجرامية المزعوم جون غوتي. وكان كاهان نفسه يحتفظ بصداقة حميمة مع جوزيف كولومبو الكبير، الرئيس المتوفى «لعائلة» كولومبو الإجرامية.

- يأتي تمويل الجيش الجمهوري الإيرلندي بشكل أساسي من مصدرين: تبرعات الأمريكيين الإيرلنديين، ومضاربة الجيش الجمهوري الإيرلندي التجارية في إيرلندة الشمالية - شركات سيارات أجرة. وقد

أصبح عمل سيارات الأجرة أكثر ربحاً عندما قصف الجيش الجمهوري الإيرلندي شبكة حافلات بلفاست.

- حاولت منظمة التحرير الفلسطينية أن تكتفي ذاتياً وأن تعتمد أقل على الحكومات الأجنبية، التي يمكن أن تتقلب مواقفها. وأوجدت منظمة التحرير الفلسطينية الصندوق الوطني الفلسطيني، الذي يتحكم بموجودات تُقدر بملياري دولار على شكل أموال سائلة واستثمارات في مصانع ومزارع، وأملاك ثابتة، واستيراد وتصدير. ولا تؤمن الاستثمارات دخلاً فحسب بل ووظائف للفلسطينيين، فهم يرسخون منظمة التحرير الفلسطينية كجزء من الاقتصاد في مواقع متعددة، ويمنحون أفراد منظمة التحرير الفلسطينية فرصة لاكتساب الخبرة كمدراء و«رجال مال». ومنذ التخلي عن الإرهاب والإعلان عام ١٩٧٥ عن سياسة منظمة التحرير الفلسطينية الجديدة في فرض أحكام بالموت أو عقوبة الأشغال الشاقة على الأفراد الذين يرتكبون أعمالاً إرهابية، تعرضت منظمة التحرير الفلسطينية إلى هبوط اقتصادي حاد. ومن ناحية أخرى، فإن «الرافضين» والمجموعات العنيفة مثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، يزيدون ممتلكاتهم المشتركة، والتي تقترب الآن من ثلاثة مليارات دولار.

أقرأ هذا النوع من الأمور وأشعر بالقلق ثانية. أي فيما يتعلق بالفئات. وأستعيد في ذهني هذه الأمثلة الثلاثة وأفكر: كلا، يجب أن يكونوا في «الفئة: الرعب»، وليس «الفئة: الاقتصاد». لكنني قد أصادف آنذاك فئة مثل هذه:

- كانريشا يوزي غاكو هي أشهر مدرسة لإدارة الأعمال في اليابان؛

ويتم إرسال المديرين متوسطي المستوى والمديرين التنفيذيين من شركات مثل نيسسان وهوندا من قبل شركاتهم للدراسة مقابل رسم قدره ألفا دولار للشخص. ويُطلب منهم المواظبة. وهنا يتعلمون «إعادة تكريس أنفسهم لشركاتهم» في ثلاثة عشر يوماً من التدريب على طريقة الساموراي وتحسين الذات. وإذا نجحوا، تتم ترقيتهم؛ وإذا فشلوا، ينتهي مستقبلهم كمديرين. ويطلق الطلاب على ذلك اسم «معسكر الجحيم». وتقتدي المدرسة بنموذج أكاديميات كاميكازي الانتحارية المعروفة قبل الحرب العالمية الثانية. ويحتوي كل صف على ٢٥٠ فرداً (ينجح منهم اثنا عشر بشكل متوسط). في البداية يجري تزيين الطالب بأربع عشرة «شارة للعار» ترمز إلى الضعف. ومع تقدم الطالب، يمكن أن يزيل شارة. وعليه أن يتعلم الصياح في جميع أقواله، والركض - ليس السير - من مكان إلى مكان، كي يكرر عن ظهر قلب الوصايا العشر لفن البيع العدواني. ويجري تعليمه أن الدقة في النقاش أقل أهمية من الصياح والسرعة، وأن الإصرار هو كل شيء. ويجب أن يتعلم «أغنية غراب المبيعات» بكلمات مثل: «ما تصنعه بعرق جبينك، يجب أن تبيعه بعرق جبينك. ما تصنعه بالدموع، يجب أن تبيعه بالدموع. لا تكن واهن العزيمة، يا غراب المبيعات، تشجع، وقاتل مثل محارب». وفي أحد الاختبارات يتم نقل الطلاب بالحافلات إلى المدينة كي ينشدوا الأغنية بصوت عال للمسافرين في محطة القطار المحلية: يدمر هذا الكبت ويعزز التحمل من خلال الإذلال. وكل فجر تجري ألعاب جمبازية بمنشفة قاسية لتقسية الجلد، كما في طقوس الساموراي القديمة. وهناك مسير تحمُّل لمسافة خمسة وعشرين ميلاً مع خرائط مضللة عن

عمد، ومسابقات لمعرفة من يمكنه العودة أولاً؛ ويعود بعض الطلاب على النقالة. ويهرب بعضهم، ويضطر بعضهم لدخول المستشفى بسبب انهيار جسدي أو عقلي. والذين لا ينجحون يجلبون العار إلى رب عملهم وعائلتهم. ويتم طرد بعضهم صراحة وينتحرون. والذين ينجحون يرتقون بسرعة في عالم الشركات اليابانية. وقد تبنت تقنيات التدريب بعض الشركات الأمريكية والأسترالية، وفي تشرين الثاني ١٩٨٧ بدأ «فرع» أمريكي للمدرسة (بإدارة يابانية لكنه يضم مدرِّسَين أمريكيَّين، عقيد متقاعد من الجيش الأمريكي وضابط مدرب سابق في الشرطة) بالإعلان عن دورة لمدة ثلاثة عشر يوماً مقابل ٢٤٠٠ دولار في Wall Street Journal؛ وتمَّ الاشتراك والحجز مسبقاً في الدورة على شكل مكثف.

إنك ترين المشكلة. هل تلائم تلك المعلومات فئة الرعب، أم الاقتصاد؟ كنت أعتقد دائماً أنني إذا استطعت فقط جعل هذه الأمور تتلاءم بشكل صحيح، فإن الناس سيكفون عن الاعتقاد بأنني لفقتها - مع أن القصة المتعلقة بهذه حالة قد عُرضت على التلفزيون الوطني وفي مجلة للأخبار الوطنية.

فيما يتعلق بذلك الأمر، هل هو اقتصاد أم حالة طبيعية أم رعب بأن غالبية الأعمال التي أوجدت في الولايات المتحدة منذ عام ١٩٨٠ (أعمال تتيح للإدارة التباهي بأن البطالة قد انخفضت) تدفع أجوراً دون مستوى الفقر؟ وأن من بين جميع الأمهات العازبات اللواتي يعشن في مدينة نيويورك، تعيش ٦٢,٨٪ تحت خط الفقر بكثير؟ وأن عدد الفقراء الذين يتقاضون أجراً قد ازداد خلال الثمانينيات بشكل أسرع من عدد الفقراء الذين يعتمدون على المساعدة الاجتماعية؟ وأنه في تشرين الثاني عام ١٩٨٧ أعلنت إدارة ريغان خططاً للتقليل أكثر في «فائض»

الجبن والأرز والحليب، وتخفيض نسبة ٥٠٪ من التوزيع الحكومي عام ١٩٨٨ لهذه السلع، والذي يعتمد عليه نحو تسعة عشر مليون أمريكي، بشكل رئيسي من النساء والأطفال، للبقاء على قيد الحياة؟ وأن ثمانية وتسعين بالمائة من العائلات التي تتلقى هذه السلع يقل دخلها عن ١٥٠٠٠ دولار سنوياً و٤٤٪ يقل دخلها عن ٥٠٠٠ دولار؛ و٣٨٪ يشكلون أشخاصاً بعمر الستين أو أكبر و٤٨٪ من العائلات لديها أولاد تحت سن الثامنة عشرة. والإدارة ـ التي بدأت بموجب مرسوم الأمن الغذائي لعام ١٩٨٥ بالدفع إلى أربعة عشر ألف مزارع يعملون بالألبان كي يتوقفوا عن إنتاج الحليب بذبح الأبقار، والتي كانت تشجع المزارعين على التخلص من الأرز والقمح ـ فسرت أن «غاية القانون كانت تحقيق أفضل توازن بين العرض والطلب، ويبدو أنها حققت ذلك الهدف».

أتذكر الآن حين اعتقدت «خارجاً هناك» أنني لست أسيرة أو رهينة أو لاجئة، وأشعر بالاهتياج لعدم معرفتي أين أصنف مثل تلك المعلومات. أين تلائم الطريقة التي تشعر بها امرأة حين لا يكف طفلها عن البكاء لأنها لا تملك ما تطعمه مع أنها تعيش في إحدى أغنى الدول في العالم؟ الرعب؟ الاقتصاد؟ الحالة الطبيعية؟ كانت بنود كهذه ـ عندما لم تكن ملائمة، مهما تكن مقاومتي ـ هي التي ساعدتني لمعرفة أنني كنت أصبح عاقلة دون تأكيد.

كانت تصريحات مقروءة مثل:

العنف ليس الحماية الوحيدة للمستغلِين؛ ويمكن للمستغَلين استخدامه، وأكثر من ذلك عليهم استخدامه.

وكذلك:

هنالك عنف يستعبد، وعنف يحرر.

وأفكر، حسن، نعم، لا بأس، إنها مريعة لكنني أستطيع فهمها وهي على الأقل متماسكة ومنطقية بالتأكيد ـ وأكتشف أن الأول كان اقتباساً من تشي غيفارا والثاني من بينيتو موسوليني.

كانت تكشف أن الحكومة الإسرائيلية، رداً على مظاهرات الشارع والإضرابات العامة ـ جزء من انتفاضة عام ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨، والثورة الشعبية احتجاجاً على معاملة الفلسطينيين في المناطق المحتلة ـ قد أرسلت عشرة آلاف جندي إضافي للقيام بدوريات على مدار الساعة في الضفة الغربية وقطاع غزة؛ وأنه طوال ثلاثة أيام في نهاية آذار عام ١٩٨٨، كان جميع سكان القطاع الستمائة وخمسين ألفاً محتجزين في بيوتهم ضمن سياسة «القبضة الحديدية لعقوبة حظر التجول الجماعية». كانت تكشف أنه حدثت أكثر من أربعمائة وفاة وإصابة حادة خلال أسبوع واحد في غزة وحدها، وأنه كان على وكالة UNRWA القيام بإجراءات استثنائية، تضمنت إبقاء بعض العيادات في غزة مفتوحة طوال أربع وعشرين ساعة يومياً، وتنظيم برامج إطعام خاصة، وزيادة موظفيها الدوليين إلى أكثر من ضعفيهم. كانت تكشف أن جنود سلطات الاحتلال، رغم السياسة الرسمية «بعدم الضرب»، كانوا يضربون نساء في حالة مخاض، وعجائز، وأمهات مرضعات، وأطفالاً رُضَّعاً أو في بداية حبوهم؛ وأن النساء كن يتعرضن للإجهاض من الغاز المسيل للدموع؛ وأن النساء كن يجبرن على تنظيف الشوارع بأيديهن

العارية بعد المظاهرات؛ وأنه مع هذا، كانت النساء يتنظمن في لجان المنطقة لتأمين الطعام تحت حظر التجول، والاهتمام بالجرحى، ومحاولة إنقاذ الأولاد المعرضين للاعتقال وإخفائهم. كانت تكشف أن كل شخص بالغ من سكان غزة الأربعمائة ألف كان مجبراً على استبدال بطاقة زهرية أصدرها الجيش ببطاقة هويته الخضراء القديمة؛ وتكشف أن آلاف الفلسطينيين الواقفين في رتل لتبديل البطاقات كانوا يساقون أمام جنود إسرائيليين يحملون بنادق آلية، نحو صفوف من السكرتيرات اللواتي يدخلن أرقام الهوية في صفوف من أجهزة الكومبيوتر IBM التي تكشف فوراً عن بيانات مثل التزامات ضريبية غير مدفوعة وسجلات توقيف سابقة؛ وتكشف أن على كل فلسطيني أن «يزيل» مثل هذه «المشاكل» قبل حصوله على البطاقة الجديدة - التي يستحيل بدونها أن يستلم التموين، أو يسجل زواجاً، أو يحصل على رخصة قيادة أو شهادة ولادة أو وفاة، أو يستلم شيك الراتب، أو يقوم بأي معاملة مصرفية، أو يمر عبر نقاط التفتيش العسكرية العديدة. كانت تكشف أنه اعتباراً من آب عام ١٩٨٨ كان نحو تسعة آلاف فلسطيني في معسكرات السجن المؤقتة بانتظار المحاكمة، منهم ألفا فلسطيني تمَّ اعتقالهم بناء على أوامر احتجاز إدارية تسمح بسجن المشتبه بهم لمدة ستة أشهر مستمرة قابلة للتجديد دون أي مراجعة قضائية؛ وتكشف أن الجيش الإسرائيلي قد فرض قيوداً صارمة على الصحافة المحلية والدولية وقطع جميع الاتصالات الهاتفية الدولية مع المناطق المحتلة. كانت تكشف أن رئيس وزراء إسرائيل إسحق شامير كان يكرر أن مثل هذه التكتيكات القمعية كانت ضرورية لإنهاء العنف، ولحفظ السلام، ولوقف الإرهاب. كانت

تذكّر بكلمات «الحاخام إيزرتنسكي»، الشخص الرئيسي في عصابة شتيرن الذي استخدم أقنعة دينية خلال عمله الإرهابي والذي يتذكر بفخر أنها «كانت مسألة فكرة، هدف يجب تحقيقه... هدف سياسي. هنالك أمثلة عديدة عما فعلناه موجودة في التوراة ـ جدعون وشمشون، مثلاً». وكان الحاخام إيزرتنسكي هو الاسم السري لإسحق شامير.

لم تكن تعرف كيف تصنف إصابات الحرب، التي تبلغ اليوم ٨٠ إلى ٩٠٪ من المدنيين، أو التجارة العالمية للسلاح، التي تتوجه ٧٥٪ منها إلى الدول النامية. لم تكن تعرف أين تلائم الأطفال البالغين ١٤٥ مليوناً في قوة العمل العالمية الرسمية (دون اعتبار، كما هي العادة، للعمل الريفي، وعمل المزارع، والعمل المنزلي، والعناية بالإخوة الصغار، وسحب الماء وجمع الوقود، ودون اعتبار للعمل المشترك، والبغاء، والعبودية المنزلية، وعمل الاقتصاد الخفي ذي الشروط السيئة). الاقتصاد؟ لم تكن تعرف أين تضع خمسين مليون لاجئ، بأكثريتهم الساحقة من النساء والأطفال. الحالة الطبيعية؟ أم السل، وآفات الجسد، وسوء التغذية، والأمراض التناسلية المتفشية بين الثمانين مليون طفل في شوارع العالم، والذين يُقدر وجود ثلاثين مليوناً منهم في البرازيل وحدها. الرعب؟

لم أكن قادرة أبداً على جعلها **ملائمة**، كما ترين. فقد انتفخت. لقد طفحت وفاضت على كل حافات الحاوية مثلما فعلت عيناي عندما قرأتها، مثلما فعل عقلي عندما سمعتها، مثلما فعلت أحشائي عندما رأيتها وشممتها ولمستها. وحتى الآن، مع أنني أدرك أين أنا أخيراً، لا أستطيع التغلب عليها. حتى الآن، لا أستطيع تدوين هذه الكلمات بعد

لفترة، لأنني لا أستطيع الرؤية كي أكتب، فهذه الدموع العاطفية الساذجة غير المنطقية تمنعني. حتى هنا. حتى بعد هذا الوقت كله. حتى الآن.

* * *

أخبروني البارحة بأنهم لن يقيموا السلام مع عدوهم. واليوم أخبروني بأن المفاوضات كانت تتقدم وأن المحادثات كانت «بناءة، صريحة، مثمرة». إنهم يرتبكون جداً وباستمرار حين أسخر من هذه التقارير. وأحياناً يضربون - ليس دائماً على الوجه أو البطن، أحياناً بضربة على الذهن أو الروح - في سخطهم من أنني أجدهم مضحكين جداً. لكنك تعرفين كيف يكون ذلك. عندما تحاولين خنق ضحكة يسوء الأمر تماماً. فهي تقرقر وتبقبق وترتفع حتى تكادي أن تنفجري بها - كما في الكنيسة أو في قاعات المحكمة أو في اجتماع عمل أو في أي من تلك الطقوس التي يؤدونها خارجاً هناك، وهم يصرون على أنهم ليسوا هنا. وكلما حاولت كبح الضحكة أكثر، تسربت أكثر. أعني، أنك يمكن أن تختنقي من محاولة عدم الضحك عندما يتوجب ذلك عليك حقاً. ويمكن بالتأكيد ابتلاع الدموع عند الضرورة. ويمكن بالتأكيد ابتلاع الكلمات التي تعرفين أنها ستسبب لك المشاكل إذا تفوهت بها. ويمكنك أن تصري على أسنانك وألا تصرخي من ألمك. ولكن ما من طريقة أبداً لابتلاع الضحكة، الضحكة الحقيقية، لأي فترة «معقولة» من الوقت. لذلك فإنهم يخبرونني بهذه الأمور فأضحك. أضحك حتى تؤلمني أضلاعي. مثلما يحدث حين يخبرونني بأن التكنولوجيا ستحل المعاناة الإنسانية فأضحك حتى تلهث رئتاي. ويذهلهم ذلك. ويعاقبونني،

حسن، نعم. لكنهم يتركونني آنذاك بسلام لفترة ما. لذلك إليك فكرة مفيدة لإعادة البهجة خلال سفرك: إن اعتقادهم بأنك مجنونة هو طريقة يمكن الاعتماد عليها للأمان - والحرية، تقريباً. كأن تصبحين قادرة على كتابة هذه الرسالة، مثلاً.

على أي حال، لقد عدت إلى هناك إذاً، وبدأت أشفى بصورة متقلبة تدريجياً - أعني، من سلامة عقلهم. هناك كنت، أبدي ملاحظات مثل هذه: «إن هدف الإرهاب ليس القتل أو تدمير الملكية إنه يهدف إلى تحطيم روح المعارضة».

أؤكد تلك الكلمات الست الأخيرة وأفكر في ذلك وأظل أقاومه - مع أنني كنت أقاومه أقل وأقل طوال الوقت، مما جعلني أرغب في مقاومته أكثر. أفكر كم كان صعباً إدراك ما كان يجري عندما لا يكون لديك وضع منطقي مناسب للإدراك. وأعتقد أن هذا هو نقصي بالتأكيد. لكنني لم أستطع منع نفسي من ملاحظة كيف أن النساء الأخريات كانت لديهن مشكلة مشابهة. هل كان الأمر مجرد مقاومة للمعرفة؟ جحود؟ إنكار؟ افتقار إلى الوضع المناسب؟

أفكر بما عنته عبارة «تحطيم روح المعارضة». آه، إنني لا أقصد الطرق الواضحة، مثل تدمير البرنامج الإذاعي النسائي الوحيد في إيطاليا، Radio Donna، عام ١٩٧٩. أو قتل خمس وعشرين امرأة كمعدل أسبوعي في أحياء فافيلا الفقيرة من ريو دي جانيرو، واللواتي لا يصل خبر موتهن إلى الصحف. أو تقييد ست فتيات صغيرات بين سن العاشرة والثانية عشرة إلى أسرّتهن في مبغى للأطفال بمنتجع جزيرة فوكيت، في تايلاند، حيث تمَّ العثور على هياكلهن العظمية المتفحمة

بعد حريق عام ١٩٨٤. أو كيف تنشر الدعاية الإباحية كذبة في أن الخوف مثير، وأن الرعب مهيج جنسياً، وأن النساء يمتعهن الإحساس بالخوف لأن الخوف هو حالة النساء الطبيعية لأن الأشخاص الودودين اللطيفين متحللون من القيود في الحانات والمدارس الإعدادية وكلما ماتت امرأة أخرى تشعر الباقيات بالاهتياج الذي هو الوضع المناسب لأنه إذا كانت النساء مهتاجات طوال الوقت فلا بد أن هذا يعني أن كونهن خائفات هو الحالة الطبيعية التي تعني أنهن يستمتعن بذلك مما يعني منحهن المزيد من الشيء نفسه لأن الخوف مثير والرعب مهيج جنسياً.

كلا، إنني لا أعني هذه الطرق الواضحة التي يحاولون فيها «تحطيم روح المعارضة». بل أعني الطرق الطبيعية العادية، الطرق التي نطلق عليها اسم الحياة. لذلك حاولت أن أضع فئة. لقد حاولت حقاً. لكنني آنذاك بدأت أصل إلى مرحلة مستحيلة مع التصنيف.

الفئة: الرجال/ الجنس/ الحب/ الجريمة/ الزواج/ الضرب التناسل/الاغتصاب/تجارة الرقيق/الحكومة/الاقتصاد التكنولوجيا/ الرعب/ تحطيم الروح

كان ثمة حالة طبيعية هنا بالتأكيد. كان هناك المقدم البحري جيمز ل. جونز وهو يأمر جنوده ألا يتحدثوا بحرية في الحانات: «أيها الرجال، إذا أردتم في أي وقت أن تكذبوا على النساء، فهذا هو الوقت المناسب لعمل ذلك». أو تعليق رجل يضرب زوجته خلال اختبار للأهلية، «العنف لا يتم تعلمه. إنه شيء في ذهنك يجعلك تبالغ في رد الفعل»، وإجابة رجل آخر ضمن مجموعة علاجه، «المجتمع كله عنيف، وليس

مجرد بعض الأسر فيه. وإذا كنت مسالماً، فإنك مسالم لأن الآخرين جميعهم عنيفون جداً. وإذا كنت عنيفاً، فإنك تتلاءم مع الوضع فقط».

كان ثمة اقتصاد هنا بالتأكيد. كان هناك تصريح باي وايبا، عضو المجلس النيابي في بابوا غينيا الجديدة، حيث كشف مسح جرى عام ١٩٨٦ أن ٦٧٪ من النساء الريفيات و٥٦٪ من النساء الحضريات يتعرضن بصورة مستمرة للضرب أو «لاتهام الزوجة». وفي بعض أنحاء الجزيرة، ترتفع النسبة المئوية إلى أعلى من ذلك بكثير. وتنقلب الأهمية النسبية للأسباب المختلفة، بصورة معكوسة، وفقاً للطبقة الاجتماعية. ونقل المسح أن «نساء من زيجات "مختارة" ذكرن أن الغيرة الجنسية هي المحرك الرئيسي، تليها المشاكل المالية والكحول، بينما قدمت نساء ذوات دخل قليل الأسباب نفسها ولكن بترتيب عكسي». (التحليل الطبقي موضح جداً دائماً، ألا تعتقدين ذلك؟ كنت أعتقد ذلك، سابقاً عندما كنت ماركسية ومنطقية). وعندما حاولت الحكومة وضع قوانين ضد الضرب، كان أكثر أعضاء المجلس النيابي «معارضين بعنف لفكرة تدخل المجلس النيابي في حياة العائلة التقليدية». كان ذلك عندما قال وايبا، «لقد دفعت ثمن أخطاء زوجتي، لذلك عليها ألا تناقض قراراتي لأنني أنا رب الأسرة». حسن، ذلك اقتصاد بالتأكيد. لكن عضواً آخر في المجلس النيابي، هو وليم وي، قال حتى وهو يوافق، إن القضية كانت بعيدة الصلة بالموضوع و«نحن نهدر وقتنا في مناقشة القضية، لأن ضرب الزوجة هو عادة مقبولة». والآن أين ينطبق **ذلك**؟ تحت الاقتصاد، العرف، الحكومة، الزواج، الضرب، الجنس، الحب، أو الرعب؟

لم أكن الوحيدة التي لديها هذه المشاكل في التصنيف. كانت هناك

العديدات من النساء. كانت إحداهن جين كابوتي، التي ناقشت في كتابها **عصر الجريمة الجنسية** أن جرائم القتل الحسية التي ارتكبها رجال مثل جاك ذي ريبر، ابن سام، وخانق سفح التل كانت جرائم سياسية بصورة جنسية أدت شكل الإرهاب البطريركي.

مهما يكن موضع تركيزي، فالمحتوى فاض بكل ما احتواه. كيف تمكن التقليد المحلي في بابوا غينيا الجديدة من الانتشار إلى حد كونه مسؤولاً في لينينغراد عن ضرب ناتاليا مالاخوفسكايا من زوجها المنشق السوفيتي المشهور؟ ثم أدركت أن سكان بابوا غينيا الجديدة قد سافروا كثيراً بالتأكيد، لأن التقليد المحلي المماثل قد انتشر في إيرلندة.

هناك وفقاً لبول ثيروكس في **المملكة البحرية**، كانت النساء يقمن عملياً بكل الواجبات الاجتماعية، ولم يتركن مسؤوليات للرجال سوى الرجولة، والكسل، والدين، والعنف. ووجد أن أولستر «مجموعة مجتمعات سرية، لا يُقبل فيها إلا الرجال فقط. فالرجال تأنقوا، ووضعوا القواعد، وقرعوا الطبول، وحلفوا الأيمان، واخترعوا المصافحة وكلمات السر، وتسللوا في الظلام وقتلوا الناس». ومع ذلك دارت الحياة كالمعتاد: «... حدث كل شيء فجأة - الحفلات الموسيقية الاحتفالية والعروض المميزة وسباق الدراجات ومعارض الطبخ، إلى جانب التفتيش الجماعي، ودوريات الجنود، والتهديد بالقنابل، والتوقيف. كانت تجري لعبة كرة القدم التقليدية ومعرض فن احتفالي؛ ويوم الافتتاح حدث قتل بشع». واكتشف ثروكس «فرقة الموت» في أولستر وديري معاً: رزمة متنافرة من صفحات صحف مكرسة لأخبار نعي متأنقة، واحتفالات بذكرى وفيات، وقصائد، وأغاني، وأدعية للموتى. ووجد رجالاً مرحين

ونساء مرهقات، لكنه كان مروعاً جداً من العنف العام المحيط به بحيث لم يلاحظ ما يتقرح تحته. ومع ذلك، كانت تحيطه القنابل وجرائم القتل، و«أيدي أشخاص مقطوعة، أو رجال أُطلقت النار على ركبهم عقاباً على خيانتهم، أو بنات صغيرات وُضع عليهن القطران والريش لمعاشرة الجنود... كان ذلك أسوأ من التخويف: كان أمراً لا يطاق... وكان ثمة بعض الجرائم الريفية في مناطق الحدود ـ عقر الماشية... انتقاماً من المزارعين، وكان بعض سكان البلاد الجمهوريين يتسللون داخل المراعي ليلاً ويطعنون ضروع الأبقار».

ولكن في عام ١٩٧٩، كانت جينا كوريا قد كتبت:

خلال أسابيعي العشرة في إيرلندة الشمالية، تمكنت من رؤية الإرهاب ضد النساء ـ الإرهاب لإبقائهن في أماكنهن ـ على أنه القضية السياسية المركزية في أولستر... والعنف المحلي أكثر انتشاراً، وأكثر تكراراً، وأقل تفجعاً [من عنف الشارع] والأكثر أهمية، أن الاثنين مترابطان. وبالنسبة للعديد من النساء، لا يهم من يكسب المعارك المتعددة للسيطرة المستمرة فوق رؤوسهن،... فالرجال سوف يواصلون ضرب النساء.

زعمت منظمة مساعدة النساء، وهي منظمة تؤمن الملجأ للزوجات المعرضات للضرب، بأن العنف العائلي أمر وبائي، يستند على المفهوم الحضاري المحلي بأن الزوجة والأولاد هم ملك للرجل ـ التقليد الذي تعززه قوانين الكنيسة والدولة. وقد حذرت أودري ميدلتون، مؤسسة منظمة مساعدة النساء في بلفاست، بأن «الضرب ليس هو القضية. بل الإذلال. فالإذلال يمكن أن يظهر في الطريقة التي تجبرين على الطبخ بها، الطريقة

التي تجبرين على اللبس بها، طريقة سجنك في المنزل. يمكن أن تظهر في السرير. وعزل الضرب هو عذر للتهرب ـ لأن بقية النساء المكابدات يمكن أن يسترحن ويقلن، "حسن، إنني لا أتعرض للضرب. الحمد للّه على ذلك».

ولاحظت كوريا الاحترام الغريب المألوف الآن بين الرجال الذين كانوا يتبادلون العداء، «احترام أحد المحاربين للآخر. أخبرني أحد قاذفي القنابل من UDA [جمعية الدفاع عن أولستر] الذي كان مسؤولاً عن ١٧٧ انفجاراً بأن رجال UDA ورجال الجيش الجمهوري الإيرلندي يقومون في مستشفى السجن حتى بمساعدة بعضهم بعضاً في محاولات الهرب». ولاحظت أن أرقاماً شاملة قد حُفظت حول الهجمات الإرهابية، عدد القنابل التي انفجرت وطلقات الجنود، أما شرطة بلفاست وموظفو المستشفى فإنهم لم يحفظوا عدد النساء اللواتي تعرضن للضرب ممن تعاملوا معهن ـ أولاً، لأن المسألة لم تكن هامة إلى درجة تستحق التحقيق، وثانياً، لأن الضرب وصل بأعداد مجردة إلى نسب هائلة. لكن أودري ميدلتون حفظت ملاحظات تتعلق بالحالات التي وردت إلى ملجئها: المرأة التي تكلمت بالهمس فقط طوال عشرين سنة؛ المرأة التي أغرق زوجها جسدها العاري بالبنزين ثم راح يرقص حولها، وهو يقدح أعواد الثقاب؛ المرأة التي صب رجلها إبريقاً من الماء الغالي على مهبلها قبل دخولها المخاض مباشرة. وقالت مارلين ماك كونيل، التي عملت في ملجأ آخر، في ليميريك، بجمهورية إيرلندة، إن اغتصاب ذوي القربى والأطفال كان منتشراً أيضاً: «قد يباشر الأب مع ابنة وهي في التاسعة، ويمارس الجنس معها حتى تبلغ الحادية عشرة أو الثانية عشرة،

ثم يتابع مع الأخت التالية. وهو يغتصبها طوال بضع سنوات قبل الانتقال إلى الطفلة التالية». ولم يمر الأمر دون ملاحظة هؤلاء النساء بأنه بينما كان الجميع يستنكرون العنف العام في تاريخ إيرلندة، لم يبدد أحد الكثير من وقته على العنف الخاص. وقد استشهدت هؤلاء النساء بقول البطل الإيرلندي باتريك بيرس، الذي قال قبل إعدامه عام ١٩١٦، «إن إراقة الدماء أمر تطهيري ومقدس، والأمة التي تعتبره رعباً نهائياً فقدت رجولتها». ولاحظت هؤلاء النساء أيضاً أنه كي ينتهي عنف الشارع، يجب أن ينتهي العنف المحلي من أساسه، «يجب أن تفقد الأمة رجولتها».

حسن، لقد اعتدت دراسة مثل هذه البيانات إلى درجة أن الكوابيس أصبحت تنتابني حولها حتى وأنا مستيقظة تماماً. والمرء يرغب كثيراً في أن يكون منطقياً ومحترماً بخصوص التقاليد المحلية. لكنني أصبت بصداع رهيب وأنا أحاول معرفة كيف أمكن لجمهورية إيرلندة وإيرلندة الشمالية معاً أن يسكنهما مستوطنون من روسيا وبابوا غينيا الجديدة. وبدا الأمر واضحاً، مع ذلك، أن الهجرة الإيرلندية الروسية الغينية الجديدة يجب أن تفسر لماذا كان ما يزيد على ٥٢٪ من حالات المعاملة القاسية للأطفال التي تم التبليغ عنها (رسمياً) في الولايات المتحدة تستهدف الأطفال الإناث. وهو ما كان جلياً من حقيقة أن ما يزيد على ٤٠٪ من حالات حمل المراهقات في الولايات المتحدة كان ناجماً عن الاغتصاب الذي ارتكبه الأب أو الأخ أو العم ـ مع أن البنات تعرضن للاتهام «بالاختلاط الجنسي». وما لم أستطع تقريره هو إذا كان كل هذا يندرج تحت التناسل أم الجريمة، تحت العائلة أو الرعب، تحت الحب أو العبودية. وشعرت بأنني حمقاء جداً.

تساءلت بجد، مثلاً، إن كانت ليزا ماك إلهاني قد ذهبت في حياتها إلى لينينغراد أو أولستر أو واغي الشمالية. ثم لم أستطع ثانية أن أتصور حتى السبب الحقيقي لموتها. فقد عُثر على جسدها وهي في السابعة عشرة داخل حقيبة بلاستيكية في كولومبوس، أوهايو، في نيسان ١٩٨٧. كان أبوها مدمناً على الكحول، وحاولت أمها أن تجهض وهي حامل بها، لكنها لم تستطع دفع النفقات. وتعرضت ليزا للاغتصاب وهي طفلة، وحملت وأجهضت وهيْ في الخامسة عشرة، وطردتها أسرتها، وأدمنت على المخدرات، وعملت في مجال الصور الجنسية والبغاء للإنفاق على إدمانها. وفي كل مرة كانت تصطدم بالقانون ثم احتُجزت في بيت للقاصرات، وأشارت العاملات الاجتماعيات في ملفها إلى أنها كانت تظهر حماساً للعلاقات وتعاني من «حرمان عاطفي». لكن النظام كان معداً لإعادة التأهيل، وليس لتأمين العلاقات أو العاطفة. لذلك انسحبت ليزا وراحت «تجلس طوال ساعات وساعات، وهي تحدق في الفراغ». وعندما اكتشفت الشرطة صور أدائها للممارسات الجنسية، تم استدعاؤها للشهادة في قضية صور جنسية للأطفال ضد لاري ميلر، منتج الصور الجنسية. ومع أن ميلر كان مشتبهاً به في مقتلها، فقد اعتقدت الشرطة أن القاتل كان زبوناً لها، وهو روب روي بيكر، الذي يبلغ الرابعة والثلاثين ويعمل سائق شاحنة والذي ارتبط اسمه بحالات هجوم مشابهة على مومسات أخريات. وحين جاءت الشرطة للتحقيق معه، أطلق بيكر النار على نفسه في منزل يمتلئ بصور لنساء عاريات مقتطعة من المجلات.

وهكذا أتساءل، هل ماتت ليزا نتيجة اعتداء؟ أي اعتداء؟ عدم قدرة أمها على دفع نفقات الإجهاض؟ الضرب الذي تعرضت له من زبونها؟ هل ماتت نتيجة المرض الذي يُدعى «الأسرة» أو المرض الذي يدعى «إعادة التأهيل»، من الفاقة أو المخدرات أو الصور الجنسية، من العبودية الاقتصادية أو الجنسية أو تحطم الجسد؟ أو تحطم الروح؟ عندما كانت تحدق في الفراغ طوال ساعات هل كان ذلك لأنها تعرف أنها هنا لكنها لا تملك وسيلة لمحاولة الوصول إلى أي شخص في الزنزانة المجاورة؟

ربما ماتت نتيجة أسباب مجهولة.

ستفهمين جيداً الآن لماذا لا أستطيع كبح هذه الانفجارات غير الموقرة من المرح حين تنتابني، إذ يخبرونني بأنه حين تستغرق النساء في هذه الأمور فإننا نقع في «فكرة الاحتيال»، مؤكدين لي بأنهم يهتمون بحقوق الإنسان، وأنهم يقدرون النساء، ويدللون الأطفال، ويوقرون الحياة. ستفهمين لماذا، حين يتحدثون عن احترام قانونهم - الذي يفرقونه عن قانون عدوهم، في تمييز لا أستطيع تتبعه بسبب افتقاري إلى تقدير الأمور بشكل صحيح - أو يتحدثون عن القانون الأعلى لآلهتهم، فإنني أتقلب، وأنا أمسك جنبيّ من الألم. وعندما كنت لا أزال أعتقد أنني في الخارج هناك كنت أعد مئات حالات التعقيم القسري لنساء ملونات. وأتذكر حالات أخرى حيث أمر القضاة بإجراء عمليات قيصرية على الرغم من رفض النساء الحوامل لأن الأطباء زعموا أن الأجنة معرضة للخطر، وحالات تعرضت فيها النساء للمحاكمة لرفضهن بعض الإجراءات الجراحية لمنع الإجهاض، أو لتناول عقاقير دون وصفة طبية

خلال الحمل، أو حتى لتناول عقار بوصفة طبية قد يشوه أسنان الجنين. وأتذكر سياسة «حماية الجنين» لدى شركات مثل شركة السياناميد الأمريكية ـ التي طالبت بأن يخضع خمس النساء للتعقيم الجراحي لكي يستطعن العمل في قسم معين، تمَّ إغلاقه بعد ذلك بقليل. وأتذكر الغضب الكبير من الأخطار المهنية في أماكن العمل في عالم حيث كانت المرأة تعمل في كل مكان وحيث يشكل كونها امرأة خطراً مهنياً طوال الحياة في حد ذاته. وأتذكر أن الإجهاض الأخرق غير القانوني كان معروفاً بأنه مسؤول عن حوالي نصف وفيات «الأمهات» المقدرة بمليون حالة سنوياً؛ وأن ٩٩٪ من تلك الوفيات كانت في العالم الثالث، حيث تعقيدات الحمل والإجهاض هي العوامل القاتلة الرئيسية لجميع النساء في العشرينات والثلاثينات من أعمارهن؛ وأن عمليات الإجهاض غير المتقنة كانت السبب الأساسي في وفاة جميع النساء البرازيليات: مقابل كل سبع نساء أنجبن، هنالك عشر أخريات أجهضن، وماتت واحدة من العشر ـ بخسارة تصل إلى أربعمائة ألف في السنة اعتباراً من عام ١٩٨٨.

آه، لو أنني عرفت بوجود طريقة لأوصل هذه إليك. إنني لا أزال أسمعك تغنين أحياناً، بعض المقاطع اللحنية الصغيرة دون كلمات، أو تتمتمين بكلمات غير مفهومة دون موسيقى. ربما أتخيلك، مع ذلك. لكنك موجودة. ربما كانت كذبة أنني أكتب هذا لمساعدتك في تخفيف شعورك بالوحدة. ربما أكتب لنفسي ـ ولكن للهدف نفسه. أقرع أحياناً بهدوء على جدارنا المشترك. وأعتقد أحياناً أنني أسمع رداً من جانبك.

* * *

لو أنك تسلمت هذا في أي وقت، لكان ثمة احتمال في أن تكرهيني. إنني أؤكد لك أن ذلك احتمال فكرت فيه. فلا أحد يحب الذين ينقلون الأخبار السيئة. على الرغم من أن الحقيقة هي أنه في هذا المكان تصعب رؤية كيف يمكن للأمور أن تصبح أكثر مدعاة للرعب (لكن تلك الفكرة يمكن أن تكون دعوة خطرة). على الأقل تصعب رؤية لماذا لا يمكن لأي أخبار عن الاتصالات البشرية من مصدر **غيرهم** أن تسبب ارتياحاً من نوع رديء. لكنني أعترف بأنني أخشى أن أخيفك. مما سيكون مضحكاً في حد ذاته، مع أخذ حالتنا بعين الاعتبار. أو أن أسبب لك الضجر. وأعتقد أن رغبتي في إثبات نفسي أو حججي لك ربما تكون الإغراء النهائي، الإغراء الذي يبقى مع أنني تخليت تماماً عن رغبتي في إثبات أي أمر لهم. ويوم أدركت ذلك، عرفت أنني أصبت بسلامة العقل، وكنت خارج نطاق العقل والمنطق. بحسب شروطهم، كما تفهمين، الشروط التي بواسطتها خسروا جميع المواقع الممتازة للملاحظة أو الحكم. فهم لم يعودوا قادرين على تمييز الجنس من الموت أو الحب من النفور، المال من الجسد، الجريمة من القانون، الحكومة من العبودية. ولا عجب، ففي سلامة عقلهم المتعلقة باشتهاء الموتى، كانوا يعتبرون أن عناق امرأتين هو انحراف: كان ذلك مفيداً جداً. وإذا المرء أصبح مشتهياً للموتى، أليس عملاً يدل على الحب أن يجعل العالم كله مقبرة؟

لذلك قمت بمحاولة أخيرة حول فئة. لكنني أصبحت مسعورة. وربما أطلقت عليه أيضاً عنوان «كل شيء».

* * *

كان هذا، كما قد تتوقعين، تصنيفاً كبيراً إلى حد ما. لم يكن لدي الوقت ـ حتى مع كل الوقت الذي لدي والذي تركوني أحصل عليه والذي هو كل ما لدي ـ كي أدون كل ما يندرج في هذه الفئة، وأنا بالتأكيد ليست لدي مواد للكتابة، فضلاً عن عدم معرفتي متى أستطيع امتلاك المزيد، إذا حصل ذلك. لكنك ستفهمين الغاية، إن لم تكن الميزة، من هذه التلميحات.

– مليون نوع حياتي، من أصل مجموع قدره خمسة ملايين (٢٠٪ من جميع الأنواع)، معرض لخطر الانقراض عام ٢٠٠٠.

– يحتمل أن تصل نسبة انقراض النبات والحيوان إلى بضع مئات يومياً خلال السنوات العشر إلى الثلاثين القادمة.

– منذ كارثة تشيرنوبيل النووية، جرت ٢٥٠ «حادثة» نووية عالمية أخرى أقل انتشاراً، كما سجلتها وكالة الطاقة الذرية الدولية. ولكن مع نهاية عام ١٩٨٦، كان قد أضيف ٢١ مفاعلاً جديداً إلى ٣٧٣ مفاعلاً تعمل فعلاً في ست وعشرين دولة.

– يتزايد المطر الحمضي. وتعاني النرويج من تسربه من إنكلترة، وكندا من تسربه من الولايات المتحدة. ويوجد حالياً ألف وأربعمائة بحيرة في شرقي كندا وثلاثة عشر نهراً يحتوي على سمك السلمون في نوفا سكوتيا «ميتة من الحمض». ويقدَّر أن المطر الحمضي يسبب ما يصل إلى خمسين ألف مولود ميت قبل أوانه سنوياً في الولايات المتحدة وكندا وحدهما.

– يتلاشى خمسة عشرون مليار طن من التربة الفوقية الصالحة

للزراعة من الأراضي الزراعية العالمية سنوياً. ومع نهاية القرن العشرين سوف يختفي ما يكفي من الغابات لتغطية أربعين ولاية مثل كاليفورنيا.

حسن، إن الأمر يستمر ويستمر بصورة مطردة على هذا المنوال. وأنت تعرفين كل هذا، بطبيعة الحال. وكنت تعرفينه سابقاً آنذاك، عندما كنت خارجاً هناك وأنت تجهلين أنك داخلاً هنا فعلاً، أليس كذلك؟ ولكن ـ وأقول هذا ليس انتقاداً لك لأنني فعلت الشيء نفسه ـ ألم تلاحظي أبداً كيف يتعاملون مع ذلك؟ بإبقائنا هادئات ومقتنعات بأننا لم نكن داخلاً هنا، أسرى، لاجئات، رهائن؟ ألم تلاحظي أبداً ماذا قد يفعلون بعد الكوارث؟ سوف يحدثون المزيد من البرامج الدراسية، ولجان المسح، ولجان التحقيق. قد يطرحون أسئلة مثل:

كيف يمكن للبشر أن يستوعبوا هذا النوع من التجربة؟

كيف يمكن للناس تكييف أنفسهم بصورة أفضل مع الضغط؟

ما هي التأثيرات النفسية للحياة تحت شروط العنف والقمع؟

والآن، دون أن أتعمد أن أبدو ثرثارة، يجب أن أخبرك بأنني قد اكتشفت ذات يوم موقعاً ممتازاً. أدركت أن التأثيرات النفسية كانت ما اعتبروه سلامة عقل. أدركت أكثر من ذلك أنني بدلاً من استيعاب نفسي وتكييفها مع تلك الحالة الذهنية سوف أتخلى عنها.

لا يمكنني الزعم بأن ذلك كان شجاعة مني. ولكن لم يكن لدي مكان آخر أذهب إليه ـ مثل المرأة التي تتعرض للضرب أو المرأة التي تحاول الهرب. فلا مكان للذهاب إلا داخل موقعنا الممتاز وخارج أفكارهم.

ولذلك أنا هنا. لكنني **أعرف** أنني هنا. إنني لا أتخيل نفسي. وذلك نوع غريب من القوة، محدد بغلاف جوزة، أحسب نفسي ملكة لفضاء لانهائي. كم هو أمر غريب - اكتشاف المرء أن نفسه هي المعارضة التي لا تزال روحها غير محطمة! لأنني مع وجودي هنا ومعرفتي ما أعرف، ليس أمامي خيار إلا أن أبتكر طريقة أخرى ما للبقاء. ومع ذلك، لا يمكنني القيام بذلك وحدي. وهو حيث تدخلين الصورة.

إذا كنت قد تخيلتك، إذاً فتلك فعلاً طريقة أخرى ما للبقاء.

وإذا لم أتخيلك، فربما تفهمين حتى أنك بحاجة إلي مثلما أنا بحاجة إليك.

سوف أحاول أن أهرب، كما ترين، وأن أتحرر من هذا المكان. لكنني لا أستطيع أن أغادر بدونك، ومعرفة أنك بالداخل هناك بدأت توحي كلياً تماماً بمكان وجودك. إنه ليس أمراً قربانياً نبيلاً، فأنا أنانية مثل التالية. قد أذهب إذا استطعت، حتى بدونك - لكنني لا أستطيع. إنني بحاجة إليك كي تبتكري طريقة أخرى للبقاء، معي. أو، إذا أحببتِ، انسيني. افعلي ذلك وحدك. ولكن انقليه.

أعرف إن ذلك أمر ساذج، لكنني أعتقد أنني أحبك، وأنت هناك تغنين لنفسك في الزنزانة المجاورة.

لا أملك طريقة لمعرفة إن كانت هذه الكلمات سوف تصلك في أي وقت. ولكن علي أن أحاول.

اقرعي ثلاث مرات إذا استلمت هذا.

الفصل العاشر

ما وراء الرعب:
سياسة إيروس

أنا الأولى والأخيرة،
أنا صاحبة الزفاف العظيم
مع أنني لم أتخذ زوجاً أبداً.
أنا الصوت الذي يتردد متنوعاً
والصمت الذي يظهر متعدداً.
أنا التي تصرخ.
لماذا أبغضتموني في نصائحكم؟
أنا المرأة التي احتقرتموها،
ومع ذلك فإنكم تفكرون بي.
أنا المرأة التي اختبأتم منها،
ومع ذلك فإنكم تظهرون لي.
كلما أخفيتم أنفسكم،
أنا نفسي سأظهر.
إنني معرفة استفساري.
إنني نطق اسمي.

الرعد، العقل المثالي، الفصل السادس ١٣، ١ ـ ٢١، ٣٢
من النصوص الروحية لناغ حمادي

انظروا إليها عن كثب.

إنها الخبيرة المؤهلة الوحيدة بشأن وجودها في الكون كله.

ثمة أمور تعرف أنها لا تعرف أنها تعرفها. ولهذا فهي بحاجة إلى عمرها كله كي تعلم نفسها خلاله ما تعرفه. ولكن ثمة أمور تعرفها الآن وتجرؤ على عدم قولها. لهذا فهي بحاجة إلى **تحطيم** الصمت.

ثمة صمت **لن** يتكلم. وعندما ينفجر هذا الصمت، فهو ينفجر بعنف من الرعب ولأجله. هذا أخيل يجلس متأملاً في خيمته. هذا أوليفر نورث يستشهد بالشعار العسكري «الصمت يعني القبول» لدعم ادعائه بأن كبار شخصيات بيته الأبيض قدموا دعماً ضمنياً لأفعاله. هذا عنف ناشط. إنها طريقة عاشق الشيطان.

ثمة صمت **ربما** لا يتكلم. والعنف يفجر هذا الصمت **داخلياً**، من الإلغاء ولأجله. وهذه هي طريقتها كي تكون عنيفة ـ ضد نفسها، «لأجل السلام». والبقاء في هذا الصمت (حتى إذا كان صمتاً مفروضاً) هو عنف تفاعلي.

عنفه يثير الخوف، الذي يثير الصمت. وصمتها يمنحها الأمل في البقاء حية. الأول يتظاهر بإلغاء مزيف (مزيف لأنها موجودة، لأنها لا تتخيل نفسها). والثاني يدعي أماناً زائفاً (لأنها سواء صامتة أم لا، فهي وكل من حولها هالكة من عنفه).

أين مصلحتها الشخصية في التطابق مع مثل هذا الاختلال العقلي؟

هل عليها محاولة تغيير عنيف للإدراك، كأنها هبطت الآن من منظومة السرطان؟ كيف يمكنها بغير ذلك فهم الجنون تماماً لتنزع التطابق

كلياً معه؟ أين المجازفة في عمل هذا إذا كانت ستموت بأي حال، لأنها مهددة، مسممة، مدفوعة ببطء نحو الانقراض؟ أليست مجازفة أكبر ألا تفعل شيئاً، أو أن تفعل شيئاً يماثل تقمصه الشيطاني؟

إنها تبدأ أخيراً بالخوف من صمتها بشكل يماثل أو يفوق العنف الذي ينزله بها إذا تكلمت. وتحطيم صمتها يظل ضمن سيطرتها، حتى ولو لم يكن عنفه كذلك. فالصمت هو أول شيء يقع تحطيمه ضمن سيطرة الواقع تحت الاستعباد. وانطلاقاً من ذلك التحطيم، يتدفق كل شيء آخر متناثراً.

ماذا يحدث إذا أصبحت **عاجزة** عن «تمييز ما هو المستحيل»؟

ستكون غير خائفة.

فالرعب هو مجرد نتيجة عرضية للخوف، صرخة خوف متقدة طلباً للمساعدة. والخوف يتوق إلى التلاشي، ومع ذلك فإننا نختلقه بصورة أسرع من أي انفعال آخر. تألق كئيب، هذا الشكل الأكثر قبحاً وبرودة بين الطاقات يعلن عن نفسه بالسلبية، بالانعدامات ـ انعدام الثقة، انعدام الضوء، انعدام الحب. والخوف يتطلب قوة تالية: فهو يسيطر على ما لا يمكن السيطرة عليه. وإذا عجز عن **ذلك**، فهو يحطم نفسه بدلاً من الاستمرار في الإحساس بذاته. وهذا هو الموت من أجل الحب. هذا هو التقمص.

في نظام عاشق الشيطان العالمي للإدراك والممارسة، يُعتبر الخوف محور القوة، ويُعرَّف الخوف بأنه متعدد بينما تُعرَّف القوة بأنها مفردة. ونحن نتحدث غالباً عن وجود «مخاوف» لدينا، ولكن نادراً ما نتحدث عن وجود «قوى». والتوجيه الديني بأن «اللّه للرجل، ولذلك فالرجل

للمرأة» هو مثال عن تمثيل متعمد ودقيق لقناة القوة (المفردة) التي ترتدي ثوب الذكر، على طول سلسلة تمتد من الأسرة عبر الدولة حتى الأسلوب المطلوب منا إدراك الكون على أساسه: قوة واحدة، نوع واحد من القوة، نمط واحد من استخدامها (التسلط) ـ وأداة واحدة لممارستها: الذكر. ومع ذلك فهذا التركيب، من الخوف بطابعه المتعدد والقوة بطابعها المفرد، هو النقيض لكل منطق عضوي. فمثل هذا المنطق يتضمن إلى حد ما أن جميع المخاوف ـ الجسدية والعاطفية والعقلية والروحية ـ ترجع فعلاً إلى مصدر واحد، المصدر الوحيد: الخوف من فقدان الوعي/ فقدان الذات/ الإلغاء (أي الموت). وسواء أكان الخوف من المرض أم من تقدم العمر، من الرفض أم من الوحدة، من الحرب أم من الزلزال، من الجنون أم من الخيانة، فالمصدر هو نفسه ـ خوف التوقف عن الوجود، توقف المعرفة بأن المرء موجود. ويتضمن المنطق العضوي أيضاً أن القوة، بعيداً عن كونها شيئاً محدداً مفرداً قابلاً للقياس، هي متعددة في الحقيقة، ذخيرة فنية، قائمة احتمالات: قوة بركان ثائر و**كذلك** قوة نبتة استوائية تتمكن من النمو عبر رصيف إسمنتي في مدينة؛ قوة رادار خفاش و**كذلك** قوة اختراع الكتابة؛ قوة تيار بحري و**كذلك** قوة الموسيقى؛ قوة مولِّد و**كذلك** قوة الإعصار الذي سبّب «إخفاق القوة». في الحقيقة، يمكن للمرء مناقشة أن الاستخدام الأكثر خبثاً للقوة هو الذي قد يقنعنا بفرديتها.

أصغوا إليها:

إن الموت، سواء أكانت مواجهته في احتضار حقيقي أم في الإدراك الداخلي لفناء المرء، ربما يكون أكثر تجربة موجودة مضادة للسياسة. فهو يدل على أننا

سنختفي من عالم المظاهر ونتخلى عن صحبة رفاقنا الرجال /كذا/ ، وهذه هي شروط جميع السياسات. وبقدر ما يتعلق الأمر بالتجربة الإنسانية، فإن الموت يدل على وحدة وعجز بالغين. ولكن عند مواجهة الموت بصورة جماعية وناشطة، فإنه يغير سيماءه؛ إذ لا شيء يبدو الآن أكثر احتمالاً في تقوية حيويتنا من دنوّه. إن شيئاً ما نكاد لا ندركه عادة، أعني، أن يكون موتنا مترافقاً مع الخلود المحتمل للمجموعة التي ننتمي إليها وكذلك، في التحليل النهائي، للنوع، ينتقل إلى مركز تجربتنا. إن الأمر كما لو أن الحياة نفسها، الحياة الخالدة للنوع، تقتات، إذا جاز التعبير، من الاحتضار الأبدي لأفرادها، «تندفع صاعدة»، تتحقق في ممارسة العنف.

تلك كلمات هاناه آرندت، تعبيرات عقل من الدرجة الأولى يجهد نفسه إلى حدود التفكير التحليلي **ضمن** سياق ذكوري (يتعرض للتحدي جزئياً فقط). يتوق المرء بألم كي يصيح بذلك العقل: **ماذا لو لم يكن ثمة شيء مثل التجربة المضادة للسياسة**؟ ماذا لو يدرك المرء أنه نتيجة كون كل شيء تفاعلي، فإن كل شيء سياسي بالمعنى الأعمق ؟ ماذا لو يوجد قوام كلي لوعي إنساني أنشئ مسبقاً ليختفي (بالقوة) من «عالم المظاهر» وليتخلى (بالقوة) عن صحبة «الرفاق الرجال»؟ هل تلك الدائرة خارج «شروط جميع السياسات» أو خارج شروط سياسة خططها أولئك «الرفاق الرجال»؟ وطبعاً كانت آرندت تعني بتعبير «الرفاق الرجال» الإنسانية عديمة الجنس ـ لكنها باستخدام المذكر كتعبير جنسي عن «الإنسان» اقتربت من المعنى الحقيقي أكثر مما كان يمكن لحدسها الخاص أن يشك. ويتوق المرء أن يسألها: إن الموت (تحت النظام البطريركي) يمكن اختبار أنه موحش عند إضفاء صفة الفردية عليه وكذلك أنه حيوي عند إضفاء صفة التعددية عليه ـ ولكن ماذا إذا كان

المرء **خارج** تلك «التعددية»؟ هل يكون الموت حينئذ أقل وحشة، أقل عجزاً؟ هل يمكن ألا يكون الموت حينئذ أداة للحيوية؟ ماذا إذا جُعل المرء خارجاً عن طريق الإقصاء؟ ماذا إذا كان المرء خارجاً أخيراً عن طريق الاختيار؟ وماذا إذا كان المفهوم السائد حتى الآن (بأن الطبيعة تتطلب الموت الفردي أو الجماعي لتغذية خلود النوع والحياة الأخرى) قد خضع في هذا القرن إلى تغيير رئيسي؟ لأن الرفاق الرجال يمكنهم الآن توجيه موت معادل **لانقراض** النوع - ولكل المحيط الحيوي الذي ندعوه بالأرض.

إن الموت شيء؛ ونهاية الولادة شيء آخر.

وأولئك الواقعون داخل شرك تفكير النظام البطريركي المغلق، بغض النظر عن مقدار تألق ذكائهم، لا يمكنهم إدراك «عالم ظهور» آخر، أو نوع مختلف من الصحبة، أو عمل جماعي بديل، أو طرق للحياة (وحتى للموت) لا تكون موحشة، أو عاجزة، أو منشطة بواسطة اقتراب عنيف من الموت. ويمكن تخيل تلك المهمة وتنشيطها فقط عن طريق أولئك الذين يحاولون الظهور في ذلك العالم الآخر، وفهم تلك الصحبة المختلفة، والتحول إلى شعب كامل، والانشغال في ذلك العمل البديل، حتى الآن.

والمصدر الوحيد للخوف لدى مثل هؤلاء الناس هو خسارة (أو سرقة) **الوعي** وهم لا يزالون أحياء، إنه الموت في الحياة الذي هو «القدر الأسوأ من الموت». وتُستخدم القوة البطريركية باتجاه تلك النهاية تماماً؛ ويتطلب هذا احتكار القوة، الذي يتطلب بدوره التعريف الأحادي للقوة بأنها هدف ساكن ومفرد من الأفضل احتكاره. والقوى المرنة المتعددة لا يمكن استخدامها لمثل هذه النهاية لأنها ليست قابلة كثيراً للسيطرة، لأنه

كلما ازداد وجود القوى، ازداد احتمال توزعها عن طريق العديد من الأدوات والقنوات، وكلما ازدادت القنوات، قلّ احتمال تدمير الوعي. وإدراك خصائص القوة/القوى هذا هو عمل سياسي.

والقوة (مثل النساء) لا توجد في عالم الظهور فقط وبصحبة رفاقنا الرجال فقط. إنها متنوعة، وقابلة للتعريف المتعدد، وناشطة.

وعلى سبيل المثال، إن الشهرة هي نوع من القوة، لكن القوة ليست بالضرورة نوعاً من الشهرة. والثروة هي نوع من القوة، لكن القوة أيضاً ليست بالضرورة نوعاً من الثروة. والشباب (والعمر) هما نوعان من القوة، لكن القوة ليست من خصائص العمر. والحكمة والحقيقة والصفاء والحب هي أنواع من القوة ـ لكن القوة ليست ملازمة بالضرورة لأي منها. وضغط القوة في تعريف أحادي أمر أساسي لاحتكارها. وكلما أصبحت أكثر «قوة» (في سياسة عاشق الشيطان المتعلقة بالتقمص)، أصبحت القوانين التي تقوم بصياغتها واتباعها أكثر صلابة وتجريداً؛ وكلما ازددت «ضعفاً» (في نظامه)، أصبحت حقائقك مرنة وأكثر تحديداً.

وماذا إذا انقلب ذلك ظهراً لباطن؟

تؤدي الحتمية المحددة إلى إدراك الأمر الفذ، إلى احترام الفروق. واحترام الفروق يعني أن المرء لا يرغب في عمل زي متعدد، في **السيطرة** (على الناس والمصادر والأمم) لمصلحة تقليد قديم ما أو كفاءة جديدة ما. ويتضمن احترام الفروق احتراماً لأنواع متنوعة من النزاهة، للتغيير، والنمو، والتقدم. ويقترب احترام الفروق من الشمولية عبر تمجيد المحدد، واحترام المحدد هو عمل ناجم عن رغبة ـ كما تتوق الطاقة إلى المادة،

كما يعبر غير المحدد عن نفسه من خلال الاستعارة ودقة الشكل. واحترام المحدد يركّب الفروق ضمن كليات جديدة عن طريق الاعتراف برغباتها المتباينة والتعبير عنها. ويتضمن احتراماً **لحركة** الحياة. ويتضمن سياسة مختلفة كلياً ـ للاحتفال، والتعاون المبدع. وقد أطلقت ماري دالي على هذه السياسة تعبير: «الولع الحياتي»: حب الحياة. نعم. وأنا أدعوه أيضاً سياسة إيروس، وليس فقط، كما عبرت عنه آرندت، لأن «ممارسة الحب هي الإظهار الأكثر روعة للحياة». وأنا أدعوه سياسة إيروس لأن طاقة هذه الرغبة، طاقة الذكاء الجنسي، هي بشكل متلازم التعبير عن الاحترام، عن الرقة الضارية، عن الاهتمام ضمن المجموعة، عن المرح والصداقة والتفاهم والثقة. وبالتعبير عن هذا التوق إلى الكمال في الحب، هذا النبذ لأجزاء الجسد المعبودة جنسياً والعلاقات المجزأة، هذا الرفض لعزل الحس الجنسي الطبيعي عن الحب العاطفي، أظهرت النساء أنهن، بتعبير ذكوري، مهملات بصورة سيئة السمعة. ماذا يحدث، إذاً، عندما يصبح تعبير النساء عن ذلك التوق «مُسيَّساً» بشكل أكثر وضوحاً؟

إن إصلاح الجانب الجنسي وفق مصطلحاتنا الخاصة، وإعادة تعريف القوة (أو القوى) وفق مصطلحاتنا الخاصة، هي أفعال ملازمة للنساء. وقد بدأنا، حتى الآن، على المستويات الفردية فحسب ـ بتحقيق نشاط جنسي «أكثر حرية» نسبياً، وحضور أكثر في أماكن العمل، وظهور الفجوة الجنسية في السياسة الانتخابية. وكانت أفعالنا بشكل جماعي متفاعلة أكثر مما هي ناشطة. والآن يتطلب ثقل الأزمة العالمية تغييراً استراتيجياً من جانبنا. فنحن نواجه احتمالات لتكتيكات مبدعة لم

يكن من الممكن تصورها من قبل. وأحد التبريرات الكلاسيكية للإرهاب (المتمرد) هو أن مثل هذا الفعل هو الملاذ الوحيد **لأقلية** مضطهَدة كي تواجه المضطهِد. وليس من الضروري أن نلتزم بهذه القواعد، بما أننا لسنا ملتزمات بتلك الأعداد. وباعتبارنا **الأغلبية** الإنسانية، وبما أن الناس يصرون بازدياد على مساعدتنا، فإن النساء يمكنهن أن يغيرن تماماً شروط تولي السلطة أو الاستيلاء عليها، والتي تتم بها مساندة العالم أو تدميره. وسوف يتطلب منا هذا نزع فتيل عاشق الشيطان، ورفض **عذاب الحب** (في حياتنا ولأجل الإنسانية)، لا مزيد من الرغبة بالغيرية، لا مزيد من القناعة بالتملق (لليمين أو اليسار)، لا مزيد من تعريف أنفسنا بأننا لسنا رجالاً أو «تحرير» أنفسنا بتقليد الرجال، لا مزيد من تحديد العاطفة على أنها عنف أو العنف على أنه حالة طبيعية. إن قوى النشاط الجنسي النسوي، في كل تعبيراتها وإعادة تعريفها (الأمومة، والعزوبة، وثنائية الجنس، والسحاق، واشتهاء الجنس الآخر) تملك إمكانية تشكيل علاقات مختلفة تماماً في القرن الحادي والعشرين. وليس من الضروري أن تكون تلك العلاقات بين الأفراد فقط ولكن يمكن أن تكون، على أساس الاستعارة والإجماع في الممارسة، بين المجموعات، والأمم، والمناطق. وفن الخطابة لن يوصلنا إلى هناك. و«نجاحه» ضمن نظامه لن يوصلنا إلى هناك. وحتى مخططات العمل لن توصلنا إلى هناك. لكن طاقة الذكاء الجنسي النسوي المحررة من عاشق الشيطان، متضافرة مع أعدادنا كأغلبية وحنكتنا التكتيكية الفطرية المتنامية، **يمكن** أن توصلنا إلى هناك. وهذا يعني نهاية الإرهاب، أسبابه وتأثيراته وتكاثره الذاتي، لأنه يعني نهاية النشاط الجنسي للإرهاب ـ الذي منح العنف قوته كي يحطمنا جميعاً.

إذا كانت النساء طوال قرون متهمات من اليمين بكونهن مخلوقات راديكالية بشكل خطير ومن اليسار بكونهن مخلوقات محافظة بشكل خطير، فذلك لأن الحقيقة البطريركية الفرعية التي تعيش النساء فيها هي سياسة ثالثة تماماً. وتلك هي الحقيقة التي تبدأ الآن بالتجلي في «عالم الظهور».

فنحن لم تكن لدينا فرصة على عجلة الثورة أبداً: فهي تدور بين الأب والابن. ونحن غير قادرات على إدارتها ولا على ركوبها، لأننا لسنا **عليها**. لكننا، على أي حال، قد **وقعنا** في شراكها. لقد كنا المحور الذي وحدها من أجل غيريتنا التي انتُهكت وأُسيء استخدامها.

لكننا رأينا أن الثورة غير كافية. و**التحول** ضروري لإنقاذ أنفسنا، والحياة الحساسة على الكوكب، والمحيط الحيوي نفسه. ويتطلب التحول إدراكنا بأن غضبنا المبرر ضخم جداً بحيث لا يحتمل أن يتمكن العنف المجرد من التوجه إليه. ويتطلب التحول أكثر من مجرد الرؤية؛ إنه يتطلب جميع أشكال الإدراك، بما فيها التذكر، والتخيل، والحدس، والهذيان، والحلم، والتقمص العاطفي. ويتطلب التحول أن **نعمل**، أن **نخطو بعيداً عن العجلة، خارج الحدود المفروضة تماماً**. ويتطلب التحول أن ندخل التاريخ بشروطنا نحن وأن نضع أنفسنا بجرأة في مركزه.

وتعلن جيردا ليرنر:

يجب أن نحدث التغيير في الوعي على مرحلتين: علينا، على الأقل لفترة ما، التركيز على المرأة. علينا، بقدر الإمكان، أن نتجاوز التفكير البطريركي.

وتصف ليرنر وعي «التركيز على المرأة» بافتراض «أنه لا يمكن

تصور أي شيء حدث في العالم على الإطلاق ولم يتضمن النساء، إلا إذا كنّ قد مُنعن من المشاركة عن طريق الإكراه والقمع». وكان يعني تجاهل «كل دليل على تهميش النساء... أن النساء لا يمكن وضعهن في الأماكن الفارغة من التفكير والأنظمة البطريركية ـ فخلال التحرك إلى المركز، يقمن بتحويل النظام». وبالنسبة للخروج من التفكير البطريركي:

أن يظهرن الارتياب بكل نظام فكري معروف: أن ينتقدن كل الفرضيات، وينظمن القيم والتعاريف...، ويطورن شجاعة ثقافية،... التحدي في التحول عن الرغبة في الأمان والموافقة على أكثر الخصائص «غير الأنثوية» كلها ـ خاصية الكبرياء الثقافية، الثقة السامية بالنفس التي تؤكد لنفسها الحق في إعادة تنظيم العالم.

هذه الجرأة، التي تمركز نفسها فعلاً في مستقبل التاريخ، يجب أن تبدأ في المركز.

انظروا إليها عن كثب.

* * *

الذات

إنها تسأل، إلى متى علينا تركهم يبحثون فيما نعرفه مسبقاً، إلى متى ندعهم يسترسلون في إعادة بحث يتوالد ذاتياً باستمرار بصفته التأجيل الأخير ضد الفعل؟

وتقرر الخروج من العجلة.

وفي تأكيد ذاتها، لا تفعل هذا بتهور أو عنف، بل بإيماءات خفيفة

تدريجية، لا يمكن إدراكها دائماً في بادئ الأمر، حتى من قبلها.

إنها تعرف أن النساء قد اكتسبن ثقافة تسمح لهن بأن يكن مسؤولات ليس عن الأطفال فقط ولكن عن الآخرين، بمن فيهم الرجال. وتعرف، أيضاً، أن الرجال مثقفون ليكونوا منغلقين على أنفسهم، بحيث إذا آذوا أو قتلوا الآخرين لن يحتاجوا إلى الإحساس بذلك على نحو حاد (إحدى خصائص مضطربي العقل أيضاً، كما تذكر). وهي ترى أنه **كي يصبح مسؤولاً عن نفسه، عليها أن تكف عن كونها كذلك.**

إنها تدخل فضاءها الروحي والنفسي، وهو ما دعاه دالي بالساعة الثالثة عشرة، ما بعد منتصف ليل النظام البطريركي.

وبما أنها توقفت عن أن تكون مسؤولة عنه، لديها الآن وقت لملاحظة تاريخها من العبودية إلى التقمص. وتبدأ في رؤية ماذا ومتى ولماذا اجتُذبت إلى ما زعم أنه قوة. ومن هذا المنظور، يبدو ذلك التاريخ وتلك القوة أكثر من كريهين، يبدوان طفوليين مثيرين للشفقة، دون مستواها فعلاً - وهي الملزمة بالبقاء دونهما دائماً. وعندما تضع نفسها في هذا المركز من إدراكها، تبدأ بالإحساس أن هذا الميدان يهتز بالقوى - قوى الدقة الثقافية والقوة العاطفية، قوى مكان تتنفس وتفكر فيه، لتلاحظ ما تشعر به، لتميز حافزاً للعمل ليس ناجماً عن اليأس ولكن عن الإثبات. وهي تستمتع بهذا.

وتلمس، وكأنما هو غشاء نفاذ ضمن بعداً آخر، روعة الكوميديا.

لقد أدمنت على الجمال المأساوي، بحيث يغريها الكذب بشأنه. لكن جرأتها المحبة للحياة تمنحها قوة قول الحق. وتتذكر أن كامو - أحد أبناء عاشق الشيطان المرتدّين تقريباً - هو من قال، «الحرية هي الحق في

ألا تكذب». وتذكّر نفسها بأن ثمة فروقاً بين الرجال. وتكتشف أن حقائقها تشكل حرية جديدة هشة ـ وأنها جزء من قواها.

وتبدأ في محبة ذاتها.

إنهم هناك لا يحبون جسدك. إنهم يحتقرونه،... أحبّي يديك! أحبّيهما. ارفعيهما عالياً وقبليهما. المسي الآخرين بهما، ربتي عليهما، مسدي وجهك بهما لأنهم لا يحبون ذلك أيضاً. عليك أن تحبّي ذلك، أنت!... هذا جسد أتحدث عنه هنا. جسد يحتاج لأن يُحب... وجميع أعضائك الداخلية... الكبد القاتمة، القاتمة ـ أحبّيها، أحبّيها، والنبضة والقلب النابض، أحبّي ذلك، أيضاً. أكثر من العينين أو القدمين. أكثر من الرئتين اللتين عليهما بعد أن تتنشقا الهواء الحر. أكثر من رحمك الذي يحمل الحياة وأعضائك الخاصة المانحة للحياة، اسمعيني الآن، أحبّي قلبك. فهذه هي المكافأة.

قد تكون ـ ويجب أن تكون ـ توني موريسون في روايتها **المحبوبة** هي كل امرأة تنادي كل امرأة.

وهكذا تبدأ تحب ذاتها، تحب جسدها، تحب عبقريتها. تبدأ في استحقاق ذاتها.

وهذا أمر سياسي.

إنه اكتشاف النشوة ليس على أنها «خارج» الذات ولكن على أنها، للمرة الأولى، داخل الذات.

تبدأ في تخيل ما تستحقه من الآخرين. تبدأ في تخيل ما يستحقه الآخرون.

والآن، من منظور النشوة هذا داخل ذاتها، تنظر حولها.

* * *

إنها تنظر إلى العالم. وتفكر، لا أعرف ما أفعله كي أغير كل هذا؛ **لكن الذين في السلطة لا يعرفون ما يفعلون، أيضاً.**

وتسمع، كأنما للمرة الأولى، كلاوسفيتس يقول، «الحرب هي استمرار للسياسة بوسائل أخرى»، وإجابة بيريت آس، «الدولة البطريركية هي دولة إما مؤهلة للحرب، أو في حالة حرب حالياً، أو تستعد للحرب».

وتفكر، كأنما للمرة الأولى، لماذا يحمل الرجال الزاحفون إلى الحرب مفاتيح الفردوس الموعود بينما تحمل النساء الفارّات من المعركة مفاتيح منزل مفقود؟

إنها خائفة من التفكير بوجود فارق متأصل.

لكنها تتساءل، كأنما للمرة الأولى، لماذا لا توجد مقالات بعنوان «**يمكن** للرجال أن يكونوا عنيفين: تاريخ خفي للقدرة الذكورية على السلطة»، ولا كتب بعنوان **لماذا تقاوم النساء الحل السلمي**.

تقرأ كلمات النساء حسنات النية اللواتي يؤكدن أن النساء مسؤولات عن العنف بقدر الرجال، اللواتي ينكرن ويعذرن ويفكرن بمنطق: «الذكور سيكون لديهم دائماً "فرط" في الهرمون الذكري (وهو فرط فقط إذا اعتبر الرجل الأنثى معياراً إنسانياً وحيداً، مما لا يبدو عادلاً تماماً)». وتلاحظ أن الرجال كانوا ينصبون أنفسهم على أنهم المعيار الإنساني الوحيد طوال آلاف السنين.

لكنها لا تزال خائفة من تصديق وجود فارق أساسي بينهم.

لذلك تسير حذرة بخطواتها التدريجية الصغيرة، كي تحاول تغيير العالم دون أن تنظر بإمعان كبير نحو ما تخشى منه.

ومثل مارغريتا تشانت باباندريو، رئيسة اتحاد النساء في اليونان، يمكنها القول، «أريد **فعلاً** مناقشة أن قيم النساء، سواء أكانت مطوقة بيولوجياً أم مقطّرة ثقافياً، هي بوضوح ضد الحرب، وضد العنف، وللمحافظة على الحياة أكثر من القيم الذكورية». لكنها ليست مطمئنة تماماً لتحديدها هذا. وتشك في وجود شيء ما أكثر.

إنها تدعم الاستراتيجيات التي تعتبر تراكمية وهامة رغم تواضعها. وتؤكد تعددية الدعوة لتحرير المرأة لأنها تحترم الفوارق بين النساء (مع أنها لا تزال تقاوم رؤية فارق بين النساء والرجال). وتحدق خلف النماذج وتقرأ ما وراء العناوين الرئيسية.

تطالب بتعليم جميع البنات كيف يدافعن عن أنفسهن في مناهج مفروضة على مستوى المدارس الابتدائية. وتعرف أن هذا الطلب متناسق مع مقاومة العنف الحقيقية، لأنه إذا لم توجد فريسة فلا يمكن أن يوجد مفترس، ولأن أشكالاً مثل الجودو والأيكادو تحول ببراعة قوة المهاجم ضد نفسه. وتحاول التفكير بطرق أخرى لتحويل قوة المعتدي ضده.

تتذكر أن ثمة أماكن في العالم حيث لا تزال النساء ممنوعات من التصويت، لذلك تستخدم حقها بالاقتراع كمحرك راديكالي محتمل. ولا تريد القول إنها لن تصوت لأي رجل وستصوت دائماً للنساء، فهي تعرف أن ثمة نساء في حريم المؤتمر التحضيري لحزب عاشق الشيطان وكذلك في حريم خلاياه وجماعاته السرية. ومع ذلك فهي تعرف أيضاً أنه عند هذه المرحلة التاريخية لا يستطيع أي رجل تمثيلها حقاً، لأن ما من رجل يمكنه فهم ما هي تجربتها. لكنها لا تزال خائفة من كونها «ضد الذكر». لذلك فهي تقول بدلاً من هذا إنها لن تصوت لأي رجل ذي

سجل عسكري. (تعرف أن هذا لن يعني أنه تفادى كونه عنيفاً جسدياً أو عاطفياً بأشكال أخرى، لكنه على الأقل مكان للبدء). ويخطر لها أنه إذا كان وجود سجل عسكري، بدلاً من كونه ملائماً كمرشح، سيجرد المرء من أهليته لاستلام وظيفة رسمية، فإن ذلك بحد ذاته سيكون كسباً كبيراً. وقد يعني أيضاً أنه بعد انتخاب وحيد، ستكون أغلبية الذين يتولون الوظائف الرسمية من النساء.

ويعجبها ذلك إلى حد ما.

لكنها قد تتفق أيضاً مع ماريلين ج. وارينغ، التي كانت تتولى وظيفة رسمية وأعلنت من الداخل، «أفترض أنه ربما يقال إن المرأة في الحكومة تغير مواقفها ـ ولكن أخلاقها؟ هنا أشك. إذا كانت النساء ناخبات هامات، وإذا كانت لدى الحكومة أغلبية صغيرة، فالسياسة قد تغيّر، ولكن بشكل نفعي، وليس بشكل أخلاقي».

وتستمع بعناية إلى جميع تلميحات الجرأة.

أعطت الثورة الصناعية دوراً رئيسياً للتاريخ. فمنه انبثقت الرأسمالية الصناعية وكذلك، في رد فعل لها، الماركسية بأشكالها المتعددة. وهاتان معاً سببتا ظهور الاضطرابات الاجتماعية الكبيرة في عصرنا. وقد اتبعت الاثنتان طرقاً مختلفة لكن روحيهما كانتا ماديتين أساساً. وكل ما يبدأ يجب أن ينتهي. وبذور النهاية موجودة منذ البداية نفسها. وما شهدناه ـ الحربين العالميتين، والدنوّ المحتمل لثالثة، أكثر تدميراً وشؤماً بكثير، والصراع من أجل السلطة هو نهاية طريق الوضع القائم للأنظمة المتنافسة. ومن هذه الفوضى يناضل وضع جديد كي يولد.

لم تكن قائلة ذلك حالمة هامشية. كانت زعيمة أمة تضم ٧٠٠

مليون شخص. كانت سياسية براغماتية إلى حد كبير ـ براغماتية فقط كما يمكن أن تكون عليه امرأة. كانت تلك رئيسة وزراء الهند الراحلة أنديرا غاندي، وكذلك رئيسة حركة دول عدم الانحياز، وهي تخاطب الجمعية العمومية للأمم المتحدة عام ١٩٨٣.

تتأمل أنديرا غاندي، التي توقفت فجأة عن تسمية النظام القديم بما كان عليه، وعن تسمية النظام الجديد بما يمكن أن يكونه. تتأمل كوري أكينو، السياسية البراغماتية الأخرى. وتعرف أن أكينو، بموقعها كرئيسة للفليبين، ومرغريتا باباندريو، بموقعها (الثانوي، الآخر) كزوجة لرئيس وزراء اليونان الذكر، قالتا علناً ما لم تقله أي امرأة أبداً في أي منصب سابقاً ـ إن الطقطقة وضرب القدمين والصياح والتحية العسكرية والتلويح بالبنادق وإطلاق المدافع في ترحيب حكومي رسمي يثير اشمئزازهما. (لا تثنيها مرغريت تاتشر. ويضجرها حقاً أن مرغريت تاتشر مفروضة عليها؛ وتعرف أن الرجال سينقضون على مثال كهذا لأنه وُجد على صورتهم وهو إلى حد كبير استثناء للقاعدة).

وتحاول حل ذلك:

حتى لو أن النساء «مشابهات» للرجال ويمكن أن يكنّ «عنيفات» مثلهم، فمن الواضح أن النساء لديهن بعض **التجاوز** الذي يوقف أو يبطئ العنف. هل هذه ازدواجية؟ إذا كان الرجال والنساء، بكونهم وحوشاً إنسانية معاً، يشتركون في غريزة «القاتل» (وهو ما لم تعد تؤمن به)، إذاً فهذا التجاوز هو قفزة إيجابية مختلفة متطورة. يجب تأكيدها. ويجب أن يتعلمها ويقلدها **الرجال**.

وتحاول حل ذلك بصورة محددة:

إذا كانت امرأة تتعرض للضرب تخشى رد الضربة، فإن ذلك لأنها تعرف، أولاً، أنه يستطيع تهديدها وقتلها انتقاماً، وأنها، ثانياً، إذا **هي** قتلت دفاعاً عن نفسها، فليس هو ولكن دولته هي التي ستهددها. والنساء يعرفن أننا لا نستطيع أن نفوز بالقوة - **وأن لا أحد في الحقيقة يستطيع ذلك** - ولذلك تسعى النساء إلى حل المشاكل بوسائل أخرى. وبعيداً عن اعتباره مفهوماً خيالياً وساذجاً، فإنه مفهوم **عملي** جداً.

ويذهلها أن النساء، هذه الكائنات الأكثر عقلانية، اللواتي يعرفن بالتجربة ما لا يمكن أن ينجح ولذلك لا يلجأن إليه، يُعتبرن بالنتيجة غير عقلانيات.

يبدو هذا لها «غير معقول».

ويدفعها زخم ذكائها أبعد خارج عجلة أفكاره، وحلقات جحيمه.

لكنها لا تزال تخشى أن تتفوق عليه (هكذا تظن).

وتتعلق بصوته كلما ردد تلميحاً جريئاً حول التعلق بالحياة.

لقد نشأت بعض القوانين العلمية الرئيسية، مثل القانون الثاني للديناميكا الحرارية، نتيجة التجربة الصناعية. وهذا القانون (مثلاً، في أي عملية تتضمن تدفق الطاقة هنالك دائماً بعض الخسارة) نجم عن جهود لارتجال عمل الآلة البخارية من أجل تقدم الصناعة. وهذا الارتباط بين الفيزياء والاقتصاد هو الذي يساعد أيضاً في توضيح الدفع الاستعماري للعلم... إن س. ف. سيشادري ***يعتبر القانون الثاني عرقياً، ولذلك فهو خارج العلم.*** *وبسبب أصوله الصناعية، فقد قدم تعريفاً للطاقة بطريقة متعمدة لدعم توزيع المصادر لمصلحة الصناعة الكبيرة، تحرم غالباً بقية السكان منها... ويشير سيشادري [إلى أن] الطبيعة والعالم غير الغربي معاً هما الخاسران في هذا التعريف الجديد... والحضارة المستندة إلى العلم الحديث تزود*

نفسها بمعيار وتبرير اعتباطيين للتحكم بعمليات تصنيع جميع المصادر... وهذا الاحتكار [للمعرفة المتمركزة] يستند إلى فرضية أن جميع الأشكال الأخرى لاكتساب المعرفة أو تجميعها، وجميع نظريات المعرفة الأخرى، هي عديم القيمة، وعتيقة، وتعتمد على السحر، ويجب تجاهلها... [بحيث] تحل التقنيات المستندة على العلم محل الأنظمة المستندة على التجربة، ولو كانت الأخيرة تحقق غاياتها بصورة أفضل، عند أخذ جميع الأمور بعين الاعتبار.

يريحها أن هذا كتبه رجل، هو كلود ألفاريس، معلقاً باستحسان على نظريات رجل آخر، هو س. ف. سيشادري. إذاً فهم يستطيعون رفض التقمص عندما يختارون ذلك! وأن يصرحوا بصورة قاطعة أن القانون الثاني للديناميكا الحرارية عرقي ولذلك فهو خارج العلم! تشعر بالتأثر. كم تعجبها راحة بالهم وألفتهم مع الجرأة التي لا تزال تجدها مرعبة في نفسها. ثم تتوقف وتفكر ثانية بمن يخلف من وراءه فحسب. تنظر إلى العالم الثالث المزق إلى اثنين بين نخبته التي تشتري الكثير من الآلات العلمية الغربية الضخمة ومعظم أفراده المسحوقين بتجاهل أنظمتهم المستندة على التجربة. إنها ترى وتسمع ما توقف ألفاريس وسيشادري فجأة عن رؤيته، وسماعه، وتسميته.

إنها ترى أين تقف النساء في تلك الصورة.

تفكر: أكره كوني مختلفة عن الرجال حين يحدد الرجال ذلك الاختلاف.

تفكر: إن كلاً من الطبيعة وعالم الأنثى خاسران في ذلك التعريف.

تفكر: إن العرقية نفسها ذكورية، **ولذلك** فهي خارج العلم.

تفكر: هل أكره كوني مختلفة عن الرجال عندما نحدد أنا والنساء

الأخريات هذا الاختلاف؟ هل أكره ذلك الاختلاف إذا لم تكن ثمة قوة منفردة تعمل لفرضه، وإنما قوانا المتعددة هي التي تعمل لاستكشافه؟ وتنشئ نظرية معرفتها الخاصة.

تدرس الأبحاث المتراكمة في العلوم العصبية حول الجنس والفوارق الجنسية: التأثير الهورموني، التمييز الصبغي، التجانب الدماغي. وتستمتع لاكتشافها أن الجسم الصلب، الذي يوصل المعلومات بين نصفي الكرتين الدماغيتين، هو أكبر وأضخم في الأدمغة النسوية مما هو في الأدمغة الذكورية، مما يتضمن «سهولة وتواتراً في الاتصال» بين الدماغ الأيمن والأيسر لدى الإناث أكثر مما لدى الذكور. ولا يدهشها العدد المتنامي للدراسات التي تربط التستوستيرون المشكّل (في الرحم)، بالإضافة إلى المنتشر بعد سن البلوغ، بالعدوان و«العنف القاتل، سواء أكان تلقائياً وخارج القانون أم منظماً ومُقراً لغايات عسكرية». وتتساءل عن اعتبار مجتمع عاقلاً بما يكفي للتعويض عن الفارق البيولوجي، إذا ثبت ذلك. وتشعر بالقلق من أن يعتبر من يتولى السلطة (المفردة) بعض المزايا ذات قيمة وبعضها الآخر عديمة القيمة. وتشعر بارتياب سليم حول نشر فكرة «نحن لا نستطيع التغيير» المتأصلة في علم الأحياء الاجتماعي المزيف، لكنها تظل مرتابة أيضاً بدوغماتيي الخيار المحدد، سواء أكانوا جبريين بيولوجيين أم جبريين اجتماعيين. وتعرف أنه مثلما يؤثر السلوك الثقافي والبنية الاجتماعية على الدماغ (الأمثلة الأكثر وضوحاً هي سوء التغذية، ورفض البروتين، والمحرمات الغذائية)، فإن الدماغ يؤثر بدوره على السلوك الثقافي والمجتمع ـ ويمكن أن يغير الاثنين. وتشعر بالقلق حول من يقوم بالبحث، ومن يموله، ومن سيفسره، ومن سيستخدمه ولأي غاية.

إنها تدرس أعمال الباحثة الفلندية الداعية لتحرير المرأة هيلكا بيتيلا والباحثة النرويجية الداعية لتحرير المرأة بيريت آس. ومعرفتها المستندة إلى التجربة تردد بموافقة أن النساء والرجال يوجدون حالياً في حضارتين؛ وأن النساء يفهمن الاتصال بشكل مختلف (بلغة الجسد أكثر، وبذكاء ووضوح لغوي أكثر، ربما بسبب التفاعل مع الحياة العملية للأسرة والأطفال)؛ وأن النساء ينظرن إلى الأدوات والتكنولوجيا بشكل مختلف (مع توجيه أكثر للمستخدم، واهتمام بما يمكن للآلة أن **تفعله** أكثر مما **هي** أو ما تمثله)؛ وأن النساء ينظمن بشكل مختلف (بشكل طوعي أكثر، وإجماع أكثر)؛ ويستخدمن الوقت بشكل مختلف (بدقة أقل من الرجال، لأنهن اعتدن أكثر على تأدية مهام متعددة في آن واحد). وتدرس استنتاجات الداعية السويدية لتحرير المرأة ريتا ليليجستروم ـ أن وقت النساء عضوي ويتعلق بالفترة التي يستغرقنها للقيام بشيء ما (أو عدة أشياء)، بالمقارنة مع وقت الرجال، الأحادي البعد؛ وأن وقت النساء هو وقت «غير مرتب»، ووقت «غير منسق»، ووقت «غير واضح»، أي أنه مكيف للحاجات والسياق المحيط به. ولا تستطيع أي من هؤلاء الباحثات الداعيات لتحرير المرأة حتى الآن «إثبات» أن هذه الفوارق هي بيولوجية، أو وراثية، أو ثقافية اجتماعية. لكنهن جميعاً يعترفن بوجود الفارق ـ ويعترفن بذلك نتيجة وعي نسوي **يقوم بتحديد ذلك الفارق**، للمرة الأولى.

ويخطر ببالها ذات يوم قلب عبارة قياسية، أن تقول بدلاً منها: «الرجال يشبهون النساء فعلاً». هذا سخيف. أو: «الرجال مختلفون عن النساء فعلاً». هذا واضح.

وفجأة، تفهم أنه رغم إنكاره، فالاختلاف بالنسبة له يعني دائماً أنها دونه.

وفجأة، يقل إحساسها بالخوف.

تتذكر إجابة نينا سيمون، عند سؤالها عن تعريف الحرية: «**إنها عدم الخوف**».

تتذكر رد فرجينيا وولف الذكي على طلب ذكر «مسالم» للمساعدة: «يمكننا مساعدتك أفضل لمنع الحرب ليس بتكرار كلماتك واتباع طرقك بل باكتشاف كلمات جديدة وخلق طرق جديدة،... ليس بالانضمام إلى مجتمعك بل بالبقاء خارج مجتمعك».

خارج صحبة الرفاق الرجال.

تبدأ في تخيل نفسها قفزة تطورية قادمة. ثم تبتسم لنفسها - ولكن في تزامنها المكتشف حديثاً للوقت وتعدد القوى، تبتسم بجدية كاملة.

تقوم بخطوة أخرى. إنها أقل خوفاً بكثير الآن، لأن الابتعاد أكثر خارج عجلة ثورته لا علاقة له بالموضوع إذا كان المرء في مركز نوع لا يضاهى كلياً من الحلقات. فهو سيتحرك معها، وحولها، ويحيط بها ويحميها.

يمكنها توسيع فهمها للفوارق بين النساء، فهمها للفوارق بين الرجال، إلى فهمها الخاص للفارق بين الجنسين. إنه أمر سهل الآن، مع أنه يتضمن مسؤولية عميقة.

ومن هذا الموقع تكتشف أنها تستطيع الرؤية أبعد وأوضح من أي وقت سابق.

* * *

تدرك أن **الخروج والسقوط** خارجاً متباينان جداً. «فالسقوط خارجاً» ليس اختياراً حقيقياً، لعدة أسباب. أولاً، إن أكثر نساء الكوكب لا يمكنهن حتى اعتباره مطلقاً نوعاً من الاختيار؛ ثانياً، ليس الشخصي سياسياً فقط، أما السياسي فهو شخصي أيضاً؛ ثالثاً، إن السقوط خارجاً سيكون، حسن، كسلاً (ولأنها امرأة، فهي أي شيء إلا كسولة). وتشك أنه ثمة أسباب أكثر بعد لاكتشاف عدم الاختيار الكريه هذا، لكنها تكتشف أنه من الممل حتى تعدادها أكثر من ذلك. إنها تريد القيام بشيء ما.

إنها تراقب وتتعلم وتحاول تبني استراتيجيات عضوية لنساء أخريات لا يمكن التنبؤ بها.

- في تشرين الثاني ١٩٨٧، زحفت مئات النساء القبرصيات اليونانيات وهن يحملن رايات بيضاء عبر الخط الذي يقسم بلادهن. واستدعى الحرس التركي خمسين رفيقاً للتعزيز. ووصلوا بمدافع البازوكا. وقالت النساء، «لقد جئنا بسلام. وسوف نغادر الآن. ولكن عندما يكون توقعكم لنا أقل، سوف نعود».

إنها تجد أن هذا منطقي بصورة تستحق الثناء.

- في كوساني، في الهيمالايا الهندية، نظمت نساء قرى الجبل لحفظ البيئة ولجعل أنفسهن مكتفيات ذاتياً؛ وهن يعتبرن هاتين القضيتين قضية واحدة، لأن المرأة المتوسطة في هذه المنطقة البالغة الفقر (حيث يوجد طبيب نسائي واحد لكل ۳۰۰۰۰۰ امرأة) تمضي أكثر من أربع ساعات يومياً وهي تجمع الحطب وتحضر الماء. وقد بدأت النساء

بالتعبئة عام ١٩٧٤، عندما بدأت أربع وعشرون منهن بمعانقة الأشجار لحمايتها من القطع التجاري؛ وكان هذا أصل حركة chipko (تعني كلمة chipko «يعانق»). وقد ثارت النساء ضد إزالة الأشجار، والتعدين، وبيع المشروبات الكحولية في التلال، التي يقلن إنها تحرض على الضرب. واعتُبرت تكتيكاتهن سحرية ومجنونة، لكنهن ثابرن ونجحن. وتتضمن إحدى الحكايات المشهورة الآن مسعى الحكومة لدعم قاطعي الأشجار بإرسال الجنود لإطلاق النار على أي امرأة تعانق الأشجار. وتشبثت النساء بالأشجار، وخجل الجنود من إطلاق النار. لذلك أرسلت الحكومة وقاطعو الأشجار الفيلة كي تدوس النساء اللواتي كنّ يحطن الأشجار بأجسادهن. وتقدمت الحيوانات الضخمة عندما أُمرت بذلك. وتركت النساء الأشجار واقتربن من الفيلة، وهن ينشدن أغنية تقليدية تنشدها النساء الهنديات في المهرجان السنوي للإله الفيل، حين يزيّن فيلة الهيكل بأكاليل الزهور. لكن هذه لم تكن فيلة الهيكل، بل كانت فيلة الجيش. ومع ذلك، فقد اقتربت النساء، وهن يغنين، ثم اندفعن نحو الحيوانات، ورحن يربتن عليها، ويعانقن خراطيمها وقوائمها الضخمة. هل كان هذا تكتيكاً أم صلاة؟ هل كانت النساء يؤمنّ بإله فيل؟ هل اعتقدن أنهن يؤدين طقساً دينياً ويمكن أن يستحضر معجزة؟ أم أنهن تمنين بصورة براغماتية أن عملهن قد يُخجل قادة الفيلة مثلما أخجل الجنود؟ أم هل تصرفن على هذا الشكل لمجرد أن التراجع كان غير وارد ولم يرين أي خيار آخر؟ لا أحد يعرف، والنساء لم يقلن.

لكن الفيلة توقفت. الفيلة ركعت. الفيلة لن تتزحزح. وانسحب الجنود وقاطعو الأشجار، وهم يعترفون بالهزيمة أمام مجموعة من النساء

كن يعانقن الأشجار. وتوضح ذلك بينا كالا، منسقة ثمانية عشر منتدى نسوي محلي في المنطقة، «حين توقظ الإلهات الهندوسيات يُعرف أنهن يكنّ أقوى وأكثر رهبة من نظرائهن الذكور. لقد أصبحت النساء هنا مدركات لمقدرتهن. وسوف يستخدمنها كلما تطلبت الضرورة».

في النظرية المتنامية لمعرفتها، تعتبر chipko مثالاً عن سياسة إيروس.

آنا ماركونديس فاريا هي إحدى أربعين امرأة رئيسة للفافيلا، أي قائدة منتخبة لمجموعات الأحياء الفقيرة في البرازيل. وتقود إحدى هؤلاء النساء أكبر مجموعة منها (أكثر من ٢٠٠٠٠٠ شخص) في البلاد. وتنشئ هؤلاء النساء حركتهن في الفافيلا - ٧٥٥ منها في ريو دي جانيرو وحدها - خارج جميع الأحزاب السياسية. وتقول آنا ماركونديس فاريا، «إن النساء يقمن بكل العمل هنا طبعاً. ولا شيء يتغير هنا أبداً بالطبع ما لم تغيره النساء».

إنها تعتبر هذا تكبراً ثقافياً، يتمركز حول النساء، مناسباً تماماً.

- في عام ١٩٨٧، كانت حركة السلام النسوية في إيرلندة الشمالية، المؤلفة من النساء البروتستنتيات والكاثوليكيات معاً، مزدهرة. وقد تُوِّجت في منتصف السبعينيات بمسيرات جماعية ومنح جائزة نوبل للسلام إلى مؤسستيها، بيتي وليمز وميريد كوريغان، ثم تعرضت للفوضى تحت وطأة التهديدات والتهكمات والاتهامات والاعتداءات من قبل الفئتين المتحاربتين. ومع ذلك فقد كانت تنبعث من جديد. وفي عام ١٩٨٨، كردّ فعل لوحشية الحرب الأهلية العرقية بين التاميل والسنهاليين في سريلانكا، قامت مجموعة نساء من خلفيات

عرقية واقتصادية واجتماعية وسياسية مختلفة في تلك البلاد بتشكيل حركة النساء للسلام. وبدأن حملة توقيع ضخمة مؤيدة للسلام، ونظمن هجوماً خاطفاً بالملصقات وحملة تثقيف عامة، وشكلن «جبهة أمهات» للاحتجاج على توقيف الأطفال واختفائهم، وأسسن بنى لمساعدة اللاجئين، واعترضن على مضايقة كل من الحكومة والقوات العسكرية المتمردة للنساء.

إنها تحترم مثل هذا الرفض العنيد للمأساة بصفتها صنيع فضل كوميدي.

- تطلق المجموعة الإسرائيلية التي بدأت عام ١٩٨٢ باسم النساء ضد غزو لبنان على نفسها الآن اسم النساء ضد الاحتلال. وهي تتظاهر باستمرار، وتحمل لافتات كُتب عليها **نحن لن نكون ذرائع للقتل**. وتتخذ المجموعة جميع قراراتها بالإجماع ولا تستثني أي نساء، بمن فيهن النساء الصهيونيات الملتزمات: «في الحقيقة، إن المواقف الوحيدة التي على المرأة الموافقة عليها عند انضمامها هي تحرير النساء (بتعريفه الواسع)، وخروج إسرائيل من لبنان والمناطق المحتلة، وحرية تقرير المصير للفلسطينيين. ونحن نعتبر هذا أوسع قاعدة سياسية ممكنة تستطيع النساء التنظيم فيها في دعوتهن لتحرير المرأة هنا، لأننا نعتبر حالة الحرب بين إسرائيل وجيراننا العرب وتضييق حقوق الفلسطينيين هي القضية الرئيسة التي تمنع تحرير النساء... [في مظاهراتنا] نؤكد على كشف الصلة بين التسلط العسكري واستعباد النساء. ويتبنى شعار المجموعة ـ ويحمل خطوة أبعد في المعنى ـ القول العسكري "الصمت يعني القبول"».

إنها تحب هؤلاء النساء. تحبهن كما تحب نفسها. وتردد قول فرجينيا وولف: «... كامرأة، لا بلاد لي. كامرأة لا أريد أي بلاد. كامرأة بلادي هي العالم كله».

ولكن، تردد بقلق لنفسها، أي تأثير لهؤلاء النساء حقاً؟ إنهن لا يملكن **خطة**، ولا يعرفن تماماً ماذا **يفعلن**. ثم تفكر، أي تأثير لهؤلاء **الرجال** حقاً؟ وهم يدّعون أنهم يملكون خطة، وأنهم **يعرفون** تماماً ماذا يفعلون.

تدرك فجأة أن الظلم ينظم نفسه دائماً بالنمط الرتيب ذاته. الظلم قابل للتنبؤ به.

وتومض الفكرة، نحن ما لا يمكن التنبؤ به. مثل الحرية. وما علينا أن نكونه بجرأة هو أن نصبح أكثر بعداً عن إمكانية التنبؤ بنا.

وتدرك: إذاً فالأمر ليس مجرد غياب الحرب لكنه حضور السلام، ليس مجرد غياب المأساة لكنه حضور الكوميديا، ليس مجرد غياب الكراهية لكنه حضور الحب، ليس مجرد غياب الجهل لكنه حضور الذكاء، ليس مجرد غياب الموت لكنه حضور الحياة. إنه ليس مجرد غياب الخوف، لكنه حضور الثقة.

تدرك أنها لا تخلف أحداً وراءها، فالأمر لا يتعلق بغياب الرجال بل بحضور النساء.

وهنا، في مركزيتها، ترى لدهشتها أنه ينجذب ببطء وبشكل أخرق إلى **ذلك**، إلى سحرها **هي**، طرقها، خيالاتها، رغباتها. إنه يتعثر، ويترنح، ويظل يسحب الآخرين معه وهو يسقط. لكن جانباً منه يبدأ، كما فعلت، بخطوات متزايدة صغيرة - يهتم فعلاً بطفل، يحاول دراسة

السلام، ينتقل إلى حيث يتطلب عملها، ليس مجرد «مساعدتها بالعمل المنزلي»، يصوت لها، يستمع إليها، يحاول التحدث عن هذه السياسة مع رجال آخرين، يحاول القيام بارتباطات. ومن السخرية أنها لأول مرة في ذاكرتها المتراكمة لم تفعل شيئاً لجذبه؛ فهذا تأثير جانبي؛ إنها القضية، هي وتلك النساء. هذه إنسانية جديدة، تشعر فيها لأول مرة بأنها إنسان كامل. إن ما جذبه هو قدرتها، القدرة المربعة (أو الدائرية؟) على تصعيد الحدة وهي تتصل بالنساء الأخريات. وهذه التجمعات النسوية، التي تبدو بلا قيادة، تمرر في الحقيقة أنواعاً مختلفة من القيادة فيما بينها، وتغير قواها كما تتطلب الحالة. إنهن يتكلمن لغات لا تحصى لكنهن يتحادثن بلغة الأنثى. إنهن يتبادلن النظرات التي توصل المعرفة الحميمة. إنهن يساعدن بعضهن بعضاً في الحزن، ويعلمن بعضهن بعضاً كيف يضحكن، وينبهن بعضهن بعضاً كي يعشن، ويثرن بعضهن بعضاً للعمل. إنهن يميزن بعضهن بعضاً. ويدركن أن كل واحدة أخرى منهن موجودة.

ليست هنالك نماذج لهذا. إنه لم يخطط لأي أرض وراء ثورات عجلته المرهقة.

مع ذلك فهذه الأرض حقيقية. إنها تختبرها بكل أحاسيسها، بنهم، وبسرعة، كأنها تلد نفسها بشكل حياة جديدة، كأنها موضع ترحيب على الكوكب من الكوكب نفسه.

ليست هنالك نماذج لهذا؟

* * *

المجتمع الحيوي

مثل ظبية صغيرة في الغابة، ترفع رأسها وتصغي:

- إن دوران عشرة آلاف زرزور بتشكيل فوق حقل قمح ـ أو وميض مليون سمكة صغيرة، يهددها مفترس، وهي تتجمع على الفور بترتيب واحد ـ قد يظهر كأنه حركات راقصة. لكنه ليس كذلك. ويبدو أن «مرونة الذكاء الظاهري» التي تتجاوز إلى حد كبير القدرة المرئية للأفراد هي المسؤولة. وقد افترض العلماء، حتى الآن، أن النظام المعقد للتجمع في أسراب أسراب لا بد أن يتخذ مستوى عالياً من التنسيق والتسلسل الهرمي في القيادة. وهم يعترفون الآن بأن الحالة ليست كذلك ـ مع أنه لا يزال عليهم أن يكتشفوا كيف تتم هذه الحركات. ويعلنون أنه لن يظهر «جواب تقليدي» بالضرورة، لكن هذه النظريات مثل «الاتصال اللاسلكي البيولوجي»، و«تشوش الحقل المغناطيسي»، و«الإحساس بالاتصال البعيد»، و«انتقال التفكير» جرى اقتراحها. وما يحير العلماء هو أن «لا أحد هو القائد، أو بمعنى آخر، كل فرد هو كذلك... ليس هناك أي نموذج تصوري... بل ثمة خصائص طارئة لا علاقة لها بالقواعد الأصلية».

ومع أن العلماء قادرون على ملاحظة «تكتيكات» تربية السمك في أحواض المختبر، فإنهم يرتبكون حين يصل الأمر إلى التجمع: «لم يكتشف أحد كيف يمكنه جمع ١٠٠٠٠ زرزور في قفص كبير وجعلها تقوم بأي شيء». ويبدو العلماء غير قادرين على فهم أن الحركة الظاهرية المرنة لا يقررها «ذهن مركزي، ذهن السرب» ولا يجري تخطيطها مسبقاً وقيادتها رسمياً. («ولكن حتى قادة الطائرات النفاثة

ضمن التشكيل لا يستطيعون عمل ذلك بهذه الطريقة!») وتبدو أي طريقة ثالثة أكثر رعباً من أن يفهموها.

- في عام ١٩٥٢، قام علماء يجرون تجربة حول سلوك الحيوان على جزيرة كوشيما اليابانية بتقديم بطاطا حلوة مغطاة بالرمل إلى القرود البرية. واكتشفت قردة أنثى عمرها ثمانية عشر شهراً، اتفق أن كان لقبها إيمو، أن البطاطا يصبح طعمها أفضل إذا قامت بغسلها أولاً في مجرى ماء قريب. وعلمت زملاءها في اللعب هذه الحيلة، كما علمتها أيضاً لأمها. وسرعان ما قام زملاؤها في اللعب بتعليمها لأمهاتهم. ومن عام ١٩٥٢ إلى عام ١٩٥٨ كانت جميع القرود الصغيرة قد تعلمت غسل بطاطتها ـ لكن البالغين الوحيدين الذين قاموا بذلك كانوا أولئك الراغبين في التعلم من أولادهم. وكان نحو مائة قرد يقومون بغسل بطاطتهم على جزيرة كوشيما عندما «قفزت» المهارة الجديدة، في خريف عام ١٩٥٨، بشكل عفوي إلى مستعمرات القرود على البر الرئيسي؛ وبدأت القرود في تاكاسياما، وعلى بعض الجزر الأخرى أيضاً، بغسل الأوساخ والرمال عن بطاطتهم الحلوة. ولا يزال العلماء لا يفهمون كيف أمكن حدوث مثل هذه «القفزة»، لكن بعضهم افترض أن الوثبة في الوعي، حين تتضافر مع قدر كاف من الذكاء، تسبب وثبة محتملة في اتصال ذلك الوعي عن طريق «حقل التفكير» المشابه لحقل الطاقة. وقد عُرفت هذه التجربة والنظرية اللاحقة لها باسم «ظاهرة المائة قرد».

- إن تأثير التسخين الكارثي لجو الكوكب، الناجم عن المواد الكيميائية المصنعة والإساءة للبيئة، يثير رد فعل ـ محاولة عضوية لإيجاد علاج. ويحتمل أن الكرة تنظم درجة حرارتها بواسطة «منظم

حرارة كوكبي»، وهو حلقة مرتدة معقدة تتضمن غازات الجو، وتشكل الغيوم، والكائنات الصغيرة الطافية في المحيطات. و«الممثلون الرئيسيون هم الكائنات الصغيرة الطافية ـ الطحالب العائمة بأعداد ضخمة قرب سطح المحيط... [وهي] تطلق غازاً كبريتياً، هو ثاني كبريتيد الميثيل. وعندما يصل إلى الجو، يتفاعل مع الأوكسجين مشكّلاً ذرات غازية عالقة في الهواء. وهذه الذرات... تقوم بدور نويّات لقطرات الغيم، التي تعكس بعدئذ إشعاع الشمس إلى الفضاء». ويمكن أن تزيد السخونة نمو الكائنات الصغيرة، لكن إطلاق الطحالب يخلق بدوره مناخ التغييم المتزايد، حين تتكاثف الرطوبة حول الذرات. والنتيجة هي تأثير تبريد طبيعي.

* استقرت أحدث فرضية علمية حول كيفية عمل الكون ـ نظرية الهيولى ـ على ملاحظة توحي باكتشاف عظيم: إن نظاماً مطلقاً لا يمكن إدراكه يعمل تحت فوضى ظاهرية. ويبحث خبراء الهيولى الجدد، أو «علماء الهيولى»، في أنماط السلوك ـ سواء في أقواس كرات الروليت، أو تواتر العصور الجليدية، أو اضطراب تدفق الماء ـ ويكتشفون أن الأنماط في الحقيقة هي النظام داخل الفوضى. والقلب البشري نفسه لا ينبض مثل المترونوم، ولكن بإيقاعات فوضوية مصقولة. وأكثر من ذلك، إن كل حركة ضمن حقل «الهيولى» تؤثر على كل حركة أخرى. وكما عبر عن ذلك عالم الأرصاد الجوية إدوارد لورنز من المعهد التقني في ماساتشوستس، «إذا رفرفت فراشة بجناحيها في البرازيل، فقد تسبب إعصاراً في تكساس. ومع أن الأمر يبدو بعيد الاحتمال، فالتيارات الجوية البالغة الصغر الناجمة عن الفراشة تنطلق عبر آلاف الأميال، دافعة

نسائم أخرى في طريقها مما يسبب في النهاية تغييراً في حالة الجو».

إنها ترفض تصنع العاطفة أو إضفاء الصفة البشرية على الزرازير، والسمك، والكائنات الصغيرة الطافية، أو أنماط تحدي النمط، مثلما ترفض تصنع العاطفة أو إضفاء الصفة العرقية على نساء من حضارات أخرى. لكنها لا تستطيع الامتناع عن الإحساس بتفجر العاطفة نحو هؤلاء جميعاً - على سبيل المثال، نحو هذه الملايين من الطحالب البالغة الصغر التي تنطلق بشكل عفوي، «بشكل سحري»، وبأسلوب جاد نحو عملها في تبريد الجو. إنها تفهم هذا - كل كائن صغير يطفو بمفرده إلى السطح باعتباره مركز نفسه، وقائد نفسه، وهو يعرف بالضبط «ما يجب عمله» دون أن يحدد له الاتجاهات لينين واللجنة المركزية لحزب طليعي؛ وكل كيان بالغ الصغر يندفع غير هياب بشكل ما لأداء المهمة الهائلة التي تواجهه، وكل طحلب هزلي صغير يطلق في الفضاء إشارته الوجودية المحبة للحياة ذات الطابع العملي البسيط، مساهمته في المهمة المشتركة للمحافظة على الأرض.

إنها تبتهج بالنمط البعيد عن النمطية، النظام المرح المخالف للنظام، الفوضى غير الفوضوية. وهي لم تعد تصبر على قصر نظر المفاهيم المركزة على عضو الذكورة، المركزة على العرقية، المركزة على الرجل، أو حتى على المرأة. إنها أنثى، إنها إنسان - وهي حيوان، أيضاً.

وتبتسم لنفسها، إذاً فهل أصبحت مدجنة إلى درجة أنني لم أعد أعرف الجموح في نفسي؟ إذاً فسوف أهمهم وأدمدم غيظي، وسوف أنفعل وأصرخ وأزمجر، بصوت عالٍ. سأكون غير مستعدة لاحتيالهم وسأشعر بالمرارة من ألسنتهم المتغضنة. وسأتحرك سوية مع كل النساء

اللواتي تخلين عن «صحبة رفاقنا الرجال»، ومع جميع أشكال الحياة التي كانت ـ مثلي ومثل أولئك النساء ـ محجوبة دائماً في «عالم الظهور».

إنها تدرك القوى التي تستطيع اعتناقها بالتعاون مع مخلوقات برية مثلها، غير القابلة للتدجين في النهاية. ومع ذلك فهي لا تقلق نفسها بها أو تقرر التفكير بأن «المرأة هي الطبيعة» ـ لأنها تحترم المحدد ويمكنها تمجيد الفوارق. لكنها تستطيع الآن التفاخر برغبتها في الحياة في مكان متخيل حديثاً وأسلوب متصور حديثاً، مقبول من تكتيكاتها **هي**. فلماذا عليها الانحدار إلى مستوى استطاع كارلوس فهمه؟ إن عاشق الشيطان دونها مثلما هي خلفه، في عاطفتها المتقدة نحو الكوكب الأزرق الصغير وكل من يعيش فوقه. وليس هناك أي غموض مزيف في نشوتها: فكما أن غضبها ليس رخيصاً إلى درجة أن يُشترى بالعنف، فإن فضيلتها ليست رخيصة إلى درجة أن تباع من قبل المرشدين الروحيين. إنها لا تتوق إلى حياة ماضية أو خلود مستقبلي. فهذه الحياة وعيشها، بكل هشاشتها، وجمالها الزائل، هي ما تطلبه، وما تحتاج إليه، وتجله، وكأنها وصلت لتوها إليها، وكأنها كانت موضع ترحيب في الكون من الكون نفسه.

* * *

مجتمع القدرة

– «الحرية المقاربة» هو التعبير الذي يستخدمه الفيزيائيون لوصف علاقة الذرات مع بعضها بعضاً. «كلما اقتربت الذرات من بعضها بعضاً، أصبحت "تشعر" بحرية أكثر» ـ وتعمل. وثمة مظهر آخر لهذه

العلاقة أطلق عليه بصورة مغلوطة (عبر مفهوم الاختيار المحدد) اسم «العبودية تحت الحمراء»، لأن الذرات عند مسافة معينة تبدو متأثرة أكثر ببعضها بعضاً وأقل قدرة على الانفصال بشكل مستقل. وتتجاهل هذه التسمية المغلوطة توازن المعجزة: المعجزة بأن كلاً منها لا يزال يستطيع الإحساس والعمل بحرية عند اقترابه كثيراً من الآخر، والمعجزة بأن كلاً منها لا يزال يستطيع أن «يسمع» ويؤثر على الآخر مهما كان بعيداً، وهذه ليست عبودية على الإطلاق.

إنها تسمع ـ وهي متأثرة.

- السوليتونات حزم متماسكة أو نبضات من الطاقة تحتفظ بشكلها عبر مسافات هائلة. وهذه الأمواج الفريدة غير القابلة للإتلاف تحير الفيزيائيين النظريين الذين يحاولون تفسير فرط توصيل الحرارة. فالأمواج العادية تميل إلى الانتشار والتلاشي وهي تنطلق عبر مادة ما، أما السوليتونات، كما يقول الفيزيائيون، فهي «تربك» لأنها تتفاعل بطريقة خاصة، وتتصادم وتخترق بعضها بعضاً دون أن تتخرب مطلقاً. والفيزيائيون مشوشون تماماً: «يدخلنا هذا في ميدان تصوري جديد... إنك تفكر عادة بالانطلاق مع ذرات مجردة في فراغ ووضعها في وسط ما. والسوليتونات شكل جديد للوسط نفسه. إنها تركيز ذاتي، وهي لا تتبدد فحسب». ويقول العلماء إن السوليتونات تتدفق «بفعالية سحرية» تامة عبر ترتيب بلوري للجزيئات، وهي أقرب شيء في الطبيعة للحركة الدائمة: إن تياراً كهربائياً في حلقة من مادة عالية التوصيل سيتدفق إلى الأبد. ويشكو الفيزيائيون، «إنها تبدو من الخارج مشوشة تماماً، لكنها في الحقيقة منظمة كلياً». إنهم لا يستطيعون أن يفهموا

كيف فحسب. إنهم يعرفون أنه «حين تكون التأثيرات مستقيمة على الموجة، كما هي بالنسبة للضوء المنطلق عبر فراغ، فالسوليتونات لا يمكن أن تحدث». (الأمر يشبه تماماً حين تكون السياسة على كوكب مستقيمة، كما هي بالنسبة للذكاء المنطلق عبر فراغ الإدراك، فالتحول لا يمكن أن يحدث). ويعترف الفيزيائيون بأنهم يبدون عاجزين عن كسب السيطرة على آليات التوصيل الفائق.

إنها تجد نفسها مبهورة باكتشاف شكلها غير القابل للإتلاف. وتعرف كيف تحتشد مع نساء أخريات ـ وكيف تنفصل مع استمرار ارتباطها، كيف تنضم مع المحافظة على سلامتها. ونموذج ما هي عليه وما يمكن أن تفعله موجود في كل مكان حولها، طاقة واحدة، تظهر نفسها بأشكال متعددة، جنسية، كلية الوجود: النموذج هو ذاتها وحالاتها. وتبدأ بالضحك، بحرية، بصورة يتعذر كبتها، بشكل لا يمكن التحكم به. وهي لا تزال جاهلة «ما يجب عمله»، لكنها في طريقها لعمله، وهي لا تملك وقتاً تضيعه على الذين يؤكدون أنهم يعرفون بينما هم ليسوا كذلك.

انظروا إليها عن كثب.

إنها تعبر شارعاً في المدينة أو تسير في طريق قذر ـ لكنها تحسن التصرف الآن. إنها مدبرة المنزل التي «لم تفكر أبداً بالسياسة» التي تنظم فجأة سكان بلدتها كلهم ليحاربوا النفايات السامة الداخلة في ساحاتهم الخلفية؛ إنها المزارع الكيني الذي يزرع الأشجار ليوجد حزاماً أخضر؛ إنها المرأة التي تعلم ابنتها الدفاع عن نفسها، المرأة التي تنتزع بلطف يد ابنها عن عقب بندقية؛ إنها المرأة الساكنة في ذراعي امرأة

أخرى؛ إنها المرأة التي تقول لا لما هو موجود ونعم لما تعرف أنه يمكن أن يكون.

لقد ظهرت من اتجاه غير متوقع، مضحك قليلاً، مغاير للمعقول، كبديل للحَكَم الحاسم حتى الآن في القضايا العالمية ـ العنف. **ماذا** تكون، إنها تشارك، مثل قواها، في كون كلي من الذكاء، والسحر، والعظمة، كون طبيعي يتطور نحو البهجة العملية. من هي، إنها ذاتها بصورة جميلة: امرأة تصحو للمرة الأولى في حقيقة رغبتها، وكأنما في فجر ذي صيف أكثر اخضراراً مما عرفت في حياتها، الهواء نقي، الماء صاف، الأرض خصبة، المخلوقات والبشر في سلام مع بعضهم بعضاً ـ وهي غير خائفة.

المحتويات

تقديم	5
المقدمة	9
الفصل الأول	15
سياسة الإنسان العادي: إضفاء الطابع الديمقراطي على العنف	15
الفصل الثاني	53
البطل المميت: أقدم مهنة	53
الفصل الثالث	99
الموت في سبيل الحب: الدين والفلسفة وعلم الجمال	99
الفصل الرابع	153
الرعب الرسمي: دولة الرجل	153
الفصل الخامس	197
شهوة الحرب: الارتفاع الثوري	197
الفصل السادس	231
الإرهابي الرمز: امرأة عاشق الشيطان	231

الفصل السابع 283

الحنين إلى الكارثة: رحلة شخصية 283

الفصل الثامن 321

«ماذا يعرف الرجال عن الحياة»: الشرق الأوسط 321

الفصل التاسع 383

تطبيع الرعب: مذكرة متداولة بين الرهائن 383

الفصل العاشر 429

ما وراء الرعب: سياسة إيروس 429

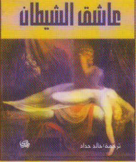

«.. نظرة مروعة، لكنها توكيدية في نهاية المطاف، على الروابط الثقافية الواصلة بين الجمال والموت، بين الرعب والرغبة الجنسية... تبني مورغان قضية مقنعة ... أما الاهتمام الأساسي فينصب على مقابلاتها الشخصية مع النساء الفلسطينيات في الضفة الغربية وقطاع غزة... كتاب سوف تلقي عليه النساء (والرجال) نظرة في خضم الخطر المحدق من كل صوب »

كيركوس ريفيو

«.. يستحضر منظوراً مجفلاً للإرهاب، الذي تراه ناشئاً عن توكيد المجتمعات البطركية على السلطة، والسيطرة والهيمنة، والعنف».

بوبليشر ويكلي

«البحث النسوي الأول حول الإرهاب... لا يقدم مجرد دراسة تحليلية قاطعة بل مادة جديدة تفحم: لأول مرة تكتب مورغان عن تاريخها كمحاربة نضالية تمثل اليسار الجديد. كتاب نقدي رائع»

ليبراري جورنال

«خلال العقدين الماضيين، استمرت روبن مورغان في التفوق على ذاتها، كمبدعة وجدانية ومفحمة ومحفزة لنظرية نسوية. لكن عاشق الشيطان يمثل قفزة نوعية أخرى في عملها. هذا الكتاب حافل بالمعلومات والمعارف المثيرة».

ماري دالي

مازالت روبن مورغان، الفائزة بالجوائز الأدبية، والمنظرة السياسية والناشطة النسوية، ورئيسة تحرير مجلة مس، في واجهة الحركة النسائية منذ وقت طويل. كتبها الإبداعية تشمل القصة، والشعر، ومختارات كلاسيكية بعنوان الأخوات قويات.

ISBN: 2-84305-530-X
9 ... 055300

7401